

42-12

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



W. Arthur Jeffery

Arthur Jeffrey



تَكَاوُبُ

الْأَحْمِبَاءِ السَّنِيَّةِ

فِي

الْحُرُوفِ الصَّلِيَّةِ



بِإِثْنِ الْيَقِينِ

سَيِّدِ عَلِيِّ أَحْمَدِ سِرِّي

{ حقوق الطبع والترجمه محفوظه } *

(كل نسخة لم تكن مبصومة بختنا لاتعمد ومحاكم صاحبها)

(الطبعة الاولى بالطبعة العمومية بمصر سنة ١٣١٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين . الذي جعل تاريخ الاولين عبرة للآخرين . ومراة لكل عاقل فطين . أحمدته على ما اسبغ من الانعام والافضال . ومن به من الاحسان والنوال . ونصلي على رسوله ونبيه . وخيرته من خلقه وصفيه . سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ . والفضل الشاخ . والعلم الراسخ . صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين . وعلى الانبياء والمرسلين . ما طلع كوكب وبرز هلال . وعلى آله وصحبه وعترته أجمعين . صلاة وسلاماً دائماً متلازمين الى يوم الدين . أما بعد فانه لا يخفي على كل انسان أهمية الحروب الصليبية التي جرت في الاحيال الغابرة . وتحريضات البابوات والاكليروس أهل أوروبا بمحاربة المسلمين وما جرى للصليبيين من اغتصاب بلاد الشام بحجة تخليص القدس من ايدي الاسلام وما أعقب ذلك من اتحاد المسلمين واستخلاص البلاد من الصليبيين وما جرى لاولئك الصليبيين من المصائب والهلاك والفشل والارتباك

وحيث ان ملوك أوروبا الآن حصل منهم تعصب عنى دولتنا العلية حرسها الله بما يشابه ما فعلوه اولئك الغابرون حتى قال سلطاننا الاعظم و خاقاننا الانخم المحفوظ بالسبع المثاني (عبد الحميد الثاني) ان أوروبا تجاربتنا الآن حرباً صليبية تحت شكل سياسي وحيث اننا معشر قراء اللغة العربية لم يوجد بلغتنا كتاب يحتوي على الحروب الصليبية لمعرفة حقيقتها بل انا نجد البعض منها موجوداً في كتب التواريخ خالياً عن معرفة أسبابها والمحرضين عليها وكيفية نتائجها ولذلك باشرت تأليف هذا الكتاب وسميته (الاخبار السنوية في الحروب الصليبية) وقد عنيت في ضبط هذا الكتاب المشتمل على الثمانية حروب صليبية مبيناً كل حرب منها على حدته موضعاً أسبابها والمحرضين عليها وسفر عساكرها وما فعله الصليبيون من المحاربات مع الملوك المسلمين وقد أوضحت ايضاً تواريخ ملوك الاسلام المعاصرين لهذه الحروب الذين لهم شأن مع

الصليبيين من ابتداء سنة ٤٩٠ هجرية التي فيها دخل الصليبيون سوريا لغاية سنة ٦٩٠ هجرية التي انقضى فيها الصليبيون من سوريا بأسلوب بسيط خالياً من التعقيد والتطويل الممل

غير اني وان كنت لست من رجال هذا الفن ولكن طمعي في فضل حضرات أساتذته هو الذي شجعني على تقديم كتابي هذا بين أيديهم ليكون مشمولاً بنظرهم السامي واقتبالهم تأليني هذا بصدر رحب ونظرهم اليه بعين الرضا اذ العصمة لذني وحده معترفاً امامهم باني جمته من جملة كتب مطولة مثل تاريخ مصر الحديث وابن الاثير وابي الفدا والروضتين وتاريخ الحروب المقدسة الذي عربه مكسيموس مظلوم وتاريخ سوريا وغيره . ولكني أرغب الى من يعثر لي على خطأ ان ينبني اليه فاشكر سعيه وأثني عليه . أو يعذرني فان أعقل الناس أعذرهم للناس ولا أقول ان كل خطأ سهو جرى به القلم بل اعترف ان ما أجهل أكثر مما أعلم وما تمام العلم الا لله وحده الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

واني انضرع الى الله فاطر السموات والارض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العالمية القوة الابدية والنصر السرمدي ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة وأن يحفظ لنا حامي حماها جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازي (عبد الحميد الثاني) وان يحفظ لمصر في ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الحديوي (عباس حلمي باشا الثاني) وولي عهده المكرم محمد عبد المنعم ان ربي سميع مجيب

تحريراً بمصر القاهرة في شهر ربيع الاول سنة ١٣١٧ وشهر يولييه سنة ١٨٩٩

كاتبه

سيد علي الحريري





أسباب الحروب الصليبية

كان رجل فقير يسمى بطرس من أهالي بيكارديه إحدى مقاطعات مملكة فرانسبا قد انقطع للتعبد ولبس ثوبا رهبانياً من الصوف الحشن وأقام بمغارة يتعبد فيها ثم تركها وتوجه مع جماعة يقصد زيارة بيت المقدس فلما وصلوا الى المدينة المقدسة ووجدوها في حكم المسلمين صار بطرس يبكي ويتحجب ثم تقابل مع البطريرك سمرعان وتحدثا ملياً فاخبره البطريرك عن كيفية استيلاء المسلمين على بيت المقدس الذي هو قبر المسيح وان الحكم منهم طالما ظلموا قومه ثم تعانقا وهما يبكيان ووعد بطرس السايح البطريرك بأنه سيعمل جهده في حمل أهل أوروبا لتخليص بيت المقدس من المسلمين

ثم غادر بيت المقدس راجعاً الى روميه وهناك طلب مقابلة البابا أوربانس الثاني ولما مثل بين يديه وأخبره بما قاله بطريرك القدس وعده بالمساعدة التامة أمرأ اياه بالتوجه الى جميع بلاد أوروبا لاجل تحريض الاهالي على ذلك وخرج هذا الرجل من لدن البابا وأخذ يجول في بلاد فرانسبا وبعض ممالك أوروبا راكباً على بغل قابضاً بيديه على الصليب منادياً بحرب الصليب في الطرقات والازقة والكنائس والاديره منادياً بان مسيحي الشرق يقاسون العذاب الوائاً تحت حكم المسلمين مزكياً أقواله بوصفه جبل صهيون ومكان الجلجلة وبستان الزيتون وقد كان أحياناً يستصحب بعض مسيحي الشرق الذين كان يقابلهم ببلاد أوروبا

وكانت الناس تنقاطر اليه مزدحمين حوله مقبلين ارديته فارشين الاعشاب في الارض لير عليها متخاطفين أجزاء وشاح بغله بمنزلة ذخائر لهم ملقيه بقديس وني باكين معه على شقاء أورشليم (بيت المقدس) متعهدين بصرف موجوداتهم وخيراتهم وحياتهم لاجل انقاذها من الاسر والهوان

وفي أثناء ذلك أرسل ملك القسطنطينية المدعو اليكسيوس كومنينوس وفداً الى البابا اوربانس الثاني يطلب منه الاغاثة لان الاتراك أغاروا على بلاده وكان قد ارسل وفوداً الى ملوك اوربا بخصوص ذلك أيضاً طالباً منهم المبادرة لحمايته مقررراً لهم في نظير ذلك جميع ما تجزأ من مدينته

❖ مؤتمر مدينة بلاصانس بايطاليا ❖

ولما تحقق جناب البابا من استمرار دعوة بطرس السايح أمر بانعقاد مؤتمر بمدينة بلاصانس حيث اجتمع مئتا اسقف مع رؤساء أساقفة وأربعة آلاف اكليريكي وثلاثون الفاً من العلمانيين وهذا المؤتمر انعقدت جلساته في البريه في مكان سهل واسع بالقرب من المدينة وكانت أعين الشعوب متجهة الى وفد الملك اليكسيوس متعجبين لملاصهم الفاخرة الشرقية وصاغين الى أصواتهم الملتمة المعونة من ملوك المغرب بان يوجهوا قوة أسلحتهم لمعاودة القسطنطينية ولانقاذ بيت المقدس وشرع البابا بتحريرى الجميع باتحاد قواهم واتفاق عزائمهم نحو هذه القضية المقدسة فقبلوا جميعاً الاوامر واعدين بانهم بعد أيام قليلة يجتمعون تحت بيارق الصليب لذهابهم الى بلاد فلسطين للحرب المقدسة باتفاق عام بينهم

ثم لم تمض أيام قليلة على هذا المؤتمر حتى سكن ثأرهم لانه اعتراهم الخوف من ترك بلادهم وأوطانهم والذهاب الى بلاد وأقاليم مجهولة عندهم وهكذا لم تحصل ثمرة من المؤتمر لانه لم يتقرر فيه تحديد كيفية محاربة المسلمين ولان البابا لم يبق في استطاعته تحريض وحث الشعوب التي حوله لانقسام أهالي بلاد النمسا وقام فريق منهم ضد الكرسى الرسولي . وأهالي الاقاليم الشمالية كانوا منشغلين باهتمام في صد البربر عنهم وكانوا قليلي الميل الى هذه الحروب ومملكة اسبانيا كانت تحت حكم المسلمين . وبلاد الانكليز كانت وقتئذ ضعيفة محتاجة لحماية بلادها التي فتحها ملكها غوليالموس بعساكره الموجودة في ولايته ولذلك لم يجد البابا أمامه غير بلاد فرانس

❖ مؤتمر مدينة كليرمون بفرانس ❖

فاجتاز البابا بلاد ايطاليا ودخل مملكة فرانس وعقد مؤتمراً في مدينة كليرمون في شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ فثقظرت اليه جميع الشعوب من أمراء ورؤساء كنائس ووفود ملوك وغيرهم حتى امتلأت المدن والقرى حول تلك المدينة بوفود الشعوب وكانت الحيام والمضارب منصوبة في الحقول لماوى الكثيرين منهم وكان ذلك في فصل الشتاء

والبرد شديد الزمهرير وفي الجلسة العاشرة من هذا المؤتمر اجتمعوا في قصر المدينة وكان بطرس السايح جالساً بجانب البابا وهو الذي فتح الخطاب معدداً الشدائد التي يعانها أهالي بيت المقدس قائلاً انه شاهد هناك المسيحين مقيدين بالسلاسل الحديدية وانه نظر قبر المسيح محتقراً مهاناً وان زواره يتكبدون الذل ثم قام البابا وخطب قائلاً (أيها المسيحيون ان تلك الارض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا وذاك الجبل الذي عليه تألم ومات من أجلنا وذلك الضريح الذي تنازل لأن يدفن فيه ضحية للموت كلها أضحّت ميراثاً لشعب غريب وغاب كل بهاءها الاصلي وهياكلها قد خربت وأشعة نورها الساطعة تحولت الى ظلام حالك وهي تستحق الندب الشديد والبكاء . ولم يعد لله من معبداخل المدينة المقدسة الخصوصية والمشرق الذي هو المهد والينبوع المقدس لايماننا لم يعد مشهداً الا لاقتحارات أعمال المسلمين وجهات أسيا الاكثر ثروة وغناء قد التحقت بالظلام الى الكره والفقر المهين . وانطاكيه وافسس ونيقية قد صارت مدن الاسماعيليين والأتراك قد مدوا ولايتهم الى حدود هالبوتوس لابل الى أبواب القسطنطينية . ومن هناك ذراع هؤلاء الشعوب الشديد يهدد بان يستولى على كل ممالك الغرب)

ثم ان البابا وجه خطابه الى الحاضرين من وفود الطوائف قائلاً لهم هل ان مشهداً مثل هذا يترك قلوبهم بارده وغير حساسه . ثم وجه خطابه الى أهل فرانساً قائلاً أيها الطائفة الفرنساوية العزيزة لدى الله . ان كنيسة المسيحين قد وضعت رجاها مسنداً على شجاعتكم فانا الذي أعرف جيداً تقواكم وكفائتكم بالشجاعة والغيرة . وقد اجتزت الجبال الالبية وحضرت لكي انذر بكلام الله في وسط بلادكم . وهكذا أخذ يحثهم مذكراً اياهم بشجاعتهم القديمة وما أتم كلامه حتى وضع ضباط العساكر أيديهم على سيوفهم وأقسموا بان يبادروا الى انقاذ المسيحين

فلما تأكد البابا من نجاح مرغوبه اردف خطابه بقوله . لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الاسلام تلك الاسلحة التي اتخذتموها حتى الآن ضد بعضكم لأخذ الثار لانفسكم من أبناء جنسكم عن بعض اهانات الحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هي لاخذ الثار عن الاهانات ضد البشر بل عن الاهانات الصادرة ضد الله . وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي أقاليم أسيا مجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى فالتخذوا بحجة القبر المقدس . وخلصوا الاراضي المقدسة من أيادي المحتلسين وأتم أملكوها لذواتكم فهذه الارض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً الخ . ثم قال

يأيها الشجعان اذهبوا متسلحين بسيف مفتيحي البطرسيه واكتسبوا بها لذواتكم
خزائن المكافات السماوية الابديه . قاذأ أنتم انتصرتم على أعدائكم فالملك الشرقي يكون
لكم قسما وميراثا . وأما اذا قتلتم فلکم المجد لأنكم تموتون في المكان الذي فيه مات
يسوع المسيح . وهكذا صار يخطب ويحث

ثم اخرج علامة الفدا المقدسة (صليب الخلاص) وقال احمولوه على عواتقكم أو
على صدوركم وليشرف فوق أسلحتكم وفي روؤس سناجقكم (أي اعلامكم) ثم قام
الكردينال غريغوريوس تالياً بصوت عال صورة اعتراف عام وعند نهايتها مد اليابايديه
ومنح الجميع البركة

ثم قام ادهار دي مونثيل اسقف مدينة بوي وطلب الى البابا الاذنه بان يكون أول
من يجاهد في سبيل الله ثم اسلم من يد البابا سنجق الصليب فاتبعه عدد عظيم من رؤساء
الكنائس ومن القواد المختلفي الرتب متحالفين على الحاربة وكذلك الامراء استلموا
من البابا سنجق صليب آخر ثم ان جميع الذين كانوا حاضرين في هذا المجمع علقوا على
صدورهم صلباً احمرأ واتخذوا لنفسهم اسم (صليبين) كما أنهم لقبوا الحرب التي
شرعوا فيها (حرب الصليب المقدس) وأظهر البابا اغتمامه من عدم مسيره بشخصه
أمامهم وقال انه اناب عنه اسقف بوي المتقدم ذكره

وقرر المجمع أيضاً عدة امتيازات للصليبين كاعنائهم من دفع العوايد وغيره وقرر
اشهار الحرب على بلاد فلسطين . ولما عاد الاساقفة الى ابرشياتهم اجتهدوا في صنع
سناجق الصلبان وكانوا يقدمونها الى جماهير المسافرين الى هذه الحرب
واخذ البابا أوربانس يتنقل في بعض أقاليم فرانسأ وعقد الجمعيات في مدن روان
وطورس ونسيماس باذلا عناية في نجاح هذه الحروب وامتدت هذه الدعوة الى البلاد
الاورباوية الاخرى فاخذ الناس يرسلون أولادهم مع العساكر من الانكليز والنمسا
وايطاليا واسبانيا .

ومما ساعد على ذلك أيضاً انه حصل قحط ببلاد أوروبا عدة سنوات مترادفه
نتج عنه فيها مجاعة عظيمة وكثرت اللصوص وصارت مدنهم وقراهم لاتحملهم فلذلك
بادروا نحو أراضي المشرق المنحصبه التي يشير اليها الكتاب المقدس بقوله تدر لناً وعسلا
وخصوصاً لأنهم سمعوا عن كثرة غناء بلاد آسيا وخزائنها فانحمت بلادهم أمامهم كأنها
منفي وصار المشرق أمامهم كأنه وطن وكان للرؤساء يومئذ غايات فدعوا الناس الى
الغزو فبادروا اليه جاهلين ما وراء ذلك واجتمعوا ليسيروا نعاجا الى الذبح في بلاد غربيه

﴿ الحروب الصليبية الاولى ﴾

كان الجمع المتعقد في مدينة كليرمون قد ضرب ميعاداً لسفر العساكر الصليبية الى الحرب عهد السيد في ١٥ اغسطس سنة ١٠٩٦ وعند حلول شهر مارس أخذوا باعداد العدد ونصب الخيام وتجهيز الخيول والبغال والاسلحة والسناجق قتألفوا كتائب وجيوشاً وساروا على غير ترتيب ولا نظام وكان فيهم من يحمل المزاريق ومنهم من يحمل الحراب وكثيرون عزل بلا سلاح وأكثرهم مشاة ومعهم عائلتهم من نساء وأولاد وكانوا بلا قائد يسير أمامهم لان الامراء والرؤساء الذين كانوا يلزمهم ان يقودوهم أعطوهم ميعاداً للمقابلة في القسطنطينية فسارت الجيوش وأمامها قائدها بطرس السايح راكباً بغلته ثم انه قسم جيشه الى قسمين أحدهما سار بقيادة والثاني عين عليه أحد ضباط فرنسا المسمى ولتر أو (غوتيار)

وسار قسم غوتيار مجتازاً بلاد فرنسا ثم بلاد المانيا لياتي هنكاريًا طريقاً للقسطنطينية عاصمة الروم فلما تبطنوا بلغاريا قل زادهم فطفقوا يعيشون في البلاد يهبون ويسلبون وهم في أمن مما يحذرون حتى بلغوا بلغراد العاصمة فهاجموا ولكن الاهلين نشطوا لمقاتلتهم وقتلوا منهم كثيرين وبددوهم وكان ما فعلوه في أهل بلغاريا شاهد عدل على ان مقصدهم بمحاربة الاسلام ليس الا النهب والسلب وان كان ظاهره لغايات دينية يأتى السقي أن يعترف بها ثم ان ولتر المذكور جمع باقي جيشه وخرج من بلغاريا الى القسطنطينية التي بلغوها بعد شهرين بمسد ما قاسوا اتعاباً ومشقات وهناك الملك اليكسيوس أقامهم عنده لحين حضور الآخرين

وسار الجيش الذي بقيادة بطرس السايح ولما وصل الى حدود هنكاريًا بلغه ما جرى للقائد غوتيار فحزن لذلك وعزم على الانتقام فهجم على مدينة ساملين وقتل أربعة آلاف من أهاليها . ولما بلغ خبر هذه المقتلة اهل هنكاريًا استعدوا لقتاله بقيادة ملكهم لولومان . وعند وصول جيش بطرس اليهم هجموا على هذا الجيش الصليبي وبددوه وقتلوا أكثره ولجأ بطرس الى الفرار هو ومن نجا من القتل ودخلوا بلاد بلغاريا وهناك عند مدينة ينصا هجم عليهم البلغاريون وشتوهم وهكذا ساروا هاربين الى مدينة القسطنطينية

ثم انه سار أيضاً جيش صليبي آخر من بلاد النمسا تحت قيادة غوشالك الكاهن بالاطنيات يتبع بطرس السايح وأخذوا يعتمدون على الاهالي في مسيرهم فعوقبوا بمثل ما عوقب به الذين تقدموهم

ثم سار أيضاً جيش صليبي رابع من بلاد ريزوموسيل تحت رياسة الكونت اميلوك وهذا الجيش لم يبرح وطنه الا بعد ان قتل جميع اليهود ظلماً وعمل أعمالاً فاحشة لا تحتملها الانسانية التي يدعون بزحفهم لتجدتها ولما وصل الى هنكاريا هجم عليهم الهنكاريون وقتلوا معظمهم وهرب الباقي الى القسطنطينية.

﴿ دخول الصليبيين اسيا وهلاك هذه الجيوش في نيقية ﴾

لما وصلت بقايا جميع الجيوش المذكورة الى مدينة القسطنطينية اجتمعت لدى الملك اليكسيوس كومنينوس وكان عددهم مائة الف محارب نقلهم بمراكبه من القسطنطينية الى وراء البوسفور وهناك تفرقت كلمتهم واختلفوا في أمرهم فلذلك تركهم بطرس ورجع الى القسطنطينية ثم بلغ أمرهم الى قليسج ارسلان بن سليمان بن قطلمش صاحب قونية وبلاد الروم فجمع عسكر الاسلام واحتاط بهم من كل جهة فاعمل المسلمون فيهم السيف حتى أفنؤهم عن آخرهم وكان ذلك بالقرب من مدينة قونية ولم ينج منهم بالهرب الا قليل وكذلك قتل القائد ولتر او (غوتيار) الفرنساوي مجروحاً سبعة جراح في فخذه وهكذا لم يبق من هذه الجيوش التي نقلت من اوروبا الى اسيا في سهل قونية الا أجسام باليه من طوائف مختلفة وهذه كانت النهاية التعيسة لعساكر أخلاقها رديئة كما قاله المؤرخ (برزدوس الحازن الفرنساوي)

وأما بطرس السابج فانه لما رجع الى القسطنطينية أخذ يشكو بمرارة من الصليبيين لعدم اطاعتهم او امره ولذلك صار يسميهم لصوصاً وقد أقسم بأنه لا يفتر عن عزمه حتى يشاهد حروباً صليبية أخرى .

﴿ الحملة الثانية من الحروب الصليبية الاولى ﴾

لما بلغ سكان أوروبا ما حلّ بالحملة الاولى شملهم الحزن والغم الشديد واقتكروا في الانتقام واعتمدوا على السفر الى البلاد الشرقية تحت رئاسة غودافرو دي بوليون دوك دي لورين السفلى المولود في برانت وكان هذا الرئيس مبعجلاً معظماً عندهم شجاعاً ذا رأي ومعه عدد وافر من قواد فرنسا وبلاد النمسا كأوسطايكوس (من بلونيا) وبودوين واخوته وأولاد عمه بودوين روبروك وبودوين حاكم هانوت وعزنييل حاكم دي هاش وجرارد وبطرس دي طول وهووكر دي سانبول وابن المجلران دوك دي لوران وساروا جميعاً برأ قاصدين القسطنطينية وكان مسيرهم من بلاد المانيا بغاية الادب والقناعة ولذلك لم يتعرض لهم احد في طريقهم

وسار جيش آخر عن طريق ايطاليا تحت رئاسة هو كز حاكم فرمندواس أخى ملك فرانساً ومعه روبرتوس الملقب بكورتهوز حاكم ولاية نور منديا . وروبارتوس الذى والى مقاطعه فلاندره الملقب بحربة المسيحيين . واستفانس دالى بلواز وكاتريز الذى كان معتمداً فى ديوان شورى الحرب لفظته وسار هذا الجيش متأخراً عن سابقه فاجتاز جبال الالب نحو بلاد ايطاليا ولما وصلوا مقاطعة لوكا قابلهم البابا اوربانس الثانى وباركهم ومن هناك ساروا الى بوليا يقصدون سفرهم بحراً

ومرورهم بايطاليا الجاء الايطاليين الى السفر غيرة وبمقدمتهم بوهيمند أمير تارانت فاشترك فى المسير مع الجيش البحرى وكان بقيادته اهالى بوليا وغيرهم من بلاد كلابريا وسيسيليا ومعه ريكاردوس أمير سالارنوس وأخوه رانولف وروبارتوس دي هوس وروبارتوس دي سوروفال وهى مفرو دي مونتيك

وسار جيش ثالث من اقليم فرانساً الجنوبي تحت رياسة ادھمار دي مونتيل (اسقف بوى) وبقيادة رايوندى كونت دي سات ودي طولوز وكان ادھمار هذا قد اقامه البابا رئيساً كئناسياً على الجيوش الصليبية وهو اول من استلم سنجق الصليب وكان هذا القسم من اهالى غاز كونيا ولانكادوك وليموزين وافرنيا والبروفانس وبصحبتهم ايضا هرقل كنت دي بولنيك وغوليافوس دي سارين وروجار كونت دي فواكس وغولياموس سيد مونت بلير ورايموندى لات وريمون كونت دي اورانج وغيرهم كثيرون وأساقفة ابنت ولورين واورانج مع رئيس اساقفة توليد وكانوا حملة انصلمان وكان مسير هذا الجيش من جبال الالب وبلاد لومبارديا والفربول متقدماً نحو حدود المملكة اليونانية بمشقات عظيمة من اقليم دالماسيا

﴿ ماجرى للصليبيين فى القسطنطينية ﴾

كان الملك اليكسيوس ملك القسطنطينية قد ارسل وفوداً الى ملوك أوروبا يستغيث بهم لمساعدته ضد المسلمين ولما بلغه قرب حضور هذه الجيوش الكثيفة خاف منهم على بلاده وندم على ما فرط منه ثم ابتدا بتدبير الحيل لكيد الصليبيين وكان الجيش البحرى برئاسة هو كز حاكم فرمندواس اخى ملك فرانساً قد قرب ولكن هذا القائد غرق مركبه على شواطئ الايروس فخرج سالماً فارسل اليه حاكم دوراتسيوس احد عماله لاجل ان يهتبه بالسلامة ولما قرب للقسطنطينية بالاكرام والاحتفال امر بسجن هذا القائد بصفته أسيراً ظاناً انه بحبس أخى ملك فرانساً عنده بصفة رهينة يأمن غائله الجيوش القادمة

وكان غودافرو رئيس الجيش البري الاول قد بلغ مدينة فليوبوليس وسمع
 بأسر اخي سلطان فرانسوا وحبسه فاغتاظ غيظاً شديداً وأخذ يعامل اهل البلاد
 بصفة اعداء محاربين فقرأ أكثرهم الى القسطنطينية للاحتماء بها ولما علم الملك بما
 جرى لبلادده خاف خوفاً شديداً وارسل يطلب من قائد الحيوش الصليبية الكف
 عن القتال متعهداً له بما يطلب وانه يفك اسر المسجون عنده ولذلك رضي قائد
 الحيوش وكف عن الحرب وسار قاصداً القسطنطينية بصفة سلميه
 اما الملك الكيسوس فانه احضر هو كز لديه واخذ يعتذر اليه ويهاديه تملقاً
 حتى انه جذب قلبه وطلب منه القسم على الطاعة له وحفظ الامانة بالخضوع
 لاوامره وبعدم الانحراف ضده وبذلك اشترى عتقه من الاسر وانطلق الى الحيوش
 الصليبية فعند اجتماعه بهم أخبرهم بقسمه فلما علموا بانه يلزم الاطاعة بموجب هذه
 الشروط لملك غريب اغتاظوا غيظاً شديداً ورفضوا هذا الامر معتمدين على
 مقاومته

وهذا الرفض أغضب الملك اليكسيوس الذي عزم على ان يجعلهم يطيعونه
 غصباً بواسطة الجوع ولذلك أمر بقطع العلائق مع الحيوش الصليبية وأمر بمنع
 الاهالي من بيع المأكولات لهم غير ان هذا الرأي لم يأت بفائدة لان القائد
 غودافرو اُخذ مع باقي رؤساء جيشه وقرروا الهجوم على جميع القرى وأخذ
 ما يوجد فيها من القوت وهكذا كانت الحيوش الصليبية تهجم بشراسة كلية على أهل
 القرى وتهدم موجوداتهم حتى امتلأت مضاريمهم من كل نوع . وحيث انه كان
 قد قرب عيد الميلاد فاجلالا له كفوا عن القتال ودارت الخابرة بأمر الصلح الذي
 تم على ان الملك يقدم لهم المؤونة

وكان بوهموند أمير تاراننا قد سولت له نفسه محاربة القسطنطينية والاستيلاء
 عليها ولذلك زحف نحوها بعساكره ولما قرب من مدينة دورانسيوس بعث
 رسولا الى غودافرو القائد العام بما عزم عليه وبعزمه على الاتحاد معه غير ان
 هذا القائد رفض هذا الرأي ووجه عليه . ولما علم ملك الروم بما دبره بوهموند
 اجتهد بان يكتسب صداقة غودافرو ومحبة الامراء الذين برفقته لينجو من الغائلة
 ولتبع الريبة به قد أرسل ابنه يوحنا الى معسكر الصليبيين كرهن وحينئذ آمن
 غودافرو ودخل القسطنطينية ونزل في قصر الملك واعجب غودافرو وأمرأؤه
 بالقسطنطينية وبنائاتها الفاخرة وزيناتها كما أعجب الملك وأهل المدينة بحسن ملابس

الامراء الصليبيين الفاخرة المزينة بالذهب والماس ثمان الملك قابلهم ببشاشة تامه معانقا ايهم الواحد بعد الواحد وكانوا ينحنون أمام العرش الملوكي الشرقي ويسلمون جاثين على ركبهم باحترام ثم خاطبهم الملك قائلاً أرغب منكم يا حماة المسيحيين ان تحموا بلادى من الاعداء فوعده هؤلاء الامراء بان يردوا له جميع البلاد التي كانت تحت حكمه وبان يعطوه كل ما يستولون عليه وفي نظير ذلك حلف الملك لهم بانه يسعف الصليبيين بكل الوسائط الممكنة له ودليلاً على ذلك أهدهم هدايا فاخرة وأصدر أوامره الى جميع رعاياه بان يقبلوا الصليبيين بالموودة ويقدموا الى مضاربهم المؤن وبهذه التصرفات حصل السرور للطرفين ولكن الملك كان الخوف لم يزل في نفسه فلذلك أشار على غودافرو بان يكون مسير الجيش الى آسيا من وراء البوسفور وهكذا سافرت العساكر الصليبية من طرق وعرة أضاعت فيها زمانا طويلا ذهب بحماسةهم .

❖ الصليبيون في آسيا واستيلاؤهم على قونية ❖

لما انتقلت العساكر الصليبية الى آسيا ساروا في سهول الاراضي الشرقية التي كانت مخضرة يالعة بالآثمار في زمن الربيع فزحفت الى مدينة قونية عاصمة بلاد الروم وكانت تحت حكم قليج ارسلان بن سليمان وكان شجاعاً عاقلاً فلما بلغه خبر قدوم هؤلاء الصليبيين جمع عساكر كثيرة لرد هجماتهم وكان من جمعهم من العساكر يبلغ مائة الف وأما عدد الصليبيين فكان مائة الف من الحيلة وخمسة الف من المشاة وكانت قونية محاطة بجبال عالية ومحاطة من جهتها القبلى والغربية ببحيرة اسكانيوس فلما بلغت الحياوش الصليبية حاصرتها من كل جهة ونصبوا مضاربهم حولها وكانت كل طائفة منهم على حدة تميزاً لها ولها سنجق صليبي وبعد حصار المدينة عدة أيام خرج قليج ارسلان المذكور بعساكره من جهة الجبال مهاجماً الصليبيين وكانت هجماته المذكورة على جيش غودافرو القائد العام وعلى جيش رايوندي طولوز حتى انه قهرهم الى آخر مضاربهم وحينئذ هجمت عليهم باقى طوائف الصليبيين واشتد القتال الى آخر النهار وانهمزمت العساكر الاسلامية الى الجبال وكان ذلك في سنة ٤٩٠ هجرية .

وفي صباح اليوم الثاني لهذه الواقعة هجم قليج ارسلان بعساكره على الصليبيين واستمروا في قتال عظيم وقد أظهرت العساكر الاسلامية من الشجاعة والحيل الحربية ما أدهش الصليبيين كما رواه مؤرخوهم ولكن الكثرة تغلبت على الشجاعة فالتصر الصليبيون على المسلمين في هذا اليوم وهربت عساكر الاسلام الى الحدود والاستعداد

للمهاجمة والمدافعة وكانت المدينة لم تزل محصورة بعساكر الافرنج الذين ركبوا عليها المنجنيقات وأخذوا يرشقونها تباعاً بسرعة الى ان هدموا سورها وكانت العساكر الاسلامية من داخل المدينة ترميهم بنبال مسمومة وكانت ترمي أيضاً الصليبيين الذين كانوا يطلعون فوق السور بحبال مرشوفة بكلايب حديد وبذلك قتلوا كثيرين من الصليبيين وكان يوجد رجل شركسي كل يوم يظهر فوق السور ويرمي الصليبيين بالنشاب الذي كان يصيهم ويهلكهم حتى أزعجهم وفي يوم من الايام عند ظهور هذا الشجاع على السور جاءت نبله من يد غودافرو فدخلت صدره فاماتته في الحال وكانت المدينة لم تزل في حصار لان جهتها القبليّة والغربية كانت في مأمن من الصليبيين ثم رأوا البحيرة قد امتلأت بمراكب الصليبيين الواردة من القسطنطينية وحينئذ وقع الرعب في عساكر الاسلام وفرح الصليبيون وشددوا الحصار وكانت زوجة قليج ارسلان داخل البلد فخرجت هاربة مع ولديها في مركب صغير فشعر بهم الصليبيون ولحقوهم حتى قبضوا عليهم ولما بلغ هذا الخبر الى عساكر الاسلام خافوا وكان الملك اليكسيوس قد أرسل فرقة من جيشه بحجة الصليبيين لحصار قونيه ولكونه لم يزل خائفاً منهم أرسل فرقة أخرى سرية تحت رئاسة أحد قواده المسمى بوطوميت لاجل الاستيلاء على قونيه لتكون له فهذا القائد عمل كل جهده حتى دخل المدينة وهناك اجتمع مع الامراء المسلمين وعرفهم بان هؤلاء الصليبيين اذا امتلكوا المدينة يقتلونهم عن اخرهم واستحسن لهم ان يسلموها الى الملك اليكسيوس وفعلا تم هذا الاتفاق .

وأما الصليبيون فكانوا قد عزموا على الهجوم على المدينة بكل قوتهم لاجل استيلائهم عليها فما شعروا الا وسناجق الملك اليكسيوس على أسوار المدينة فانبعثوا لذلك واشتدوا غيظاً من معاملة هذا الملك المخادع خصوصاً لكونه أمر بالافراج عن زوجة ملك المسلمين وولديها وأحسن معاملة الاسرى المحبوسين ولكن الصليبيين كتموا غيظهم وكان مدة حصار قونيه ما ينوف عن الخمسين يوم وأقاموا مدة يسيرة حول مدينة قونيه للاستراحة وبعدها قسموا الجيش قسمين سارا بين القسم الاول والثاني مسافة قليلة واجتازوا جبال أفريقية الصغيرة تهبين في الوديان قاصدين سوريا ولعدم معرفتهم الاراضي حصل لهم مشقة عظيمة وخصوصاً لعدم المياه وحرارة الجو وكان القسم الاول تحت رئاسة بوهيموندوتانكريد ودوك زرمنديا انتهى الى وادي

مخضب عند نهر غورغوني وأقام مضاربه للاستراحة وفي صباح اليوم الثاني وجدوا غباراً قد علا وثار وانكشف عن عساكر الاسلام بقيادة ملكهم قليش أرسلان فاستعد هذا القسم للمدافعة فجمع الاولاد والنساء في القلب والعساكر المشاة محتاطة بهم وأما الخيالة فالتقسوا ثلاث فرق فاحدهم كان برئاسة تنكريد والثاني برئاسة دوك دي نورمنديا والكونت دي شاتريز والثالث كان برئاسة بوهيموند أمير تاراتنا رئيس هذا القسم . ولما تقاربت العساكر الاسلامية اصطفت صفوفاً وهجمت على الصليبيين هجمة شديدة ثم تكاثر عليهم الصليبيون وزحزحوهم عن مواقعهم ثم انهم ارتدوا عليهم وأخذوا يرمونهم بالنشاب حتى ان خيولهم كانت تتساقط من الجراح وهجموا بقوة على الصليبيين حتى بددوهم واستولوا على مراكزهم وأخذوا منهم نساءهم وصاروا يقتلون فيهم قتلاً شديداً حتى أفنوا أكثرهم وقتل غويليوم أخوتنكريد وغيره من الامراء مع ما أظهره من الشجاعة خصوصاً بوهيموند الذي كان هجم على ملك المسلمين يريد قتله ولكن الملك هجم عليهم وأختهم بالجراح والقتل ثم ان احد قواد الصليبيين المدعو روبرتوس دوك دي نورمنديا استجمع بعض عساكره وهجم على المسلمين وتبعه تنكريد وريكارد أمير سالرنو واسطفانوس كونت دي بلواز وباقي القواد واستخلصوا منهم النساء وصارت الطائفتان في قتال ونزال وهجوم ودفاع الى ان كل الصليبيون وفروا هاربين وحلبهم عطش شديد من ارتفاع الحرارة وهكذا كانت الدائرة على الصليبيين

ثم علا الغبار وبان عن عساكر القسم الثاني للصليبيين الذي كان تحت رئاسة غودافرو دي لورين القائد العام ورايموند وغيره الذي بلغهم خبر القسم الاول فاسرعوا بالمسير حتى لحقوهم على آخر رمق من الحياة وحينئذ اصطفت عساكرهم قلب وجناحين فكان على الميمنة غودافرو وكونت دي فلاندي وكونت دي نافار وعلى الميسرة بوهيموند وتنكريد وروبارتوس دي نورمنديا وكان على القلب رايموند وحملوا على عساكر المسلمين حملة شديدة انتهت بفرار العساكر الاسلامية الى الجبال واستولى الصليبيون على مضاربهم وأخذوا ذخائرهم وقد اشتهرت هذه الواقعة بواقعة روبله ونهر غورغوني

ثم سار جميع الصليبيين جيشاً واحداً قاصدين سوريا مارين في الجبال والوديان المعطشة وكان قليش أرسلان قد سبقهم ببقايا جيشه يحرق المزروعات والسكرام لثلا يجدوا شيئاً يأكلونه وهكذا حصل فان ما كولاتهم قد فرغت وصاروا يأكلون

البقول الناشفة التي يلتقطونها من الارض وعدموا المياه بالكليّة حتى ان البهائم ماتت منهم في الطريق وكنت تجد الرجل منهم ماشياً على أقدامه حاملاً أمتعه على ظهره وكذلك آلات الحرب فان العساكر حملتها على ظهورها وكاد العطش يهلكهم لانه كان يموت منهم في اليوم الواحد نحو الخمسة من العطش والجوع وكذلك قد عدم منهم ما كان معهم من كلاب وخنازير وطيور كاسرة وساروا كذلك الى ان وصلوا الى وديان بسيديا وأقاموا للاستراحة وهم في غاية الظمأ . وكان لاجدهم كلب فغاب عنه يبحث على ماء ثم رجع الكلب وجسده مبلول فعلموا بانه وجد ماء فاتبعوا الناحية التي رأوا الكلب عاداً منها وهناك وجدوا نهراً جارياً ولشدة عطشهم انكبوا على النهر يشربون بغير حساب حتى ان البعض منهم مات من ذلك والبعض مرض ثم ساروا في طريقهم مارين ببلاد الارمن

﴿ وصول الصليبيين الى طرسوس واختلافهم ﴾

ففي أثناء مسير الصليبيين حصلت لهم بعض مصائب منها ان غودافرو كان خرج من جيشه للترهة وفيما هو سائر اذ سمع صوت رجل يستغيث من خلفه فالتفت اليه فوجده رجلاً صليبياً حاملاً مناعه على ظهره ويتبعه دب هائل فنزل هذا القائد عن فرسه لاجل ان يقتل الدب فسل سيفه وأراد الهجوم على الدب الذي بادنه واراد ان يفتسه ووقع القائد تحته ثم انتصب قائماً ورفع يده بالسيف يزيد قتله فخرجه السيف جرحاً بليغاً ثم لحقه احد القواد وقتل الدب وحمل غودافرو الى المعسكر ولكن لكثرة الدم الذي سال منه حصل له مرض شديد كاد يهلكه

ومنها انه كان انفصل من الجيش الصليبي قائدان وهما تنكريد وبودوين أخو غودافرو لاجل ان يلحقوا عساكر المسلمين الهاربين وهكذا ساروا مفترقين حتى وصلوا مدينة طرسوس وكان السابق تنكريد وكان أهل المدينة أكثرهم من المسيحيين وحين سمعوا باخبار الصليبيين فرحوا بهم ولما وصل اليهم تنكريد ففتحوا له ابواب المدينة التي دخلها بدون حرب ووضع على أسوارها سناجقه ثم وصل بودوين الى المدينة ووجد اعلام تنكريد عليها فحصل له غيظ شديد وأمر برفع علم تنكريد ووضع علمه ولذلك حصلت بينهما مخاصمة وأخيراً قررا ان يجعلا الرأي في ذلك لانتخاب أهل البلد ولكون تنكريد هو أول من وصل الى البلد ودخلها فلذلك انتخبوه ثم ان بودوين هدهم وخوفهم بالمقاب ففتحوا له أبواب البلد فطرح علم تنكريد في الحندق ووضع علمه على السور فحصل هرج عظيم بين

الحيشين اي الجيش الايطالي الذي تحت قيادة تنكريد والحيش الفرنساوي الذي بقيادة بودوين وكادوا ان يقتلوا لولا ان تنكريد كتم غيظه وطلب من جيشه المساحة والكف عن المحاصرة والمقاتلة ثم اخذ جيشه وسار الى ان وصل الى مدينة موبسواسطيه وكان بوهيموند قد أرسل شرذمة من عساكره تبلغ الثلثائة نفر في أثر تنكريد فلما وصلت هذه الشرذمة الى طرسوس ووجدوا علم بودوين طلبوا الميتم داخل المدينة وفي الصباح يرحلون الى تنكريد فابى بودوين ميتمهم داخل البلد ولذلك نصبوا خيامهم خارج البلد وباتوا هناك وفي منتصف الليل هجمت عليهم جماعة من الاتراك فأفوتهم عن آخرهم ولما بلغ هذا الخبر الى داخل المدينة اجتمع المسيحيون سكان البلد واتقضوا على المسلمين وذبحوهم بدون شفقة وأما بودوين فانه خاف من هذا الحادث الفظيع خصوصاً لكونه هو السبب في ذلك فابقى بطرسوس جانباً من عساكره لاجل حمايتها وأخذ الباقي ساراً في أثر القائد تنكريد الى ان بلغ مدينة موبسواسطيه ولما اقتربت الجيوش من بعضها وكان خبر مقتلة الثلثائة ايطالي بلغ جيش تنكريد طلبوا محاربة بودوين فبنعهم قأدهم فوسعوه شتاً وسباً ونسبوا له الجين وأخيراً التحم الجيشان واقتتلا وانجحت الواقعة عن انهزام تنكريد وجيشه لقلته وكثرة عدوه ودخلوا المدينة

ولما أصبح الصباح تناسوا ما جرى لهم بالامس وطلبوا الصلح الذي تم بينهم بمعاينة تنكريد وبودوين بعضهما امام جيوشهم ومخالفاماً ثم ان تنكريد صار يضع يده على البلاد التي يمر عليها حتى بلغ حكم اسكندرونه ومنها رجع الى المعسكر العام ظافراً منصوراً غانماً أسلاباً كثيرة فاقبله الجيش العام بالاكرام والاحترام وهناؤه وأما بودوين فانه لما وصل الى المعسكر العام قوبل بفتور ولاموه على أفعاله خصوصاً أخوه القائد العام فانه أنبسه خصوصاً لقتل الشرزمة البادية الذكر وكان بودوين قد تصاحب مع أمير أرمني اسمه فانكراس الذي كان دائماً يصحبه مفضلاً له عدم المسير مع الصليبيين والاستقلال بمملكة أسوية مخبراً اياه بان البلاد الكائنة على شطوط نهر الفرات مخصبة جداً وأكثر سكانها مسيحيون والجميع مستعدون لتسليمها الى من يحضر من قواد الصليبيين ولذلك عزم في نفسه على انفصاله من الصليبيين والاستقلال بهذه البلاد وانتهز فرصة لومه من الجيش وترذيله وانفصل عنهم ومعه ألف و ٥٠٠ عسكري مشاة ومائتا فارس

﴿ اخبار بودوين على شطوط نهر الفرات ﴾

لما انفصل بودوين من الصليبيين وصحبته انكراس الارمني لم تدم صحبتها لان انكراس الارمني لما وجد ان بودوين قد امتلك مدينة طورباسال ومدينة رافاندال واختص بهما لنفسه يئس وانفصل عن بودوين الذي كان كلما يصل الى بلد من شطوط نهر الفرات كانوا يقابلونه ويعظمونه حتى انه امتلك أكثر البلاد بدون حرب وترك بعض عساكره حفظاً لسيادته الى ان وصل الى مدينة (الرها) التي هي كانت تحت حكم أمير يوناني اسمه ناودورس من لدن ملك الروم وكان يدفع الجزية في كل سنة الى المسلمين . ولما بلغ سكان هذه المدينة قرب وصول الصليبيين اليهم فرحوا فرحاً شديداً وخرجوا للملاقاة بودوين ومن معه (لان الباقي معه من عساكره كان مائة خيال فقط) متوسلين اليه ومحلفينه بالدخول الى مدينتهم وحمايتها من المسلمين فهذا القائد قبل مطلوبهم وسار معهم الى ان دخل المدينة

وكان الامير ناودورس حاكم المدينة لا يريد دخول هذا القائد الى مدينته ولكن خوفه من عصيان رعيته الجاه على الترحاب به والتزلف له . وأما بودوين فلما وجد أهل المدينة يطلبون حمايته ولم يقرؤا على امتلاكه لها قال انه لا يمكنه ان يحمي بلداً لم تكن له ولذلك ستركها . فلما علم أهل البلد بذلك اجتمعوا لديه وطلبوا منه عدم ترك مدينتهم ولما نظر ذلك ناودورس قال له اني رجل كبير مسن ولم يكن لي ولداً وارث فارجو ان تكون بصفة ابن لي وتكون وريثي الوحيد ولما سمع ذلك بودوين وعلم بانه سيكون بعد موت ناودورس وريثاً لمدينة الرها بل لجميع شطوط الفرات فرح فرحاً شديداً ووعد بان يحمي تحت سيفه مقاطعة قد أنحطت ميراثاً له بعد زمان قليل يمر ثم انه اتفق مع أهل البلد وقتلوا ناودورس بعد محاصرته بالقلعة وطلبه الامان منهم بخانوه ورموه من فوق السور ثم قطعوه قطعاً

﴿ محاصرة الصليبيين انطاكية وامتلاكها ﴾

سارت الحيوش الصليبية قاصدة سوريا مارة بالمدن الآتية وهي . ليكونيا وهيراكليا . وقيسارية كياروكيا . وتيانا . وفوزقون . ومرعش وكان أهالي هذه المدن اذا وصلت اليهم اخبار الصليبيين يخرجون من مدنها ويقابلونهم بالاكرام

ويسلمون لهم مدتهم بدون حرب . وكانت شدة الحرارة وصعوبة الطريق قد
 أتعبتهم خصوصاً في جبال الشيطان التي هي فيما بين فوزقون ومرعش ثم بلغوا
 جبل طاوروس وجبل أمانوس الى ان وصلوا انطاكية في سنة ١٠٩٧ الموافقة سنة ٤٩١
 هجرية وكان الحاكم على هذه المدينة باغيسيان أصغر اولاد الملك شاه السلجوقي فلما
 بلغه خبر الصليبيين أمر باقفال المدينة والاستعداد للحصار وكان الممر الوحيد الى
 سهل انطاكية على جسر فوق نهر العاصي وعلى جانبي ذلك الجسر برجان محصنان
 فيهما كثير من الرجال فحاربهما الافرنج أولاً وأخذوهما ثم دنوا من انطاكية ونصبوا
 خيامهم فكان القائدان بوهموند وتنكريد على العساكر الايطالية امام باب القديس
 بولص وعلى يمينهم العساكر الزماندية والبريطونية والفلامندية وأما الفرنسيون
 الذين بقيادة روبرتوس هوكز دي فارمنديا وروبارتوس كونت دي شارتيزه فكانوا
 بالجهة البحرية امام باب الكاب وأما غودافرو والكونت دي طولوز وادهماردي
 مونتيل فانهم كانوا على جسر نهر العاصي فعقدوا مجلساً حكموا فيه بوجود محاصرة
 انطاكية وأخذوا الالهة للقتال وأما عساكر الاسلام المحصورون داخل الاسوار
 فلم يبذروا حراكا ولم يظهر منهم مقاتل واحد فوق الاسوار والابراج ولذلك استخف
 بهم الافرنج وأخذوا يبنذون التحفظ وانعكفوا جميعاً على التلذذ بالملاهي وبنضارة
 ذلك المكان وطفقوا يرتكبون كل القبائح والرذائل بينما كان المحصورون في المدينة
 يتأهبون للدفاع عن دمارهم ويستعدون كل الاستعداد حتى غنموا فرصة الشغال
 أعدائهم باللذات والمعاصي وخرجوا من المدينة وأولئك متفرقون في القرى فهجم
 المسلمون عليهم هجمة الاسود فانكسر الافرنج انكساراً كبيراً وبعد ذلك حدثت
 معارك كثيرة بين المحاربين كان النصر فيها حليفاً للمحصورين وفقدت مؤونة
 الافرنج فظهر عدم درايتهم للعيان بسوء الادارة التي أخذت تؤثر فيهم وشعروا حينئذ
 بنقص الالهة الحربية فاقاموا أبراجاً لصدم الابراج التي على المدينة وصمموا على
 تدقيق الحصار وتشديده بحيث يقطعون المدد عن المدينة ولم يتمكنوا من تنفيذ
 ما ربههم الى ان وقعوا في الارتباك ودهمهم فصل الشتاء وحل بهم مرض البرداء
 واشتد فيهم حتى مات كثيرون واشتد الحال جداً حتى كثيرين من الذين سمعوا
 أنفسهم ظاهراً بسمة دينة مقدسة وباطناً بافكار النهب والسلب وارتكاب ما ظهر
 نموذجه فروا هاربين للتخلص من مشاق الحروب الشرقيّة ومن غريب الامور
 ان بطرس السايح المنادي بتلك الحرب كان اول الهاربين الا ان الامير تنكريد

أدرکه وأعاده وأقسم بدوام مرافقة الذين قادمهم للحرب أما المحصورون فاقاموا بكل أنواع الحكمة واصول الدفاع وكان لهم جواسيس من السريان يعرفون بواسطتهم كل ما يحدث في معسكر الاعداء ولذلك قرر بوهيموند ان يصير التدقيق بالبحث عن الجواسيس ومتى وجد واحداً منهم يذبح ويطنخ لحمه أو يشوي ويؤكل ولا شك ان هذا الامر في غاية البربرية وبذلك قد انقطعت الاخبار عن المسلمين وفي اثناء ذلك بعث المستعلي بالله العلوي من مصر وفداً الى الافرنج يعرض عليهم الصلح والمسالمة وانه يرجع اليهم الكنائس التي شيدها المسيحيون وان يحامي عنهم ويفتح أبواب بيت المقدس للزوار بشرط ان يدخلوها بلا سلاح ولا يقيم الواحد منهم فيها أكثر من شهر واذا رفضوا ذلك فالحليفة مستعد لان يعقد محالفة من المسلمين لصددهم فلم يحتفل الافرنج بعقد الصلح مع انه خو لهم المقصد الذي ادعوا انهم يجاربون لاجله ولم يرغبوا حجب دماء العباد والرجوء الى أوطانهم سالمين بل أجابوا الوفد باستعدادهم للحرب غير مبالين بما يصادفونه من قوة الاسلام وكان صاحب حلب وغيره من أمراء البلاد قد بعثوا بالامداد من الجنود لتجدة انطاكية وعلم الافرنج بذلك فساروا اليهم قبل ان يدركوا المدينة وحاربوهم فانكسر المدد وقتل الافرنج منهم عدداً غفيرا وبعثوا برؤوس كثيرين منهم الى الوفد المصري ورموا رؤوس أخرى الى المدينة وجرت مواقع كثيرة كان النصر فيها تارة للمسلمين وطوراً للصليبيين وأخيراً طلب أهل المدينة هدنة فجددوا فيها الذخائر والمهمات وتمادى الحال ولم ينل الافرنج أربا سيما لان الشقاق كان سائداً بينهم وكان بوهيموند يودان يتولى على انطاكية لغيرته من بودوين والي الرها وبذل في ذلك عناية عظيمة حتى اسعفه شخص اسمه فيروز أصله أرمني واعتنق الديانة الاسلامية وكان يحبه باغسيان ولذلك تلمه أميراً على ثلاثة أبراج كبيرة وكان هذا الرجل من الثقل وحب الرفعة والمال على جانب عظيم ولذلك عقد مع بوهيموند شروط التسليم بالحياة وكشف كل منهما مكنونات ضميره ثم جمع بوهيموند الامراء وقواد الحيش واعلمهم بانه يلزمهم أخذ المدينة بنوع الخيانة والرشوة بالمال فعارضه القواد خصوصاً الكونت دي طولوز وبعد ذلك ببضعة ايام شاعت الاخبار بقدم كروبوغا صاحب الموصل بالوف من الرجال لتجدة المدينة فخاف الافرنج وخطب فيهم بوهيموند بوجوب استعمال الحياة لامتلاك المدينة فاذعنوا لذلك وفي تلك الليلة اجتمع بوهيموند بفيروز الخائن واتفقا على وقت تسليم المدينة وانفصلا وفي آخر اليوم الثاني جمع

الافرنج خيامهم وانسحبوا عن ساحتهم بالطبول والصريح نحو بيت المقدس حتى تواروا عن العيون ثم قتلوا راجعين بهدو حتى بلغوا البرج الذي كان فيه فيروز فاقام ذلك الخائن بفضائه حتى قتل بيده أخاه الذي لم يكن عالماً باتفاقه وخاف منه ان يشعر بالصليبيين فيصيح على الخفرا فبادر بقتله ثم ادلى سلم من جلد فتعلق به شخص اسمه بايان من عساكر بوهيموند الى ان صعد البرج وأراه جثة أخيه المقتول ثم اتبعه بوهيموند وكونت دي فلاندرنا وغيره وامتلكوا الثلاثة أبراج بعد ان امرهم فيروز بقتل أخيه الثالث الذي كان على برج آخر وامتلكوا سبعة غيرها بعد ان قتلوا حراسها وكسروا الابواب ودخلوا المدينة فلكوها وكان ذلك في ٣ يونيه سنة ١٠٩٨ بعد حصار تسعة شهور وقتك الصليبيون بالاهالي فتكا ذريعاً ليلا ونهارا حتى انهم كانوا يهجمون على البيوت ويقتلون من فيها ما عدا بيوت المسيحيين الذين كانوا يضعون عليها الصليب للتمييز ومن فرّ من عساكر الاسلام كانوا يلحقونهم في الحقول والاحراش ويقتلونهم (وهكذا تكون حماة الانسانية) وفرّ باغيسيان فقتله بعض الارمن وجاءوا برأسه الى انطاكية أما القلعة فكانت لم تزل بيد المسلمين واقام بوهيموند رايته في أعلى برج في المدينة دلالة على استيلائه عليها ومن هذا الوقت قد استنصر فيروز الخائن وأحبه بوهيموند

﴿ محاصرة المسلمين انطاكية وظهور الحرب المقدسة ﴾

أقام الصليبيون بانطاكية ثلاثة أيام وعلى قول ابن خلدون ثلاثة عشر يوماً وهم في فرح وسرور لاستيلائهم على المدينة فاولموا الولاة وصرقوا أوقاتهم بالملذات والملاهي وفي اليوم الرابع من حلولهم فيها جاء قوام الدين كربوغا صاحب الموصل الى مرج دابق بالشام واجتمعت عليه العساكر فكان معه دقاق بن تشش وطغرل تكين اتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجان وسقمان بن ارتق وغيرهم من الامراء المسلمين وجمعوا ما كان هناك من الترك والعرب وبادروا الى انطاكية وحصروها واضطرب الافرنج وخافوا وأخذ الضيق منهم كل مأخذ فلم يعد عندهم زاد ولم يكن لهم يد لاستجلاب المدد لان القرى الواقعة بجوار انطاكية كانت قد باتت مدمره من نتائج الحرب ولذلك تضايق المحصورون جداً وامسى حالهم تعيساً وبمدة وحيزة نفذ كل القوات والذخيرة حتى التزم الافرنج ان يأكلوا البهائم واضطر كثير منهم الى الشحاذة فكنت ترى كثيرين من الامراء منهم كونت دي فلاندرنا يطوف الازقة يطلب الصدقة وفرّ كثيرون من المحصورين طلباً للنجاة

من الموت جوعاً وهكذا مضت مدة أيام على هذا المتوال نضارت قوى الجنود وضعفت وكان المسلمون يعلمون ذلك فلما رأى الأمير بوهيموند أمير ترانتا وانطاكية كسل أصحابه وتقاعدهم أحرق دورهم قصاصاً لهم ولكن لسان اللهب تجاوز حده فامتد إلى جهات ساء الأمير حرقها إلا أن تلك النار لم تحرك حماسة قوم أقعدهم الجوع الشديد والضعف ولذلك صارت الكهنة والأمراء وبعض الناس يقصون أنهم رأوا أحلاماً ونبوءات تفيد أن الصليبيين سيغلبون أعداهم وذلك لتدب الحمية في قلوب أولئك الكسالى وتوصلاً لما يريدون قال كاهن من أهل مرسيليا جنوبي فرنسا اسمه بطرس برتولوني أن القديس أندراوس الرسول ظهر له في الحلم ثلاث مرات وقال له : اذهب إلى كنيسته أخي بطرس بانطاكية وهناك بقرب الهيكل الملوكي مجد الحربه الحديد التي طعن بها جنب المسيح مدفونة في الأرض وأنه بمجرد حمل هذه الحربه أمام جيش الصليبيين يحصل له النصر :

ثم انتخب اثني عشر شخصاً من الأعيان والكهنة ليكونوا شهوداً على اكتشافها ولم يسمح لاحد من الجنود والأهالي بحضور الحفر الذي اشتغلوا به طول النهار وهم يدققون البحث فلم يجدوا شيئاً والأبواب مغلقة عليهم وبعد الغروب نزل الكاهن بنفسه وأحضرها

أما الحربه ففيها أقوال لأن المؤرخين الأكليريكيين يقولون أنها معجزة إلهية وغيرهم يقولون أن الأفرنج لما رأوا وهن عزائم جنودهم وأنهم لا ينشطون بلا محرك فعال دبوا هذه الحيلة فنجحت نجاحاً عظيماً على أنه بعد حين يسيراً انكشف الغطاء عن أعين كثيرين وبات جمهور غفير من الناس لا يركنون إليها ولا يصدقون بها (نقلنا هذا بدون ابداء رأينا فيه وهو مجمل ما كتبه حضرة الفاضل جورجى افندي يني في كتابه تاريخ سوريا وكذلك ما جاء بكتاب (الحروب المقدسة جزء أول) وحينئذ فرح الصليبيون بهذه الحربه واجتمعوا في الكنائس واقسموا جميعاً بمدوامتهم على الحروب وارسلوا بطرس السائح إلى صاحب الموصل يطلبوا منه المقاتلة في الحرب فوعدهم بالحرب وفي ثاني يوم خرج الصليبيون جميعاً وهجموا على جيش الاسلام وكان كربوغا جالساً في خيمته ظاناً بان المسيحيين قادمين إلى طلب الصلح ثم التفت إلى القلعة فوجد الراية التي عليها سوداء فعرف بان القوم جاؤا مهاجمين فأنذره وإذا بكثيرين من جماعته ركضون مرتعشين وأخبروه بان الصليبيين خرجوا عليهم مرتين جنودهم اثني عشر فرقة تحت رئاسة قوادهم هوكر وغودافرو وروبارتوس دي نورمنديا وادهار

دي مونتييل وتنكريد وبوهيموندوان رايموندي اجيلاس يحمل الحربة أمامهم فامر الامير كربوغا بترتيب الجيش وأمر كل من صاحب حلب والشام ونيقيه بان يكمنوا وراء عساكر العدو ليمنعوهم عن انطاكية وبعد قتال شديد وهجوم ودفاع كاد يتصر فيه المسلمون ولما كان في الاسلام من النفرد لصاحب الموصل تمت هزيمتهم وكان كربوغاني أوائلهم وذلك في ٢٩ يونيه سنة ١٠٩٨ وغنم الافرنج غنائم لا تحصى وجمعوا مالا غزيراً فعادوا الى انطاكية بثروة عظيمة ثم ان كان في القلعة لما علموا بهزيمة الجيوش الاسلاميه القوا سلاحهم وسلموها فوقع بين بوهيموند أمير انطاكية وبين الكونت دي طولوز نفور وخصام بشأن تملكها ثم انتشبت في الصليبيين الامراض الوبائية حتى مات منهم كثيرون ومات أيضاً القائد ادهمار دي مونتييل أسقف بوي ودفن في كنيسة ماري بطرس محل وجود الحربة ثم ساروا الصليبيون الى معرة النعمان وحاصروها حتى كلوا ثم امتلكوها واخشوا في استباحتها

﴿ مسير الصليبيين من انطاكية قاصدين بيت المقدس ﴾

بعد مضي نحو الستة شهور من استيلائهم على انطاكية ساروا الى جهة سوريا العليا واجتازوا مقاطعة قيسارية وحمص وكانت أهالي البلاد تقابلهم بالترحاب تلافياً لعدائهم وهكذا ساروا مسرعين الى ان وصلوا مدينة اركاس الكائنة عند سفح جبل لبنان فرفض أهاليها تسليمها ولذلك حاصرها قسم من الصليبيين تحت قيادة رايموند وتنكريد والدوك دي نورمندا وعساكر الكونت دي طولوز وقسم آخر من عساكر فلاندر وهولاندا وانكلترا وبوهيموند سار الى ان وصل الى اللاذقية وهناك رجيع بوهيموند الى انطاكية ولايته واعداء اياهم بان يتبعهم فيما بعد ويدركهم عند أسوار بيت المقدس

وقسم ثالث برئاسة غودافرو واسطاكيوس سار الى ان وصل الى جبله التي على شط البحر قريية من اللاذقية وحاصرها بقوة

وقسم رابع برئاسة رايموند دي طوران حاصر طرطوز وامتلكها بعد هروب اهليها فالقسم الاول بعد محاصرته مدينة اركاس كما ذكر لم يتمكن من أخذها ففي آخر شهر مايو سنة ١٠٩٩ فقد صبرهم فساروا نحو فلسطين فقابلهم أمير مدينة طرابلس وبعد ان حاربوه وتغلبوا عليه صالحهم على مال وساروا قاصدين بيت المقدس ثم تقابل جميع الصليبيين وساروا معاً الى ان وصلوا الى عكا وحينئذ خرج واليها الذي كان تابعاً لخليفة مصر وأعلمهم بأنه مستعد لتسليمهم المدينة

عندما يستولون على بيت المقدس ولذلك تركوه الى ان وصلوا عمواس القديمة وهناك
قابلهم وفد من اهالي بيت لحم وطلبوا اغاثهم فتوجه معهم الامير تنكريد ليلاومعه
ثلثمائة نفر الى ان دخلها ليلا ووضع رايته عليها ثم ارجع ولحق بقومه وهكذا ساروا
الى ان وصلوا الى مدينة اوروشليم

﴿ محاصرة الصليبيين لبيت المقدس واستيلاؤهم عليه ﴾

كان بيت المقدس تابعا لمملكة مصر السعيدة وكان الحاكم عليه افتخار الدولة
من قبل الخليفة المستعلي بالله العلوي وكان قد أمر ببناء ما تهدم من السور وقت
استيلاء الافضل بن بدر الدين قائد الحيوش المصرية من الامير سقمان بن ارتق
واستعدادا بما يلزم للحصار ولما وصلت الصليبيون الى المدينة انعقد مجلس مشورتهم
وقرر حصار بيت المقدس فكان كما يأتي في شمال المدينة دوك دي نورمندياوكونت
دي فلانديرا وتنكريد ابي من باب هيردوس الى باب القديس اسطفانوس وكان
غودافرو واسطاكيوس وبودوين دي بورغ حول جبل الجبله من باب دمشق
الى باب يافا وكان الكونت دي طولوز ورايمود دي أورانج وغليوم دي مونت بليز
وغاسطون دي بيررا على يمين غدافرو على جبل صهيون قبلي المدينة الى الغرب
وهكذا أقيم الحصار مدة من الايام ثم اهتم هجوموا هجمة قوية على سور المدينة
القديم بقصد هدمه فاخذ فريق منهم يهدم السور وفريق يدافع الى ان هدموا
معظمه ودخلوا منه وارادوا هدم السور الداخلي فما أمكنهم ثم افتكروا في كيفية
استيلائهم على المدينة وأخيراً قرروا بان يتسلقوا السور بالسلام الجلد والحبال التي
معهم بكثرة وأخذوا يرمون السلام على شرافات السور فتعلق به وبهذه الوسطة
صعد الى السور منهم كثيرون ولما نظروهم عساكر الاسلام هجوموا عليهم باعلى
السور واقتلوا الفريقان ودارة الدائرة على الصليبيين الذين فروا الى معسكرهم
بواسطة السلام أيضاً ومن هذا الوقت افتكروا بانه يلزمهم منجانيقات للقذف
بها على السور والمدينة فاخذوا يبجثون على الاخشاب اللازمة لذلك حتى انهم هدموا
منازل القرى المجاورة للمدينة وأخذوا أخشاب السقوف وكان ذلك في فصل
الصيف وفي شدة الحر وعدم وجود مياه كافية لسقيهم لان حاكم المدينة كان امر
بهدم الصهاريج التي بالخارج فتابهم ظمأ شديد لان نهر سلوان الذي كانوا يستقون
منه كانت مياهه شحيحة ولم تكن تجري دائماً
وكانت قد وردت أخبار للصليبيين تبشرهم بان قد جاءتهم المراكب تحمل ذخائر

وغيرها من جنوى فشملمهم الفرح والسرور وسار منهم قسم لاجل استحضر
ذلك ولما توجهوا الى ناحية جوبه وجدوا مراكب الاسلام قد داهمت مراكبهم
وحرقتها وكان ذلك بعد اخراج الذخائر الى البر ثم انهم نقلوا هذه الذخائر مع آلات
الحرب ومن حضر معهم من المهندسين وتوجهوا الى بيت المقدس وكان أيضاً احد
اهالي سوريا قد دل الصليبين على حرش بعيد عن المدينة بمسافة ثلاثين ميلا في
جبل بين وادي شخيم ووادي السامر فانطلق منهم قسم الى هناك وقطعوا اخشاب
الحرش وحملوها على عربات تجرها البقر ولذلك صنعوا ثلاثة ابراج من الخشب
كل برج ثلاث طبقات حتى صارت الابراج أعلى من سور البلد وعمل على الابراج
جسر ولذلك فرح الصليبيون فرحا شديداً ثم عقدوا مجلس مشورتهم ليعينوا يوم
الهجوم وكيفيته وهذا المجلس قرر تغيير مواضع الحصار فنقلوا الابراج الخشبية الى
شرقي المدينة عند باب سيدار تحت رئاسة دوك دي لورين وأقاموا المنجنيقات والاكباش
تحت رئاسة تنكريد وروبارتوس من باب دمشق والبرج المقرن الذي دعى فيما بعد
برج تنكريد

وفي يوم الخميس ١٤ يوليه سنة ١٠٩٩ هجم الصليبيون هجمة شديدة على كل
جهات المدينة خصوصاً الابراج الخشبية التي كانوا يجرونها بعجل الى أي جهة يريدونها
وكانت مملوءة بالحاربين تحت رئاسة غودافرو وأخيه اسطاكوس وبودوين دي بورغ
الذين كانا بالبرج الاعلى وكانوا يصدرون أوامر الحرب من أعلا هذا البرج فيجمعون
بالابراج على أسوار المدينة وكذلك رؤساء المنجنيقات كانوا يتابعون الرمي بها بسرعة
وعساكر الاسلام تقابلهم كالاسود ولا يبالون من هذه الهجمات وكانوا يرمون
الصليبيين بالمواد المانتهية ومشتعلة بالزيت وكانت مركبة على الابراج آلات حربية كبيرة
لصد هجمات الصليبيين وظل الفريقان في هجوم ودفاع طول اليوم المذكور بدون
ان يظهر النصر لفريق منهم

وفي صباح اليوم الثاني بادر الفريقان للمحاربة واشتدت هجمات الصليبين على
المدينة ولكن حسن دفاع المسلمين منهم من التقدم الى السور فكان المسلمون
قد وجهوا قوتهم ضد من في البرج الاعلى الذي كان فيه غودافرو ومن معه حتى
انهم قتلوا اكثر عساكر دوك دي لورين وكان رايغوند من ناحية المدينة القبلية مع
جماعة يباشروا أعمالهم الحربية بصورة عديمة الوصف وكان تنكريد وروبارتوس من
الجهة الشمالية وهكذا صار القتال منتشبا بينهم وكان الانتصار لجيش المسلمين الا ان

الصليبيين رموا ناراً من الابراج الحشدية على آلات الحرب المركبة على السور فالتهمت وزادها الريح التهاباً وتطاير الشرار والدخان على عساكر الاسلام فاضطروا للتأخر عن الاسوار ولذلك نزل دوكدى لورين وغودافرو من الابراج ومعهم عساكرهم الى الاسوار وصاروا يقتلون من المسلمين من يجذوه ثم اتبعهم كثير من عساكر الصليبيين الذين كسروا باب القديس اسطفانوس بالقؤوس والمعاول ودخلت منه باقى العساكر الصليبية وكان ذلك في ١٥ يوليوسنة ١٠٩٩ لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ وكانت مدة حصار المدينة أربعين يوماً ثم ان العساكر الصليبية فتكوا بالمسلمين فتكاد ذريعاً وصاروا يقتلون الرجال والنساء والكبار والصغار والبنين والبنات وقتلوا داخل المسجد ما ينوف عن سبعين الفاً من المجاورين فيهم العلماء والزهاد والعباد حتى كانت الحث ملقاة في الازقة والاسواق وأخذوا من المسجد نيفاً واربعين قنديلاً من الفضة زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمئة درهم و ١٥٠ قنديلاً من الصغار وتنوراً من الفضة زنته أربعون رطلاً شامياً وغير ذلك مما لا يحصى واعتصم باقى الاسلام بمحراب داود عليه السلام حتى استأنوا وخرجوا ليلاً الى عسقلان وكان السبب في ذلك انه انعقد مجلس مشورة الصليبيين وقرر بان يقتل كل مسلم أو يهودي باق في المدينة فخرج المسلمون بعد الاستئمان والتجأ اليهود الى كنيسهم فحرقوا الصليبيون جميع الحي بما فيه الكنيس ومن فيها

وبعد ذلك انعقد مجلس مشورتهم لانتخاب أحدهم ليكون ملكاً على بيت المقدس وبعد مجادلات ومعارضات تم انتخاب أربعة وهم غودافرو ورايموند ودوكدونورمانديا وتسكريد وأخيراً عينوا لجنة من الكهنة وغيرهم عددها عشرة لاجل ان ينتخبوا واحداً من الاربعة المذكورين فانعقدت اللجنة وقررت انتخاب القائد غودافرو ولما أرادوا تويجه ليكون ملكاً على بيت المقدس أبى ان يلبس التاج قائلاً لا يمكنه ان يضع على رأسه تاجاً من ذهب مرصعاً بحجارة كريمة في بلد توج فيها المسيح باكليل من شوك وأبى ان يلقب بملك القدس بل (بمحاكي قبر المسيح)

❖ واقعة عسقلان وانتصار الصليبيين فيها ❖

بعد ان تملك الصليبيون بيت المقدس وصل صريح الاسلام الى الخليفة المقتدي ببغداد مستعينين به فارسل وفداً الى السلطان بركيارق مؤلف من أبى محمد الدامغانى وأبى بكر الشاشتى وأبى القاسم الزنجاني وأبى الوفاء بن عقيد وأبى سعد الحلواني وأبى الحسين بن السهك فساروا الى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فاتهوا الى حلوان

(غير حلوان مصر) وبلغهم مقتل نجل الملك البارسلان وفتنة بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا وكانت قد وصلت الاخبار الى مصر فاضطربت وأصبحت تخشى أن يصيبها مثل ذلك فسار أمير الجيوش الافضل الى سوريا لمحاربة الصليبيين وكانت أخباره وصلت الى بيت المقدس فخرج غودافرو ومعه تنكريدو الكونت دي فلاندر وروبارتوس دي نورمنديا ورايموند دي طولوز وبطريق اورشليم الجديد ارنول وساروا قاصدين الجيوش المصرية الذين قابلوهم بجوار مدينة عسقلان وهناك اقام كل من الفريقين خيامه واصطفت العساكر لكل فريق قلباً وجناحين واقتتل الجيشان قتالاً شديداً كان النصر فيه للصليبيين وانهمزمت العساكر الاسلامية بعد ان قتل اكثرها ودخلت مدينة عسقلان ثم بعد انتهاء هذه المعركة رجعت الجيوش الصليبية الى اورشليم مسرورة لحصولهم على النصر وأمامهم الطبول تعزف

﴿ انتهاء الحروب الصليبية الاولى وسفرهم الى اوطانهم ﴾

بعد النصر الذي حصل للصليبيين في سهل عسقلان ورجوعهم الى بيت المقدس حصل شقاق بين أمراء الاسلام على انه كان الواجب في مثل هذه الاحوال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة الاغراب لكنهم جاؤا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتت القوات تحارب بعضها لاسباب واهية . و علم الصليبيون بأنه لم يوجد أحد من المسلمين يحاربهم طلبوا الرحيل الى اوطانهم تاركين مدينة اورشليم وفيها غودافرو والامير تنكريد الذين رغبوا ان تكون وطناً جديداً لهم يقضوا فيه باقي أيام حياتهم وهكذا انقضت الحروب الصليبية الاولى التي استمرت أربع سنوات استولوا فيها على بلاد الروم الشرقية اي بر الاناضول والارمن وانطاكية وبيت المقدس واكثر بلاد سوريا وبلاد ما بين النهرين (أي حكومة بودوين المستقلة) ولما رجع باقي الجيوش الصليبية الى ممالكهم باوروبا ومقاطعاتهم جاءت أهاليها اليهم فرحين بمقابلتهم ولما علموا بان الصليبيين جميعهم (ما عدا البعض الذي سافر الى وطنه) قد قتلوا ودفنوا في أسيا أخذوا يتدبون ويولولون حتى انه لم تحل عائلة من نواح وبكاء وكذلك سافر بطرس السائح الى دير على نهر موزا واقام هناك الى ان مات

﴿ الحروب الصليبية الجديدة ﴾

بعد وصول الصليبيين الاول الى بلادهم اتقدت الغيرة بين رؤساء العساكر الذين كانوا اقاموا باوروبا ولم يسافروا معهم ولذلك عزموا على تجريد حملة ثانية والتوجه

الى البلاد الشرقية كي يتحصلوا على الانتصار والامتلاك مثل من سبقوهم فلذلك حملوا الصليبان كعادتهم وتجمعوا من كل مملكة فكان من مملكة فرانسأ أخو سلطانها واسطفانوس كونت دي بولوز تحت رئاسة غويليوم التاسع كونت دي بواتير ومن ايطاليا الكونت دي بلاندراس البرتوس وانسلموس رئيس اساقفة مدبولان بجيوشهم الكشيرة العدد ومن مملكة النمسا الكونت كوزاد قائد جيوش الملك انريكوس وفولف الرابع دوك دي بافريا والامير ايضا ومرغراي اوستريا وغيرهم وسار الجميع بجيوشهم الكشيفة الى ان وصلوا الى القسطنطينية فملك القسطنطينية الكيسوس خاف من غوائل الصليبيين فاستدعى رايموند دي طولوز الذي كان وقسئذ والياً على اللاذقية من قبله ولما حضر رايموند المذكور منع الصليبيين من العيث ووعدهم بأنه سيكون رائدهم في طريق أسيا الصغرى ثم انهم عبروا الى البر الثاني وهناك انقسموا ثلاثة أقسام

فالقسم الاول كان برئاسة رايموند دي سان جيلاس ودوك دي بورغونيا والكونت دي شارتراس ورئيس اساقفة مدبولان والكونت دي بلاندراس وكان رئيس اساقفة مدبولان حاملا الذخيرة المقدسة وهي ذراع القديس امبراتيوس التي جاء بها من أوروبا ورايموند كان أخذ معه الحربة المقدسة التي وجدوها بانطاكه فهذا القسم الذي كان مؤلفاً من مائة الف عسكري بعد ان أخذ مدينة ايكوريه قام لمقاتلته سلطان نيقية وبلاد الروم الامير قليسج أرسلان وبصحبته صاحب الموصل الامير كربوغا فجمعوا جيوشهم وهجموا على هؤلاء الصليبيين هجمة صادقة واشتبكت المعركة بين الجهتين في أرض هاليس وبعد قتال شديد فازت العساكر الاسلامية بالنصر وشتتوا الصليبيين وبددوهم ففروا هاربين في القفار الى قرب مدينة سينوبيا حيث تقابل كل من الكونت دي بلواز ورايموند دي سان جيلاس ودوك بورغونيا وجمعوا حولهم فضلات قليلة من باقي جيوشهم . وأما القسم الثاني فكان برئاسة الكونت دي نافار وسار متقدما في المسير الى مدينة اينكوريا قاصدين مدينة هيراكليا وهناك صادقتهم عساكر الاتراك المذكورون قبله وحملوا عليهم الى ان بددوهم عن آخرهم

وأما القسم الثالث البالغ قدره مائة وخمسين الف مقاتل تحت رئاسة الكونت دي بواتير والدوك دي بافريا وهو كزدي فرمندوس فبعد ان امتلكوا مدينتي فيلومليوم وساماليا ساروا نحو مدينة سنكون مجتهدين في الحادهم بعسكر القسم الثاني واذا

بعساكر فليج ارسلان وعساكر الامير كربوغا الاسلامية قد حملوا عليهم واقتتل الفريقان وكانت معركة مخيفة لان عساكر الاسلام اعملوا في الصليبيين السيف حتى قتلوهم عن آخرهم ولم ينج منها كثير من الف شخص وفر الكونت دي فرمندوس من هذه المعركة مجروحاً الى ترسوس حيث مات هناك واما دوك دي بافيرا وكونت دي بواير فتاها هاريين من مكان آخر حتى دخلا انطاكية التي كان قد سبقهم اليها كونت دي نافار هاربا وهناك اجتمع بقايا الصليبيين الذين نجوا من هذه الوقائع وكان عددهم عشرة آلاف قاصدين مدينة اورشليم أي القدس ثم حصلت لهم وقائع أخرى باراضي فلسطين بقرب مدينة الرملة انكسر فيها الصليبيون بأيدي عساكر الاسلام وفي هذه الواقعة قتل دوك بورغونيا والكونت دي بلواز ثم ساروا قاصدين اوطانهم مخذولين وسيأتي بيان هذه الواقعة سنة ٥٤٩٦ هـ وسنة ١١٠٢ أفر نيكه مع العساكر المصرية

﴿ محاصرة غودافرو مدينة ارسور ﴾

بعد ان تملك القدس غودافرو كما تقدم صار يرتب أحكامه كما يتراءى له وصدر أمره بان كل شخص يضع يده على منزل أو أرض يجرها سنة كاملة ويوماً تكون له ملكاً طلقاً شرعياً وكذلك كل من غاب عن عقاراته سنة ويوماً توخذ منه ولا يكون له حق فيها مطلقاً ثم انه رتب جزية على الامراء المسلمين الذين كانوا قد خضعوا له مثل أمراء قيساريه وغيرها وأيضاً صد قوة العرب شمالي نهر الاردن ثم سار الى مدينة ارسور وحاصرها حصاراً شديداً لأنها لم تخضع له ولما كان الحصار صعباً جداً على المدينة وكان أهل المدينة أخذوا جيران دي افاستاس أسيراً ثم انهم أدلوه بجبل أمام غودافرو وصرخ طالباً من غودافرو ان يتيحي حياته بواسطة رجوعه عن هذه المدينة وعدم حصارها فاجابه غوافرو على الفور بانه لو كان أخوه اسطاكيموس نفسه وطلب ذلك ما أمكنه قط وقال له الاحسن ان تسلم نفسك للموت بدل اخوانك الصليبيين ثم بعد ذلك قتلوه. ثم ان غودافرو شدد الحصار على المدينة ولكن هذا الحصار لم يكسبه شيئاً لان آلات حربه حرقت عن آخرها بواسطة النار التي قذفت عليهم من داخل المدينة وحينئذ غودافرو قطع الامل من الاستيلاء على هذه المدينة ورفع الحصار عنها ورجع الى القدس

﴿ اجتماع الامراء الصليبيين بالقدس وانتخاب قانون لحكومتها ﴾

بعد رجوع غودافرو الى القدس اتته الاخبار بان عدداً عظيماً من أهل بيزا

وجنوى التابعين لاطاليا برفقة رئيس أساقفة بيزا ديارتوس بصفته نائب بابوي والاسقف اريانوس قاصدين القدس للزيارة في عيد الميلاد ثم حضراً أيضاً الى القدس كل من بوهيموند أمير انطاكية وبودوين أمير الرها ورايموند دي طولوز وكثيرون من القواد والرؤساء ثم ان غودافرو وافتكر بان يعمل قانوناً لحكومته لترتيبها وتنسيقها فاعتنم فرصة وجود الامراء المذكورين فعمد جمعية في قصره الكائن في جبل صهيون بالقرب من كنيسة قبر المسيح وأعلمهم بما أصر عليه من ترتيب الحكومة بقانون يبين حقوق السلطان والموظفين والاشراف (القواد) والرعية كلا منهم بما يخصه ويلزمه فعينوا ثلاثة دواوين فالديوان الاول يعقد برياسة السلطان وتكون أعضاؤه القواد لاصدار الاحكام والترتيبات الشاملة لجميع الرعية . والديوان الثاني يكون رئيسه قائم مقام القدس وأعضائه أعيان المدن الكبار لكل مدينة عضو ويكون اختصاصه النظر في الايرادات والمصروفات وترتيب الحقوق والتدابير المدنية . والديوان الثالث للقضاء وهو يختص بالدعوي التي ترفع على الشرقيين ويكون رئيسه أحد قضاة البلاد لاصدار أحكامه بما يطابق عوائدهم وهكذا انتهى هذا المجلس وقد حفظوا أصل القرار داخل كنيسة القيامة ثم تعين ديارتوس رئيس أساقفة بيزا بطريركا على القدس خلفاً لارنولد بطريركها المتوفي

﴿ موت غودافرو وسلطان القدس ﴾

بعد انتهاء مجلس الامراء المذكور سافر كل منهم الى محله ثم توجه غودافرو مع تنكريد بجيشهما الى طبرية وامتلكوها واقام تنكريد حاكماً عليها ثم رجع غودافرو الى القدس وبعد أيام قليلة حصل له مرض شديد فجمع حوله القواد والكهنة وحرصهم على اتمام واجباتهم وأخذ عليهم الاقسام بدوام محاربتهم المسلمين ودوام محاماتهم عن البلاد التي امتلكوها لآخر حياتهم وبعد أيام قليلة فاضت روحه في ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فبكاه الجميع لما كان موصوفاً به من العدل واحتفلوا بمجنازته ودفنوه باكرام بمجاء جبل الجليل بكنيسة القيامة بالقرب من قبر المسيح (كاعتقادهم) وقبره هناك يزوره الزوار الغربيون الآن

﴿ انتخاب بودوين سلطاناً للقدس ﴾

بعد موت غودافرو طمع في هذه الوظيفة ديارتوس البطريرك وارسل الى بوهيموند بانطاكية لمساعدته على ذلك ثم جمع القواد والرؤساء وعقدوا مجلساً

لاجل انتخاب سلطان عليهم بدل المتوفي مقدماً نفسه لهذه الوظيفة السامية وحينئذ اهل المجلس رفضوا تعيينه عليهم سلطاناً وكذلك بوهموند ارسل اليه برفض المساعدة ثم ان هذا المجلس قرر بالجماع الانتخاب بودوين ملك الرها وشقيق غودافرو ليكون سلطاناً عليهم ثم أعلموه بذلك فقبل هذا الانتخاب وعين بدله ابن عمه بودوين دي بورغ ملكاً على مابين النهرين (الرها) وسار هو قاصداً القدس ومعه جيشه فتقابل مع دقاق أمير دمشق وجناح الدولة أمير حمص بعيداً عن بيروت بمقدار تسعة أميال ومحاربوا وانتهت الحرب بهزيمة المسلمين وسار بودوين الى ان وصل الى القدس ودخلها باحتفال عظيم اقامه له أهل المدينة

ثم ان بودوين اراد ان يوسع مملكته فأخذ جيشه وسار قاصداً مدينة عسقلان ليمتلكها وبعد قتالها انهزم راجعاً الى القدس وشرع في تنويجه بيت لحم ولبس التاج الملوكي وكان الامير تنكريد والي طبرية لم يعترف بتملك بودوين على القدس لما بينهما من العداوة القديمة التي ظهرت بناحية طرسوس كما تقدم وكان بودوين يرغب مصافحة تنكريد ولكونه سلطاناً لم يسمح بالتنازل وطلب الصلح من تنكريد غير ان المصالحة تمت بينهما عند مقابلتهما معاً بميناء حيفا فتصافحا وتعانقا ويكون بوهموند امير انطاكية قد وقع اسيراً في يد المسلمين كما يأتي في اخباره وظلت انطاكية خالية من حاكم فحينئذ تعين تنكريد حاكماً على انطاكية

ثم انه جاءت مراب من ناحية جنوى مشحونة بالعساكر الذين وعدهم بودوين بانه يحارب معهم وكل ما يمتلكه من الغنائم يعطيهم ثلثه وكل بلد يمتلكها يجعل لهم فيها طريقاً باسم اهالي جنوى ثم سار معهم وامتلك مدينة اوسور (لعلها ارسوف) سنة ١١٠١ التي لم يقدر اخوه غودافرو على امتلاكها ثم سار وانتصر على مدينتي اوباريدا وقيساريه ثم سار قاصداً عسقلان وكانت مصر قد ارسلت جيشاً بقيادة سعد الدولة فسار الجيش وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند اسوار عسقلان فخاربوها فارجعوا على اعقابها

﴿ خلافة الأمر باحكام الله وواقعة عسقلان ﴾

في يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٤٠٥ هـ توفي الخليفة العلوي المستعلى بالله بالقاهرة بعد ان حكم سبع سنوات وشهرين وله ولد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره بوصاية شاهين شاه الذي كان وصياً على المستعلى أيضاً وكان قد عهد اليه ان يلقبه عند مبايعته بالأمر باحكام الله ففعل وكان ذلك موافق سنة ١١٠١

افرنكية ثم بعث الافضل أمير الجيوش بمصر ابنه شرف المعالي بالعساكر الى عسقلان
فمقابل مع بودوين ملك القدس بالرملة وكان معه بقايا الجيوش الصليبية الثانية الذي كان قد
هلكهم قليج ارسلان وكربوغا كما تقدم برأسة كل من فولف الرابع دوك دي بافيرا
وغيلوم التاسع كونت دي بوانسير وجفرو دي باندوم وهو كزدي لوزينان
وادواس دوك دي بورغونيا واستفانوس كونت دي بلواز واورين كونت دي باري
واشتيك بينهم الحرب وقتل من الصليبيين في الحرب استفانوس كونت دي بلواز
وادواس دوك دي بورغونيا واورين دي باري وقع أسيراً ثم مات واحتفى بودوين
في الشجر ونجا الى الرملة مع جماعة من زعماء الافرنج فحاصروهم شرف المعالي
خمسة عشر يوماً حتى أخذهم فقتل منهم اربعمائة وبعث ثلثمائة الى مصر ونجا بودوين
الى يافا ووصل في البحر جموع من الافرنج للزيارة فندبهم بودوين للغزو وسار بهم
الى عسقلان وهناك حاربوا الرملة التي كانت استولت عليها عساكر الاسلام
وامتلكوها ورجع بودوين الى القدس

﴿ بوهيموند أمير انطاكية وما جرى له ﴾

في سنة ١١٠١ وقع بوهيموند أسيراً بيد الاسلام. وصارت انطاكية خالية من
حاكم الى ان حصل الصلح بين بودوين و تنكريد كما تقدم وتعيين تنكريد حاكماً على
انطاكية ثم في سنة ١١٠٢ نجى بوهيموند من الاسر بعد ان أقام بالاسر سنتين ونصفاً
وأتى الى انطاكية وكان بوهيموند مستقلاً بانطاكية لا يعترف بسيادة القدس على
مدينته ولذلك تحارب مع الملك الكسيوس ملك الروم مرات كثيرة كان النصر
بينهم سجالاتاً تارة الى بوهيموند وتارة الى ملك الروم ثم ان بوهيموند اتحد مع
بودوين دي بورغ ملك الرها وجوسلين دي كورتناي و تنكريد لكي يحاربوا
مدينة حران الكائنة بين النهرين وساروا الى أن وصلوا حران وكادوا يملكونها
فحينئذ وقع الخلاف بينهم لان كلا منهم كان يريد امتلاكها باسمه حتى كادوا ان يحارب
بعضهم بعضاً وبينما كانوا في هذه المناصمة واذا بعساكر اسلامية أتتهم من الموصل
وماردين فضربوا عليهم حصاراً من كل الجهات وحملوا عليهم حملة صادقة كادت أن
تبيدهم عن آخرهم فوقع بودوين دي بورغ أسيراً وكذلك جوسلين عند الاميرسقمان
وأما بوهيموند و تنكريد ففرا من الموت هاربين الى ان وصلوا مع القليلين الذين
نجوا من الذبح الى انطاكية ثم ان بوهيموند وجد نفسه واقعاً بين قوتين لا قدرة
له عليهما ولا يمكن ان يحمي نفسه منهما وهما الكسيوس ملك الروم من جهة

والعساكر الاسلامية من جهة أخرى فاضطر الى الهرب الى أوروبا كي يحرك أهل الغرب الى معونته ولكي يخفي عن أعدائه هذا التدبير الذي عزم عليه قد أشاع عن نفسه بأنه مات واحتفى في مكان مجهول في سنة ١١٠٤ وبعد ذلك لبس ثوباً مخزناً ونزل في مركب وسار من وسط مراكب ملك الروم بدون معلومية أحد به الى ان وصل مدينة كورفو وصعد من المركب الى البر وأرسل يقول الى القائد الرومي بان يخبر ملكه بان بوهيموند قد قام من الموت وعن قريب يشاهده في القتال ثم وصل الى ايطاليا وانطرح على اقدام البابا بسكوال الثاني وطاب منه المعونة والمساعدة فقبله البابا وسلمه سنجق (علم) القديس بطرس الرسول ووعدته بالاسعاف ثم سار بوهيموند الى ان وصل الى مملكة فرنسا فصادف في البلاط الملوكي استقبالا عظيما وأكرمه ملك فرنسا فيليب الاول اكراماً زائداً وزوجه ابنته قسطنسا سنة ١١٠٦ ثم جهزه ملك فرنسا بجيوش كثيرة وقد استحصل أيضاً على جيوش اسبانية ثم سار الى ان وصل ايطاليا فتبعه جيش عظيم ثم انه نزل بالمرابك من مدينة باري باقليم نابولي التابع لمملكة ايطاليا ثم انه طلع على بلاد الروم وحاصر مدينة دورالسيوس سنة ١١١١ وأما بودوين دي بورغ ونسيبه جوسلين فبعد أسرها خمس سنوات رجعا الى ولايتهما وكان أخذهما جكرمس من سقمان الذي أسرها ثم أخذها جاولي ملك الموصل وأطلقهما بشروط منها ان يطلقا الامرى المسلمين الذين ببلادهما وان يمدوه بنفسهما وبعساكرهما متى احتاج الى ذلك وعلى مال دفعاه قدره ثلاثون الف دينار

﴿ استيلاء الافرنج على عكا ﴾

ان بودوين اراد اتساع مملكته خصوصاً ببلاد الساحل لتتصل ببلاده ببلاد اوروبا فلذلك عزم على محاربة مدينة عكا وامتلاكها فجمع جيشه وجيش جنوى الذي كان قادماً للزيارة بمراكبه وطلب اليهم بودوين المساعدة في الحرب ولهم ثلث المكسب فسار بهم وبرجاله قاصداً مدينة عكا فلما وصل حاصرها برأ بجيشه وحاصرها بجرراً بمراكب الجنويين البالغ عددها سبعين مراكباً وكان ذلك سنة ١١٠٤ الموافقة سنة ٤٩٧ هجرية وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالحيوشي لانه كان من اتباع امير الجيوش وطال امد الحصار حتى مل الصليبيون الانتظار وبعد حصول معارك كثيرة اظهر فيها المسلمون شجاعة عجيبة وانتهى الامر بان طلب الامير زاهر الى بودوين الصالح على تسليم المدينة بشرط ان يخرج المسلمون

بامتعتهم فقبل بودوين ذلك منهم واعطاهم امانا ولذلك رموا لهم فاتيح المدينة من فوق السور واما الجنوبيون الذين كانوا بالمرابك فانهم لما نظروا غنى اهل المدينة لم يعتبروا الامان الذي اعطاه بودوين وهجموا على اهل البلديسلبون ويقتلون واخذ بودوين يتوسل الى الجنوبيين ليمتعوا عن الفتك باهل المدينة فما أمكنه وفر الامير زاهر الى مدينة دمشق ومنها الى مصر

﴿ محاصرة مدينة طرابلس ﴾

كان راييموند دي طولوز (مؤرخو العرب يقولون صنجيل) قد لازم حصار طرابلس وزحف اليه قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فظفر به وعاد راييموند مهزوما وفي سنة ٤٩٥ هـ الموافقة سنة ١١٠١ م حاصر المدينة راييموند وشدد الحصار وأعانه أهل الجبل والمسيحيون من أهل سوادها ثم صالحه الامير نجر الدولة ابن عمار صاحبها على مال وخيل ورحل عنها راييموند الى طرسوس فحاصرها وملكها عنوة واستباحها ثم سار الى حصن الطومار وصاحبه ابن العريض فامتع عليهم وقتلهم راييموند فهزموا عسكره وأسروا زعيما من زعماء الافرنج افنداه راييموند بعشرة آلاف دينار والف أسير

وفي سنة ٤٩٧ هـ الموافقة ١١٠٣ م سار راييموند وقد جاءته أمداد الافرنج بجرأ الى طرابلس فحاصرها برأ وبجرأ فلم يجد فيها موطئاً فعاد عنها الى جيبيل وتسلمها بالامان من صاحبها ابن صليحه ثم سار راييموند المعروف عند العرب بصنجيل الى طرابلس فحاصرها وبنى بالقرب منها حصناً وبنى تحته ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل فخرج ابن عمار صاحب طرابلس فأحرق الربض ووقف راييموند على بعض سقوفه المحروقة فأنخسف به ففرض وبقي عشرة أيام ومات فحمل الى القدس ودفن فيه ودامت الحرب بين أهل طرابلس والافرنج خمس سنين وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم الى ان قلت الاقوات وافتقر الاغنياء

وفي سنة ٥٠١ هـ الموافقة سنة ١١٠٧ م توجه نجر الدولة ابو علي بن عمار من طرابلس الى بغداد مستنقراً لما حل بطرابلس وبالشام من الافرنج واجتمع بالسلطان محمد ملك شاه وبالخليفة المقتدر فلم يتحصل منهما على فائدة فعاد الى دمشق وأقام عند طفتكين ثم احتسب أهل طرابلس بخليفة مصر الأمر بأحكام الله فحماهم وبعث الافضل الى طرابلس احد أوليائه وتملكها باسم خليفة مصر وأرسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع عنها الصليبيين فأنخر وصولها لمعاكسة الريح لها الى ان أتى

بارتراند بن رايوند من أوروبا بعمارة يجرية قوية فحاصر المدينة ودخلها عنوة في ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ الموافق ٢ يولييه ١١١٠ وقتل قسماً من أهلها واستعبد القسم الآخر وصارت ظرابلس ملكاً لبارتراند بن رايوند دي طولوز

﴿ باقى ولاية بودوين الاول على القدس ﴾

استقر بودوين في مملكته بعد سفر أهل بيزا وجنوى بمراكبهم مستقلاً ببلاده مدافعاً عنها صاداً هجمات المسلمين الذين كانوا قد استولوا على بلاده وكادت أن تنصب أعلامهم فوق جبل صهيون نفسه ولكن جاءت امداد الصليبيين الى بودوين فأسعفته وردت المسلمين عن بلاده ثم سار بودوين الى بيروت وحاصرها براً وبحراً شهرين في سنة ١١١٠ فملكها بالسيف وقتل منها نقرأ كثيراً وطارت شهرة الانتصارات الصليبية الى أقصى بلاد أوروبا حتى جاء الى القدس ماينوف عن عشرة آلاف عسكري نروجي بقيادة ملكهم سيفور بن ماينوس الثالث في عمارة مؤلفه من مئتي مركب وكانت قد خرجت هذه العمارة من مملكة نروج في شمالي أوروبا وسارت في البحر المحيط (لعله الاوقيانوس الاطلانطيكي) تأمته ثلاث سنوات الى ان وصلت الى مدينة يافا سنة ١١١٠ فلما علم بودوين بوصولهم ذهب لملاقاتهم واستحلفهم بان يجاهدوا معه فقبل سيفور طلبه هذا بدون مكافئة سوى قطعة من خشب صليب الصلبوت وساروا الى ان وصلوا الى القدس وبعد أيام قاموا قاصدين مدينة صيدا فحاصروها مدة ستة أسابيع أظهر أهلها في أثناءها الشجاعة والقوة وأخيراً امتلكها الصليبيون وغنموا منها غنائم عظيمة اقتسمها كل من بودوين ملك القدس وسيفور ملك النروج وأخذ الملك سيفور قطعة من صليب الصلبوت وسافر الى بلاده فرحاً مسروراً بهذه الذخيرة المقدسة التي وضعها في كنيسة دورتم ولما رجع بودوين الى عاصمة مملكه علم بان جيرفيز حاكم طبريه قد وقع أسيراً في أيدي المسلمين فشملة الحزن الشديد لانه كان يحبه محبة عظيمة وبعد ذلك وردت رسل من عسكر المسلمين الى بودوين يطلبون منه فدية حبيسه المذكور وان تكون الفدية ان يرد اليهم عكا ويافا وغيرها فرد بودوين الجواب اليهم قائلاً اني بطيب خاطر أفديه منكم بمال عظيم أدفعه لكم وأما البلاد فلا أعطيها لكم ولو كانت فدية عن أخي نفسه أو عن جميع الامراء الصليبيين ولما رجعت الرسل الى دمشق بهذا الجواب قتلوا جيرفيز ومن معه

وفي سنة ١١١٢ مات تنكريد فأمقام انطاكية فخرن عايله بودوين وباقي

الامراء الصليبيين ثم حصل تغيير في الجو ونزل ضباب لهيبي أحرق المزرعات وبسبب ذلك حصل قحط ومجاعة ثم حصلت زلازل شديدة هدمت جملة مدن من إقليم كليكا وكذلك الابراج التي حول سور مدينة الرها وقلعة مدينة حلب قد اندكت وهدمت بأندفاع مخيف وقد هدمت كنائس وعمارات شاهقة في مدينة انطاكية من أساسها وكذلك الباب البحري وأبراجه وفي أواخر سنة ٥١١ هـ خرج بودوين ملك القدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح أهلها وأحرق جوامعها وهم الى مصر فداهمه مرض حمله على العود واجتمعت حوله جميع الامراء والقواد فاخذ يشجعهم ثم حلفهم بان لا يدفوه في أرض غريبة وطلب منهم نقل جسده ودفنها بالقدس بجوار أخيه ثم أمر خدامه بكيفية دفنه وسألوه عن كون يكون عليهم سلطاناً بعده فاجابهم بأنه قد ترك هذا التخت لشقيقه اسطاكيوس اذا كان يرغب في الإقامة بفلسطين والا يكون لابن عمه بودوين دي بورغ أمير الرها ومات في سنة ١١١٨ وهو راجع الى القدس قبل ادراك العريش فترعوا أحشاه ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في وسط أرض رملية وأقاموا على قبره حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى أيامنا هذه باسم رمال بردويل (وهو تحريف لفظ بودوين والبعض يقول بغيره) أما جسده فحملوها الى بيت المقدس ودفنوها هناك بجوار أخيه غودافرو

﴿ جمعيات الرهبان الصليبيين ﴾

كانت قبل استيلاء الصليبيين على القدس جمعية هناك باسم (ضياف الغربا) وهذه الجمعية تمتلك نزلاً أو فندقاً لاجل إقامة الغرباء من زوار القدس وكانت هذه الجمعية تقدم للزوار الماء كل ولما استولى الصليبيون على المدينة أوسعوا نطاق هذه الجمعية واكتبوا لها بمبالغ مالية وأضافوا على عملها معالجة الجرحى وتنازل كثير من الشبان عن ميراثهم لهذه الجمعية مثل رايوندي دي بوي ودودون دي كومباس من أهالي دوفينه وغسطنون من مدينة بردواس وكونون دي مونته من مدينة أوفرينا ثم تشكلت بالمدينة جمعية باسم الهيكلين كما سيأتي بيانه

ثم أنشئت كنيسة عظيمة باسم القديس يوحنا المعمدان تابعة لجمعية ضياف الغربا وأنشئت أيضاً فنادق لاجل إقامة المرضى والجرحى ومنازل لاجل سكن أعضاء الجمعية الذين من وظيفتهم معالجة المرضى والمجروحين الذين تلقبوا باسم رهبان القديس يوحنا المعمدان وكانوا يقبلون فقراء الزوار بهذه الفنادق ويقدمون لهم ما

يلزمهم من أكل ولبس وغيره من أنواع الخدم بغاية الشرف والممنونية ببشاشة تامة وفي سنة ١١٠٤ حينما كانت هذه الجمعية تحت رئاسة رايوندي دي بوي أضيف على شروطها بأنه يجب على الاعضاء الخدمة العسكرية فكانت هذه الجمعية من أكبر الجمعيات وساعدت حكومة الصليبيين المساعدة التامة لان أعضائها كانوا يحاربون في وسط صفوف الصليبيين براية خصوصية شقيتين بيضاء وسوداء ثم يتوجهون الى الفنادق لاجل عيادة المرضى وخدمة الزوار الفقراء وبهذه الصفة انتشرت هذه الجمعية في ممالك اوروبا وعين من أعضائها من يتجول في اوروبا لاجل جمع الصدقات والتبرعات وآخرين لاجل تحصيل ايراداتها الخصوصية وذلك جميعه للاتفاق على الجمعيه ومستلزماتها. أما الجمعية الثانية المسماة بجمعية الهيكليين فانها تأسست سنة ١١١٨ من تسعة أشخاص فرنساويين وكانت شروط هذه الجمعية هي ان تحمي جميع الزوار الواردين من اوروبا الى القدس ومحاربة المسلمين ثم تبعهم عدد وافر وثأبت هذه الجمعية من الامراء والملوك وتخصص لها الانعامات سامية من الاحبار الرومانيين وصارت جمعية رهبانية عسكرية وكان السبب في تسميتهم هيكليين هو ان بودوين الثاني الذي سيأتي ذكره شيد لها منزلاً كبيراً كدير فوق دثار هيكل سليمان وكان علم هذه الجمعية مكتوبة عليه هذه الالفاظ الداوودية (.. لا لنا يارب .. لا لنا .. لكن لاسمك أعط المجد) وكان لهذه الجمعية شأن كبير في محاربة الاسلام

﴿ في ولاية بودوين الثاني ﴾

بعد دفن جثة بودوين الاول اجتمع جميع قواد العساكر ورؤساء الكنائس وقرروا تعيين بودوين دي بورغ أمير الرها سلطاناً عليهم حسب وصية بودوين الاول وأعلنوا بودوين المذكور في الرها فقبل هذا التعيين وتنازل عن أمانة الرها الى جوسلين دي كورتناي وترك أمرها وسافر الى القدس فقابلوه باحترام عظيم وأجلسوه على تخت ملكه وتسمى باسم بودوين الثاني

﴿ وفاة الامام المستظهر بالله العباسي وخلافة ولده المسترشد بالله ﴾

في سادس عشر ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس احمد بن المقتدي بامر الله وكان عمره ٤١ سنة و ٦ اشهر و ٦ ايام وخلافته اربع وعشرون سنه وثلاثة أشهر واحدى عشر يوماً وحكم في

أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد من السلجوقيين وهم أخو ملكشاه تاج الدولة
تنش وركن الدولة تكياروق بن ملكشاه وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه
وكان المستظهر كريم الاخلاق لين الجانب مشكور المساعي يحب العلم والعلماء
وكان يسارع الى اعمال البر حسن الخط جيد التوقيع ولما توفي صلى عليه ولده
المسترشد بالله وبعد دفنه بويج لولده المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أبي العباس
احمد بن المستظهر وكان ولي عهد قد خطب له ثلاث وعشرين سنة فبايعه أخواه وهما
ابو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدي بأمر الله وغيرهم
من العلماء والامراء والقضاة والاعيان وكان المتولي لاخذ البيعة القاضي أبو الحسن
الدامغاني وكان نائباً عن الوزارة فافقره المسترشد بالله عليها ثم عزله عن نيابة
الوزارة واستوزر أباشجاع محمد بن الريب أبي منصور وزير السلطان محمود
﴿واقعة ايلغازي مع الصليبيين بمحدود انطاكية﴾

في سنة ٥١٣ سار الافرنج الى نواحي حلب ونازلوها واخربوها ولم يكن بحلب
من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً وخافهم أهلها ولو مكثوا من القتال لم يبق بها
احد لكنهم منعوا من ذلك وصانعوا الافرنج أهل حلب على ان يقاسموهم
املاكهم التي بباب حلب وكان الامير ايلغازي صاحب حلب ببند ماردن يجمع
العساكر والمتطوعة للغزاة فاجتمع عليه نحو عشرين الفا وكان معه اسامة بن المبارك
ابن شبل الكلالي والامير طغان ارسلان بن المكر صاحب بدليس وارزن فسار
بهم الى الشام عازماً على قتال الافرنج بناحية انطاكية فلما علم بذلك روجار
دي سيسليا الوصي على ابن بوهموند صاحب انطاكية ارسل الي بودوين الثاني
ملك القدس يطلب مساعدته ولكن قبل ورود ملك القدس اليه سار بجيشه البالغ
ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل فزلوا قريباً من الاثارب بموضع يقال
له تل عفرين بين جبال ليس لها طريق الا من ثلاث جهات وقد ظن الافرنج
بانه لا يمكن للمسلمين السلوك اليهم لضيق الطريق فاخذوا الى المطاولة
وارسلوا الى ايلغازي يقولون له لاتعب نفسك بالمسير الينا فنحن واصلون اليك فاعلم
اصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل فاشاروا بالركوب من وقته ففعل ذلك وسار
اليهم ودخل الناس من الطرق الثلاثة فلم يشعر الافرنج الا واوائل المسلمين
قد غشيتهم فحمل الافرنج حملة منكرة وجري بينهم حرب شديدة واحاطوا الافرنج
من جميع جهاتهم واخذهم السيف من سائر نواحيهم فلم يفلت منهم غير نفر

يسير وقتل الجميع واسروا وكان في جملة الاسرى ماينف عن سبعين فارساً من مقدميهم حملوا الى حلب فبدلوا في نفوسهم ثلثمائة الف دينار فلم يقبل منهم وقتل روجار وحمل رأسه وكان ذلك في منتصف شهر ربيع اول سنة ٥١٣ هـ موافقة سنة ١١٢٠ م

ثم جاءت الجيوش الصليبية التي كان طلب روجار مساعدتها كما ذكر تحت رئاسة بودوين الثاني ملك القدس ومعه أميراً الرها وطرابلس فهجموا على العساكر الاسلامية هجمه شديدة خصوصاً رجال جمعية يوحنا المعمدان انتهت بهزيمة العساكر الاسلامية وبعد ذلك رجع بودوين الى القدس وكذلك جوسلين سار الى جهة طبرية فكبس طائفة من طيء يعرفون ببني خالد فاخذهم واخذ غنائمهم وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعه فاخبروه أنهم من وراء الحزن بوادي السلالة بين دمشق وطبرية فقدم جوسلين مائة وخمسون فارساً من أصحابه وسار هو في خمسين فارس على طريق آخر ووعدهم الصبح ليكبسوا بني ربيعة فوصلهم الخبر بذلك فارادوا الرجيل فمنعهم أميرهم وكانوا في مائة وخمسين فارساً فوصلهم المائة وخمسون من الأفرنج معتقدين ان جوسلين قد سبقهم او سيدركهم فاضل الطريق وتساوت القوتان فاقتتلوا وطعنت العرب خيولهم فجعلوا أكثرهم رجاله فقتل من الأفرنج سبعون واسر اثنا عشر من مقدميهم بذل كل واحد في فداء نفسه مالا جزيلا وعدة من الاسرى واما جوسلين فبلغه خبر الواقعة وهو ضال الطريق فسار الى طرابلس فجمع بها جمعاً وسار الى عسقلان فاغار على بلدها فهزمه المسلمون هناك فعاد مغلولاً

﴿ قتل الافضل بن بدر الجمالي وزير مصر ﴾

في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥١٥ هـ قتل أمير الجيوش الافضل بن بدر الجمالي وهو وزير الحاكم بأمر الله خليفة مصر وكان قد ركب الى خزنة السلاح ليفرقه على الجنود على جاري العادة في الاعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والحيلة فتأذى بالغباب فامر بالبعد عنه وسار منفرداً ومعه رجلان فصادف رجلين بسوق الصياقلة فضر به بالسكاكين فجرحاه وجاءت من ورأه فضر به بسكين في خصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه الى داره فدخل عليه الخليفة وتوجه له وسأله عن الاموال فادله عليها فلما توفي الافضل بقى الخليفة في داره نحو اربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً

ووجد له من الاعلاق النفيسة والاشياء القليلة الوجود مالا يوجد مثله لغيره واعتقل اولاده وكان عمره ٥٧ سنة وكانت وزارته ثمانيا وعشرين سنة منها آخر أيام المستضي وجميع أيام الأمر باحكام الله ثم ولى بعده أبو عبد الله بن البطاحي ولقب المأمون وتحكم في الدولة

﴿ محاربة بلق ابن بهرام مع جوسلين أمير الرها واسره ﴾

في سنة ٥١٥ الموافقة سنة ١١٢١ م سار بلق بن بهرام ولد اخي ايلغازي الى مدينة الرها فحصرها وبها الافرنج وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها فجاءه رجل تركاني واعلمه ان جوسلين صاحب الرها وسروج قد جمع الافرنج وهو عازم على كبسه وكان قد تفرق عن بلق اصحابه وبقي في اربعمائة فارس فوقف مستعداً لقتالهم واقبل الافرنج ولكن من لطف الله ان الافرنج وصلوا الى أرض قد نصب عنها الماء فصارت وحلا فغاصت خيولهم فيها فلم يتمكن من الاسراع مع ثقل السلاح والفرسان فرماهم اصحاب بلق بالنشاب فلم يفلت منهم احد وأسر جوسلين وصهره غاليران وكبلوهم بالحديد وطلب من جوسلين أن يسلم الرها فلم يفعل وبذل في فداء نفسه اموالاً جزيلة واسرى كثيرة فلم يجبه الى ذلك وحملوها الى قلعة خرتبرت وسجنوها بها وأسر أيضاً جماعة من فرسانهم المشهورين فسجنوا معهم

﴿ محاربة بلق مع بغدوين ملك القدس وأسره ﴾

في سنة ٥١٧ الموافقة سنة ١١٢٣ م جمع بغدوين رجاله وسار قاصداً مدينة خرتبرت بديار بكر للاستيلاء عليها وتخليص جوسلين من الاسر وكان بلق محاصراً قلعة كركر فباغته مجيء بغدوين فرحل اليه والتقى واقتتلا فانهزم الافرنج واسر ملكهم بغدوين ومعه جماعة من اعيان فرسانهم وسجنوا بقلعة خرتبرت مع جوسلين ومن معه

ثم اجتمع نحو خمسين ارمنياً وتحالفوا على تخليص ملك القدس من الاسر فغيروا ملابسهم واخفوا سلاحهم تحتها ودخلوا قلعة خرتبرت منفردين الى أن ساروا من الداخل وهناك اظهروا اسلحتهم وأخذوا يقتلون العساكر حراس السجن وكسروا قيود المسجونين وأراد وخلصهم ونصبوا علم الصليبيين على القلعة فباغتهم العساكر الاسلامية وحاصروا القلعة بما فيها ولم يتمكن أحد من الهرب الا جوسلين أمير

الرها وظل بودوين ومن معه في السجن وأما الخمسون ارمياً فذبحوا عن آخرهم وكان بلك صاحب القلعة قد توجه الى حران ولما بلغه ماجرى بالقلعة عاد في عساكره اليها وحصرها كما ذكر وأما جوسلين فانه اقسم بان لا يحمق ولا يشرب الخمر حتى يتوجه لزيارة القدس ويسمى في تخلص الاسرى

﴿ ورود أهل البندقيه للاشتراك مع الصليبيين ﴾

لم يشترك أهل البندقيه في المحاربات الماضية مع الصليبيين لكونهم يشتغلون بالتجارة ولما رأوا ان أهل بيزا وجنوى قد توجهوا الى بلاد فلسطين وانتصروا وربحوا غنائم كثيرة تفوق على ارباح التجارة أخذتهم الغيرة واستعدوا وتجمعوا تحت رياسة الدوك مخايل مقدم مشيخة البندقيه بعمارة بحرية مركبة من واحد وعشرين مركباً وساروا الى أن وصلوا الى عكا وهناك طلوعوا وساروا في البر قاصدين القدس فاحتفل بهم ثم عقد مجلس المشورة وقرر محاربة العساكر الاسلامية فحاصروا مدينة صور وذلك بعد مداوات كثيرة لعدم اتفاقهم على المحاصرة هل تكون على صور أو على مدينة عسقلان فاخيرا اقرروا على محاصرة صور كما تقدم

﴿ استيلاء الصليبيين على مدينة صور ﴾

كانت مدينة صور للخلفاء العلويين بمصر الى سنة ٥٠٦ فلما عزم ملك الافرنج على محاصرتها خافه اهلها فارسلوا الى اتابك طغتكين صاحب دمشق يطلبون منه ان يرسل اليهم اميراً من عنده يتولى امرهم ويحميهم وتكون البلد له فسير اليهم عسكرياً وجعل عليهم والياً اسمه مسعود وكان شهماً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها وسير اليهم مسيرة ومالا فرقه عليهم فطابت نفوس أهل البلد ولم تزل الخطبة للخليفة الأمر وكتب الى الأفضل بمصر يعلمه بما كان ويقول انه متى وصل اليها من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها اليه ويطلب ان الاسطول لا يتقطع عنها بالرجال والقوة فشكره الأفضل على ذلك واثني عليه و صوب رأيه و جهز اسطولا وسيره الى صور فاستقامت احوال اهلها الى سنة ٥١٦ بعد قتل الأفضل فسير اليها اسطولا وأمر المتقدم على الاسطول أن يقبض على الامير مسعود والي صور ويتسلم البلد منه وكان السبب في ذلك ان اهل صور اكثروا من الشكوى منه الى الأمر باحكام الله ففسار الاسطول الى ان رساعدت صور فخرج مسعود اليه للسلام فلما صعد الى مركب المتقدم قبض عليه واعتقله ونزل الى المدينة وتسلمها وعاد الاسطول الى مصر وفيه

الامير مسعود فاكرم واحسن اليه واعيد الى دمشق واما الوالي المصري فانه راسل
 طغتكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد وان سبب ما فعله هو شكوى اهل صور فاحسن
 طغتكين الجواب وبذل له نفس المساعدة وفي ربيع أول سنة ٥١٨ قدم الصليبيون
 تحت رياسة غوبليوم وكيل سلطنة القدس وبطريك القدس ويونص صاحب طرابلس
 والدوك مخايل المقدم على أهالي مشيخة البندقيه وحاصروا مدينة صور برأ وجاءت
 مراتب البندقيه وحاصرتها بجزاً ولم يكن لاهالي صور من الحمية والنشاط ما كان
 لسلفاهم او لمسلمي المدن الاخرى لان الغنى الذي حازته صور من تجارتها قاد
 أهلها الى التعمتات والرخاء فكانوا يصرفون أيامهم بالسرور والملاهي دون الاعتناء
 بالتمرن على الحرب والقتال ولولا بسالة الجنود الشامية والمصرية لما بقيت المدينة أمام
 الافرنج يوماً واحداً وكتب اهل المدينة الى خليفة مصر يطلبون منه المدد وكذلك
 طغتكين صاحب دمشق فلم يأتمهم أحد فثاروا على الدفاع وكانت الافرنج محيطه بها
 من كل جانب ونصبوا عليها ابراجاً من خشب ومنجانيقات وأخذوا يضربونها
 ليلاً ونهاراً وأهل المدينة يقاتلون ويدافعون عن انفسهم وأرسلوا ثمانية يطلبون
 النجدة من خليفة مصر وملك دمشق فلم ينجدهم لان الافرنج أرسلوا أمير البندقيه
 للمحافظة من جهة البحر لمنع خليفة مصر عن ارسال النجدة وأرسلوا صاحب
 طرابلس يترصد طريق البر فجاء طغتكين بالجيوش الشامية فصد عن عبور النهر ولازم
 من بالمدينة القتال فقلت الاقوات وكان الجوع قد بلغ من المحصورين مبلغاً عظيماً
 فراسل حينئذ طغتكين أمراء الصليبيين في الصلح وقرر الامر على ان يسلم المدينة
 اليهم ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما يقدرون عليه من أموالهم
 ورحالهم وفتحت ابواب المدينة وملكها الافرنج بعد حصار خمسة شهور وفارقها
 أهلها ونصبت اعلام الافرنج على المدينة وزينوها باغصان الزيتون والاقشة وكان
 ذلك في سنة ١١٢٤ م

﴿ محاصرة الصليبيين لمدينة حلب واستيلاء البرسقي عليها ﴾

بعد استيلاء الصليبيين على مدينة صور كما تقدم طمعوا وقويت نفوسهم ورأوا
 الاستيلاء على بلاد الشام وأكثروا من حشد الجيوش ثم وصل اليهم ديبس بن
 صدقه صاحب الحلة فأطمعهم في حلب وقال لهم ان أهلها شبيعة وهم يميلون الي
 من أجل المذهب فتى رأوني سلموا لي البلد وقال لهم اني أكون نائباً عنكم
 ومطيعاً لكم فساروا معه اليها وحاصروها وقتلوا قتلاً شديداً وبنوا لهم بيوتاً تقيمهم

من الحر والبرد فلما رأى اهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك وظهر لهم من صاحبها تمرناش الوهن والعجز وقلت المؤمن عندهم فأروا ان يكتبوا البرسقي صاحب الموصل لاجل ان يحميهم لما وجدوا فيه من القوة فأرسلوا اليه يستنجدون ويسألونه الحجيء اليهم ليسلموا البلد اليه فجمع عساكره وقصدهم وأرسل الى من بالبلد وهو في الطريق يقول انني لا أقدر على الوصول اليكم والافرنج يقاتلونكم الا اذا سلمتم القلعة الى نوابي وصار أصحابي فيها لانني لا أدري ما يقدره الله تعالى اذا اتاقت الافرنج فان انهزمتا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتى أحتمي انا وعسكري بها لم يبق منا احد وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها فاجبوه الى ذلك وسلموا القلعة الى نوابه فلما استقروا فيها واستولوا عليها سار بعساكره فلما اشرف عليها ونظره الافرنج رحلوا عن البلد بدون حرب فاراد من في مقدمة عسكره ان يحمل عليهم فمعهم وهكذا صارت حلب تبعاً للبرسقي صاحب الموصل من عمال السلطان محمود وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٥١٨

﴿ في خلوص بودوين الثاني ملك القدس من الاسر ﴾

وفي هذه السنة أيضاً تم الاتفاق على فك أسر بودوين الثاني ملك القدس بمال عظيم دفعه وتوجه الى مملكته وأقام بها وكان هو أحسن الافرنج حظاً بهذه المملكة لكثرة توافد أهل اوربا لمساعدته ضد المسلمين من سكان المانيا والنمسا وبلاد البندقيه وأهل بيزا وجنوى وخصوصاً أهل فرنسا ولما قامت به جمعيات الرهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان التي كان رجالها يلبسون الشياح الحمراء وجمعية الهيكلين التي كان رجالها يلبسون الشياح البيضاء

﴿ استيلاء البرسقي على كفرطاب ﴾

في سنة ٥١٩ جمع البرسقي عساكره وسار الى الشام وقصد كفرطاب وحصرها فملكها من الافرنج وسار الى قلعة عزاز وهي من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين فحصرها فكاتب جوسلين الافرنج فاجتمعوا عن آخرهم من فارس وراجل فلقيهم البرسقي واقتلوا قتلاً شديداً انهزم فيه المسلمون وقتل منهم ما ينوف عن الف وأسر كثير وعاد البرسقي الى حلب بخلف بها ابنه مسعود وعبر الفرات الى الموصل ليجمع العساكر ويعود الى القتال

﴿ قتل المأمون بن البطائحي وزير خليفة مصر الأمر ﴾

في رمضان سنة ٥١٩ اتفق المأمون بن البطائحي وزير الخليفة بمصر مع الامير
 جعفر أخى الخليفة الأمر بأحكام الله ليقتل أخاه الأمر ويجعله هو خليفة وتقررت
 القاعدة بينهما على ذلك فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي اسامة وكان خصيصاً بالأمر
 مقرراً منه وقد ناله من الوزير أذى واطراح فحضر عند الأمر وأعلمه الحال فقبض
 على وزيره أبا عبدالله البطائحي الملقب بالمأمون وصلبه واخوته وهذا جزاء من
 قابل الاحسان بالاساءة وكان هذا الوزير كريماً واسع الصدر قتالاً سفاكاً للدماء
 وكان شديد التحرز كثير التطلع الى أحوال الناس من العامة والخاصة من سائر
 بلاد مصر والشام والعراق وفي أيامه كثر الغمازون

﴿ اخبار الاسماعيليين وامتلاكهم قلعة بانياس ﴾

في أثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم
 كانوا يكثرون من تدخين الحشيش ويدعوهم البعض بالاسماعيليين نسبة الى اسماعيل
 رئيسهم وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان اسماعيل يترصدهم فرصة للغزو
 والنهب فلما رأى الدول القوية منشغلة بالحرب في أنحاء المشرق وضع يده على
 بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة
 ويصالحهم أخرى الى ان انتهى به الأمر فاقام حكومته بين ظهرانيهم وابتنى حصوناً
 منيعة أربعت الولاية المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع جزية معلومة
 وقاية من فنكهم بجيائهم لانه كان متفناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله
 الدهاة وفي سنة ٥١٩ كان الرئيس عليهم بهرام بن أخت الاسد اباضي بعد قتل خاله
 المذكور وكان طغتكين صاحب دمشق قد أخذه عنده لاجل المعاضدة به وباتباعه
 فحينئذ أعلن عداوته فكثرت أتباعه من كل من يريد الشر والفساد وأعاناه الوزير
 ابو طاهر بن سعد المرغيناني قصداً للاعتقاد به على ما يريد فعظم شره واستفحل
 أمره وصار أتباعه اضعافاً مما كانوا ثم ان بهرام رأى من أهل دمشق فظاظة
 وغلاظة عليه تخاف عاديتهم فطلب من طغتكين حصناً يأوى اليه هو ومن اتبعه
 فإشار الوزير بتسليم قلعة بانياس اليه فسلمت له فلما صار اليها اجتمع اليه أصحابه
 من كل ناحية فعظم حينئذ خطبه وحملت الحنة بظهوره

﴿ محاربة طغتكين انا بك مع بودوين الثاني ﴾

في سنة ٥٢٠ اجتمع بودوين الثاني ملك القدس بجميع عسكره وعساكر
الجمعيات الرهبانية المار ذكرهم وساروا الى نواحي دمشق فنزلوا بمرج الصفر عند
قرية يقال لها شقحب بالقرب من دمشق فعظم الامر على المسلمين واشتد خوفهم
وكتب طغتكين انا بك امراء التركان من ديار بكر وغيرها وجمعهم وكان هو قد
سار عن دمشق الى جهة الافرنج واستخلف بها ابنه تاج الملوك بوري فكان بها
وكما جاءت طائفة أحسن ضياقتها وسيرها الى ابيه فلما اجتمعوا سار بهم طغتكين
الى الافرنج فالتقوا اواخر ذي الحجة واقتتلوا واشتد القتال فسقط طغتكين عن
فرسه فظن أصحابه انه قتل فانهمزوا وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الافرنج
وبقي التركان فلم يقدروا ان ياحقوا المسلمين في الهزيمة فثخلفوا فلما رأوا فرسان
الافرنج قد تبعوا المهزمين وان معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حام حملوا
على الرجالة فقتلوهم ولم يسلم منهم الا الشريد ونهبوا معسكر الافرنج وخيامهم
وأموالهم وجميع مامعهم وعادوا الى دمشق سالمين لم يفقد منهم أحد ولما رجع فرسان
الافرنج من اترامهمزومين ورأوا رجالهم قتلى وأموالهم منهوبة ساروا منهزمين لايولي
الاخ على أخيه وكان هذا من أغرب الحروب اذ ان طائفتين نهزمان كل واحدة
من صاحبتها

﴿ في الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله العباسي والسلطان محمود ﴾

في هذه السنة حصل نفور بين يرتقش الزكوي شحنة كية بغداد (محافظ المدينة)
وبين نواب الخليفة وتهده الخليفة فيها نخاف الزكوي على نفسه فسار عن بغداد الى
السلطان محمود في رجب وشكا اليه وحذره من الخليفة واعلمه بأنه قد قاد العساكر
ورأى الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله زاد قوة وجمعاً وحينئذ يتعذر عليك
ما هو سهل الآن فتوجه السلطان نحو العراق فارسل اليه الخليفة يخبره بضعف البلاد
وأهلها بسبب ديبس وافساد عسكره فيها وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات
والاقوات ويطلب منه ان يتأخر في هذه المرة الى ان تنصاح حال البلاد ثم يعود اليها
وبذل له على ذلك مالا كثيراً فلما سمع السلطان هذه الرسالة قوي عنده ما قرره
الزكوي وأبي ان يتأخر وسار اليها مجدأ فلما بلغ الخليفة الخبر عبره وأهله وحرمه
ومن عنده من أولاد الخلفاء الى الجانب الغربي في ذي القعدة مظهر الغضب والانتراح

عن بغداد ان قصدها السلطان فلما خرج من داره بكى الناس جميعهم بكاء عظيما لم يشاهد مثله فلما علم السلطان ذلك اشتد عليه فارسل يستعطف الخليفة ويسأله العود الى داره فاعاد الجواب انه لا بد من عودك هذه الدفعة فان الناس هلكوا بشدة الغلاء وخراب البلاد وانه لا يرى في دينه ان يزداد ما بهم وهو يشاهدهم فان عاد السلطان والا رحل هوى عن العراق فغضب السلطان لقوله ورحل نحو بغداد واقام الخليفة بالجناب الغربي فلما حضر عيد الاضحى خطب الناس وصلى بهم فبكى الناس لخطبته وارسل عفيفا خادمه وهو من خواصه في عسكر الى واسط لينع عنها نواب السلطان فارسل اليه عماد الدين زنكي بن اقسقر فاقبلوا وانهمزم عسكر عفيف وقتل منهم مقتلة عظيمة واسر مثلهم وتغافل عماد الدين زنكي عن عفيف حتى نجح المودة كانت بينهما ثم ان الخليفة جمع السفن وسد بها أبواب دار الخلافة سوى باب النوبي وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام فيه لحفظ الدار ووصل السلطان بغداد في عشرين الحجة ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس فشكا الناس الى السلطان فامر بنحروجهم وصارت الخابرة بين السلطان والخليفة بشأن الصالح والعسكران أمام بعضهم ولم يحصل منهم خلاف مناوشات صغيرة ثم ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة أول المحرم سنة ٥٢١ وضح أهل بغداد من ذلك فاجتمعوا ونادوا الغزاة فاقبلوا من كل ناحية ولما راهم الخليفة خرج من السرادق والشمسية فوق رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى باعلا صوته (يالهاشم) وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة وكان له في الدار الف رجل محتفين في السراديب فظهروا وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب فاسر منهم جماعة من الامراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الامراء ودار عزيز الدين المستوفي وقتل منهم خلق كثير في الدروب (الحواري والازقة) ثم عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من أهل بغداد وأمر بجفر الخنادق فخضرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الامر عليهم وكان القتال كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ الدجلة وعزم عسكر الخليفة على ان يكبسوا عسكر السلطان فغدر بهم الامير ابو الهيجاء الكردي صاحب اربل وخرج كأنه يريد القتال فالتحق هو وعسكره بالسلطان وكان السلطان قد أرسل الى عماد الدين بواسط بالحضور اليه ومعه جميع العساكر في السفن وعلى الدواب في

البر فلما قارب بغداد أمر كل من معه في السفن وفي البر بلبس السلاح واطهار ما عندهم من الجلد فانتشرت العساكر وملؤا الارض برأ وبجراً فقابلهم السلطان وفرح بعماد الدين وعزم على قتال بغداد والجند في ذلك في البر والبحر فلما رأى الخليفة المسترشد بالله ذلك وخروج أبي الهيجاء من عسكره أجاب الى الصلح وترددت الرسل بينهما فاصطالحا واعتذر السلطان مما جرى وكان حلماً يسمع سبه باذنه فلا يعاقب عليه وعفا عن أهل بغداد جميعهم وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال ان الدنيا لا تساوي فعل مثل هذا ولما عزم السلطان على المسير من بغداد نظر فيمن يصلح ان يتولى شحنة العراق يأمن معه من الخليفة فاختبر أمرائه واعيان دولته فلم ير فيهم من يقوم بهذا الامر الا عماد الدين زنكي فاستشارهم في ذلك فصدقوا عليه وقالوا لا يصلح لذلك واعادة ناموس العراق ولا تقوى نفس احد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين) فاسند اليه الولاية مضافة الى ماله من الاقطاع وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٥٢١ هجرية

﴿ وفاة عز الدين البرسقي وولاية عماد الدين زنكي الموصل ﴾

(ومحاصرة الصليبيين حلب)

في سنة ٥٢١ توفي الامير عز الدين مسعود بن البرسقي وهو صاحب الموصل وكان موته بعد محاصرة مدينة الرحبة واستيلاءه عليها بساعة واحدة وقام بعده أخ له صغير واستولى على البلاد مملوك للبرسقي يعرف بالجاولي ودر أمر الصبي وأرسل للسلطان يطلب ان يقرر البلاد على ابن البرسقي وبذل الاموال الكثيرة في ذلك وكان الرسول القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد أمير حاجب البرسقي وكانا يخافان جاولي ولا يرضيان بطاعته وتصرفه ولما وصلا الى السلطان اجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر النائب عن عماد الدين وكان بينهما مصاهرة وذكر له صلاح الدين ما ورد بخصوصه وأقننى سره فخوفه نصير الدين من جاولي وقبح له فعاله ومحدث معه في ولاية عماد الدين ثم توجهوا الى السلطان وأبلغوه ان ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها فاستولوا على أكثرها وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين الى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين وكان البرسقي مع شجاعته يرد تعديهم على البلاد الاسلامية ومد قتل ازيد طمعهم وان ولده صغير ولا بد للبلاد من شههم شجاع يذب عنها ولذلك قد انهبنا الحال لمنع اللوم

عنا خوفاً من حصول خلل فاستشارهما السلطان فيمن يصلح للولاية فذكر اعماد الدين فاجاب السلطان الى توليته لما يعلمه من كفايته فاحضره وولاه البلاد كلها وكتب له منشوراً بذلك وسار وامتلك البلاد وفي اثناء ذلك كانت قد ضعفت ولاية حلب بعد البرسقي فسمع الافرنج بذلك فسار اليها جوسلين صاحب الرها بعساكره وحاصر حلب فصونع بمال فعاد عنها ثم وصل بعده صاحب انطاكية في جمع من الافرنج فشدق الحليون حول القلعة فمنع الداخل والخارج اليها من ظاهر البلد وأشرف الناس على الخطر العظيم الى منتصف ذي الحجة سنة ٥٢١ وكان عماد الدين قد ملك الموصل والجزيرة فسير الى حلب الامير سنقر دراز والامير حسن قراقوش وأقام الامير حسن قراقوش والياً عليها ولاية مستعارة الى ان وصلها عماد الدين زنكي فخرج الى أهل حلب فالتقوه واستبشروا بقدمه ودخل المدينة واستولى عليها ورتب أمورها وكان ذلك في شهر محرم سنة ٥٢٢ وجعل عماد الدين في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق ولولا ان الله تعالى من على المسلمين بملك أتابك عماد الدين زنكي ببلاد الشام لملكها الافرنج لانهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية واذا علم ظهر الدين طغتكين بذلك جمع عساكره وقصد بلادهم وحصرها وأغار عليها فيضطر الافرنج الى الرحيل للدفاع عن بلادهم فقدر الله تعالى انه توفي هذه السنة في ٨ صفر سنة ٥٢٢ فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين

﴿ قتل الاسماعيلية بدمشق واتحادهم بالافرنج ﴾

في هذه الاثناء قد زاد أمر الاسماعيليين أو الباطنيين وملك رئيسهم بهرام عدة حصون منها القدموس وغيره وكان بوادي التيم من أعمال بعلبك أصحاب مذاهب آخر مختلفة من النصيرية والدرزية والمجوس وأميرهم اسمه الضحاك فسار اليهم بهرام سنة ٥٢٢ وحصرهم وقتلهم فخرج اليه الضحاك في الف رجل وكبس عسكر بهرام ووضع السيف فيهم وقتل منهم عدداً عظيماً وقتل بهرام وانهمز الباقون وعادوا الى بانياس على أقبح صورة وكان بهرام قد استخلف في بانياس رجلاً اسمه اسماعيل فقام بعده وجمع شمل من عاد اليه وعاضده المزدقاني ثم انه أقام بدمشق انساناً اسمه ابو الوفاء بديل بهرام فقوي أمره وعلا شأنه حتى صار نفوذه أكثر من نفوذ صاحبها تاج الملوك ثم ان المزدقاني راسل الافرنج ليسلم اليهم مدينة دمشق

ويسلموا اليه مدينة صور واستقر الامر بينهم على ذلك وتقرر بينهم ميعاد لتنفيذ ذلك وهو يوم جمعه ذكروه وقرر المزدقاني مع الاسماعيلية ان محتاطوا ذلك اليوم بابواب الجامع فلا يمكنون أحدًا ان يخرج منه ليجي الافرنج ويملكوا البلد فبلغ الخبر تاج الملوك فاستدعى المزدقاني اليه فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك وعلق رأسه على باب القلعة ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف نفس وكان ذلك في منتصف رمضان سنة ٥٢٣ وكفى الله المسلمين شرهم ولما تمت هذه الحادثة بدمشق على الاسماعيلية خاف اسماعيل والي بانياس ان يثور به وبمن معه الناس فيهلكوا فراسل الفرنج وبذل لهم تسليم بانياس اليهم والانتقال الى بلادهم فاجابوه فسلم القلعة اليهم وانتقل هو ومن معه الى بلادهم ولقوا ذلا وهواناً وتوفي اسماعيل في أوائل سنة ٥٢٤ وكفى الله المسلمين شرهم

﴿ محاصرة الصليبيين دمشق وانهم امهم ﴾

لما باغ الفرنج قتل المزدقاني والاسماعليه بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا لعدم تملكهم دمشق وعمتهم المصيبة فاجتمع بودوين الثاني ملك القدس وصاحب طرابلس وصاحب انطاكية وغيرهم ومن وصل اليهم في البحر من التجار والزوار ورهبان الجمعيات وزحفوا بجيش عظيم على دمشق ليحصرها ولما سمع تاج الملوك صاحبها جمع العرب والتركمان ووصل الافرنج الى المدينة ونازلوها وأرسلوا الى اعمال دمشق لجمع الميرة والاغارة على البلاد فلما سمع تاج الملوك ان جمعاً كثيراً سار الى حوران لتهبه سير أميراً من أمراءه اسماه شمس الخواص في جمع من المسلمين اليهم وكان خروجهم في ليلة شامية كثيرة المطر ولقوا الافرنج في الصباح فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوهم فلم يفلت منهم غير مقدمهم واربعون رجلا وأخذوا ما معهم وهي عشرة آلاف دابة موقرة وثلاثة أسير وعادوا الى دمشق ولم يمسهم جرح فلما علم بذلك بودوين ومن معه التقي الله في قلوبهم الرعب فرحلوا عنها شبه المهزمين واحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وميره وغير ذلك وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم يقتلون كل من تخلف منهم فكثرت قتلهم وكان نزولهم ورحيلهم في شهر ذي الحجة سنة ٥٢٣

﴿ فتح عماد الدين زنكي حصن الأثارب ومحاصرة قلعة حارم ﴾

في سنة ٥٢٤ سار عماد الدين زنكي بعسكره قاصداً حصن الأثارب ومحاصرته

لشدة ضرره على المسلمين وهذا الحصن بينه وبين حلب ثلاثة فراسخ وكان من به من الافرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية وكان أهل حلب معهم في ضر وضيق شديدين فقد كانوا يغيرون عليهم وينهبون أموالهم فلما رأى عماد الدين ذلك صمم على حصر هذا الحصن فسار اليه لينزله فلما علم الافرنج جمعوا فارسهم وراجلهم لما يعرفوه من قوة عماد الدين وشدة بأسه ولم يتركوا مما بطاقتهم شيئاً الا استفذوه فلما فرغوا من أمرهم ساروا نحو عماد الدين فاستشار أصحابه فيما يفعل فاشاروا كلهم بالعود عن الحصن لان لقاء الافرنج في بلادهم خطر فقال لهم عماد الدين ان الافرنج قتي رأونا قد عدنا من وجههم طمعوا وساروا في أترنا وخربوا بلادنا ولا بد من لقاءهم على كل حال ثم ترك الحصن وتقدم اليهم فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريق لحصمه واشتد الامر بينهم الى ان انهزم الافرنج شر هزيمة ووقع كثير من فرسانهم في الاسر وقتل منهم خلق كثير وظفر المسلمون وتقدم عماد الدين الى عسكره بالانجاز وقال هذا أول مصاف عملناه معهم فلندفعهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ففعلوا ما أمرهم ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا الى الحصن فقساموه عنوة وقتلوا وأسروا كل من فيه وأخزبه عماد الدين ثم سار منه الى قلعة حارم وهي بالقرب من انطاكية وكانت للافرنج فحصرها فبذل له أهلها نصف دخل بلاد حارم وهادنوه فاجابهم الى ذلك وعاد عنهم وقد فرح المسلمون بتلك الاعمال وضعفت قوى الافرنج وعلموا ان البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب وصار منتهى قصدهم حفظ ما بأيديهم بعد ان كانوا قد طمعوا بتلك جميع البلاد

❖ وفاة الأمير باحكام الله وخلافة الخافض لدين الله بمصر ❖

في ثاني ذي القعدة سنة ٥٢٤ خرج خليفة مصر العلوي الأمير باحكام الله أبو علي بن المستعلي الى منتره له فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه وكانت مدة ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان عمره نيفاً وأربعمائة وثلاثين سنة وهو العاشر من الخلفاء العلويين أو المهديين ونسبتهم بذلك لانهم أولاد المهدي عبيد الله الذي ظهر بسلاجماسة وبني المهديدة بافريقيا ولما قتل لم يكن له أولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم بن محمد وبما ان أرملة الخليفة المتوفي كانت حاملاً لقب عبد المجيد بنائب الملك الى ان يروا ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويح بالخلافة عبد المجيد ولقب بالخافض لدين الله وكان مولد الخافض بعسقلان

فاستوزر أبا علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي فاستبد بالامر وتغلب على الحافظ
وقام بالوزارة حق القيام

﴿ وفاة جوسلين صاحب الرها ﴾

كان جوسلين من الافرنج الذي حاربهم عماد الدين زنكي بمحصر الأتارب
حتى امتلكه منهم عنوة فاصابه حجر من أحد أبراج الحصن فجرحه ولما عاد الى
الرها بلغه ان الأمير مسعود أتى بعساكره وحاصر أحد حصونه التابعة له فامر
بجمع عساكره وسار بهم محمولا على عرببة وقبل ان ينزل على الحصن المحصور
بلغه ان الأمير مسعود قد رفع الحصار وعاد الى بلاده وبعد هزيمة مات جوسلين
وهو بالعربية فارجعوه الى الرها ودفنوه هناك وكان ذلك في سنة ٥٢٥ الموافقة
سنة ١١٣١ م فحزنوا عليه حزناً شديداً

﴿ وفاة بودوين الثاني ملك القدس ﴾

وفي تلك السنة أيضاً مرض بودوين الثاني ملك القدس فمربان ينقل الى جوار قبر
المسيح وهناك مات بين ذراعي ابنته ميليسيندا وزوجها فولك الذي أوصى له بالملك
بعده فحزن عليه الصليبيون جميعهم لما كان له من المنزلة العظيمة عندهم وكانوا
يحبونه كثيراً لعدله بينهم ولكونه كان آخر الامراء الصليبيين الذين جاءوا فلسطين مع
غودافرو من مملكة فرنسا وكان هذا الملك قد حكم الرها مدة ثماني عشرة سنة
وحكم للقدس بعد ذلك اثني عشرة سنة وكان شجاعاً ووقع في الاسر مرتين

﴿ في تملك فولك دي الينو على القدس ﴾

بعد وفاة بودوين الثاني ملك القدس كما تقدم احتفلوا بتتويج فولك دي الينو
ملكاً على ولاية القدس حسب وصية حميه المذكور وكان فولك قد قدم من بلاد
فرنسا على عهد بودوين بعد الزيارة وهو ابن فولك ريشين بارتراد دي مونت
فورت ففي أثناء اقامته في القدس انفق على مائة محارب من ماله وكان يتراهم في أثناء
محاربة المسلمين فيظهر في القتال شجاعة عظيمة فلذلك أحبه بودوين الثاني
وازوجه ابنته ميليسيندا ولم يكن لبودوين ولد ذكر يرث الملك فوعده بانه بعد
مماته يكون هو الوريث الوحيد لمملكة القدس فحصل لهذا الشاب سرور عظيم
لزواجه ولورائته هذا الملك الذي تم له في سنة ١١٣١ م وسنة ٥٢٥ هـ

لشدة ضرره على المسلمين وهذا الحصن بينه وبين حاب ثلاثة فراسخ وكان من به
من الافرنج يقاسمون حاب على جميع أعمالها الغربية وكان أهل حاب معهم
في ضر وضيق شديدين فقد كانوا يغيرون عليهم ويهبون أموالهم فلما رأى عماد
الدين ذلك صمم على حصر هذا الحصن فسار اليه لينزله فلما علم الافرنج جمعوا
فارسهم وراجلهم لما يعرفوه من قوة عماد الدين وشدة بأسه ولم يتركوا مما
بطاقتهم شيئاً الا استنفذوه فلما فرغوا من أمرهم ساروا نحو عماد الدين
فاستشار أصحابه فيما يفعل فاشاروا كلهم بالعود عن الحصن لان لقاء الافرنج في
بلادهم خطر فقال لهم عماد الدين ان الافرنج بقى رأونا قد عدنا من وجههم
طمعوا وساروا في أترنا وخربوا بلادنا ولا بد من لقاءهم على كل حال ثم ترك
الحصن وتقدم اليهم فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريق لحصمه واشتد الامر
بينهم الى ان انهزم الافرنج شر هزيمة ووقع كثير من فرسانهم في الاسر وقتل
منهم خلق كثير وظفر المسلمون وتقدم عماد الدين الى عسكره بالانجاز وقال
هذا أول مصاف عملناه معهم فلندققهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ففعلوا
ما أمرهم ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا الى الحصن فقساموه عنوة وقتلوا
وأسر واكل من فيه وأخزبه عماد الدين ثم سار منه الى قلعة حارم وهي بالقرب
من انطاكية وكانت للافرنج فحصرها فبذل له أهلها نصف دخل بلد حارم وهادنوه
فاجابهم الى ذلك وعاد عنهم وقد فرح المسلمون بتلك الاعمال وضعفت قوى الافرنج
وعلموا ان البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب وصار منتهى قصدهم حفظ
ما بأيديهم بعد ان كانوا قد طمعوا بتلك جميع البلاد

❖ وفاة الأمر باحكام الله وخلافة الخافض لدين الله بمصر ❖

في ثاني ذي القعدة سنة ٥٢٤ خرج خليفة مصر العلوي الأمر باحكام الله أبو
علي بن المستعلى الى متز له فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه وكانت مدة ولايته
تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان عمره نيفاً وأربعمائة وثلاثين سنة وهو العاشر
من الخلفاء العلويين أو المهديين ونسبتهم بذلك لانهم أولاد المهدي عبيد الله الذي
ظهر بساجماسة وبني المهدي بافريقيا ولما قتل لم يكن له أولاد ذكور فكان الحق
بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم بن محمد وبما ان أرملة الخليفة المتوفي كانت
حاملًا لقب عبد المجيد بنائب الملك الى ان يروا ماذا يكون المولود فوضعت ابنة
قبويع بالخلافة عبد المجيد ولقب بالخافض لدين الله وكان مولد الخافض بعسقلان

فاستوزر أبا علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي فاستبد بالامرو تغلب على الحافظ
وقام بالوزارة حق القيام

﴿ وفاة جوسلين صاحب الرها ﴾

كان جوسلين من الافرنج الذي حاربهم عماد الدين زنكي بمحصر الانارب
حتى امتلكه منهم عنوة فاصابه حجر من أحد ابراج الحصن فجرحه ولما عاد الى
الرها بلغه ان الامير مسعود أتى بعساكره وحاصر أحد حصونه التابعة له فامر
بجمع عساكره وسار بهم محمولا على عربسة وقبل ان ينزل على الحصن المحصور
بلغه ان الامير مسعود قد رفع الحصار وعاد الى بلاده وبعد هنية مات جوسلين
وهو بالعربية فارجموه الى الرها ودفنوه هناك وكان ذلك في سنة ٥٢٥ الموافقة
سنة ١١٣١ م فحزنوا عليه حزناً شديداً

﴿ وفاة بودوين الثاني ملك القدس ﴾

وفي تلك السنة أيضاً مرض بودوين الثاني ملك القدس فامر بان ينقل الى جوار قبر
المسيح وهناك مات بين ذراعي ابنته ميليسيندا وزوجها فولك الذي أوصى له بالملك
بعده فحزن عليه الصليبيون جميعهم لما كان له من المنزلة العظيمة عندهم وكانوا
يحبونه كثيراً لعدله بينهم ولكونه كان آخر الامراء الصليبيين الذين جاءوا فلسطين مع
غودافرو من مملكة فرانسوا وكان هذا الملك قد حكم الرها مدة ثماني عشرة سنة
وحكم للقدس بعد ذلك اثني عشرة سنة وكان شجاعاً ووقع في الاسر مرتين

﴿ في تملك فولك دي الينو على القدس ﴾

بعد وفاة بودوين الثاني ملك القدس كما تقدم احتفلوا بتتويج فولك دي الينو
ملكاً على ولاية القدس حسب وصية حميه المذكور وكان فولك قد قدم من بلاد
فرنسا على عهد بودوين بعد الزيارة وهو ابن فولك ريشين بارتراد دي مونت
فورت ففي أثناء اقامته في القدس انفق على مائة محارب من ماله وكان يتراشهم في أثناء
محاربة المسلمين فيظهر في القتال شجاعة عظيمة فلذلك أحبه بودوين الثاني
وازوجه ابنته ميليسيندا ولم يكن لبودوين ولد ذكر يرث الملك فوعده بأنه بعد
مماته يكون هو الوريث الوحيد لمملكة القدس فحصل لهذا الشاب سرور عظيم
لزواجه ولورائته هذا الملك الذي تم له في سنة ١١٣١ م وسنة ٥٢٥ هـ

﴿ وفاة السلطان محمود ﴾

في هذه السنة أيضاً توفي السلطان محمود بن محمد همذان وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة وكانت ولايته أربعة عشرة سنة تقريباً وكان حليماً كريماً عاقلاً عادلاً كثير الاحتمال وطلب السلطنة بعده ولده داود بن محمود وأخوه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد وعمهما سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان محمد فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان واصفهان والري وسائر بلاد الحيل

﴿ استيلاء شمس الملوك على بانياس ﴾

في سنة ٥٢٧ طمع الافرنج في شمس الملوك صاحب دمشق ابن تاج الملوك وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم فعرضوا لاموال جماعة من تجار دمشق في مدينة بيروت وأخذوها فشكا التجار الى شمس الملوك فراسلهم في اعادة ما أخذوه وكرر القول فيه فلم يردوا شيئاً فحتمته الانفة من هذه الحالة والغيظ فجمع عسكره وتأهب ولا يعلم أحد مراده ثم سار وسبق خبره أواخر المحرم ونزل على بانياس أول صفر وقاتله لساعته وزحف اليه زحفاً متتابعاً وكانوا غير متأهبين وليس فيه من المقاتلة من يقوم به وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه وتبعه الناس من الفارس والراجل ووصلوا الى السور فقبوه ودخلوا البلد عنوة والتجأ من كان من جند الافرنج الى الحصن وتحصنوا به فقتل في البلد كثيراً من الافرنج وأسرو كثيراً ونهبت الاموال وقاتل القلعة قتالاً شديداً ليلاً ونهاراً فملكها رابع صفر بالامان وعاد الى دمشق فوصلها في سادسه ولما علم فولك ملك القدس بحصار بانياس أمر بجمع جيشه ليسير لتجديتها فأناه خبر فتحها فالغى أمره السالف

﴿ محاربة فولك ملك القدس نائب حلب ﴾

في صفر سنة ٥٢٧ سار فولك ملك القدس بجيوشه الى أطراف حلب فتوجه اليه الامير اسوار نائب حلب فيمن عنده من العسكر وانضاف اليه كثير من التركان فاقتلوا عند قنسرين فقتل من الطائفتين جماعات كثيرة وانهزم المسلمون الى حلب وتردد ملكهم في أعمال حلب فعاد اسوار وخرج اليه فيمن معه من العسكر فوقع على طائفة منهم فوقع بهم وأكثر فيهم القتل والاسر فعاد من سلم منهزماً الى بلاده وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر ودخل اسوار حلب ومعه الاسرى ورؤوس

القتلى وكان يوماً مشهوداً ثم خرج بعد ذلك طائفة من الافرنج من الرها وقصدوا أعمال حلب للاغارة عليها فسمع بهم اسوار نخرج اليهم ومعه الامير حسان البعلبكي فوقعوا بهم وقتلوه عن آخرهم واسرروا من لم يقتل ورجعوا الى حلب سالمين ﴿ استيلاء شمس الملوك على حصن شقيف تيرون ونهبه بلاد الافرنج ﴾

في شهر محرم سنة ٥٢٨ سار شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق الى حصن شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به والضحاك المذكور هو رئيس النصيرية والادريه والمجوسيه وكان يلاعب المسلمين والافرنج ويحتجى بكل طائفة على الاخرى فسار شمس الملوك اليه وأخذه منه عنوة فعضم أخذه على الافرنج لان الضحاك لا يتعرض لشيء من بلادهم المجاورة له فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم فلما اجتمعت ساروا الى حوران وأخذوا يخرّبون وينهبون القرى وكان شمس الملوك لما بلغه يجمع الافرنج قد جمع الجموع وحشد الحيوش والتف عليه جمع كثير من التركان ونزل بازاء الافرنج وجرت مناوشات ثم ان شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقي قبالة الافرنج وهم لا يشعرون وقصد بلاد طبريه والناصره وعكا وما جاورها التابعة للافرنج فنهب وخرّب واحرق وامتلأت ايدي من معه من الغنائم واتصل الخبر بالافرنج فانزعجوا ورحلوا في الحال بقتة وطلبوا بلادهم وأما شمس الملوك فانه عاد الى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الافرنج فوصل سالمًا وأما الافرنج فلما رأوا بلادهم خراباً أرسلوا الى شمس الملوك بتجديد الهدنة فهادنهم

﴿ قتل الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله ﴾

في شهر محرم سنة ٥٢٩ توفي السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه نخرج السلطان مسعود بجيشه وخرج الخليفة المسترشد بالله بجيشه والثقيا عاشر رمضان ومحاربا فانهزم جيش الخليفة وأخذ هو اسيراً ومعه جماعة كثيرة منهم وزيره وقاضي القضاة والامراء وسير السلطان الامير بك ايه الحمودي شحنة الى بغداد فوصلها في آخر رمضان واستولى على جميع املاك الخليفة فهاجت عامة بغداد وحاربوهم ثم ترددت الرسل بين الخليفة والسلطان مسعود على تقرير قواعد الصلح فتصالحا على مال يؤديه الخليفة وان لا يعود الى جمع العساكر وان لا يخرج من داره ثم وصل

خبر بقدم الامير قزان خوان رسولا من السلطان سنجر فتأخر مسير الخليفة
 وخرج الناس مع السلطان مسعود الى لقاء الامير وفارق الخليفة بعض من كان موكلاً
 به فقصده اربعة وعشرون رجلاً من الباطن ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه وطعنوه
 نحواً من عشرين طعنة ومثلوا به فجدعوا انفه واذنيه وقتل معه نفر من اصحابه
 كان ذلك في يوم الاحد ١٧ من شهر القعدة من السنة المذكورة وكان عمره ثلاثاً وأربعين
 سنة وثلاثة اشهر وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة اشهر وعشرين يوماً
 وكان شهماً شجاعاً فصيحاً حسن الخط جيد الفكر وبعد وفاته بويع بالخلافة ابنه
 الراشد بالله أبو جعفر المنصور وكان ابوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وجددت
 له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر القعدة المذكور وكتب
 السلطان مسعود الى شحنة بغداد ان يبائع له بالخلافة وحضر الناس البيعة وكان
 حاضرًا بيعته واحد وعشرون رجلاً من اولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب
 ووعظه وبالغ في المواعظه

﴿ غزو العساكر الاتابكية بلاد الافرنج ﴾

في شعبان سنة ٥٣٠ اجتمعت عساكر اتابك زنكي تحت قيادة الامير اسوار
 نائبه بحلب وقصدوا بلاد الافرنج على حين غفلة منهم ففاجأوا اللادقييه ولم يتمكن
 اهلها من الانتقال عنها والاحتراز فهبوا منها ما لا يحيط به الوصف وقتلوا وأسروا
 وكان الاسرى سبعة آلاف اسير مابين رجل وامرأة ومائة الف رأس من الدواب
 وما بين فرس وبغل وغيره وأما ماسوى ذلك من الاقشيه والحلي فيخرج عن الحد
 وأحرقوا بلد اللادقيه وما جاورها ولم يسلم منها الا القليل وخرجوا الى شيزر بمامعهم
 من الغنائم سالمين وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ولم يقدر الافرنج على شيء
 يأخذون به النار

﴿ خلع الخليفة الراشد بالله وخلافة المقتدي لامر الله ﴾

في سنة ٥٣٠ اجتمع على الخليفة الراشد جماعة وحسنوا له الخروج من بغداد
 لمحاربة السلطان مسعود فاجابهم الى ذلك وظهر منه تنقل في الاحوال وتلون
 في الراء وقبض على جماعة من اعيان اصحابه وخافه الباقون ثم تقدم السلطان
 مسعود وحصر بغداد واستظهر عليها فخرج الخليفة الراشد ملتجئاً الى زنكي في
 البر الغربي فسار به الى الموصل ودخل السلطان مسعود بغداد واستقر بها وأمر

فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلفها الراشد بالله للسلطان مسعود وفيها بخط يده (اني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من اصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر) فافتوا بخروجه من الخلافة فعملوا عنصراً وذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الاموال واشياء تقدر في الامامة وكتبوا الفتوى بخلعه واحضروا القاضي أبا طاهر الكرخي فشهدوا امامه بذلك فحكم بفسقه وخلعه ثم ان شرف الدين الوزير ذكر للسلطان ابي عبد الله محمد بن المستظهر فامر باحضاره من المكان الذي يسكنه ولما حضر جلس في الميمنة واتفق معه السلطان والوزير ثم حضر الامراء وارباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه بالخلافة وكان ذلك في ثامن عشر ذي الحجة ولقب (المقتفي لامر الله) وسبب هذا اللقب انه كان رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يولى الخلافة بستة أيام وهو يقول له ان هذا الامر يصير اليك فاقنني بي فلقب بذلك

﴿ استلاء المسلمين على حصن وادي ابن الاحمر ﴾

في رجب سنة ٥٣١ سار الامير زاوش مقدم عسكر دمشق الى طرابلس الشام فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان فلما سمع بهم الدوك يونس صاحب طرابلس سار اليهم في جموعه وحشوده فقاتلهم فانهزم وعاد الفرنج الى طرابلس في حالة سيئة لان فرسانهم وشجعانهم قتلوا فلما عادوا نهب المسلمون من بلادهم أكثرها وحصروا حصن وادي ابن الاحمر وضيقوا عليه فلدكوه عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وأسروا الرجال فافندوا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون الى دمشق

﴿ استلاء زنيكي على قلعة بعيرين ﴾

في شوال سنة ٥٣١ سار اتابك زنيكي من حمص وحصر قلعة بعيرين وهي للافرنج تقارب مدينة حماه وهي من أمنع الحصون وأعزها فلما نزل عليها قاتلها فجمع الافرنج فارسهم وراجلهم وساروا بقضهم وقضيضهم وملوكهم الى اتابك زنيكي ليرحلوه عن بعيرين فلم ير حل وصبر لهم الى ان وصلوا اليه فلقبهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبرا الفريقان وانجحت الواقعة عن هزيمة الافرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتفى ملوكهم بحصن بعيرين لقربه منهم فحصرهم المسلمون ومنع اتابك زنيكي كل شيء حتى الاخبار فكانوا من داخله لا يعلمون شيئاً من

أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ثم ان القيسيين والرهبان ساروا الى بلاد الروم وجميع بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين وأعلموهم ان زني اذا أخذ بعين ومن فيها من الافرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت وان المسلمين ليس لهم منه الا قصد البيت المقدس نخرج ملك الروم (بالقسطنطينيه) ومعه كثير من عساكره ومن النصرانية وساروا على الصعب وقصدوا الشام لتخليص حصن بعين وأما زني فانه صبر في قتال الافرنج فصبروا وقت عليهم الميرة والذخيرة لانهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا معتقدين ان أحداً يقدر عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد الشاميه فلما قلت الذخيرة طلبوا الامان والتسليم ولما سمع زني بقرب ملك الروم واجتماعه بمن بقي من الافرنج أعطى لمن في الحصن الامان وقرر عليهم تسليم الحصن ودفع ٥٠ الف دينار يحملونها اليه فاجابوه الى ذلك فخرجوا وسلموا اليه فلما فارقه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فقدموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم وكان زني في مدة حصاره فتح المعرة وكفرطاب من الافرنج

✽ في مسير ملك الروم يوحنا كومنينوس الى بلاد الشام ✽

في سنة ٥٣١ خرج الملك يوحنا كومنينوس ملك الروم بالقسطنطينية قاصداً بلاد الشام لتجدة الافرنج كما تقدم فسار من البحر الى ان وصل بلاد الارمن التابعة لابن ليون الارمني فاستولى على بعضها ثم صار الى انطاكيه فوصلها في شهر القعدة سنة ٥٣١ فحصرها وضيق عليها وبها صاحبها الامير زايوند ثم تردت الرسل بينها فتصالحا ورحل عنها ولما دخلت سنة ٥٣٢ سار الملك يوحنا المذكور الى بلاد الشام وقصد بزاعه فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب ففضى جماعة من اعيان حلب الى اتابك زني وهو محاصر حصن فاستغاثوا به واستصروه فسير معهم قسما من عساكره فدخلوا حلب ليمنعوها من الروم ان حاصروها ثم ان ملك الروم قاتل بزاعه ونصب عليها المتجانيقات وامتلكها بالامان في الخامس والعشرين من رجب ثم غدر باهلها فقتل منهم وأسرى وسبي وكان عدد من جرح فيها من اهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها عددهم نحو اربعماية نفس وأقام ملك الروم عشرة أيام يطلب من اختفي فقبيل له ان جمعاً كثيراً من الاهالي قد اختبأ بالمغار فاشعل على فوهات النار وأهلكهم ضيقاً بالدخان ثم رحلوا الى حلب بخيلهم ورجلهم فخرج اليهم احداث حلب فتقاتلوا

قتالا شديداً فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر
 عندهم وعادوا خاسرين فرحلوا الى قلعة الانارب فخاف من فيها من المسلمين
 في التاسع من شعبان فهربوا عنها فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعه والاسرى
 ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا فلما سمع الامير اسوار
 نائب حلب بذلك رحل فيمن عنده من العساكر الى الانارب فوقع بمن فيها من
 الروم فقتلهم وخلص الاسرى والسبي وعاد الى حلب وأما الملك يوحنا فانه قصد
 قلعة شيزر لانها من امنع الحصون وحصرها لعلمه بانها لم تكن لزنيكي فلا يكون
 له في حفظها اهتمام لانها كانت للامير أبي العساكر سلطان بن علي منقذ الكنتاني
 فصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً فارسل صاحبها الى زنيكي يستجده فسار اليه فنزل
 على نهر العاصي بينها وبين حماة فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير الى شيزر
 بحيث يراه ملك الروم ويرسل السرايا تحطف من يخرج من عساكرهم للميرة
 والنهب ثم يعود آخر النهار وكان الروم والافرنج قد نزلوا شرقي شيزر فارسل
 اليهم زنيكي يقول لهم انكم قد تحصنتم بهذه الخيال فاخرجوا عنها الى الصحراء حتى
 نلتقى فان ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها وان ظفرت بكم ارحت المسلمين من شركم
 وكان لم يكن له بهم مطمع لكثرتهم وانما كان يفعل هذا ترهيباً لهم فاشار الافرنج
 على الملك يوحنا بلقائه وقتاله وهونوا أمره فقال لهم الملك انظرون ان معه من
 العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة وانما هو يريدكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا
 له (أي تخرجوا له في الصحراء) فحينئذ ترون من كثرة عساكره ما يعجزكم
 وكان اتابك زنيكي مع هذا يرسل افرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم انه
 ان ملك بالشام حصناً واحداً اخذ البلاد التي بأيديهم منهم وكان يرسل ملك الروم
 يتهده ويوهمه ان الافرنج معه فاستشعر كل واحد من الافرنج والروم بالخوف من
 صاحبه فرحل ملك الروم عنها في رمضان سنة ٥٣٢ وكان مقامه عليها اربعة
 وعشرين يوماً وترك المنجنيقات وآلات الحصار بجبالها فسار زنيكي خلفهم وظفر
 بطائفة منهم في ساقفة العسكر فغم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعهم
 الى قلعة حلب وكفى الله المؤمنين القتال وكان المسلمون بالشام قد اشدت خوفهم
 وعلموا ان الروم ان ملكوا حصن شيزر لا يبقى لمسلم معهم مقام لاسيا مدينة حماه
 لقربها ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء اتابك زنيكي فاكثروا منهم
 أبو المجد المسلم بن الحضرم بن المسلم بن قسيم الحموي بقصيدة منها

بعزمك أيها الملك العظيم تذلل لك الصعاب وتستقيم
 ألم تر أن كلاب الروم لما تبين أنك الملك الرحيم
 فجاء يطبق القلوات خيلاً كأن الجحافل الليل الهيم
 وقد ترك الزمان على رضاه فكان لخطبه الخطب الجسيم
 حين رميته بك في خميس تيقن أن ذلك لا يدوم

ولما عاد ملك الروم إلى بلاده نزل آتابك إلى حصن عرقه وهو من أعمال
 طرابلس فخصره وفتحته عنوة ونهب ما فيه وأسر حاميته من الأفرنج وخربه
 وعاد سالماً غانماً

﴿ محاصرة زنكي دمشق واستيلاء الأفرنج على بانياس ﴾

في سنة ٥٣٤ هـ سار عماد الدين آتابك زنكي في ربيع الأول إلى دمشق فنزل
 بالبقاع وأرسل إلى جمال الدين محمد صاحبها يطلب منه تسليم دمشق واختيار أي بلد
 بدلها فلم يجبه إلى ذلك فرحل وقصد دمشق فنزل على داريا في ثالث عشر
 ربيع الأول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكي وعاد الدمشقيون
 مهزمين وقتل كثير منهم ثم تقدم زنكي إلى الموصل فنزل هناك ولقيه جمع كثير
 من جنود دمشق فقاتلوه فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف فقتل منهم وأكثر
 وأسر كذلك ومن سلم عاد جريحاً وهدد البلد ذلك اليوم بالأخذ وإن يملك لكن
 زنكي أمسك عنه عشرة أيام وتابع الرسل إلى صاحب دمشق وبذل له بعلبك
 وحمص وغيرها مما يختاره من البلاد فقال إلى التسليم فنعته أصحابه وخوفوه عاقبة
 فعله فلما لم يسلموا عاد القتال والزحف ثم ان جمال الدين مرض وتوفي ثامن
 شعبان فطمع زنكي حينئذ في البلد وزحف عليه زحفاً شديداً ظاناً وقوع الخلاف
 بين المتقدمين فبلغ غرضه وكان ما آمله بعيداً وتولى بعد جمال الدين مجير الدين
 أبى ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين أنز فاحسن التدبير ولما رأى أن زنكي
 لا يفارقهم راسل فولك ملك القدس واستدعاه إلى نصرته لدفع زنكي عن
 دمشق واعدأ إياه بأنه يحصر بانياس ويسلمها للأفرنج وخوفه من زنكي إذا ملك
 دمشق فأيقن بصحة قوله وعلموا أن ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام فلما سمع
 بذلك زنكي سار إلى حوران خامس رمضان عازماً على قتال الأفرنج قبل وصولهم
 دمشق ولما سمعت الأفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم ولما راهم كذلك عاد إلى حصر
 دمشق ونزل بعددرا شمالها سادس شوال وأحرق عدة قرى من المرج والنوطة

ورحل عائداً الى بلاده ثم وصلت الافرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها فسار معين الدين آثر بعسكره الى قلعة بانياس وهي في طاعة زنكي ليحصرها ويسلمها للافرنج وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بأسبوع الى مدينة صور للاغارة عليها فنازلها معين الدين وقتلها وضيق على من بها ومعه طائفة من الافرنج فاستولى عليها وسلمها الى الافرنج فلما سمع بذلك زنكي فرق عساكره للاغارة على حوران وأعمال دمشق وسار هو فنازل دمشق سحراً ولم يعلم به احد من أهلها فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتجت البلد واجتمع العسكر والعامّة على السور وفتحت الابواب وخرج الجند فقاتلوه فلم يتمكن زنكي من الاقدام في القتال لقلّة جنوده لان عساكره كانت متفرقة ولما اجتمعت عاد بها الى بلاده

﴿ وفاة فولك ملك القدس وتولية ولده بودوين الثالث ﴾

في سنة ٥٣٧ الموافقة سنة ١١٤٢ توفي فولك دي اليو ملك القدس وكانت وفاته في سهل مدينة عكا حيث كان راكباً جواده فسقط عن ظهره عند جماعه فمات وله ولدان أكبرهما اسمه بودوين وعمره ثلاث عشرة سنة والثاني اسمه امورى فاستحق ولده الاكبر الولاية وتسمي بودوين الثالث تحت وصاية والدته ميليسيندا الى ان بلغ الرابعة عشرة سن رشده حسب عادتهم وأصبح بعدئذ بودوين ملكاً حراً

﴿ فتح زنكي مدينة الرها والبلاد الجزرية ﴾

كان صاحب مدينة الرها جوسلين الاول قد توفي فجلس على تحتها ولده جوسلين الثاني وكان شجاعاً ما كراً يغير على البلاد الجزرية ويمتلكها فاراد اتابك زنكي محاصرة مدينة الرها ولعلمه بأنه متى قصد حصرها اجتمع فيها الافرنج فيمنعوه ويتمنر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة فاشتغل بمحاربة ديار بكر ليوهم الافرنج انه غير متفرغ لقصد بلادهم فلما رآه جوسلين الثاني مشغولاً بمحاربة ملوك ديار بكر اطمان على بلاده وفارق مدينة الرها وعبر الفرات الى البلاد الغربية فجاءت عيون اتابك اليه وأخبروه بما كان فنادى في معسكره بالرحيل وان لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وسار بالعساكر الى ان وصل الى مدينة الرها فحاصرها ونازلها وقتلها ثمانية عشر يوماً بالات الحصار التي كان قد أحضرها من حلب وكان معه أبراج خشبية تملو عن سور المدينة وقدم النقبين فقبوا سور البلد ولح في القتال

خوفاً من اجتماع الافرنج والمسير اليه واستنقاذ البلد منه فسقطت البدنه التي تقبها القابون وأخذ البلد عنوة وقهراً وحصر قلعته فملكها أيضاً ونهب الناس الاموال وقتلوا الرجال فلما رأى اتابك البلد أعجيبته ورأى انه لا يجوز تخريب بلد مثلها فأمر بالمناداة في العساكر برد ما أخذوه من الاسرى من رجال ونساء الى بيوتهم واعادة ما غنموه من أنائمهم وأمتعتهم فردوا جميع ذلك عن آخره ولم يفقد منه شيء فعادت البلد على حالها الاول وجعل فيها عسكرياً يحفظها ثم سار اتابك زنكي فسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الافرنج شرقي الفرات ما عدا البيره فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ النهر فسار اليها وحصرها وكانوا قدأكثروا ميرتها ورجلها فبقى على حصارها الى ان وصله خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فرحل عنها وأرسل نائباً الى الموصل وأقام ينتظر الخبر يخاف من بالبيره من الفرنج ان يعود اليهم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً فأرسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها اليه فملكها المسلمون

﴿ قتل اتابك عماد الدين زنكي وتولية اولاده ﴾

في سنة ٥٤١ هـ حاصر اتابك زنكي حصن جعبر وهو مطال على الفرات وكان بيد سالم مالك العقيلي ففي اليوم الخامس من شهر ربيع آخر قتل الشهيد اتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل وبلاد الشام ومدينة الرها وبلاد الفرات الشرقية قتله جماعة من ممالكة ليل اغيلة وهربوا الى قلعة جعبر فصاحوا على من بها من أهلها من العساكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرح فدخل أصحابه اليه فأدركوه وبه رمق وفاضت نفسه رحمه الله وكان حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان عمره يزيد عن الستين ودفن بالرقه وكان شديد الهيبة على عساكره ورعيته عظيم السياسة وكان يمنع القوى من ظلم الضعيف محباً لعمار البلاد وكان أشجع خلق الله وورثه الحكيم ابي الحكم المغربي بقصيدة منها

عين لا تدخري المدامع وابكي واستهلي دمعاً على فقد زنكي
لم يهب شخصه الردى بعد ان كانت له هيبة على كل تركي
خير ملك ذي هيبة وهباء وعظيم بين الانام بزرك
يهب المال والحياد لمن يسمه مادحاً بغير تلسكي
أي فنك جرى له في الاعادي بعد ما استفتح الرها أي فنك

بعد ما كاد ان تدين له الروم ويحوي البلاد من غير شك وخلف من الاولاد سيف الدين غازي ونور الدين محمود الملك العادل وقطب الدين مودود وهو ابو الملوك ونصرة الدين أمير أميران وبتناً وبعد وفاته أخذ خاتمه من يده نور الدين محمود الملك العادل وكان حاضراً معه وسار الى حلب فملكها وكان ذلك بإشارة أسد الدين شيركوه وكان حينئذ يتولى ديوان زنكي ويحكم في دولته جمال الدين محمد بن علي وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني فاتفقا على حفظ الدولة وكان مع الشهيد أتابك الملك الب أرسلان ابن السلطان مسعود فسيره الى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه وقال لهم ان وصل أخي سيف الدين غازي الى الموصل فهي له وأنتم في خدمته وان تأخر فانا أقرر أمور الشام وأتوجه اليكم وكان سيف الدين غازي بناحية شهرزور وهي اقطاعه من أبيه وساعده على ذلك جمال الدين واستقر أمر سيف الدين غازي بالموصل وجعل جمال الدين وزيره وأرسلوا الى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين خلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع وكان سيف الدين هذا قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه وكان السلطان يحبه ولذلك لم يتوقف في تقرير اليمين له

﴿ عصيان أهل الرها واستيلاء نور الدين عليها ﴾

لما قتل أتابك زنكي كان جوسلين الثاني صاحب الرها بناحية تل بشر وما يجاورها من ولايته فراسل أهلها وعامتهم وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد اليه فاجابوه الى ذلك وواعدهم على يوم يصل اليهم فيه وسار في عساكره الى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم وأرسل الى جميع الصليبيين بالشام يستنجدهم على المسلمين فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكي وهو بحلب فسار مجدداً اليها في عسكره فلما قاربها خاف منه جوسلين خصوصاً لعدم ورود احد من الافرنج لتجدته فخرج هارباً عائداً الى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبي أهلها في هذه الدفعة نهب وخت من أهلها ولم يبق بها منهم الا القليل وكان ذلك في سنة ٥٤١ هـ وكان قد بلغ خبر عصيانها الى سيف الدين غازي بن الشهيد أتابك زنكي فسير اليها العساكر وفي أثناء مسيرهم اليها بلغهم خبر استيلاء الملك العادل نور الدين عليها فعادوا

﴿ ابتداء الحروب الصليبية الثانية ﴾

(طلب الصليبيين النجدة من البابا ومن ملوك أوروبا)

في سنة ٤٤٢ هـ فتح الملك العادل نور الدين (ارتاج) بالسيف (وحصن باراه وبصرفوت وكفر لانا .) وأخذها من الافرنج الذين كانوا قد طمعوا فظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم فلما رأوا قوة وبطش نور الدين تلموا ان ما أملوه بعيد وخافوا منه أن يأخذ جميع بلادهم فلذلك اجتمعت رؤساءهم في مدينة القدس وقرروا طلب الاغاثة والنجدة من البابا ومن ملوك أوروبا جميعاً ثم أرسلوا وفداً الى البابا أوجانيوس الثالث الذي كان مقيماً في مدينة فيتاريو ولما وصل اليه الوفد وقابله فأعلمه بما جرى على المسيحيين بالشام وان نور الدين اذا دام على قتالهم أفناهم خصوصاً استيلاء المسلمين على مدينة الرها تلك المدينة عظيمة القدر عندهم فبكى البابا وتذكر ما فعله سلفه البابا اوربانوس الثاني وبما فاز به من ثمرة أعماله فشرع في تحرير الرسائل الى ملوك أوروبا مملوءة بالتحريض والاستحلاف بان ينهضوا لاجل نجدة اخوتهم المسيحيين الذين في المشرق ويخص بالتحريض ملك فرنسا لويس السابع وكذلك أرسل الى القديس برنردوس معلمه رئيس دير كلارفوكس كامبروسوس وأعلمهم بان مدينة القدس في خطر من سيوف المسلمين فلما وردت رسالة البابا على الملك لويس السابع ملك فرنسا عقد جمعية في مدينة بورغاس من الرؤساء الكنائسيين ومن أشرف المملكة وأبلغهم اعتماده على الحرب المقدسة ثم انه عمل بمشورة القديس برنردوس فأرسل وفداً الى روميه لمقابلة البابا الذي قابله بمسرة ودعا للملك لويس بالنصر وأرسل منشوراً رسولياً الى المسيحيين جميعهم يحرضهم فيه ويمنتحهم الانعامات والاختصاصات جميعها الممنوحة من سلفه أوربانوس الثاني للصليبيين- الاولين وقد أناب عنه معلمه القديس برنردوس فأقامه رئيساً رسولياً للجيوش الصليبية وفوض اليه دعوة جميع المسيحيين الى هذه الحرب المقدسة

﴿ جمعية فينزالاي بفرنسا ﴾

أمر الملك لويس بعقد جمعية اخرى في مدينة (فينزالاي) الصغيره من اقليم بورغونيا تحت رياسته ورئاسة القديس برنردوس وحضر هذه الجمعية عدد عظيم من الاكبيروس والاشراف والرجال من كل سن ورتبة وكان اجتماع هذه الجمعية

في يوم حد الشعانين في سنة ١١٤٦ ميلاديه موافقة سنة ٥٤١ هجرية امام باب المدينة المذكورة وهناك ظهر الملك بالزينة الملكي وبرزدوس بثوبه الرهباني وجلسا فوق تحت نصب لهذه الغاية ثم انه وقف برزدوس وقرأ بصوت عال المنشور البابوتي وأخبر الشعوب بسقوط امارة الرها بيد المسلمين فشمّل الحاضرين الكدر وسلوا سيوفهم واعتمدوا على الحرب ولاجل أن يوطدهم على هذه العزم ومحبيهم بالغيرة الدينية خطب فيهم الخطبة الآتية بحروفها قائلًا (أيها السامعون أقوالي لا تتمسوا بعد الآن بالتمند والدموع صلاح الله التماساً باطلا ولا تلبسوا المسوح بل تدرعوا بالاسلحة التي تغلب فقعه آلات الحرب واضامات السفر والمشقات والاضرار الزمنية ومعركات الحرب انما هي اعمال التوبة التي يرسمها الله عليكم فاذهبوا افدوا خطاياكم بالانتصار واستخلاصكم الاماكن المقدسة من الاخطار الملمة بها هو ثمن ندامتكم وتوبتكم عن زلاتكم فلواناكم مخبر قائلًا لكم ان الاعداء قد استولوا على مدينتكم أو حصونكم أو اراضيكم واحتفظوا نسائكم وبناتكم لسبي ودنسوا معابدكم فمن منكم عند هذا السماع لا يركض متناولاً اسلحته للمحاربة فهذه المصائب كلها احقت باخوتكم وشرور اعظم منها مزمنة أن تحل على الآخرين أيضاً من اخوتكم عليه يسوع المسيح التي هي عيلتكم فاي شيء اذا أنتم تنتظرون لكي تصلحوا هذا المقدار العظيم من الشرور ولكي تنتموا عن اهانات مثل هذه كلية الانواع فحينما الرب يستدعيكم الى حماية ميرائه افهل تظنون ان ذراعه الالهي انجي الآن اقل قوة من ذي قبل واضعف اقتداراً مما سلف أو انه تعالى لا يستطيع أن يرسل اثني عشر طعمة من الملائكة أو يقول كلمة واحدة بها يكرس اعداءه الى التراب وانتم ايها النبلاء الشرفاء المحامون عن الصليب المقدس تذكروا نموذجات ابائكم الذين استنقذوا اورشليم من العبودية واسماهم مكتوبة في السماء فاهملوا نظيرهم الخيرات البايده لكي تأخذوا رايات الغلبة العديمة الفساد وتكتسبوا ملكاً عديم النهاية). اه

فصرخوا جميعاً قائلين . الله يريد هذا . الله يريد هذا . وقد اثرت فيهم هذه الخطبة كما اثرت خطبة البابا أوربانوس الثاني في مؤتمر كلارمون . ثم انطرح الملك لويس على اقدام هذا القديس ملتصقاً منه صليب الحرب وقد حرض جميع رعاياه الفرنسيين على اتباع اثره فيها وكذلك زوجته (اليونوره) فانها استلمت صايب حرب فاتبعهما كونت دي سان جيلاس وطولوز . وازريكوس بن طيبو كونت

دي شامبانيا وتيادي كونت دي فلاندره وغليوم دي نافارورانود كونت دي طوتار وانياس كونت دي سواسون وارشامبود دي بوربون وهو كوز دي لوزينان ثم الكونت دي دروكس أخو السلطان والكونت دي بوريان عمه واساقفة نويون ولانكراس . وأراس وليزيو وآخرون كثيرون من الرؤساء الكنائسيين على محاربة المسلمين وفرح القديس برزدوس من تتويج اعماله بالنجاح وصار ينتقل في مملكة فرنسا من مدينة الى اخرى محرصاً على الحروب الصليبية في مدينة شارتراس تجمعت العساكر والاشراف وطلبوا منه أن يكون قائدهم في الحرب ولما تفكر هذا القديس ماجرى لبطرس السائح رفض طلبهم هذا وخوفه ان يلزمه بذلك حرر رسالة الى البابا أوجانيوس يناشده بان يعفيه من ذلك فاتاه الجواب حسب مرغوبه

﴿ تحريض الملك كوزاد ملك المانيا باتحاده مع الصليبيين ﴾

ثم ان القديس برزدوس المذكور سافر من مملكة فرانساً قاصداً مملكة النمسا يتجول في كل اقليم منادياً بالحروب الصليبية ثم سار الى سيبيريا الالمانية وكان منعقداً هناك مجلس عام للمملكة بامر الملك كوزاد الثالث فدخل القديس الكنيسته التي بها الملك وعظما دولته وشرع بتقديم الذبيحة الالهيه ثم ابتدأ في القداس وصور المسيح حاضراً والصليب في يده مخاطب الملك كوزاد بتوبيخ صارم على فتوره فحجل الملك وأقسم بان يلبس ثوب الصليبيين منادياً بالحرب المقدسة وكذلك اشرف المملكة ثم اجتمعت جمعية من الرؤساء الكنائسيين في مدينة (رايسبون) فقرروا قبول الرسائل المحررة لهم من القديس برزدوس بالتحريض على الحروب الصليبية المقدسة وكان من هؤلاء اساقفة ياصاف ورايسبون وفرينجان ومن العظماء لاديسلاس دوك دي بوهومبا واوداكر أمير ستريا واراناد كونت دي كارينتينيا وفريدريكوس نسيب الملك كوزاد اما القديس برزدوس فانه عاد من المانيا الى بلاد فرنسا

﴿ جمعية مدينة اناميس بفرنسا والاستعداد لسفر الصليبيين ﴾

لما عقد ملك فرنسا النيه على السفر أمر باجتماع جمعية المملكة العامة في اناميس في شهر فبراير سنة ١١٤٧ لانتخاب نائباً عنه يدير امور المملكة في غيابه فانتخبوا الانبا سوجار رئيس كنيسة القديس ديونيسيوس فرفض سوجار قبول هذه الوظيفة ولكن طاعته للاوامر البابوية والملوكية الزمته بقبولها ثم انه حضر هذه الجمعية

رسل من الملك روجار ملك بوليا وسيسليا واعدين بان يرسلوا الى الصليبيين
مراكب بحرية مع الذخيرة والمؤن وان ابن الملك يذهب معهم في المراكب الى
الاراضي المقدسة وبناء على هذه المواعيد قرروا بعد تردد السفر براً

﴿ سفر الصليبيين واجتماعهم بالقسطنطينية ﴾

ثم ارسل القديس برزدوس الاوامر فكانت تعلق في المدن على الجدران
وتتلى فوق المنابر بالكنائس بخصوص السفر فاجتمع امير مونت فارانت والكونت
دي مورياما خال لويس السابع وجمعا العساكر الصليبية واجتازا بهم الجبال الالية
وحدود رونا ولومبارديا ونيومونت وكذلك الصليبيون الانكليز فانهم نزلوا في
المراكب من مينامابيك وساروا قاصدين الشرق واما العساكر الفرنساوية فكان
موعد اجتماعهم بمدينة ماطنس والعساكر الالمانية والنمساوية بمدينة راتيسبون
وقد نزل الملك كونراد بعساكره في المراكب النهرية مجتازاً نهر الدانوب ذاهباً الى
مدينة راتيسبون لاجل تتويج ابنه بتسمية سلطان الرومانيين وترك تدير المملكة في غيابه
الى الانبا كوربي وسار قسم من عساكره في البر لابساً الخوذات مزينة بريش
النعام والزرذ بالحديد اللامع ومدججون بالاسلحة الذهبية

وأما الملك لويس السابع فانه قبل سفره توجه الى كنيسة القديس ديونيسيوس
ليستلم السنجق الشايح الصيت الذي كان ملوك فرانسيسرونه مرفوعاً امامهم في
ذهابهم الى الحروب وكان البابا اوجانيوس الثالث قد حضر الى فرانسوا وحضر
الاحتفال ويده سلم الملك لويس السنجق القديم مع دبوس وغداره علامة لسفره في
الحرب المقدسة ثم ودع سوجار وأوصاه بالمملكة وسار هو وزوجته وفريق من
بلاطه من باريس متوجهاً نحو مدينة ماطنس حيث اجتمع بعساكره ثم سار منها الى
بلاد المانيا ومنها قاصداً القسطنطينية المحل المعين لاجتماع جميع الصليبيين تحت سناجق
الحرب المقدسة لينطلقوا منها الى مقابلة الاخطار العظيمة وطلب الانتصار

﴿ اخبار الصليبيين في القسطنطينية ﴾

كان جالساً في ذلك الزمان على تخت مملكة الروم التي عاصمتها القسطنطينية الملك عمانويل
الشاب ابن الملك اليكسيوس الاول وأخو الملك يوحنا السابق ذكره فجاءته اخبار
ورود العساكر الصليبية الثانية نخاف منهم على مملكته وليس له قوة على مانعهم
ثم وصل الملك كونراد ملك المانيا والنمسا بعساكره وجميع من تبعه من الصليبيين

فاتخذ عمانويل كل الطرق والحيل لمنعه فحصل بينهما خصام افضى الى الحرب فكانت
 المحاربة بين مدينة نيكوبولي ومدينة ادرينوبولي ثم دارت المخاربة بينهما بواسطة
 معتمدين من الجهتين ولكن خوف الملك عمانويل من الصليبيين وكدر كوزراد من
 خيابة الروم جمعت المخاربة بدون فائدة الى ان عقد الصلح فاخذ ملك
 الروم يتدبر حيلة يهلك بها عساكر الصليبيين فامر بخاط الدقيق المطحون وغشه
 بالكلس الابيض ليباع الى الصليبيين ثم ضرب تقوداً معشوشة تشبه الذهب والفضة
 وأمر ان يشتري بها من عساكر كوزراد جميع ما يرغبون ببيعها اما الملك كوزراد
 وعساكره فانهم كانوا ناصين خيامهم في سهول (ساليفريا) بالقرب من القسطنطينية
 فهبت عواصف شديدة واعقبها امطار غزيرة فجرت المياه من الجبال على المعسكر
 حتى غرقت خيامهم وامتعمهم ورحلوا قاصدين اراضي اسيا

ثم وردت الاخبار الى الملك عمانويل بقدم الملك لويس السابع ملك فرنسا
 نخرج للملاقاة وفد من عند ملك الروم وقدموا له الاحترام اللائق بمقامه فتوجه
 معهم الى قصر الملك بالقسطنطينية ثم تبعه قواده وكان ملك الروم يقدم كل يوم
 للصليبيين عهوداً وموائيق في الظاهر ويرسل الى ملك ايقونييه ببلاد الاسلام
 يحرضه عليهم ميناً له نوايا الصليبيين وانهم قادمون لاخذ باقي البلاد من المسلمين
 فشمروا بذلك فقرر مجلس شورا هم بان البلاد التي يملكونها وتكون من مملكة الروم
 لا يسلموها الى ذلك الملك ولكثرة خوف الملك عمانويل من الصليبيين ومن
 اقامتهم ببلاده اشاع في مدينته بان الصليبيين الذين بصحبة الملك كوزراد قد انتصروا
 على المسلمين فاتبعاً لهذه الاشاعة الكاذبة فرح الصليبيون وأمروا جيشهم بالمسير
 حالاً لمشاركة اخوانهم ثم ساروا الى ان وصلوا الى بحيرة اسكانوس بقرب مدينة نيقية
 وثناء اقامتهم هناك انكسفت الشمس فتشاءموا وخافوا واتفق ان خوفهم هذا صادف
 محله لانه وردت لهم الاخبار بان الملك كوزراد وعساكره كسروهم المسلمون شر كسرة

✽ مسير العساكر النمساوية والالمانية ✽

وكان الملك كوزراد ومن معه من الصليبيين قد استصحب من الروم من يده
 على الطريق في بلاد اسيا فسار الروم امامهم وأرادوا توصيلهم من نيقية الى
 ايقونيا فساروا بهم في الجبال بغير الطريق الحقيقي حتى فرغ ما معهم من الزاد
 وحينئذ علمت الافرنج بان الروم قد خانوهم ومكروا بهم وأضلوهم بطريق وعرة

المسلك بدون زاد ولا ماء ففر الروم وتركوهم عند جبل طاوروس فسار الافرنج بعد ذلك ثلاثة ايام بحال يرثي لها من التعب والمشقات وعدم الاكل والشرب فطلعت عليهم العساكر الاسلامية وكانوا كامنين لهم بالجبل وانقضوا عليهم كالصواعق من كل ناحية فاحتارت العساكر الصليبية وهي لا تقدر لا على الرجوع ولا على التقدم وبعد قتل أكثرهم هرب الملك كونراد وتبعه باقي عساكره ومن سلم من الصليبيين الاخر الى مدينة نيقية فنبههم المسلمون وقتلوا معظمهم وهم منهزمون ولما وصلوا الى مدينة نيقية قابلهم الملك لويس ملك فرنسا بمحيشه ثم جددا التحالف بمحاربة المسلمين ولكون الملك كونراد لم يكن له قوة بالمسير بحجة ملك فرنسا فرجع الى القسطنطينية وطلب من ملك الروم مساعدته بمراكبه الى القدس كما يأتي

﴿ سفر العساكر الفرنسية ﴾

سار الملك لويس بعسكره حتى بلغ أراضي برغاما وازمير حيث وردت اليه رسل ملك الروم فلم يلتفت اليهم وسار بعسكره نحو المشرق وضرب خيامه في واد بالقرب من كابسترا (وهو الآن وادي الغزلان) واحتفلوا هناك بعيد ميلاد المسيح ثم ساروا بطريق اللاذقية الى ان بلغوا فم نهر ليكوس وهناك أرادت العساكر الاسلامية منعهم من عبور النهر ولكن الملك لويس شجع عساكره ورتبهم وسار بهم بدون مبالاة الى ان وجدوا سهلا فيه اجتياز النهر فدفعوا أنفسهم برئاسة الكونت انريكوس وتادوريكوس فعبروا النهر وكذلك اجتاز النهر الملك لويس وهجموا على العساكر الاسلامية فانهزموا من امامهم وسمع بذلك اهل اللاذقية القريبة من محل الواقعة نخفوا وأخلو المدينة ثم سار الملك لويس وعسكره الى ان وصل الى مدينة ساطاليا مجتازين في طرقات جبل كادموس مع جبال آخر مخيفه (التي سموها جبال اللعنه) وهناك وجدوا العساكر الاسلامية واقفة لهم بالمرصاد فخاف الملك لويس وارسل قسما من عسكره تحت رئاسة عمه كونت دي موريانا مع جوفرو دي رنكوت فاغتمت العساكر الاسلامية فرصة انقسام الصليبيين وانقضوا على الباقيين في الجبل بصرخات مهيسة ورموهم بالنبال فالتجأوا الى قمة جبل تحتها واد عميق فضايقتهم العساكر الاسلامية واخذوا يقتلونهم ويكردسونهم في هذا الوادي

أما الملك لويس وباقي عسكره فانه هجم على الاسلام وسير جيشه أمامه

فهجمت عليه العساكر الاسلاميه وفرقت بين جيشه وبين فرسانه وأوقعوا بهم
 ففر الملك لويس من هذه الموقعة ولحق بمن نجوا من جيشه وساروا الى ان
 وصلوا الى سور مدينة ساطاليا عند فم نهر جاسنيوس وعند مشاهدتهم هذه المدينة
 ظنوا بانهم سيحتموا فيها لعلمهم بانها تابعة لملك الروم ولكن املهم خاب فوالى
 المدينة الرومي أمر بقلها في وجوههم مع انهم كانوا في غاية الشدة والجوع
 ووجدوا أنفسهم ملتزمين بالاستمرار على المسير في البراري وأخيراً طلبوا منه ان
 يرسل لهم ما كبه ليسيروا بها الى انطاكية فامر لهم بالمراب وما وجدوها غير
 كافية لملهم انقسموا قسمين قسم ركب البحر ومعه الملك لويس وقسم سار في البر
 تحت رياسة كونت دي فلاندر وارشامبود دي بوربون ودفعت الملك لويس الى والى
 ساطاليا خمسين وزنة من الفضة ليوصل العساكر المسافرة برأ الى طرسوس ولكن
 هذا والى أهملهم ولم يرسل أحداً يدهم على الطريق السهل وسار الملك لويس
 بجرأ الى ان وصل انطاكية فخرج رايوندي دي بونيارس صاحبها وقابل الملك
 بالاحتفال والاكرام وقد فرح به وطلب الاشتراك معه في الحرب وقال له الافضل
 أن نحارب مدينتي حلب وقيساريه لان امتلاكهما يوطد الامان لجميع الصليبيين
 ويضعف قوة نور الدين ولكن ملك فرنسا وقواده رفضوا هذا الطلب وقالوا لا
 نحارب الا بعد زيارة القدس ثم بعد اقامته بانطاكية أياماً قليلة عزم على المسير الى
 القدس فسار هو وقواده الى ان وصلوها فخرج بودوين الثالث ملكها مع الاكليسوس
 والامراء والشعوب حاملين أغصان الزيتون فدخل المدينة بين هتاف وتهليل
 وذلك سنة ١١٤٧ الموافق سنة ٥٤٢ هـ وأقام بها الى ان وصل الملك كونراد ملك
 النمسا والمانيا فتوجهها الى كنيسة القيامة فشكرا الله على نجاتها

﴿ المشورة بالحروب الصليبية الثانية ﴾

بعد اقامة الملوك الصليبيين بالقدس عقد بودوين الثالث ملك القدس مجلساً
 للمشورة على محاربة الاسلام حضره الملكان المذكوران واعضاء مملكة القدس
 والرؤساء الكنائسيون وكان ذلك المجلس بمدينة عكا فقرروا محاصرة مدينة دمشق
 الشام ظانين بانهم اذا فازوا بهذه المدينة وامتلكوها واياتها المحضة لم يبق عليهم خوف
 من حروب جديدة تضايقهم فيها المسلمون وتصير مدينة القدس محمية بدمشق وفي
 شهر مايو سنة ١١٤٨ سار كل من الملك كونراد ملك النمسا والمانيا والملك لويس

السابع ملك فرنسا والملك بودوين الثالث ملك القدس بجميع عساكرهم وكذلك
 رهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان ورهبان جمعية الهيكلين مقدمين أمامهم
 البطريرك حاملا الصليب الخلاصي الحقيقي وساروا الى ان وصلوا الى سهل مدينة دمشق

﴿ محاصرة الصليبيين مدينة دمشق ﴾

في سنة ٥٤٣ هـ هجرية حاصر الصليبيون مدينة دمشق وفيها صاحبها مجير الدين
 أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين وليس له من الامر شيء وانما كان الامر الى مملوك
 جده طغتكين وهو معين الدين انز فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر وكان عاقلا
 دينا خيراً حسن السيرة فجمع العسكر وحفظ البلد وحصرهم الصليبيون فزحفوا
 اليهم سادس ربيع أول فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم وكان في من خرج الشيخ
 حجة الدين أبو الحاج يوسف بن دناس المغربي الفندلاوي شيخ السادة المالكية
 بدمشق وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً خرج راجلاً فرآه معين الدين فقصدته وسلم
 عليه وقال له يا شيخ انت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوة على القتال فقال قد
 بعث واشترى فلا تقبله ولا نستقبله يعني قول الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين
 أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) الآية وتقدم معه أيضاً الشيخ الزاهد عبد الرحمن
 الحلحول فقاتلا حتى قتلا رحمهما الله وقوى أمر الصليبيين وتقدموا وضعف أهل
 البلد عن ردهم وتقدم الملك كوزاد فنزل بالمدان الاخصر فايقن الناس بأنه يملك
 البلد وكان معين الدين قد أرسل الى سيف الدين غازي يستغيث به
 ويستنجده فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من
 حلب فنزلوا بمدينة حمص وأرسل الى معين الدين يقول له قد حضرت ومعني كل من
 يحمل السلاح من بلادي فإريدان يكون نوابي بمدينة دمشق لا حضر والقي الافرنج
 فان انهزمت دخلت انا وعسكري البلد واحتمينا به وان ظفرنا بالبلد لكم لا انا زعكم
 فيه فارسل معين الدين الى الصليبيين يهددهم ان لم يرحلوا عن البلد وكان قد حصل
 بينهم انقسام لانهم ظنوا امتلاك المدينة فتشاحنوا على من يكون ملكها فلما سمعوا
 بمجيء سيف الدين ضعف قلبهم وأرسل اليهم معين الدين يهددهم ويقول لهم ان ملك
 المشرق قد حضر فان رحتم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تدمون وارسل أيضاً الى
 افرنج الشام يقول لهم باي عقل تساعدون هؤلاء الصليبيين الغبراء علينا وانتم تعلمون
 انهم ان ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية وأما انا فان رأيت

الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين واتم تعلمون انه ان ملك دمشق لايبقى لكم معه مقام في الشام فاجابوه الى التخلي عن الصليبيين وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم فاجتمع الملك بودوين وأرباب مملكته بالملك كوزاد والملك لويس وخوفوهم من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه وانه ربما أخذ دمشق ونضعف عن مقاومته فباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم وزال عنهم روعهم وتينوا بازائمهم وأطلقوا فيهم السهام وفي الغد أحاطوا بهم في مخيمهم وقد تحصنوا باشجار البساتين فاحجم الافرنج عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن المسلمون انهم يدبرون مكيمة أو حيلة ولم يظهر منهم الا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة الى ان يجردوا حلتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد الا صرع برشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجاله الاحداث وجعلوا يقصدونهم في المسالك فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤسهم لطلب الجوائز عليها فرحلوا في سحر يوم الاربعاء عشره ربيع الاول فبعد رحيلهم عن دمشق أشار بعض المقدمين بحصار مدينة عسقلان ولكن جميع الصليبيين ضعفت قلوبهم وذهبت شجاعتهم ولذلك رفضوا هذه الشورة وعاد كل منهم الى بلاده

﴿ استيلاء نور الدين على حصن العزيمة ﴾

بعد رحيل الصليبيين عن دمشق سار معين الدين انزالي بعلبك وأرسل الى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله ان يحضر اليه فاجتمعا فوصلهما كتاب القمص يونس صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العزيمة واخذه ممن فيه من الافرنج وكان سبب ذلك ان ابن الملك روجار صاحب صقلية خرج مع الملك كوزاد ملك المانيا الى الشام وتغاب على الحصن المذكور واخذه من القمص وأظهر له انه يريد أخذ طرابلس أيضاً وكان روجار صاحب صقلية قد غزا افرقيه وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى ابنه على حصن العزيمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده فسارا اليه مجدين فصبحاها وكتبا الى سيف الدين يستجدانه ويطلبان منه المدد فامدهما فحصروا الحصن ونقبوا السور فاذعن الافرنج واستسلموا والقوا بأيديهم فملك المسلمون الحصن وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن روجار واخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين وعاد نور الدين الى حلب ومعه ابن روجار وأمه ومن أسر معهم وعاد معين الدين الى دمشق

﴿ انهزام الافرنج بيغرى ﴾

في سنة ٥٤٣ هـ أيضاً هزم نور الدين محمود بن زنكي الافرنج بمكان اسمه يغرى من أرض الشام وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها بقيادة رايوند صاحب انطاكية فعلم نور الدين فسار اليهم في عسكره فالتقوا بيغرى واقتلوا قتلاً شديداً فانهزم الافرنج وقتل كثير منهم وأسرى جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل وأرسل من الغنمة والأسرى الى أخيه سيف الدين والى الخليفة ببغداد والى السلطان مسعود وفي هذه الواقعة يقول ابن القيسراني بقصيدته التي أولها

يألت ان الصدم صدود أولاً فليت النوم مردود
ومنها في ذكر نور الدين

وكيف لا يثنى على عيشنا الم محمود والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا يثنى الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها عند ملوك الكفر مشهود

﴿ قتل رايون صاحب انطاكية ﴾

في صفر سنة ٥٤٤ هـ سار نور الدين بعساكره الى حصن حارم وهو للافرنج حصره وخرّب ربهضه ونهب سواده ثم رحل عنه الى حصن آنب فحصره فاجتمعت الافرنج مع رايوند صاحب انطاكية وساروا اليه ليرحلوه عن آنب فلم يرحل بل لقيهم واتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس وانجبت الحرب عن هزيمة الافرنج وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً وقتل أيضاً رايوند صاحب انطاكية ثم تخلف بعده على انطاكية ولده الصغير المدعو بوهيموند فتزوجت أمه قسطنانسا رانود دي شاتيلون احد الافرنج ليدير شؤون البلد الى ان يبلغ ولدها ويستلم الحكم

ثم سار نور الدين الى حصن فاميه وهو للافرنج أيضاً وقريب من مدينة حماه وهو حصن منيع على تل مرتفع من أحسن القلاع وأمنعها وكان من فيه من الافرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبونها فكان اهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ومنع من فيه عن

الفرار ليلاً ونهاراً وتابِع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة فاجتمعت الافرنج من سائر بلادهم وساروا نحوهم ليزحزحوه عنها فلم يصلوا اليه الا وقد ملك الحصن وملاؤه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جده في لقاهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وصالحوه على ما أخذه

﴿ وفاة الحافظ لدين الله خليفة مصر وولاية الظافر بامر الله ﴾

في اليوم الخامس من شهر جمادي الآخر سنة ٤٤٤ هـ توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد بن الامير أبي القاسم العلوي بمصر بعلة القولنج وكان كثير الاصابة بها فعمل له موسى النصراني طبيل القولنج وهو عبارة عن طبيل مركب من سبعة معادن عليه الكواكب السبعة وكان من خاصته ان الانسان اذا ضربه يخرج الريح من مخرجه ولهذا الخاصة كان ينفع في القولنج وكان سن الحافظ عند وفاته ثمانين سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و ٧ أشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائه مكنتياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديه من السلطة السياسية الا الامضاء على الاوامر في تثبيت الامراء على اماراتهم شأن الدول عند قرب انحلال ملكها الا ان تغيير الوزراء جعل فيه بعض الاهتمام في الاحكام واستخلف ابنه اسماعيل أبا المنصور فبويع له ولقب بالظافر بامر الله ولكن هذا الاسم لم ينطبق على المسمى وكان سنه ١٧ سنة وهو اصغر اولاد ابيه سنّاً وكان كثير اللهو والتفرد بالجوارى واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهديد جنود الملك روجار صاحب سيسليا بعد استيلاءه على أكثر بلاد المغرب ولولا لطف الله ووقوع الخلاف بين ملك سيسليا المذكور والملك عمانويل ملك الروم وحصول الحرب بينهما وموت جورجي وزير روجار بعد اصابته بمرض البواسير والحصا لكان حاصر مصر

﴿ اسر جوسلين ﴾

في سنة ٤٤٥ هـ سار نور الدين الى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمال حلب منها تل باشر . وعين تاب . وعزاز . وغيرها من الحصون فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم وبقي نور الدين فكان بينهما حرب شديدة المجت عن انهزام

المسلمين وظفر الفرنج وأخذ جوسلين سلاح دار نور الدين أسيراً وأخذ ما معه من السلاح فأرسله الى السلطان مسعود بن قليج ارسلان صاحب قونية وكان نور الدين قد تزوج ابنته وارسل مع السلاح اليه يقول قد انقذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين وعلم ان هو جمع المساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الافرنج وحذر وامتنع فاحضر نور الدين جماعة من التركان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والاموال ان هم ظفروا بجوسلين اما قتلا واما اسراً فاتفق ان جوسلين خرج من عسكره وأغار على طائفة من التركان فهب وسبي فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركان فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً فصانهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه الى ذلك وأخفوا امره عن نور الدين فأرسل جوسلين في احضار المال فأتى بعض التركان الى نائب نور الدين بحلب فأعلمه بما كان فسير معه عسكراً اخذوا جوسلين من التركان قهراً وكان نور الدين حينئذ بمحصر وفرح المسلمون لاسره وعظمت المصيبة على الافرنج وخلت بلادهم من حاميا وسهل أمرهم على المسلمين بعده وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد وطالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا آمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر فلقية غدره وحق به مكره وبعد اسره فتح كثيراً من بلادهم وقلاعهم فهربا عين تاب . وعزاز . وفورس . والراوندون وحصن البان وتل خالد وكفر لاثا وكفر سوب وحصن نسرفوب بجبل بني عليم ودلوك ومرعش ونهر الجوز وبرج الرصاص وكان نور الدين اذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملاؤه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للافرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة الى شيء

❖ قتل ابن السلار وزير الخليفة الظافر ووزارة عباس ❖

في شهر محرم سنة ٤٨٥ هـ قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله الخليفة العلوي بمصر قتله ربيبه عباس بن أبي الفتح بن يحيى الصنهاجي أشار اليه بذلك الامير اسامه بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فأمر ولده نصرأ فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولي الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب الى مصر فزوج بن السلار بامه واحبه وأحسن تربيته فجازاه

بان قتله وولي بعده وكانت الوزارة في مصر لمن غلب والحلفاء وراء الحجاب
والوزراء كالمتملكين

﴿ امتلاك الصليبيين مدينة عسقلان ﴾

كانت مدينة عسقلان تابعة للديار المصرية وكان الوزراء في كل سنة يرسلون اليها من
الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها وكانت حصينة منيعة وطالما
حاربها الافرنج وارتدوا عنها خائين وفي سنة ٥٤٨ هـ لما علم بودوين الثالث ملك
القدس ما حصل بمصر من اختلاف الوزراء انهمز الفرصة وراسل جميع الافرنج
المقيمين بالشام بمساعدته وسار من القدس وصحبه افرنج الشام وراهبان جمعية الهيكلين
ورهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان الى ان وصل الى اسوار مدينة عسقلان
من البر وحصرها وكان سير اليها خمسة عشر مركباً في البحر برئاسة جيران صاحب
صيدا وحاصرها بجرأ ثم تصادف ورود جموع من الصليبيين لمساعدة الافرنج
وكذلك ورود مراكب أوروبا وبه فانضافوا الى العمارة البحرية تحت رئاسة جيران
المذكور وكان مع بودوين برج كبير من الخشب اعلى من اسوار المدينة مركب
على دوالب سهل النقل وركبوا متجانيفات وكبوشاً ونازلوا المدينة وأخذوا
يقاتلونها ويرمونها بالمنجنيقات وكذلك اهل عسقلان يرمونهم بالنبال والمتجانيفات
حتى اشرفوا على الهلاك من داخل المدينة ثم وردت عمارة مصرية لنجدة المدينة
فاستشر أهلها وقويت نفوسهم واشتدوا في القتال فرموا على الاخشاب الحربية التي
مع الصليبيين ناراً من أعلى السور فاتقدت بسرعة عظيمة ولكن الريح
عكست النار فارمتها على سور المدينة فظلت مشتعلة اربعاً وعشرين ساعة حتى وقع
من السور جزء فانفتح مجال للصليبيين يدخلون منه المدينة وكان بالقرب من هذه
الجهة راهبان جمعية الهيكلين الذين طلبوا الدخول الى المدينة وحدهم وامتلاكها ولما
دخلوا من هذا الجزء المهذوم وحدهم المسلمون قليلين فانقضوا عليهم وقتلوهم فهرب
باقيهم الى خارج السور فانكسرت قلوب الافرنج ثم ان المسلمين أخذوا يقاتلون
بشدة ولما وجدوا معجزهم عن المقاومة ارسلوا الى بودوين بتسليم المدينة بشرط ان
يخرجوا سالمين بعائلاتهم وامتعتهم فاجابهم الى ذلك وأعطاهم ميعاداً ثلاثة أيام وبعدها
سلموا المدينة اليهم وخرجوا منها سالمين وكانت مدة الحصار خمسة اشهر

استيلاء نور الدين على مدينة دمشق

بينما كان الافرنج محاصرين عسقلان كما تقدم كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على الوصول الى عسقلان لتجدة اهلها وكان السبب في ذلك ان عسقلان واقعته بين بلاد مصر وبلاد الافرنج ومدينة دمشق وكان بدمشق مجير الدين فلما علم الافرنج ضعفه صاروا يغيرون عليه وينهبون الاهالي حتى جعلوا على المدينة اناوة سنوية يأخذونها فلذلك لم يتمكن نور الدين من العبور منها فعزم ان يستولى عليها وقال انا احق بحمايتها فارسل الامير اسد الدين شيركوه في العشر الثاني من محرم سنة ٥٤٩ فوصل الى ظاهر دمشق وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الالف فانكر ذلك مجير الدين وخاف منه فلم يخرج لتلقيه والاختلاط اليه وتراسلا فلم تسفر المراسلات عن سداد ولا نيل مراد وغلا سعر الاقوات لانقطاع الواصلين بالغلالت ووصل نور الدين في عسكره الى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا عند دومه ورحل في الغد ونزل بيت الابار من الغوطة وزحف الى البلد من شرقيه وزحف اليه من عسكر البلد واحداه الخلق الكثير ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين الى مكانه ثم زحف يوماً بعد يوم وتأكّد الزحف يوم الاحد عاشر صفر وظهر اليه العسكر الدمشقي فاندفع بين ايديهم الى سور قبلي البلد وتولى القتال اسد الدين شيركوه وابى الجهد فكسر عساكر دمشق الى الاسوار من قبلي البلد ولم يكن احد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لان نور الدين كان من شرقها وجل العسكر مقابله ورأى من كان مع نور الدين من الجانديريه والحليين خلو السور من المقاتلة فأسرعوا الى السور وتعلقوا به وطعموا في الحال الى أعلاه ويقال ان امرأة كانت على السور فذات حبلا فصدوا عايمه ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين وامتنع الاجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وكسروا الباب ودخلت منه العساكر وفتح باب توما أيضاً وكان مجير الدين لما احس بالغلبة قد انهزم من ضواحيه الى القلعة فانفذ اليه نور الدين امنه على ما له ونفسه وخرج الى نور الدين فطيب خاطره وكان مجير الدين قد راسل الافرنج وطلب منهم المساعدة على نور الدين فلما حضروا وجدوا نور الدين قد استلم البلد فخافوا منه ورجعوا الى بلادهم

﴿ قتل الخليفة الظافر وولاية ابنه الفائز ﴾

لما ورد خبر امتلاك الافرنج مدينة عسقلان جاء خبر آخر أشد وطأة وهو ان العمارة السيسبيلية نزلت على سواحل مصر وأحرقت مدينة تانس في منتصف بحيرة المنزله ونهبت الفرما الا انها لم تتقدم فاخذت ما أمكنها حمله من الغنائم وعادت من حيث أتت

كان ذلك والخليفة الظافر غارق في الشهوات الوحشية مشتغلا عن مهام الدولة فشقى ذلك على وزيره العباس فاعزز الى ابنه نصر ان يقتله وينجي البلاد من شره ويتخلص مما كان يقوله الناس في عرضهما من مفاشرته فاستدعاه الى دار ابيه سرا بحيث لم يعلم به أحد وتلك الدار هي المدرسة الحنيفة التي تعرف بالسيوفية فقتله بها وأخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ هـ فأتى نصر الى ابيه العباس وأعلمه بذلك من ليلته . ولما كان الصباح اقبل عباس الى القصر على جاري عادته في الخدمة وأظهر عدم الاطلاع على قضيته وطاب الاجتماع به ولم يكن أهل القصر قد علموا بقتله لانه خرج من عندهم خفية وما علم أحد بخروجه فدخل الخدم لموضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه فدخلوا الى قاعة الحرم فقيل انه لم يبت هنا فطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقفوا له على خبر فتحققوا قتله فاخرج عباس اخوى الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما اتما قتلتما امامنا وما نعرف حاله الا منكما فاصرا على الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلتهما في الوقت لينفي عن نفسه وابنه الهممة . فاستدعى العباس الفائز بن الظافر وكان عمره خمس سنوات وقيل سنتين فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وامر ان تدخل الامراء فدخلوا فقال لهم هذا ولد مولاكم وقتل عماء اباة وقد قتلتما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل فقلوا باجمعهم سمعنا وأطعنا وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموه الفائز وسيروه الى أمه وقد احتل من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويحتاج فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وأفرد بالتصرف ولم يبق على يده يد وأما أهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر وأخذوا في اعمال الخيلة في قتل عباس وابنه فكتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني وهو أبو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن أبي طالب بارض السنجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الامامية فتنبا له الامام

انه سيتولى مصر بناء على رؤية رآها في منامه فسار من ساعته الى مصر وصار يترقى في الخدم حتى ولي منية ابن خصيب

فلما صار أهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه اطلع من حوله من الاجناد عليه وتحدث معهم في المعنى فاجابوا الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا قاصدين القاهرة وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج اليهم جميع من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده نخرج عباس من ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجماعة يسيره من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على ايله وذلك في ١٤ ربيع أول سنة ٥٤٩ هـ أما الصالح بن رزيك فإنه دخل القاهرة بدون قتال وما قدم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرفه به وقلع البلاطه التي كانت عليه وأخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والحلق قدام الجنازه وتكفل الصالح بالحليقة الصغير ودبر أحواله . وأما عباس فأخت الظافر كآبت افرنج عسقلان بشأنه واشترطت لهم مالا جزيلاً اذا امسكوه فخرجوا عليه وصادفوه فتواقعوا وقتلوا عباساً وأخذوا ماله وولده وانهمزم بعض أصحابه وسيرت افرنج نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحفظ في قفص من حديد فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطته لهم من المال فاخذوا نصراً وضربوه بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويله ثم انزلوه وأحرقوه

﴿ محاصرة نور الدين قلعة حارم ﴾

في سنة ٥٥١ هـ حاصر نور الدين قلعة حارم وهي حصن غربي حلب بالقرب من انطاكية وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون واحصنها في نحو المسلمين فاجتمعت افرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه لمنعه وكان بالحصن مقدم كبير منهم فارسل اليهم يعرفهم قوتهم وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء وقال لهم ان لقيتموهم هزموكم وأخذوا حارم وغيرها وان حفظتم انفسكم منه اطقنا الامتناع عليه ففعلوا

ما أشار به عليهم وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصّة من حارم فإني ان
يجبهم الا على مناصفة الولاية فاجابوه الى ذلك فصالحهم وعاد

﴿ انتصار العساكر النورية على الافرنج ﴾

في اوائل سنة ٥٥٢ حصلت زلازل كثيرة باراضي الشام وهدمت كثيرا من
الحصون والقلع والبيوت وجميع المباني وفي شهر ربيع اول كان نور الدين بناحية
بعلبك فاتته الاخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الافرنج على تلك الاعمال وفي
١٥ منه ورد المبشر من المعسكر المنصور برأس الماء بان ناصر الدين أميراميران لما
انتهى اليه خبر الافرنج وانهم قد أمهضوا سرية وافرة العدد الى ناحية بانياس
لتقويتها أسرع اليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول
الى بانياس وقد خرج اليهم من كان فيها من حماها فوقع بهم وكان قد كمن لهم في
مواقع كمناً من شجعان الاتراك واندفع المسلمون بين أيديهم في اول المجال وظهر
عليهم الكمء فانزل الله نصره على المسلمين وقتلت الافرنج وأسروا باقيهم وحصل
في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأمواهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم
ومحقت السيوف عامة رجالهم ووصلت الاسرى والغنائم الى دمشق ثم وردت
بشرى ثانية من اسد الدين شيركوه باجتماع عدد كثير اليه من شجعان التركان وانه
قد ظفر بسرية وافرة من الافرنج ظهرت في معاقلهم من الشمال فانهمزمت ونحطفوا
من ظفروا به ووصل أسد الدين الى بعلبك ومن معه من الشجعان واجتمعوا
بنور الدين وقرروا قصد بلاد الافرنج لتدوينها والابتداء بالنزول على بانياس وقدم
نور الدين دمشق في الاستعداد وتجهيز العساكر فخرج وتبعه كثير من الاحداث
والمتطوعة والفقهاء والصوفية في آخر شهر ربيع اول ونزل على حصن بانياس
وضايقه بالمنجانيقات وفي أثناء ذلك الحصار ورد خبر انتصار أسد الدين شيركوه
بناحية هونين على سرية من الافرنج ثم ان نور الدين قوى الحصار والحرب ففتح
الحصن المذكور بالسيف قهراً بعد مضي اربع ساعات بعد انتهاء النقب وسقوط
البرج فأخذوا الحصن وهرب بعضهم الى القلعة فحاصرها أيضاً فطلبوا الامان ثم
بلغه خبر جمع ملك الافرنج عسكره بين طبرية وبانياس بقصد استخلاصها فسار اليه
فلما شارفهم وهم غارون ورأوا رايته قد أظلمت بادروا بلبس السلاح والركوب
وافترقوا اربع فرق وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نورالدين

فترجلت معه الابطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الاقدام
ودهمهم البوار والحمام وانتصر المسلمون وتمكنوا من فرسانهم قتلاً وأسراً
واستأصلت السبوق الرجال وهم العدد الكثير فلم يفلت منهم غير عشرة انفار

﴿ محاربة المصريين غزه وعسقلان ﴾

في أوائل سنة ٥٥٣ أرسل الملك الصالح بن رزيق وزير الخليفة الفائز بنصر
الله تجريدة عسكرية في البر ومثلها في البحر باسطول كبير يقصد محاربة أهل غزة
وعسقلان فسارت العساكر المصرية بقيادة الامير ضرغام وأغارت على أعمال غزة
وعسقلان وخرج الافرنج الذين بعسقلان تحت رياسة صاحبها امورى واقتتلوا معاً
فظفر المسلمون بهم قتلاً وأسراً فلم يفلت منهم الا اليسير وغنموا غنائم كثيرة وعادوا
سالمين وكان مقدم العساكر البحرية قد ظفر بعدة مراكب مشحونة بالافرنج
فقتل وأسر منهم العدد الكثير وحاز من اموالهم وعددهم وأثاثهم مالا يكاد يحصى
وعاد ظافراً غانماً . وقد أرسل مؤيد الدولة اسامة بن منقذ قصيدة يشرح فيها حال
هذه الغزوة ويحرض فيها نور الدين على قتال الافرنج ويذكره بما من الله عليه
من العافية والسلامة من المرض الذي كان قد ألم به في رمضان في السنة الماضية ومن
القصيدة ما يأتي

وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم	ألا هكذا في الله تمضي العزائم
وليس سوى سمر الرماح سلام	وتستزل الاعداء من طول عنزهم
وان بذلت فيها النفوس الكرام	ويوفي الكرام التادرون بندرهم
مفاوز وجد العيش فيهن دائم	نذرنا مسير الجيش في صفر فما انستنى نصفه حتى انثى وهو غائم
عزيمته جهد الظما والسائم	بعشاه من مصر الى الشام قاطعاً
اذا ما اقتضت في السور القشاعم	فما هاله بعد الديار ولا ثنى
وما يصحب الضرغام الا الضراغم	يباري خيولاً ما تزال كأنها
ويحي وان لاقى النية حاتم	يسير بها ضرغام في كل مارق
يهون على الشجعان فيها الهزائم	ورققته عين الزمان وحاتم
عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم	وواجههم جمع الفرنج بجملة
اذا ما تلاقى العسكر المتضاجم	فلقوهم زرق الاسنة وانطوا
	وما زالت الحرب العوان أشدها

وعادوا الى حزالسيوف فقطعت
 فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر
 تقتلهم بالرأي طوراً وتارة
 فقولوا لنور الدين لافل جده
 تجهز الى أرض العدو ولا تهن
 فعندك من أطاف ربك مابه
 أعادك حياً بعد ان زعم الوري
 بوقت أصاب الارض ما قد أصابها
 وخيم جيش الكفر في أرض شيزر
 وقد كان تاريخ الشام وهلكه
 فقم واشكر الله الكريم بنهضة
 فتحن على ما قد عهدت نروعهم
 وغاراتنا ليست تفتت عنهم
 فاسطولنا اضعاف ما كان سائراً
 ونرجو بان يحتاج باقيهم به

﴿ وفاة الخليفة الفارز بنصر الله وولاية العاضد لدين الله العلوي ﴾

في سنة ٥٥٥ هـ توفي الخليفة الفارز بنصر الله العلوي صاحب مصر ولم يحكم الامدة
 ستة سنوات وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف وبعد وفاة الخليفة
 الفارز أخذ الملك الصالح بهم في اقامة من يخلفه فقدم السراي فقدموا له شيخين
 من العائلة الفاطمية لم يكن ثم أحق منه للخلافة فهم الى مبايعته فجاء أحد اصدقائه
 وهمس في أذنه قائلاً (ان سلفك في الوزارة كان احسن تديراً منك لانه لم يسلم
 نفسه لخليفة سنة اكثر من خمس سنوات) ف وقعت هذه العبارة في اذن الوزير
 فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله
 ولم يكن بالغاً رشده فبايعه ولقبه بالعاضد لدين الله وهو الخليفة الرابع عشر للدولة
 الفاطمية العلوية ثم زوجها ابنته ومعها ثروة عظيمة

﴿ وفاة الخليفة المقتني لامر الله العباسي وخلافة المستنجد بالله ﴾

وفي هذه السنة ايضاً توفي أمير المؤمنين المقتني لامر الله ابو عبد الله احمد بن المستظهر

بالله أبي العباس احمد بن المقتدي باصر الله وكانت خلافته اربعاً وعشرين سنة
 وثلاثة اشهر وستة عشر يوماً ومات في ٢ ربيع الاول وكان حليماً كريماً عادلاً
 حسن السيرة وهو اول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه وأول
 خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب
 بنفسه ثم بويح للمستنجد بالله أمير المؤمنين واسمه يوسف بعد موت والده وكان
 للمقتفي حظية وهي أم ولده علي فلما اشتد مرض المقتفي ويئست منه أرسلت الى
 جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدها
 على ان يكون ولدها خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولي العهد فقالت اذا دخل على
 والده قبضت عليه وكان كل يوم يدخل على أبيه فلما استقرت القاعدة بينهم
 استحضرت أم علي بعض جوار وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد
 المستنجد بالله وكان له خصي صغير يرسله كل وقت يتعرف اخبار والده فرأى
 الجواري بأيديهن السكاكين ورأى بيد علي ووالدته سيفين فعاد الى المستنجد
 وأخبره وأرسلت هي الى المستنجد تقول له ان والده قد حضره الموت ليحضر
 ويشاهده فاستدعى أستاذ دارعضد الدولة وأخذ معه وجماعة من الفراشين ودخل
 الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجواري فضرب
 واحدة منهن فجرحها وكذلك اخرى وصاح ودخل استاذ الدار ومعه الفراشون
 فهربت الجواري وأخذ أخاه أبا علي وأمه فسجنهما وأخذ الجواري قتل منهن
 وغرق منهن ودفع الله عنه . ولما توفي المقتفي جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم
 عمه ابو طالب ثم اخوه ابو جعفر وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير ابن
 هيرة والقاضي وأرباب الدولة والعلماء

﴿ تاريخ جامع سيدنا الحسين رضي الله عنه ﴾

كان أمير الجيوش أثناء حروبه في سوريا قد ظفر بمدفن رأس الامام الحسين
 في عسقلان فابتنى عليه مشهداً عظيماً فن أعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير
 مصر انه لما علم بوجود مشهد سيدنا الحسين رضي الله عنه بتلك الجهة خاف عليه من
 هجمات الافرنج فغزم على نقله الى مصر فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة
 دعاه جامع الصالح نسبة اليه (ولم يزل موجوداً الآن ببول قصبية رضوان) بنية ان
 يجعل فيه الرأس الشريفه فلما فرغ من بنائه لم يمكنه الخليفة من ذلك بدعوى انه

لا يلبق أن يكون ذلك الأثر الشريف خارج سور المدينة فكانت حجته حقاً وأبي الال
ان يجعله في بعض أجزاء قصره المدعوقصر الزمرد فاقام له مشهداً هناك . ثم في سنة
٧٤٠ هجرية احترق المشهد في ولاية السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة فأعيد
بناءه وقد اعتنى به السلاطين والامراء في كل عصر بعمارته وزخرفته ومحليته واعلاء
شأنه وأخيراً أقيم في جواره جامع حتى اذا كانت أيام الامير عبد الرحمن كتخذ أحد
أمراء المماليك أعيد بناء المشهد الحسيني في سنة ١١٧٥ . وبعد ذلك أعيد بناء برتمته
في أيام الخديوي الاسبق اسماعيل باشا سنة ١٢٨٢ وكان الناظر على الاوقاف المصريه
الامير راتب باشا وتمت عمارته في ٢٨ محرم سنة ١٢٩٠ الا المآذنه قمت في سنة ١٢٩٥
وادخل في الجامع عدة بيوت ولم يبق من البناء القديم الا القبة المغطيه لمقام الامام
التي جري تصليحها في سنة ١٣١٦ بامرافندينا الحالي عباس باشا الثاني فاصبح على
ما نشاهده الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين بالسكة الجديده بالقاهره
تجاه خان الخليلي

﴿قتل الصالح بن رزيك وزير مصر﴾

كانت ادارة الاحكام بمصر منوطة بالوزير ولذلك كان النفوذ الاكبر للملك الصالح
طلّاع بن رزيك ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله أقل استعباداً من سلفه ولقب
الصالح بلقب ملك ثم لقب بالسلطان ففتحت أعين الاعداء عليه وفي جملتهم عمه الخليفة
فعمزمت على قتله فارسلت اولاد الداعي فكمنوا له في دهليز القصر وضربوه حتى
سقط على الارض على وجهه وحمل جريحاً لا يبي الى داره وفيه حياة فارسل الى
العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أترده في خلافته فاقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم
يرض به فقال ان كنت بريئاً فسلم عمك اليّ حتى انتقم منها فامر باخذها فارسل
اليها فاخذها قهراً وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه محيي الدين رزيك
ولقبه بالملك العادل وكنيته أبو شجاع ومات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ وكان
شجاعاً كريماً فاضلاً محبباً لاهل الادب جيد الشعر وفيه عقل وسياسة وتدير وكان
مهاباً في شكله عظيماً في سطوته وغناه وكان محافظاً على الصلوات فرائضها ونوافلها
شديد المغالات في التشيع صنف كتاباً سماه الاعتماد في الرد على أهل العناد جمع له
الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن أبي طالب والكلام على الاحاديث
الواردة في ذلك وله شعر كثير يشتمل على مجلدين

﴿ وفاة بودوين الثالث وولايه اخيه اموري ﴾

كان الملك بودوين الثالث ملك القدس مقياً بمدينة انطاكية فاعترته الحمى فامر بنقله الى مدينة طرابلس ومنها الى مدينة بيروت وهناك فاجأته الوفاة وكان ذلك سنة ١١٦٢ افرنكية الموافق لسنة ٥٥٨ هجرية فنقل جسمه الى القدس لكي يدفن تحت جبل الجبلجبله فخرنت عليه الافرنج لما كان معروفاً به بينهم من العدل وكرم الاخلاق والشجاعة ولم يكن له ولد يرث ملكه بعده والذي يستحق الملك هو أخوه أموري صاحب عسقلان ويافا ولما كانت صفات وأخلاق أموري المذكور بعكس أخيه عارض رؤساء المملكة بتوليته وأخيراً توجهوا ملكاً عليهم وكان متصفاً بالكبر والبخل والطمع

﴿ وزارة شاور ووزارة ضرغام بعده ﴾

كان شاور في ابتداء أمره يخدم الصالح بن رزيك ثم ولاء الصالح حكم الصعيد وهو أكبر وظيفة بعد الوزارة فظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فمسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فادام استعماله خوفاً من الخروج عن طاعته فلما جرح الصالح أوصى ابنه ان لا يتعرض لشاور قائلاً له اني انا اقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكنني عزله فلما توفي الصالح وولي ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستخدم بعضهم مكانه فارسل اليه بالعزل فجمع جموعاً كثيرة وسار الى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح فاخذ وقتل وصار شاور وزير الخليفة العاضد لدين الله وكان ذلك في صفر سنة ٥٥٨ هـ وتلقب بامير الحيوش وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم وذخائرهم . وكان الملك الصالح قد رتب في عهد وزارته الامراء البرقية وجعل في مقدمتهم ضرغام أبا الاشبال فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سلبها منه فجمع رفقة خفاف شاور وجمع اليه رجاله فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور وفي شهر رمضان من السنة المذكورة نار ضرغام على شاور فاخرجه من القاهرة وقتل ولده الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام واستقر ضرغام في وزارة العاضد لدين الله وتلقب بالملك المنصور فشكر الناس سيرته وكان فارس عصره كاتباً جميل الصورة عاقلاً كريماً

﴿ في دخول أسد الدين شيركوه مصر أول مرة ﴾

لما خرج شاور من مصر سار الى نور الدين بدمشق يستجده ليعيده الى الوزارة فاحسن وفادته وأكرم مثواه فطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعيده اليها ويكون له فيها ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر وأنه يتصرف طبق أمره ونهيه فاخذ نور الدين يقدم في ذلك رجلاً وأخراً أخرى تارة تحمله رعاية شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الافرنج وتارة يمنعه خطر الطريق ووجود الافرنج فيه الى ان قرر العمل واستخار الله تعالى وأمر أسد الدين شيركوه أحد رجاله بالتأهب للمسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ وحباً بالبلاد والوقوف على أحوالها وكان ذلك موافقاً لهوى أسد الدين اذ كان في صدره من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي معه بمخافة فتجهز وسار مع شاور في جماد الأولى سنة ٥٥٩ هـ وساروا جميعاً وسار معهم نور الدين الى أطراف بلاد المسلمين مهدداً الافرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لاسد الدين فكان قصارى هم الافرنج حفظ بلادهم من نور الدين وفي اثناء ذلك قصد الملك أموري ملك القدس بلاد مصر لاخذ مال الهدنة المقرر على مصر دفعه للافرنج من يوم أخذوا عسقلان وهو ثلاث وثلاثون الف دينار فلما وصلت الافرنج الى حصن بليس وملكوا بعض السور خرج اليهم همام أخو ضرغام وحاربهم فغلبوه ثم عادوا الى بلادهم وعاد همام عوداً رديئاً فها هو الا ان قدم رسل الافرنج على ضرغام في طلب مال الهدنة المقررة ثم وصل أسد الدين شيركوه الى مصر سالماً ومعه شاور ولما علم ضرغام بذلك اضطرب وأصبح الناس خائفين على أنفسهم وأموالهم فجمعوا الاقوات والماء وتحولوا من مساكنهم وخرج همام بالعسكر في أول جماد الآخر سنة ٥٥٩ هـ فسار الى بليس فقابل أسد الدين وشاور وحصلت بينهم وقعة انهزم فيها همام وامتلك أسد الدين وشاور جميع ما كان مع عساكره وأسروا عدة ونزلوا الى التاج (قلوب) ظاهر القاهره يوم الخميس ٦ جماد الآخر فجمع ضرغام الناس وضم اليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية بداخل القاهرة وأسد الدين وشاور مقيمان في التاج مدة أيام ثم ساروا ونزلوا في المقس (الازبكية) فخرج اليهم عسكر ضرغام فقاتلوه فانهزم ضرغام هزيمة قبيحة وساروا الى بركة الحبش ونزلوا بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك أسد الدين مدينة مصر القديمة وأقام فيها أيام فاخذ

ضرغام مال اليتامى المودع عند الحاكم فكبره الناس واستعجزوه ومالوا الى شاور
 فتنكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له ونزل أسد الدين
 وشاور في أرض اللوق خارج باب زويله وطارد أسد الدين رجال ضرغام وزحف
 الى باب سعاده وباب القنطرة واضرم النار في اللؤلؤة وما حولها من الدور وعظمت
 الحروب بينهم وفنى كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا الى شاور ووعدوه بان يكونوا
 اعواناً له فاحل أمر ضرغام فارسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمي
 تخرج الرجال الى شاور وصاروا من جملته وفترت همة أهل القاهرة وأخذ كل منهم
 يعمل الحيلة في الخروج الى شاور فامر ضرغام بضرب الابواق والطبول من فوق
 الاسوار فلم يخرج اليه أحد وانفك عنه الناس وسار الى باب الذهب من أبواب
 القصر ومعه ٥٠٠ فارس فوقف وطلب من الخليفة ان يشرف عليه من الطاق وتضرع
 اليه وأقسم عليه ببأنه فلم يجبه أحد واستمر واقفاً الى العصر والناس تنحل عنه حتى
 بقي في نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها (خذ نفسك والنج بها)
 واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر أسد الدين وشاور
 فمر ضرغام الى باب زويله فصاح الناس عليه ولعنوه وتحفظوا من معه وأدركه القوم
 فرموه عن فرسه قريباً من الجسر الاعظم من القاهرة ومصر القديمة قرب جامع
 السيدة نفيسة وحزوا رأسه في غاية جمادي الآخر وفر منهم أخوه الى جهة المطربة
 فادركه الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل أخوه الآخر عند بركة
 الفيل وبقي ضرغام ملقى على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها واعيدت
 وزارة مصر الى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع الى اتابك نور الدين ثلث الدخل
 مقابلة لما بذله في اعادته اليها وأقام أسد الدين بظهر القاهرة حسب الاتفاق الذي
 عمل مع نور الدين بان يكون أسد الدين موجوداً بمصر فاستاء من ذلك شاور وأراد
 ان يغدر به وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضاً
 وارسل اليه يأمره بالعود الى الشام فانف أسد الدين من هذا الحال وأعاد الجواب
 بطلب ما كان استقر فلم يجبه شاور اليه فلما رأى ذلك أرسل أسد الدين نوابه
 فاستولوا على بليديس وباقي الحوف الشرقي فارسل شاور الى الملك أموري
 ملك القدس يستمدد ويخوفه من نور الدين ان ملك مصر وكان الافرنج قد
 أيقنوا بالهلاك ان ملكها نور الدين فلما أرسل شاور اليهم يستعجدهم ويطلب
 منهم ان يساعده على اخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحسبوه

واسرعوا مليون دعوته وبادروا الى نصرته وطمعوا في ملك ديار مصر وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعسكره في اطراف بلاده مما يلي بلاد الافرنج ليمتنعوا من المسير فلم يمتنعوا لعلمهم ان الخطر في مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر اشد من الخطر في مسيرهم فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار الملك اموري في باقي عسكره وكان قد وصل الى ساحل الشام جمع كثير من الافرنج في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعان بهم الملك اموري فاعانوه وساروا معه فلما دنا الافرنج من مصر فارقها اسد الدين وقصد مدينة بليس واقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والافرنجية ونازلت اسد الدين بمدينة بليس وحصره بها ثلاثة اشهر فامتنع بها وسورها من طين قصير جداً وليس له خندق ولا جبل يحميها وهو يغاديهم القتال ويراهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه مأرباً فينتاهم كذلك اذا تاهم الخبر بهزيمة الافرنج بحارم واستيلاء نور الدين على الحصن ومسيره الى باناس فحينئذ ارادوا العود الى بلادهم ليحفظوها ولعلمهم بدركون باناس قبل اخذها فلم يدركوها الا وقد ملكها على ما سيأتي وراسلوا اسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده فيها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم بما فعله نور الدين بالافرنج في الساحل فاخرج اسد الدين اصحابه بين يديه من بليس وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقهم والمصريون والافرنج ينظرون فاتاه افرنجي فقال له اما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والافرنج وقد احاطوا بك وباصحابك فلا يبقى لك معهم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله اضع فيهم السيف فلا اقتل حتى اقتل رجلا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفي ابطاهم فيملك بلادهم ويفني من بقي منهم والله لو اطاعني هؤلاء يعني اصحابه لخرجت اليكم اول يوم لكنهم امتنعوا فطلب الافرنجي على وجهه وقال كنا نستعجب من افرنج الشام ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرتهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام وعاد سالماً وفي قلبه من شر شاور الاحن وكيف تمت بغدره تلك المحن

﴿ فتح حارم ﴾

في سنة ٥٥٩ هـ اغتتم نور الدين خلو الشام من الافرنج فراسل اخيه قطب الدين

بالموصل ونفر الدين قرا ارسلان بالحصن ونجم الدين الي بماردين وطلب منهم مساعدته بالجيوش في حرب الافرنج فوردت اليه الامداد من كل جهة وسار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر الى من بقي من الافرنج بالساحل فحشدوا جيوشهم وجاءوا وفي مقدمتهم رايمند صاحب طربلس وبوهيموند الثالث امير انطاكية ودوك الروم ومقدمتها وجمعوا معهم من الجيوش ما لا يقع عليه احصاء وقد ملؤوا الارض فحرض نور الدين اصحابه وفرق نفائس الاموال على شجعان الرجال فلما قاربه الافرنج رحل عن حارم الى ارتاح طمعاً ان يتبعوه وتمكن منهم اذا لاقوه فساروا حتى نزلوا وتيقنوا انه لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على زواله فعادوا الى حارم وتبعهم نور الدين فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الافرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبه عسكر حلب فبددوا نظامهم وزلزلوا اقدامهم وولو الادبار وتبعهم الافرنج وكان ذلك باتفاق ورأي دبروه ومكر مكروه وهو ان يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف فاذا عادت فرسانهم من اثر المهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون اليه ويعود المهزومون في اثارهم وتأخذهم سيوف المسلمين من بين ايديهم ومن خلفهم فكان الامر كذلك . لان الافرنج لما تبعوا المهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم فافناهم قتلاً واسراً وعادت فرسانهم فلم تجد غير جثث القتلى ورأوا انهم قد ضلوا وارتد عليهم عسكر حلب المهزومون فاخذ الافرنج في الوسط وقد احاط بهم المسلمون من كل جانب فحينئذ حمي الوطيس وبأشر الحرب المرؤوس والرئيس وقاتل الافرنج قتال من يرجو النجاة وحاربوا حرب من آيس من الحياة وانقضت العساكر الاسلامية عليهم فزقوهم وقد اوقعوا فيهم القتل والاسر بكثرة فاسروا السبرنس بوهيموند الثالث صاحب انطاكية ورايمند صاحب طربلس ودوك الروم وغيرهم من قوادهم وسار نور الدين بعد ذلك الى حارم فلما كان في ٢١ رمضان من تلك السنة وبث سراياه في تلك الاعمال والولايات فهبوا وسبوا وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويدا وعادوا سالمين ثم ان نور الدين اطلق بوهيموند صاحب انطاكية بمال جزيل اخذه منه واسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم

﴿ فتح بانياس ﴾

لما فتح حارم نور الدين كما تقدم أمر عساكر الموصل وديار بكر بالعود الى

بلادهم وأظهر انه يريد محاربة طبريه فجعل من بقي من الافرنج همهم في حفظها وتقويتها فسار نور الدين الى باناس لعلمه بقلته من فيها من الحماة المدافعين عنها ونازلها وضيق عليها وقتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصره الدين اميراميران فاصابه سهم فاذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف الله لك عن الاجر الذي أعدلك لتميت ذهاب الاخرى ثم جد في حصارها فسمع الافرنج يجمعون رجالهم ولم تستكمل عدتهم حتى فتحها على ان الافرنج كانوا قد ضعفوا يقتل رجالهم بواقعة حارم وأسرههم ثم ملك القلعة وملاها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الافرنج في أعمال طبريه وقرروا له على الاعمال التي لم يشاطروهم عليها مالا في كل سنة ثم عاد نور الدين منها الى دمشق وكان بيده خاتم بقص ياقوت من أحسن الجوهر يسمى الجبل لكبره وحسنه وفي أثناء مسيره سقط من يده في جهة كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان ولما بعد عن هذا المحل تذكره فأرجع بعض رجاله للبحث عنه ودلهم على الموقع الذي كان آخر عهده به فوجدوه

﴿ في دخول اسد الدين شيركوه مصر المرة الثانية ﴾

بعد خروج أسد الدين من بليس التقى بنور الدين فخارب معه الصليبيين وانتصرا الا ان انتصارهما لم يقلل شيئاً من رغبة أسد الدين في افتتاح مصر فكان من وقت الى آخر يبحث نور الدين على ذلك . وكان مما يهيجه على العود الى مصر زيادة حقه على شاور فاذن له نور الدين بالمسير ومعه جماعة من الامراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب فلما علم شاور وزير مصر وتأكد انه اذا لم يسارع الى ملافاة الخطب لا تلبث مصر حتى تصير في يد نور الدين على ان الصليبيين من الجهة الاخرى لا ينفكون ليلاهم ونهارهم ساعين الى افتتاح مصر وقد قطعوا السبيل على جيوش أسد الدين في سيرها الى مصر فصاروا بجيش عظيم تحت قيادة الملك اموري حتى لم يبق صليبي الا سار في ذلك الجيش أما أسد الدين فقطع سوريا حتى بلغ حدود مصر ودخلها في ربيع اول سنة ٥٦٢ وكان الصليبيون قد ساروا بقيادة ملكهم في الصحراء فلم يظفروا باحد ثم عادوا الى غزة فالعريش ثم الى بليس . أما جيش أسد الدين فكان قد تجاوز بليس حتى بلغ عطاس فعسكر قرب القاهرة وتهدها

نخاف شاور من قدوم الجيشين المذكورين وكل منهما يحاول الفوز لنفسه ففضل

ان يسلم القاهرة للصليبيين ويحملهم على قتال أسد الدين الذي كان على بعد ١٢ ميلا من تلك العاصمة فرأى أسد الدين شيركوه ان جيشه بعد ان قاسى الاهوال في عبور الصحراء لا يسهل عليه الهجوم على هذه المدينة فاجتاز النيل الى البر الغربي بقرب اطيح وزل بالخيرته تجاه مصر وبنى له استحكامات تقيه من العدو فدخل الصليبيون القاهرة ولكنهم لم يوافقوا شاور على ما أراد الا بعد ان تمهد لهم بزيادة الجزية السنوية عما كان يدفعه للملك اموري قائد تلك الحملة فعين معتمدين من قبله لعقد المعاهدة بذلك فأهوها على ما أراده الصليبيون فقبضوا منه مبلغ مائتي الف دينار نقداً على وعد ان يقبضوا مثله بعد مدة يسيرة

ثم اراد الملك اموري مهاجمة أسد الدين شيركوه على جسر يصنعه من القوارب فجعل شيركوه كلما ابتدأوا في بناء الجسر يشغلهم عن اتمامه فبقى الجيوشان في مثل ذلك نحو ٥٠ يوماً أو أكثر تمكن اثناءها شيركوه من تملك الضفة الغربية للنيل

﴿ محاربة أسد الدين شيركوه المصريين والصليبيين ﴾

فبعد تملك اسد الدين البلاد الغربية للنيل سار الى الصعيد حتى بلغ مكلنا يعرف بالباين أما الصليبيون فانهم اجتازوا الى البر الغربي عند رأس الدلتا ومعهم العساكر المصرية فأدركوهم هناك في ٢٥ جماد اول سنة ٥٦٢ وكان قد أرسل اليهم جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرتهم وجددهم في طلبه فعزم على قتالهم ولقائهم وان يحكم السيوف بينه وبينهم الا انه خاف ان تضعف نفوس أصحابه عن الثبات في هذا المقام الخطير الذي عظيم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم فاستشارهم فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل الى الجانت الشرقي والعود الى الشام وقالوا له ان نحن انهزمنا وهو الذي لا شك فيه فالى أين نلتجئ وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدونا ويودون لو شربوا من دماءنا (وحق لعسكر عدده الفا فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم ان يرتاعوا من لقاء عشرات الالوف مع ان كل فرد من أهل البلاد عدو لهم) فلما قالوا ذلك قام رجل من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش وكان مشهوراً بالشجاعة وقال من يخاف القتل والجراح والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته والله لأن عدتم الى الملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون

فيه ليأخذن اقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه الى يومنا هذا ويقول
لكم أتأخذون أموال المسلمين وتقرون من عدوهم وتسلمون مثل هذه الديار
المصرية يتصرف فيها الكفار فقال اسد الدين هذا رأي وبه أعمل ووافقهما صلاح
الدين يوسف بن أيوب ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمة على
اللقاء فاقام بمكانه حتى أدركه المصريون والصليبيون وهو على تعبته وقد جعل
الاتقال في القلب يتكثرت بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد
ثم انه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه ان الصليبيين
والمصريين يظنون اني في القلب فهم يعملون كل قوتهم بازائه وحملتهم عليه فاذا
حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم فاذا
عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم واختار من شجعان اصحابه جمعاً يشق اليهم ويعرف
صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم في الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الصليبيون ما
ذكره اسد الدين وحملوا على القلب ظانين انه فيه فقاتلهم من به قتالاً يسيراً ثم
انهزموا من أمامهم فنبعوه فحينئذ حمل اسد الدين في من معه على من تخلف من
الصليبيين الذين حملوا على القلب فهزدهم ووضع السيف فيهم فأتحن وأكثر القتل
والاسر وانهزم الباقون فلما عاد الصليبيون من اثر المهزمين الذين كانوا في القلب
وأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقماً ليس فيه منهم مقاتل فانهزموا أيضاً وكان هذا
من أعجب ما يؤرخ (ان الفي فارس تهزم عساكر مصر والصليبيين)

﴿ استيلاء اسد الدين على الاسكندرية ومحاربة المصريين والصليبيين ﴾

بعد الواقعة المذكورة سار أسد الدين الى ثغر الاسكندرية وجي الاموال من
القرى التي في طريقها فلما وصل سلمت من غير قتال فاستتاب بها صلاح الدين ابن
أخيه وعاد الى الصعيد وتملكه وجي أمواله وأقام فيه حتى صام رمضان أما
المصريون والصليبيون فانهم عادوا الى القاهرة وجمعوا اصحابهم فاستعاضوا عن قتل
منهم واستكثروا وحشدوا وساروا الى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر
يتمتعها منهم وقد أعانه أهلها خوفاً من الصليبيين الذين حاصروها وضيقوا عليها
فصبر اهل الاسكندرية وصدقوا مع صلاح الدين في الجهاد وقل الطعام بالبلد فصبر
أهله على ذلك ثم ان اسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان قد استمال شاور
بعض من معه من التركان بالمال ووصله رسول المصريين والصليبيين يطلبون

الصلح وبدلوا له خمسين الف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجابهم الى ذلك

﴿ في رجوع اسد الدين والصلبيين من مصر ﴾

لما عرض الصليبيون والمصريون على اسد الدين كما تقدم أجابهم بشرط ان
ينسحب الصليبيون وأسد الدين من الديار المصرية بسلام وترجع الاسكندرية الى
شاور وان الصليبيين لا يملكون من مصر ولا قرية فقبل الفريقان هذه الشروط
وسلم مدينة الاسكندرية الى شاور في منتصف شهر شوال سنة ٥٦٢ وعاد أسد
الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الى دمشق في ١٨ القعدة وعادوا
الى الخدمة النورية فامتدحه الشعراء والافاضل ومنهم العماد امتدحه بقصيدة
طويلة منها

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر	ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت له	ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بمرآك الارض قد طويت	فأنت أسكندر في السير أم خضر
تناقأت ذكرك الدنيا فليس لها	الاحديثك ما بين الورى سمر
فانت من زانت الايام سيرته	وزاد فوق الذي جاءت به السير
لوفي زمان رسول الله كنت أنت	في هذه السيرة المحمودة السور
اصبحت بالعدل والاقدام منفرداً	فقل لنا أعلي انت أم عمر
اسكندر ذكروا اخبار حكمته	ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورسم خبرونا عن شجاعته	وصار فيك عياناً ذلك الخبر
اخفر فان ملوك الارض أذهلهم	ما قد فعلت فكل فيك مفتكر
سهرت اذرق دوابل هجت اذسكنوا	وصلت اذ جنبوا بل طلت اذ قصر وا

وأما الصليبيون فلم يريدوا مبارحة القاهرة حتى استقر بينهم وبين شاور ان
يكون لهم بالقاهرة حامية ويكون أبوابها بيد فرسانهم لينع الملك العادل نور الدين
من انفاذ عسكر اليهم ويكون للصلبيين من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار
وجرى هذا كله بين الصليبيين وشاور بدون علم خليفة مصر العاضد لان شاور
حكم عليه وحجبه وعاد الصليبيون الى بلادهم بعد ما تركوا جماعة من فرسانهم
ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة

﴿ في محاربة نور الدين بلاد الافرنج ﴾

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر فسار اليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حصر فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الافرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فاغاروا ونهبوا وقصدوا عرقه فنازلوها وحصروها وحصروا حلية وأخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرّب البلاد وفتحوا العريه وصافينا وعادوا الى حمص فصاموا بها رمضان ثم ساروا الى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للافرنج ومن أمنع حصونهم ومعاقلمهم فانهزم الافرنج عنه وأحرقوه فوصل نور الدين في الغد فهدم سورته جميعه وأراد الدخول في بيروت فتجدد في العسكر خلف أوجب التفرق فعاد قطب الدين الى الموصل وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات فاخذها في طريقه وهو عائد

﴿ في تجهيز الملك أموري عسكره للاستيلاء على الديار المصرية ﴾

لما رجع الملك أموري الى القدس تزوج بابنة أخي الملك عمانويل ملك الروم بالقسطنطينية وقد زاد طمعه وأخذ رجاله المقيمون بمصر والقاهرة يكاتبونه ويطلبون منه القدوم الى مصر لاستلامها قائلين له انها خالية من حام يحميها أو يدافع عنها ومتى حضرت تستلمها بدون حرب وقتال فجمع مجلس شورا بمدينة القدس وأعلمهم بالملكيات الواردة اليه من مصر وعزمه على المسير اليها واستيلائه عليها فعارضوه خصوصا رئيس جمعية الرهبان الهيكلين وجمعية ضيوف الغربا (ماري يوحنا المعدان) قائلين انه لا يصح نقض المعاهدة المحررة بينه وبين شاوور وزير مصر واننا لا نقصدنا لها فأنها طعمة لنا وأموالها تساق الينا تقوى بها على نور الدين وربما اذا قصدناها فلنملكها لا يسلمها صاحبها وعساكره وأهلها اليها ويقاتلونا دونها ويسلمونها الى نور الدين فلم يصغ الى قولهم وظل مصمما على الدخول اليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها وظهر له من ضعف من بقي فيها . وكان يوجد في مصر بعض الامراء الذين يكرهون شاوور فاسلوا اليه وطلبوا قدومه ليسلموه مصر مكيدة في شاوور فلما سار الملك أموري ووصل الى الداروم كتب الى شاوور يقول له اني قد قصدت الخدمة على ما قررت لي من العطا في كل عام فاجابه شاوور ان الذي تررت له لك انما جعلته متى احتجت اليك أو اذا قدم عليّ عدو فاما مع خلو بالي من الاعداء فلا

حاجة لى بك وليس لك عندي مقرر . فاجابه أموري ان لابد من حضوري وأخذى المقرر فعلم شاور انه غدر بالعهد ونقض الايمان وانه قد طمع في البلاد

﴿ استيلاء الصليبيين على بليس ﴾

لما علم شاور بغدر الصليبيين كما تقدم أخذ في تجنيد الرجال وحشد العساكر الى القاهرة وانفذ الى بليس فرقة من الجيش بقيادة طي ولده اما الملك اموري فانه سار يجد الى ان وصل الى بليس في أول صفر سنة ٥٦٤ هـ فجم عليها وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس وابن الحياط يحيى وابن قرجله وهم الذين كانوا قد كاتبوه وطلبوا قدومه فارسل الى طي بن شاور وقال له اين نزل فقال على أسنة الرماح وقال له أتحسب ان بليس جبنة تأكلها فارسل اليه أموي يقول نعم هي جبنة والقاهرة زبدة ثم قاتل بليس ليلاً ونهاراً حتى اقتتحها بالسيف قهراً وقتل من أهلها خلقاً عظيماً وخرب أكثرها وأحرق حلال أدرها ثم اخرج الاسرى الى ظاهر البلد وحشرهم في مكان واحد وحمل في وسطهم برمح ففرقهم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره وقال لفرقة قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر فاني قد ملكتها بلاشك ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل الى جهة منية حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسرى فاقسموهم وبقى أهل بليس الذين اسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الصليبيين وهلك أكثرهم في أيديهم وافلت منهم اليسير لان الملك الناصر لما ملك ديار مصر وقف مغل بليس على كثرته على فكك الاسرى منهم وساح أهل بليس بخراجهم الى آخر ايامه

﴿ محاربة الصليبيين مدينة القاهرة ﴾

لما اتصل بشاور ما جرى على أهل بليس من القتل والاسر وان الصليبيين شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم ظهراً اشفق من ذلك وطلب الاذن بالدخول على الخليفة العاضد فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال اعلم ان البلاد قد ملكت ولم يبق الا ان تكتب الى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته ومعونته فكتب جميع ذلك وسود أعاليها بالمداد وقيل ان الذي أشار بكتابة ذلك هو شمس الخلافة محمد بن مختار لانه لما رجع من مقابلة الملك أموري اجتمع بالكامل بن شاور وقال له عندي أمر لا يمكنني ان اخبرك به الا بعد ان تحلف لي بانك لا تطلع اباك عليه فلما

حلف له قال له ان أباك قد وطن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد الى الصليبيين ولا يكتب نور الدين وهذا عين الفساد فاصعد أنت الى الخليفة والزمه بان يكتب الى نور الدين فليس لهذا الامر غيره . وأما الصليبيون فانهم ساروا الى مصر ولما قربوا من المدينة أمر شاور باحراقها وانذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم وتشتوا في جميع الأنحاء وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت وأحرقت مصر في تاسع صفر سنة ٥٦٤ وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً (ومدينة مصر المذكورة هي مصر القديمة الآن التي على ساحل النيل) ثم نزل الصليبيون في بركة الحبش وابنت أخبارهم في الاطراف وتحفظوا من ظفروا به فانفذ شاور الى أموري شمس الخلافة فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه الى باب الخيمة ففعل فراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له ترى دخاناً في السماء قال نعم قال هذا دخان مصر فاني ما أتيت الا وقد احترقت بعشرين الف قارورة نفضت وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقي فيها ما يؤمل بقاءه ونفعه نخل الآن عنك مدافعتي وكن كلما قلت لك انزل في مكان تقدمت الى غيره وما بقي لك الا ان تنزل القاهرة فقال هو كما تقول ولا بد من نزول القاهرة ومعي افرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام البرج تقع في خيمته فقاتلوا البلد اياماً ولما تيقن شاور الضعف عدل الى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاررة والمدافعة الى ان تصل عساكر الشام فانفذ شمس الخلافة الى اموري برسالة طويلة وفي ضمنها (ان هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه الا بعد ان يقتل من الفريقين عالم عظيم وما تعلم انت ولا انا لمن الدائرة والرأي ان تحقن دماء اصحابك ودماء اصحابي وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً) فاستقرت المصانعة على اربعمائة الف دينار وقيل مليوناً يعجل له منها مائة الف دينار فاجاب اموري الى ذلك وانعقدت الهدنة وحلف أموري ورحل الى بركة الحبش وحمل شاور اليه مائة الف دينار في عدة دفعات سوف فيها الاوقات ثم أخذ يماطله بالباقي انتظاراً لقدم العساكر ويوهم انه يجمع لهم الاموال

﴿ دخول اسد الدين شيركوه مصر ثالث مره ﴾

لما وصل كتاب الخليفة العاضد الى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً وأنفذ

أسد الدين وكان ذلك غاية مناه وأرسل معه الفقيه عيسى الهكاري الى مصر برسالة ظاهرة الى شاور يعلمه بقدم العساكر ورسالة سرية الى الخليفة العاضد وأمره ان يستحلفه على اشيء عينها وان يكتف ذلك عن شاور فلما وصل اسد الدين شيركوه الى القاهرة نزل بارض اللوق وأخرج اليه شاور الاقامت الحسنة والخدم الكثيرة ثم ارسل شمس الخلافة الى الملك اموري يستطلق منه بعض المال فصار اليه واجتمع به وقال قد قل علينا المال فقال اموري اطاب منه شيئاً قال اشتهي ان تهب لي النصف قال قد فعلت فقال شمس الخلافة ما بلغني ان ملكاً مثلك وهب مثل هذه الهبة فقال اموري انا أعلم انك رجلاً عاقلاً وان شاور ملك وانكما ما سألتماني هذا المال الا لامر حدث فقال له صدقت هذا اسد الدين قد وصل نصره لنا وما بقي لك مقام وشاور يقول لك ان ترحل ونحن باقون على الهدنة فانه أوفق لك ولنا ونحن نراضي هذا الرجل بشيء من هذا المال ونحمل الباقي اليك متى قدرنا وان راضيناه باكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار فقال اموري انا راض بذلك وان بقي علي شيء حملته اليكم وعول على الرحيل فقال له بعد ان تطلق طي بن شاور ومن بقي من اسرى بليس معكم ولا تأخذ من بليس بعد انصرفك شيئاً فاجابه الى جميع ذلك ورحل الصليبيون عن مصر ولما نزل اسد الدين بارض اللوق كما تقدم ارسل له العاضد هدية عظيمة وخلاًماً كثيرة واخرج الى خدمته اكبر اصحابه ثم انه خرج اليه في الليل سراً متنكراً واجتمع به في خيمته وافضي اليه بامور كثيرة منها قتل شاور ثم عاد الى قصره وكان شاور قد رأى ليلة نزل اسد الدين على القاهرة كانه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلاً وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها باقلامه فسأل عنه فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما اقام اسد الدين بالديار المصرية ورحل عنها الافرنج أمنت البلاد وتراجع الناس الى بيوتهم واخذوا في اصلاح ما شعثه الصليبيون وافسدوه وتقاطر الناس الى خدمة اسد الدين فملقاهم بالرحب والسعة واحسن اليهم وكذلك شاور فانه اخذ في التودد الى الاسد والتقرب اليه بجميع ما وجد السبيل اليه وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة حتى استحوز على قلبه وقوي تبقيته في ملكه وصفا له قلبه

﴿ قتل شاور ووزارة أسد الدين شيركوه ﴾

لما أقامت عسكر الشام بمصر تحت رياسة أسد الدين شيركوه ورأوا طيب

بلادها وكثرة خيرها وسعة أموالها تآقت أنفسهم الى الإقامة بها واخثاروا سكنائها ورغبوا فيها رغبة عظيمة وقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها ثم علم انه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها فاخذ في أعمال الحيلة عليه لجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور وقال لهم قد علمتم رغبتني في هذه البلاد ومحبتني لها وحرصني عليها لا سيما وقد تحققت ان عند الصليبيين ما عندي وعلمت انهم كشفوا عورتها وعلّموا مسالكها وتيقنت اني متى خرجت منها عادوا اليها وملكوها وهي معظم دار الاسلام وحلوبة بيت مالهم وقد قوي عندي ان ائب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل ان يملكوها وأخلص من شاور الذي يابح بنا وبهم ويضرب بنا وبهم وقد ضيع صنيع أموال هذه البلاد في غير وجهها وقوى بها الصليبيين علينا وما كل وقت ندرك الصليبيين ونسبقتهم الى هذه البلاد التي قاتل رجالها وهلكت أبطالها فقالوا جميعاً لا يتم امر الا بعد قتل شاور وتفرقوا على ايقاع القبض عليه . وكان شاور يركب في الابهة العظيمة والعمدة الحسنة على عادة الوزراء لانه كان الوزير اذا ركب سار في موكبه الطبل والبوق وكان شاور قليل الركوب فاخذ الامراء يترصده الى ان ركب يوماً في ابته وجلالته فلما عاينه الامراء هابوه وأحجموا عنه وكان يوماً عظيم الضباب وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في وسط موكبه ثم ساره ثم مد يده الى تلايبه وصاح عليه فرجله ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزائمهم ووقعوا في عسكر شاور فهبوا ما كان مع رجاله وقتلوا منهم جماعة وحمل الملك الناصر شاوراً راجلاً الى خيمة لطيفة وأراد قتله فلم يقدر من غير مشاورة اسد الدين وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور فانفذ التوقيع الى صلاح الدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه الى القصر فخلع الخليفة العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة بدل شاور وذلك في ١٧ ربيع أول سنة ٥٦٤ فسار اسد الدين ودخل القصر وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الحيوش وقصد دارالوزارة فزها وهي التي كان بها شاور وسلفاؤه وكتب له منشوراً بالوزارة من القصر كتب العاضد في طرته بخطه (هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقلد امانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لجملة والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بان اعترت خدمتك الى نبوة النبوة واتخذة للفقور سبيلاً ولا تنقض الايمان بعد توكيدها وقد

جمعت الله عليكم وكيلا) وجاء في المنشور ما يأتي (من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الأئمة مجير الامة أسد الدين كافي قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارس شيركوه العاضدي عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين . وادام قدرته واعلى كلمته سلام عليك فانه يحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ويسأله ان يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما الخ) فامر بقراءته على رؤوس الأشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدة مرات استحساناً لمعانيه . ثم ان الخليفة العاضد ارسل الى أسد الدين طبقاً من الفضة فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس اولاد اخوته وكان الكامل لما سمع بقتل ابيه قد التجأ الى القصر فقتله الخليفة

* { حكم الملك المنصور اسد الدين شيركوه ووفاته } *

لما استقر أسد الدين بالوزارة ولم يبق له منازع وفي الاعمال من يثق اليه واستبد بالولاية فاقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه وصلاح الدين مباشراً الامور مقرر لها وزمام الامر والنهي مفوض اليه لكفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته وطلب أسد الدين من القصر كاتب انشاء للوزارة فارسل اليه عبد الرحيم اليسانبي ومدحه

الشعراء ومنهم العماد بقصيدة طويلة منها

بالحمد أدركت ما أدركت لا اللعب	كم راحة جنيت من دوحة التعب
ياشيركوه بن شاذي الملك دعوة من	نادى فعرف خير ابن بخير أب
جري الملوک وما حازوا بركضهم	من المدى في العلا ما حزت بالحجب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت	عنها الملوک فطالت سائر الرتب
فتحت مصرا وأرجو أن تصير بها	ميسرا فتح بيت القدس عن كئيب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من	فتح البلاد فبادر نحوها وثب
أنت الذي هو فرد من بسالته	والدين من عزمه في ججفل لجب

وفي حكمه شدد على النصارى وأمرهم بشد الزناير على أوساطهم ومنعهم من ارجاء الذوابه التي تسمى بالعزبه فكتب المهذب ابن أبي المليسح زكريا وكان مسيحياً الى أسد الدين بقوله

يا أسد الدين ومن عدله	يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد أوساطنا	فما الذي أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبه ولا مكنه من ارخاء الذؤابة وعند ما آيس من ذلك أسلم وكان
شركوه يعتبر نفسه نائباً لنور الدين في مصر وانه قائم بمنصب الوزارة باسمه ولكن
لم تطل مدته لانه كان مواظباً على تناول اللحوم السمينه وكانت تتواتر عليه التخم
والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته في ٢٢ جمادي الثانيه سنة ٥٦٤ ولم
يمكث في منصبه الا شهرين وخمسة أيام ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول
صلى الله عليه وسلم وكان شجاعاً بارعاً قويا ذا صولة غنياً دينياً كثير الخير وكان يحب
أهل الدين والعلم كثير الايثار حديبا على أهله وأقاربه وخلف مالا كثيراً وترك
كثيراً من الخيل والدواب وخمسة مملوك وهم الاسديه وهو مشيد قواعد الدولة
الشاذية والمملكة الناصرية وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على اقطاع
مباغه تسمائة دينار وتنقل في خدمة الملك العادل محمود نور الدين الى ان ملك الديار
المصرية وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام

﴿ وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ﴾

لما توفي أسد الدين كما تقدم أصبح كل من الامراء النوريه الذين كانوا قد صحبوا
أسد الدين يطالب التقدم على العساكر وولاية الوزارة منهم الامير عين الدولة الياروقي
وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبو الهيجاء وسيف الدين علي بن أحمد
الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين ومالت الاسدية الى صلاح
الدين فانفذ الخليفة العاضد يسأل عمن يصلح للوزارة فارشد من جماعة من الامراء
على شهاب الدين الحارمي فانفذ اليه وأحضره وخطبه في تولي الوزارة فامتنع من ذلك
وأشار بولاية صلاح الدين وكان الحارمي أولاً قد رغب في الوزارة وتحدث فيها فلما
رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها خاف ان يشتغل بطلبها فتفوته وربما
تقوت صلاح الدين فإشار عليه لانها اذا كانت لابن أخته كانت في بيته وكان صلاح
الدين قد وقع من العاضد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته واقدامه على
شاور في موكبه وقتله حين جاءه أمره مع صغر سنه فسارع الى تقليده الوزارة
وما خرج شهاب الدين من حضرة العاضد الا وخلعة الوزارة قد أرسلت الى صلاح الدين
وتلقب بالملك الناصر وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنسي بطرز ذهب وثوب
ديبقي بطرازي ذهب وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب وطيلسان ديبقي بطراز
دقيق ذهب وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار وسيف محلي مجوهر قيمته خمسة آلاف

دينار و فرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها و طوق و تحت و سرفسار ذهب مجوهر و في رقبة الحجر مشددة بيضاء و في رأسها مائتا حبة جوهر و في أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر و قصبه ذهب في رأسها طالعة مجوهره و في رأسها مشددة بيضاء باعلام ذهب و مع الخلعة عدة بقج و عدة من الخيل و أشياء أخر و منشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض و كان ذلك يوم الاثنين الخامس و العشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ و قري المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة و حضر جميع أرباب الدولتين المصرية و النورية و كان يوماً عظيماً و خلع الملك الناصر على جميع الأمراء و الكبراء و وجوه البلد و أرباب دولة العاضد و عم الناس جميعهم بالهبات مع انه قبل هذا المنصب كرهاً و كان جاء الى مصر صحبة عمه أسد الدين كرهاً أيضاً « ان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل » و أما الأمراء فانهم لم يلتفتوا اليه و لا خدموه و كان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله اليه قائلاً له ان هذا الامر لا يصل اليك مع وجود عين الدولة و الحارمي و ابن تليل فقال الى صلاح الدين ثم قصد أيضاً الى قطب الدين و قال له ان صلاح الدين قد أطاعه باقي الأمراء و لم يبق سواك فلاحسن ان تطيعه و هكذا حتى أماله و سار الى عين الدولة البيروقي و فعل معه كما فعل مع سلفائه فلم يقبل منه ذلك و سار بعسكره الى نور الدين بالشام

و أما صلاح الدين فانه كان بصفته نائب عن الملك العادل محمود نور الدين و قائم مقامه بالديار المصرية و كانت الخطبة في جميع البلاد باسم الملك العادل بعد ذكر الخليفة العاضد و كان الملك العادل نور الدين يكتب الملك الناصر صلاح الدين بالامير الاسفهلار و صار يحكم في الرعية بالعدل المملوء حلماً حتى أحبته الرعية و استمال قلوبهم و بذل لهم المال فقوميت نفسه على ذلك و ضعف أمر الخليفة العاضد و طلب صلاح الدين من نور الدين ارسال اخوته فلم يجبه الى ذلك و قال أخاف أن يخالف احد منهم أو امرك فتنفسد البلاد . و بعد مدة سير نور الدين الى مصر اخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب و هو أكبر من صلاح الدين و قال له ان كنت تسير الى مصر و تنظر الى أخيك يوسف الذي كان يخدمك فلا تسرفانك تفسد البلاد فأعاقبك و ان كنت تنظر اليه انه صاحب مصر و قائم فيها مقامي و يخدمه بنفسك كما يخدمني فسر اليه و اشدد ازره و ساعده على ما هو بصده فقال أفعل

معه من الخدمة والطاعة ما يصل اليك فكان كما قال . وكان نور الدين قد أثر عنده
تنصيب صلاح الدين على الديار المصرية حتى قال ما أخطأت الا في نفاذي أسدالدين
الى مصر بعد علمي برغبته فيها وكان يبلغ الملك الناصر صلاح الدين من أقوال نورالدين
وبعض أصحابه اشياء تؤلمه غير انه يلقاها بصدر رحب وخلق عذب . وأمر صلاح
الدين بإبطال المنكوس والمظالم ما يقدر من ذلك بديوان صناعة مصر مائة الف
دينار وما يستخرج بالاعمال البحرية والقبيلية بمائة الف دينار فساح بجميع ذلك
وأصدر بهم منشوراً يقرأ على المنابر وساح أيضاً في كثير غير ذلك وامتدحه الشعراء
وقال احدهم شعر

فالشام يعبط مصر اندخلت بها كما الفرات عليكم يحسد النيل
ناتم من الملك عفواً ما الملوك به عنوا قديماً وراموه فما نيلا

وقال بعضهم

لك الحسب الباقي على عقب الدهر بل الشرف الرائي الى قمة المنسر
كذا فليكن سعي الملوك اذا سعت بها الهمم العليا الى شرف الذكر
نهضتم باعباء الوزارة نهضة أقامتم بها الاقدام من زلة العثر
كسفتهم عن الاقليم غمته كما كسفتهم بانوار الغنى ظلمة الفقر
حميم من الافرنج سرب خلافة جريتم لها مجرى الامان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم ودائرة الانصار اضيق من شبر
جلبتم اليه النصر اوساً وخزرجاً وما اشتقت الانصار الامن النصر
كتائب في جيرون منها اواخر وأولها بالنيل من شاطيء مصر
طلعت فاطعتم كواكب نصره أضاءت وكان الدين ليلا بلا فجر
وأبت اليكم يا اين أيوب دولة تراسلكم في كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزيمة أسدية فكسكتهم بها الاسلام من ربة الاسر

* قتل جوهر مؤتمن الخلافة وواقعة العميد *

لما استقام صلاح الدين بالوزارة وعظم نفوذه وكثرت نصرائه داخل الحسد مؤتمن
الخلافة جوهر الخصي وحدثه نفسه بخلع صلاح الدين وواقعه كثير من الامراء المصريين
والجند واتفق رأيهم ان يبعثوا الي الصليبيين ببلاد الساحل يستدعونهم الي القاهرة
حتى اذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ناروا وهم في القاهرة واجتمعوا مع

الصليبيين على اخراجه من مصر . فسير وار جلا الى الصليبيين وجعلوا كتبهم معه في نعل
 فسار الرجل الى ان وصل الى البير البيضاء قريبا من بليس فاذا ببعض اصحاب صلاح
 الدين قابل الرجل هناك فانكر امره لانه حمل نعله في يده وليس فيها أثر مشي
 والرجل رث الهيئة فارتاب فيه وأخذ النعلين وشقهما فوجد الكتب بداخلهما
 فحمل الرجل والكتب الى صلاح الدين فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت فاذا
 الذي كتبها من اليهود الكتاب فلما احضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه نطق
 بالشهادة قبل كلامه ودخل في عصمة اسلامه ثم اعترف بما جناه وان الذي امره هو
 مؤتمن الخلافة جوهر فبلغ ذلك الى جوهر فخاف على نفسه ولزم القصر وامتنع
 من الخروج فاعرض صلاح الدين عن ذلك جملة وطال الامد فظن الحصري انه قد
 أهمل امره وشرع يخرج من القصر وكانت له منظره بناها بناحية الخرقانية بقرب
 قليوب في بستان نخرج اليها في جماعة وبلغ ذلك صلاح الدين فأنهض اليه عدة هجموا
 عليه وقتلوه في يوم الاربعاء ٢٥ ذي القعدة سنة ٥٦٤ واحترقوا رأسه وأتوا به الى
 صلاح الدين فاشهر ذلك في القاهرة وأشيع فضضب العسكر المصري وساروا باجمعهم
 وقد انضم اليهم عالم عظيم من الامراء والعامه حتى أصبح عددهم نيفاً و ٥٠ الفاً
 وساروا الى دار الوزارة وفيها صلاح الدين وقد استعدوا بالاسلحة فبادر شمس الدولة
 نخر الدين توارنشاخ أخو صلاح الدين ونادى بالمساكر الغز (الشاميه) ورتبهم
 ووقفت الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية والطائفة القرنيحية وغيرهم من الطوائف
 السودانية ومن انضم اليهم في حملة بين القصرين فتارت الحرب بينهم وبين صلاح
 الدين واشتد الامر وعظم الخطب حتى لم يبق الا هزيمة صلاح الدين واصحابه وعند
 ذلك امر توارنشاخ بالحملة على السودانيين فقتل منهم احد مقدميهم فانكسرت شوكتهم
 قليلا وعظمت حملة الغز عليهم فانكسروا الى باب الذهب ثم الى باب الدهومة وقتل
 حينئذ عدة من أمراء المصريين وكثير من سواهم . وكان العاضد في هذه الواقعة
 يشرف من المنطرة فلما رأى أهل القصر كسرة السودانيين وعساكر مصر رموا
 الغز من اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكروا فيهم وكفوهم عن القتال وكاد
 هؤلاء ينهزمون فامر حينئذ صلاح الدين باحراق المنطرة فاحضر شمس الدولة
 النفاطين وأخذوا في اعداد قارورة النفط وصوبوها الى المنطرة حيث يقيم العاضد
 فخاف على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنطرة وقال بصوت عال (أمير المؤمنين
 يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخر جوههم من بلادكم) فلما

سمع السودانيون ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب
القوم أقيمتهم الى ان وصلوا الى سوق السيوفين فقتل منهم كثير وأسروا منهم كثير
وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق بهم وكان في دار الارمن قريباً من بين
القصرين كثير من هذه الطائفة وكلهم رماة ولهم جارية في الدولة تجري عليهم فمئذ
ما قرب منهم الغز رموهم عن يدا واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق
شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلاً ومروا الى العميد فصاروا كما دخلوا
مكاناً أحرق عليهم وقتلوا فيه الى ان وصلوا الى باب زويله وكان مغلق فحصروا
هناك واستمر فيهم القتل مدة يومين وكان صلاح الدين قد احرق المنصوره وهي حارة لهم
بجهة باب زويله وأعظم حراتهم وأخذت عليهم أفواه السكك فاقنوا انهم قد أخذوا
لا محالة وطلبوا الامان فامنوا وذلك يوم السبت ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويله
نفر جوا الى الجيزة فعدى عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قوا بأموال المهزومين
وأسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد وتلاشى بعد هذه
الواقعة أمر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتقان الذي فتح مصر
للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى جوهرأ والذي كان سبباً في زوال هذه الدولة
وخراب القاهرة يدعى أيضاً جوهر الملقب بمؤمن الخلافة . فلما انتهت هذه الواقعة
واستصلت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولي أخاه تورانشاه قوص
واصوان وعيذاب مكافأة لما أظهره من البسالة في هذه الواقعة وجعل البلاد المذكورة
له اقطاعاً فكان دخلها في تلك السنة (٢٦٦٠٠٠) دينار

* محاصرة الصليبيين ثغر دمياط *

لما علم الملك أموري ملك القدس خبر تملك اسد الدين شيركوه مصر خاف
على بلاده لانه صار بين عدوين نور الدين من الشام وأسد الدين من مصر فجمع
مجلس شوره وقر رأيهم على ارسال فريدريك بطيرك صور ومعه يوحنا
اسقف عكا للاتيحاء بملوك فرانسوا وانكلترا وسيسيليا وغيرهم من ملوك أوروبا
فلم تنجح مسعاهم ثم ارسل الى عم زوجته ملك الروم بالقسطنطينية فارسل اليه
عماره بحرية مؤلفة من مائة وخمسين مركباً مائة بالزخار والمؤن والعدة والرجال
فاتحدت باقي الصليبيين الموجودين بالشام وساروا براً وبحراً الى مصر حتى اذا
بلغوا القرما ساروا الى دمياط فعسكروا بينها وبين البحر في أول صفر سنة ٥٦٥

وكانت هذه الحملة بقيادة الملك اموري أيضاً فظن انه يقدر على أخذ دمياط بالهجوم
 ويملكونها ليجعلونها ظهراً لهم يملكون به ديار مصر الا انه رأى منها مقاومة
 ودفاعاً اضطره لاقامة الحصار فاقامه . فارسل اليها صلاح الدين العساكر في النيل
 وحشر فيها كل من عنده وامدهم بالمال والسلاح والذخائر وارسل الى نور الدين
 يشكوا ما هو فيه من المخاوف ويقول انه اذا تحلف عن دمياط ملكها الصليبيون
 وان سار اليها وأخلى القاهرة خاف من غدر المصريين به وطلب منه المدد فجهز
 نور الدين اليه العساكر ارسالاً كلها تجهزت طائفة ارسلها ثم سار نور الدين الى
 بلاد الصليبيين بالشام فهبها واغار عليها واستباحها ووصلت غاراته الى ما لم
 تبلغه لخلو البلاد من ممانع وكذلك الخليفة العاضد فانه أمد صلاح الدين بمليون دينار
 مصري سوى الثياب وغيرها وارسل صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين وخاله شهاب
 الدين الحارمي الى دمياط وطال امد الحصار حتى نفذت مؤونة الصليبيين فارادوا
 العبور في النيل ليأتوا بالزاد فاوقفهم حاجز أقامه المسلمون في عرض النهر وهو
 عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد ممكن بمتاريس دمياط والظرف
 الآخر ببرج هائل منيع الجانب وكانت ترد الامداد الى حامية دمياط من القاهرة
 بكل سهولة . أما الصليبيون فكان انتظارهم للمدد من سوريا عبثاً فانتشر الجوع
 في معسكرهم فحدث الشقاق بين الفرنسيين وهم الذين كانوا في سوريا واليونانيين
 الذين أتوا بالمدد من القسطنطينية وأشدت حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان
 بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يتخاصمون على كسرة خبز ويمضغون افنان
 النخيل وما زاد تعاستهم تكاثرت الامطار والذوابع على معسكرهم بدون انقطاع
 حتى اصبحوا كأنهم في طوفان عظيم وحصل من هياج الاعصار نوء في النيل
 اسرع جريه فتراحت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها ممكنة لوقوعها
 بين قوتين متضادتين الريح ومجرى النيل فتكسر معظمها . وكان نور الدين قد
 ارسل حملة بقيادة الامير قطب الدين خسرو الهمذاني فنزل دمياط في ١٥ ربيع أول
 سنة ٥٦٥ واحرقت العساكر الاسلامية باقي مراكب الصليبيين ومنجايتاتهم
 والآت حربهم وقتلوا منهم كثيراً . فلما حل بالصليبيين ذلك لم يروا بداً من العود
 على اعقابهم الى سوريا صفر الايدي بعد ان تعاهدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم
 معارض في سيرهم فرجعوا خائئين في ٢١ ربيع أول وصدق فيهم المثل (ذهب
 النعامة تطلب قرنين فعادت بلا اذنين) وكان صلاح الدين قد اعد في القاهرة

جيوشاً ليسير بها ممدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش الصليبية
مراكزها فشق عليه ذلك ووبخ الامراء الذين سمحوا لهم بالانسحاب ثم عاد
الى القاهرة وامتدحه عمارة النبي بقصيدة منها

من شاكر والله أعظم شاكر ما كان من نعمي بني أيوب
طلب الهدى نصرأ فقال وقد أتوا حسي فانتم غاية المطلوب
جلبوا الى دمياط عند حصارها عن القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة لو لم يجلوها ات بكروب
فالناس من أعمال مصر كلها عتقاءهم من نازح وقريب
ان لم تظن الناس قشراً فارغا وهم اللباب فانت غير لبيب

﴿ مسير نجم الدين ايوب وباقي عائلته الى مصر ﴾

ثم أرسل صلاح الدين الى نور الدين يطلب قدوم والده وباقي عائلته وكان الخليفة
المستنجد بالله العباسي ببغداد قد أرسل الى نور الدين يعاتبه من تأخير اقامة الدعوة
له بمصر فاعتنم هذه الفرصة وأحضر الامير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج الى
ولده بمصر وسلمه رسالة منها (وهذا أمر تجب المبادرة اليه لنحظى بهذه الفضيلة
الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيا وامام الوقت
متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من اهم أمنيته) ثم ان الامير نجم الدين جهز
حاله للمسير الى مصر وسار معه نور الدين مشيعا الى رأس الماء وعاد نور الدين
بعد توديعه وسار نجم الدين الى ان وصل بالسلامة الى مصر في ٢٧ رجب سنة ٥٦٥
نفرج الخليفة العاضد من قصره لاستقباله وكذلك جميع الامراء والاعيان وباقي
أرباب الدولة المصرية الى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الاهليج ولم يجر بذلك
عادة لهم وكان من أعجب يوم شهده الناس وخلع الخليفة العاضد عليه ولقبه الملك
الافضل وحمل اليه من القصر اللطاف والتحف والهدايا وأظهر صلاح الدين
من بره وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والاجر وأفرد له داراً بجانب داره
وأقطعها الاسكندرية ودمياط والبحيره ومدح صلاح الدين عمارة النبي بقصيدة منها

صحت به مصر وكانت قبله تشكو سقاماً لم يعن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره والدهر ولاد لكل عجيب
رد الاله به قضية يوسف نسقاً على ضرب من التقريب

جاءته اخوته ووالده الى مصر على التدرج والترتيب
 فاسعد بأكرم قادم وبدولة قد ساعدتك رياحها بهبوب
 ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم
 في مشرق المجد نجم الدين مطلعته
 وكل ابناؤه شهب فلا أفلوا
 جاءوا يعقوب والاسباط اذوردوا
 على العزيز من أرض الشام واشتملوا
 لكن يوسف هذا جاء اخوته
 ولم يكن بينهم نزع ولا زل
 وملكوا ارض مصر في شياخته
 ومثلها لرجال مثلهم نزل
 * محاربة نور الدين حصن الكرك والزلزله الكبرى *

بعد ما ودع نور الدين الامير نجم الدين سار بعسكره الى بلاد الكرك في مستهل
 شعبان سنة ٥٦٥ ونزل أياماً بالبقاء على عمان وأقام على الكرك اربعة ايام فحاصرها
 ونصب عليها منجانيقين فورد اليه الخبر بان الصليبيين قد تجمعوا ووصلوا الى ماء عين
 فرحل اليهم نور الدين فلما سمعوا بارتداده عليهم ولوا مدبرين وعاد نور الدين الى
 حوران فخيم بعشرا وأقام ينتظر حركتهم ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه
 وقصد نور الدين بلادهم حتى توسطها فنهب ما كان على طريقه وفي هذه السنة
 أيضاً في ١٢ شوال حصلت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت أكثر البلاد
 من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق الا ان أشدها وأعظمها كان بالشام
 فخرت بعلبك وحمص وحمه وشيزر وبعرين وغيرها وتهدمت أسوارها وقلاعها
 وسقطت الدور على أهلها وهلك من الناس كثير فسار نور الدين الى بعلبك
 لتعمير سورها فرتب من يحميها ويعمرها وسار الى حمص ففعل مثل ذلك وسار منها
 الى غيرها ماراً بجميع البلاد خوفاً من هجوم الصليبيين الى ان وصل الى حلب
 فوجد أكثرها مهتماً فاقام بنفسه على عمارتها وأما بلاد الصليبيين فان الزلزلة
 أضرت بها أكثر من سواها وهدمت أسوار مدنها فاجتهدوا في تعميرها خوفاً
 من نور الدين وهكذا فان كلا من الفريقين انشغل عن الآخر وكانت هذه الزلزلة
 قد حصلت في يوم عيدهم وهم في الكنائس فوقعت عروشها عليهم

﴿ محاربة صلاح الدين بلاد الصليبيين ﴾

في السنة التالية للزلازل سار صلاح الدين في جيش عظيم الى سوريا لمحاربة

الذين ضافوه في السنة الماضية فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ فلم الملك أموري وهو في عسقلان ان صلاح الدين قد حاصر قلعة دارون وهو دير قديم للنصارى وموقعه على قمة جبل وعمر على أربعة أميال من غزه اتخذ الصليبيون حصناً فأسرع لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان قد علم صلاح الدين بقدمه فسار لملاقاه فلاقاه في منتصف الطريق وحاربه وغلبه ونزل على غزه فاستولى عليها واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها أخذاً بالثار فتركوا في غزه حامية كافية وعادوا الى مصر . ثم بلغ صلاح الدين بان الصليبيين قد احتلوا آبله وتحصنوا فيها وهي قلعة على البحر الاحمر فسار اليها ومعه عصابة من رجاله الاقوياء وحمل معه مراكب مفككة نقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند آبله ركب تلك المراكب وانزلها الى البحر وهاجم آبله في ربيع أول سنة ٥٦٦ برأً وبحراً وظل عليها حتى فتحها رجاله وقتلوا من كان فيها من الصليبيين وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى مصر

❖ وفاة الخليفة المستنجد بالله وخلافة المستضيء بأمر الله ❖

في يوم السبت تاسع ربيع آخر سنة ٥٦٦ توفي الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتي بالله وكانت خلافته احدى عشر سنة و٦ أيام وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس وهذا العدد له بحسب الجمل الامم والباء وفيه يقول بعض الادباء
أصبحت لب بني العباس كلهم ان عددوا بحسب الجمل الخلفاء
وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم ثم بويع بالخلافة ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن

❖ وفاة الخليفة العاضد لدين الله بمصر والخطبة فيها لبني العباس ❖

كان نور الدين قد أرسل الى صلاح الدين يطلب منه الخطبة للعباسيين بمصر كما تقدم فاعتذر اليه صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاماً لافسحة فيه واتفق ان الخليفة العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الامراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فنهزم من اقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك الا انه لم يمكنه الامتنال أمر نور الدين

وكان قد دخل مصر انسان أعجمي اسمه أمير عالم فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال أنا أبتدي بها . فلما كان أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ صدر المنبر في أكبر جامع وخطب بالناس ودعا للخليفة المستضيء بامر الله فلم ينكر ذلك احد عليه وكان موجوداً بالمسجد الامير نجم الدين وجماعة من الامراء خوفاً من حصول حادث لكي يعتذر صلاح الدين عن نفسه وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع خطباء القاهرة ومصر بقطع خطبة العاضد وان يخاطب للمستضيء العباسي ففعلوا ولم يعارضهم أحد وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا ان سلم فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان ننص عليه هذه الايام الباقية من عمره فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بشيء من ذلك وبعد وفاته جلس صلاح الدين للعرز واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه وكان قدرته فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصيه لحفظه وجعله كاستاذ دار العاضد بعد قتل جوهر مؤتمن الخلافة وكان لا يدخل القصر شيئاً أو يخرج منه الا بامر صلاح الدين فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكل لحفظهم وجعل أولاده وعمومته وابنائهم في القصر الكبير الكائن بحارة بيرجوان وكان عيشهم فيها طيباً ثم نقلوا بعد الدولة الايوبية منها وجعل عندهم من يحفظهم وأبعد عنهم النساء وأخرج من كان بالقصر من العبيد والجواري فاعتق البعض وهرب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه ودخلت مصر في حماية الخلافة العباسية الدينية في بغداد بعد خروجها منها مدة مائتين وثمان وستين سنة ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظنها مكيدة فلم يمض اليه فلما توفي علم صدقه وندم صلاح الدين على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض وقال لو علمت انه يموت من هذا المرض ما قطعته الى ان يموت . وفتح الخزان التي بالقصر وأخذ كل ما صلح له ولاهله والامراءه ولخواص مما يليكه من الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدررة اليتيمة والياقوتة العالية غالية القيمة والمصوغات التبريه والمصنوعات العنبريه والاواني الفضية والصواني الصينيه والمنسوجات المغربية والكرائم والبنائم والعقود والتمائم والمتود والمنظوم والمنضود والدر والياقوت والبسط والفرش وما لا يهد احصاءه ولا يحد استقصاءه واسرف في العطاء وأطلق البيع في كل حديث وعتيق وليس وسحق ورخيص وغال واستمر البيع فيه عشر سنين ومن عجب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر ونيف قطعة واحدة

وكان حجمه مقدار الإبهام ووجد فيه طبل للقولنج فانه دفع الى بعض الاكراد فلم يدرما هو فكسره لانه ضرب عليه خبث ووجد ابريقاً عظيماً من الحجر المسانع . وان القضيبي الزمرد فان صلاح الدين أحضر صانع ليقطعه فابى الصانع قطعه فرماه بنفسه فانقطع ثلاث قطع ففرقه على نسائه وأما الأبريق فانفذه الى الخليفة ببغداد ومن جملة ما باعه خزانة الكتب وكان من عجائب الدنيا لانه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة داخل القصر ويقال انها كانت تحتوي على مليوني كتاب واقتسم الناس بعد ذلك القصر وامتدحه الناس وقال العرقلة

أصبح الملك بعد آل علي	مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق بحمد الغرب للقو	م ومصر تزهو على بغداد
ما حووها الا بحزم وعزم	وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزير ومن كا	ن بها كالحصيب والاستاذ

ثم أرسل صلاح الدين البشار إلى نور الدين بالخطبة للعباسيين بمصر وعمل نور الدين قصيدة لتثلي أمام الخليفة ببغداد وأرسل شهاب الدين ابو المعالي المطهر بهذه البشارة فيها

قد خطبنا للمستضى بمصر	نائب المصطفى امام العصر
وخذلنا لنصرة العصد العا	ضد والقاصر الذي بالقصر
وأشعنا بها شعار بني العبا	س فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعى يدعوا ثبوراً	وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين للخطبة	للهاشمي في أرض مصر
واستنارت عزائم الملك العا	دل نور الدين الكريم الاغر

فالما وصل شهاب الدين الى بغداد خرجوا بموكب لمقابته وكذلك خرج أهل بغداد وكان يوماً مشهوداً وأنعم الخليفة على الملك العادل محمود نور الدين بتشريف عظيم القدر ومعه سيفان اشارة الى تملكه مصر والشام وعلى صلاح الدين بتشريف آخر ولما وصل التشريفان الى الملك العادل أخذ تشريفه وأرسل الى صلاح الدين تشريفه بمصر مع جملة خلع عظيمة من عنده ليفرقها على أرباب الدولة المصرية وكذلك جملة أعلام ورايات سود للخطباء بمصر وانتهت مدة الدولة الفاطمية أو العلوية التي حكمت البلاد من سنة ٢٩٩ الى سنة ٥٦٧ وكانوا أربعة عشر خليفة ثلاثة منهم بافريقيه بالمغرب وهم الملقبون بالمهدي والقائم والمنصور وأحد عشر بمصر وهم

الملقبون بالمعز والعزیز والحاکم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفأز والعاقد وكان يدعون الشرف والنسبة الى الامام علي والحقيقة انهم ينسبون الى مجوسي أو يهودي كما ذكر ذلك بكتب العلماء الاعلام وكانوا يسبون الصحابة ويقتلوا من يحبهم

﴿ محاربة نور الدين الصليبيين بناحية حصن عرقه وغيره ﴾

في سنة ٥٦٧ أيضاً خرجت مراكب تجارية من مصر قاصدة الشام فاخذافرنج اللاذقية مركبين منها مملوأتين بالامتعة والتجار وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا فلما سمع بعاملهم استعظمه وراسل الصليبيين في ذلك وأمرهم باعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بامور منها ان المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ولكنهم كانوا كاذبين فلم يقبل مغالطتهم وهو لا يهمل أمراً من أمور رعيته فلما لم يردوا شيئاً جمع العساكر من الشام والموصل وبث السرايا في بلادهم بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقه وأخر بربضه وأرسل طائفة من العسكر الى حصني صافينا وعريمه فأخذهما عنوة وكذلك غيرها ونهب وخرب وغنم المسلمون كثيراً وعادوا اليه وهو في عرقه فسار في العساكر جميعها الى قريب من طرابلس يخرب ويحرق وينهب وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس فراسله الصليبيون وطلبوا منه الهدنة واعادة ما أخذوه من المركبين فاجابهم الى ذلك وصح فيهم المثل (اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم) وكذلك الصليبيون فانهم لم يعيدوا أموال التجار بالتي هي أحسن حتى نهبت بلادهم وخربت

﴿ بريد الحمام ﴾

لما اتسمت بلاد نور الدين وطالت مملكته حتى أصبحت من حدود النوبة الى همدان لا يتخللها سوى بلاد الصليبيين الذين ربما نازلوا بعض الثغور فلا يبلغه الخبر ليسير اليهم الا بعد ان يبلغوا الغرض فإذلك أمر في سنة ٥٦٧ باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى اوكارها فاتخذت في سائر بلاده وترتب لها جريات ورجال لترتيبها فوجد بها راحة كبيرة وكانت الاخبار تأتيه في حينها لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم

فاذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه بورقة علقوها بالطائر وأطلقوه الى المدينة التي هو منها فيصلها في ساعته فنقل الرقعة منه الى طائر المدينة الثانية وهكذا الى المدينة المقيم فيها الملك العادل فمخفظت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الصليبيين نزلوا ثغراً له فانه الخبر في أول يوم فكتب نور الدين الى العساكر المجاورة الى ذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو وأرسله على طائر الحمام ففعلوا ذلك فظفروا فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد

﴿ النفور بين صلاح الدين ونور الدين ﴾

كان صلاح الدين مع تظاهره في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفتقر ساعياً الى اتمام مقاصده التي كانت لا تزال تحت طي الحفاء وهي استقلاله بمصر فاخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنه من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه بذلك فاحس بذلك نور الدين فبعث اليه يستقدمه ومعه فرقة من رجاله مظهراً استنجاهه في حربه مع الصليبيين عند الكرك وانما كان قصده الحقيقي ان يخرج من مصر ويبقيه عنده تحت ملاحظته فأمن من غائلته . فادرك صلاح الدين مقصده هذا لكنه لم يستصوب مخالفة أوامره لثلاث تنافر القلوب فتنعقل مساعيه فكتب اليه انه ادعانا لاصره قد برح القاهرة بفرقة من الجند في ٢٠ محرم سنة ٥٦٨ للملاقاة جيوش نور الدين في الكرك . فلما وصل نور الدين اليها لم يجد فيها أحداً فانتظر فلم يقدموا ثم ورد اليه كتاب ثان من صلاح الدين يخبره انه برح القاهرة بجنده الى الكرك فعرض له في الطريق ما ألجأه الى العود حالاً الى مصر وكان رجوعه في منتصف ربيع أول فعلم نور الدين انها محاطة مقصودة فاقر على المسير بنفسه الى مصر والاشتغال بصلاح الدين عن الصليبيين ولكنه قبل ذهابه بعث الى صلاح الدين يتهدده بالجزل اذا لم يبادر الى ما أمر به فاستدعى صلاح الدين رجال عائلته وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء فلما تكامل الجمع اعلمهم بما كان بينه وبين نور الدين وما بلغه من عزمه على المجيء اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة فنقض ثقي الدين عمرو بن شاهنشاه أخو صلاح الدين فقال (الرأي اذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه عن البلاد) ووافق غيرهم من أهلهم . فشتهم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين واستعظم أقوالهم وشم ثقي الدين وأقعدوه وقال لصلاح الدين (ها أنا أبوك وهذا

شهاب الدين خالك وهل تظن بين هذا الجمع من يحبك ويخلص لك أكثر منا)
 قال لا فقال (اعلم يا يوسف اننا والله لو رأينا نور الدين لم نمك الا ان تقبل ركابه
 وتقتل بين يديه ولو أمرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما
 ظنك بغيرنا . وكل الذين تراهم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحده لم
 يتجاسروا على الثبات على سر وجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها
 فان أراد سمعنا وأطعنا والرأي ان تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه بلغني انك تريد
 الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلا
 ويأخذني اليك وما هنا من يمنع) ثم قام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا
 وأكثرهم أرسل الى نور الدين بما تم . ثم خلا نجم الدين أيوب بولده صلاح الدين
 فقال له (أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك
 فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الامور اليه ويقصدك
 فلم تر معك من هذا العسكر أحداً وكانوا أسلموك اليه أما الآن بعد هذا المجلس
 فسبكتبون اليه ويعرفونه قولي وما أظهرنا من الطاعة له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار
 تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قصة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى
 أمنعه أو أقتل) ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه . فلما وصل كتاب صلاح
 الدين الى نور الدين كما قصه أبوه سكن روعه وتوقف عن المسير الى مصر ثم أرسل
 صلاح الدين الى نور الدين ستين الف دينار ومعها جملة من الهدايا فقال نور الدين
 ما كانت بنا حاجة الى هذا المال ولا نسدبه خلة الاقلال فهو يعلم انا ما انفقنا
 الذهب في ملك مصر وبنا الى الذهب فقر وتمثل بقول أبي تمام
 لم ينفق الذهب المرابي بكثرة على الحصاوبه فقر الى الذهب
 وقال انه يعلم ان تغور الشام مقترة الى السداد ووفور الاعداد من الاجناد
 ويجب عليه المعونة بالامداد وأرسل الموفق القيسراني وزيره الى مصر وأمره بعمل
 حساب البلاد وايرادها ومصرفها لاجل تقرير شيء على صلاح الدين يدفعه في
 كل سنة

محاربة نور الدين وصلاح الدين الصليبيين

في سنة ٥٦٨ سار كل من نور الدين بجيشه وصلاح الدين بجيشه لمحاربة الافرنج
 فسار نور الدين الى مرعش فحاصرها وقتحها في شهر القعدة ثم سار الى بهسني

فنازها وأخذها في شهر الحجة واتفق خروج الملك اموزي للاغارة على رواد من ناحية حوران وهو في جمع كثير من عساكره فنزلوا في قرية تعرف بسمسكين فركب نور الدين اليهم وأقبل بمساكره عليهم فلما عرفوا وصوله رحلوا الى الفوار ثم الى السواد ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين في عشرا فارسل سرية الى أعمال طبرية واغتم خلوها فتوجهت اليها السرية واغارت عليها ونهبها فلما عادت لحقها الصليبيون عند المخاضه فوقفت الشجعان حتى عبرت السرية بما معها من الغنائم ولم يالحق بها ضرر أما صلاح الدين فانه سار قاصداً بلاد الكرك والشوبك لانها أقرب اليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ولا يمكن ان تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فاراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة نخرج الى الكرك وحاصرها وجرى بينه وبين الصليبيين وقعات كثيرة فبرحهم وفرق عنهم عربها وخرّب عمارتها وفرق على أعمالها سراياه بغاراته فامتعت عنها العرب بعد ما كانت تتحد مع الافرنج دائماً

﴿ فتح بلاد النوبة ﴾

اجتمع السودانيون ببلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاده مصر وصاروا الى أعمال أصوان وكان بها الامير كثر الدولة فانفذ يعلم الملك الناصر صلاح الدين وطلب منه نجدة فانفذ فرقة من جيشه مع الشجاع البعلبكي فلما وصل الى أصوان وجد العميد قد عادرا عنها بعد ان أخبروا أرضها فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت بينهم حرب عظيمة قتل فيها كثير من الفريقين ورجع الشجاع الى القاهرة واخبر بفعال العميد وتمكنهم من بلاد اصوان فانفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصداً بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة وأمرها بالحقه الى بلاد النوبة فلما وصل نزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والميرة وخلص جماعة من الأسرى وأسرى من وجده فيها وهرب صاحبها . ثم رجع شمس الدولة الى اصوان ثم الى قوص وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم فاقطعه اياها وانفذ معه جماعة من الاكراد البطالين فلما وصلوها تفرقوا فرقاً وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى رحوا بها واكتسبوا أموالاً كثيرة فمتمت أرزاقهم وكثرت مواشيهم واتفق انهم عدوا الى

جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة ذبدان فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه ورجع من بقي منهم الى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها واخنوها فعاد السودانيون اليها وملكوها وانفذ ملك النوبة رسولا الى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب يطالب الصلح ومع الرسول هديه جارية وعبد فكتب اليه الجواب وأعطاه زوجي نشاب وقال ما لك عندي جواب الا هذا وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبي وأوصاه ان يكشف له خبر البلاد ليدخلها فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دقلته وهي مدينة الملك فوجدها بلاداً ضيقة ليس بها ذرع الا الادره وعندهم نخل صغار وليس بالمدينة عمارة الا دار الملك فقط وباقيها أخصاص ولما مثل امام الملك أمر ان تكوى يده فكوى عليها هيئة صليب وأمر له بمخمسين رطل من الدقيق وصرفه

﴿ وفاة نجم الدين ايوب وبعض سيرته ﴾

في اثناء محاصرة صلاح الدين الكرك والشوبك توفي والده نجم الدين أيوب بمصر وكان راكباً فرسه بالقاهرة فشب به عند باب النصر يوم الاثنين ١٨ ذي الحجة سنة ٥٦٨ هـ وحمل الى منزله وعاش ثمانية أيام وتوفي الى رحمة ربه في ٢٧ منه فدفن بالقاهرة الى جانب اخيه أسد الدين بالدار السلطانية الى أن نقلوا الى المدينة المنورة وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً وباه مزدحم الوفود وهو متناف الموجود ببذل الجود وكان شديد الركض ولعاً بلعب الكرة فلما وصل خبره الى ولده صلاح الدين اشتد روعه وحزن عليه حزناً شديداً وتجلد بالصبر وقال وتخطفته يد الردي في غيبتني هبني حضرت فكنت ماذا أصنع وهو الامير نجم الدين ايوب بن شاذي ولا يعرف في نسبه أكثر من والده شاذي وكان مولده ببلد شبختان وقيل بجبل جور وربى في بلد الموصل ونشأ شجاعاً باذلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه امانة وعقلا وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام في ولايتها أحسن قيام وضبطها اعظم ضبط وأجل عن ارضها المفسدين وقطاع الطريق حتى عمرت وحسن حال أهلها فلما ولي السلطان مسعود الملك أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز خادم شحنة بغداد ومتولي العراق فاقر الامير نجم الدين في ولاية تكريت وأضاف اليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله وجعل جميع ذلك منوطاً

بالامير نجم الدين وكان السلطان مسعود وأتابك زنكي قد طمعا ببغداد فسارا الى
 أن وصلا تكريت فقبلا مع قراجه الساقى وهو أتابك بن السلطان محمود فجرد
 الف فارس عليهم ثم اردفهم بعسكر كثير فانهم زنكي وقتل جماعة من اصحابه
 وجملة ممن كان في عسكره ولجأ الى سور تكريت وبه عدة جراحات وعلم به الامير
 نجم الدين وأخوه شيركوه فاصعداه القلعة بجمال وداويا جراحاته وخدماه أحسن
 خدمة فاقام عندهم بتكريت خمسة عشر يوماً ثم سار الى الموصل وأعوزه الدهر
 فاعطياه جميع ما كان عندهما من الدواب حتى انهما اعطياه جملة من البقر حمل عليها
 ما سلم معه من امتعته فكان زنكي يرى لايوب هذه اليد ويعرف له هذه الصنعة ويواصله
 بالهدايا والالطاف مدة اقامته في تكريت وفي ذات يوم نزل أسد الدين من القلعة
 لبعض أشغاله ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة وهو نصراني ضغائن
 فاتفق في ذلك اليوم ان النصراني صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به
 بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني وصعد الى القلعة وكان مهيباً
 فلم يتجاسر أحد على معارضته وأخذ النصراني برجله والقاه من القلعة فبلغ بهروز
 صاحب القلعة ماجرى وحضر عنده من خوفه جراءة اسد الدين لانه ذو عشيرة
 كبيرة ولان أخاه نجم الدين استحوذ على قلوب الرعايا وربما كان منهما امر تحشى
 عاقبته ويصعب استدراكه فكتب الى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه
 ويأمره بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع
 والطاعة وانزل من القلعة جميع ما كان له فيها من أهل ومال واجتمع هو وأخيه
 اسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل وعظم على أهل تكريت
 خروج نجم الدين من القلعة وخرجوا جميعاً لتوديعه وبكوا واسفوا على مفارقتة
 ولما اتصل بعماد الدين زنكي خبر قدومهما فرح لذلك وأمر الموكب بلقائهما
 واكرمهما اكراماً عظيماً واقطعهما في بلد شهر زور اقطاعاً سنياً وقيل انه اقطع
 أسد الدين بالموزور جري بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة وساعد
 أسد الدين وأخاه نجم الدين حتى قريهما من قلب أتابك وجعلهما عنده في منزلة
 عالية وخرجا معه الى الشام وشهدا معه حروب الصليبيين وكان لاسد الدين في
 تلك المواقع اليد البيضاء واقاما في خدمة ولده الملك العادل محمود نور الدين الى أن
 أرسل أسد الدين لفتح مصر كما تقدم وأرسل نجم الدين الى ولده صلاح الدين
 بشأن قطع خطبة الفاطميين والخطبة للعباسيين ومما يحكي عن نجم الدين انه بينما

كان جالساً مع ولده صلاح الدين في دار الوزارة وحوههما أرباب الدولة اذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين والتفت الي نجم الدين وقال له يامولاي هذا تأويل مقالتي لك حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال صدقت والله ثم حمد الله وشكره والتفت الي الحاضرين الذين حوله من قضاة وأمرء وقال للكلام هذا النصراني حكاية عجيبة وذلك اني لية رزقت هذا الولد يعني السلطان الملك الناصر أمرني صاحب قلعة تكرت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من اخي أسد الدين وقتله النصراني وكنت قد الفت القلعة وصارت لي كالوطن فقتل علي الخروج منها والتحول عنها واغتممت لذلك وفي ذلك الوقت جاني البشير بولادته فتشأمت به وتطيرت لما جرى علي ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وانا على طيرتي به لأأكد اذ كره ولا أسميه وكان هذا النصراني معي كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشأم به طلب مني أن أذن له في الكلام فاذنت له فقال يامولاي قد رأيت ما حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأي شيء له من الذنب وبما استحق ذلك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يفتني شيئاً وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت جليل القدر فعطفتي كلامه عليه وها هو قد اوقفني على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق

❖ استيلاء بهاء الدين قراقوش على طرابلس الغرب وغيرها ❖

في سنة ٥٦٨ هجرية أيضاً سار طائفة من الترك بقيادة بهاء الدين قراقوش من الديار المصرية الى جبال نفوسه واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من اعيان الامراء هناك وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن صاحب الغرب فالتقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها وفتحها بالقوة فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيراً من بلاد الغرب ما خلا المهديه وسفاقس وقفصه وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد باسم الديار المصرية وجمع منها أموالاً عظيمة خزنها في مدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع بلاد المغرب

﴿ استيلاء شمس الدولة تور انشاه على بلاد اليمن ﴾

جرت في مصر مؤامرة سرية بالانتقام من الدولة الايوبية لم ينفذها اصحابها خوفاً منهم من عقابها عليهم وخصوصاً من قوة تور انشاه فلذلك أخذ احد المتآمرين المدعو عمارة اليمني الشاعر يصف في بلاد اليمن لتوراناشاه ويعظمها في عينه ويطلب منه الخروج اليها للاستيلاء عليها ففي شهر رجب سنة ٥٦٩ هـ امر صلاح الدين أخاه شمس الدولة تور انشاه بالمسير فصار بعد ان جند الاجناد وتجهز بالآلات الحرب قاصداً اليمن فوصل الى مكة المكرمة وسار منها الى زيد فلما قرب منها خرج اليه صاحبها عبد النبي ومعه رجاله وتقاتلوا فانهزم اهل زيد فنبعهم شمس الدولة بمسكره الى ان وصل الى سور المدينة فلم يجدوا من يمنعهم فصبوا السلام وصعدوا على السور وملكوا المدينة عنوة ونهبوها واخذ عبد النبي وزوجته أسيرين وولي على المدينة سيف الدين مبارك بن منقذ ثم سار الى عدن وهي محصنة من جهة البر تحصيناً عظيماً وصاحبها اسمه ياسر نفرج بمسكره الى شمس الدولة لمحاربتة فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل اهله فلكوه وأخذوا صاحبه ياسر أسيراً وأرادوا نهب البلد فنبعهم شمس الدولة وقال ما جئنا لتخرب البلاد وانما جئنا لملكها ونعمرها فاستتاب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي ثم فتح حصن تعز وغيره واستولى على مدينة الجند وصنعاء التي حرقت قبل دخوله ثم عاد الى زيد فوجد ابن منقذاً قتل عبد النبي بعد ان وقف منه على معرفة جميع كنوزه المدفونة وأرسل الى شمس الدولة صاحب طماروباي الملوك وصاحوه على أداء المال فكاتب شمس الدولة تور انشاه الى اخيه صلاح الدين بمصر يعلمه بما من الله عليه من الفتح وانه أبطل الخطبة المهدية (التي كانت لعبد النبي لانه كان يدعي الامامة) وخطب للعباسيين

﴿ ظهور المؤامرة وصلب اعضائها ﴾

بعد مسير شمس الدولة الى البلاد اليمنية اجتمع جماعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العوريس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين والسودانيين وحاشية القصر ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الافرنج من ساحل الشام وجزيرة صقلية الى مصر ليلكوها ويعيدوا الدولة الفاطمية العلوية على شيء بذلوه من المال والبلاد ووعدوهم

بأنهم متى حضروا الى مصر وخرج صلاح الدين لمحاربتهم ناروا هم في القاهرة
 وأعادوا الدولة العلوية وان بقي صلاح الدين بمصر فيكون عساكره بعيدة عنه
 فيثبوا عليه ويقبضوه باليد واشترك معهم زين الدين علي بن نجما الواعظ فعينوا
 الخليفة والوزير فكل من بني رزيك وبني شاور طلبها لنفسه ورتبوا القضاء وداعى
 الدعاة والحاجب ثم توجه زين الدين الى صلاح الدين وأعلمه بواقعة الحال فأمره
 بملازمتهم ومخاطبتهم ومواظمتهم على ما يريدون وان ينقل اليه أخبارهم يوماً فيوماً
 ففعل وأطلعهم على كل ما يجري ثم وصل رسول من ملك الافرنج أموري بهدية
 ورسالة وهو في الظاهر لصلاح الدين وفي الباطن للاجماعة المؤامرين وكان يرسل
 اليهم بعض النصارى وتأتيه رسالهم فأتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الافرنج
 بجمية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من النصارى وداخله
 فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على جميع المؤامرين وصلبهم في
 ثاني يوم رمضان سنة ٥٦٩ وفي مقدمتهم عمارة اليمني وفي هذه القضية قال العلامة
 تاج الدين الكندي

عمارة في الاسلام أبدى جنابة	وبايع فيها بيعة وصليا
وأسمى شريك الشرك في بغض أحد	فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خيبت الملتقى ان عجمته	تجد منه عوداً في النفاق صليبا
سياقياً غداً ما كان يسعى لاجله	ويسقى صديداً في لظي وصلبا

وصلبها في البيت الاول بمعنى النصارى وفي الثاني بمعنى مصلوب وفي الثالث بمعنى
 الصلابة وفي الرابع ودك العظام وقيل انه الصديد أيضاً أي يسقى ما يسيل من أهل
 النار وكان عمارة هذا عربياً فقيهاً أدبياً

﴿ وفاة الملك العادل محمود أنابك نور الدين ﴾

ظل الملك العادل نور الدين حانقاً على صلاح الدين لانه رأى منه فتوراً في
 محاربة الصليبيين فأرسل الى الموصل وديار بكر وديار الجزيرة يطلب العساكر
 للمسير الى مصر لاجرا صلاح الدين منها ووافق ذلك عيد الفطر ففي ثاني يوم
 خرج نور الدين ومعه امرأه الى ان نزل الميدان وكان معهم هام الدين مودود وهو
 من أكابر دولته فقال لنور الدين هل نكون هنا في مثل هذا اليوم من العام القابل
 فقال نور الدين قل هل نكون بعد شهر فان السنة بعيدة ثم ان نور الدين مرض

بعلة الخوانيق وطلب بعض الاطباء فلم ينفع فيه الدواء وعظم الداء فمات يوم الاربعاء
الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٩ وكان شجاعا باسلا وفاضلا باراً وكان محبوباً معتبراً
عند المسلمين والصليبيين أعدائه وكانت مملكته شاملة جميع سوريا الشرقية وقسم
من سوريا الغربية والموصل وديار بكر وديار الجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب
وبلاد اليمن وكانت وفاته بدمشق ودفن فيها وقال فيه العماد

ياملكا ايامه لم تزل لفضله فاضالة فاخرة
فاصت بحوار الجود مذغيبه املك الفاضلة الزاخرة
ملكك دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة

وقال أيضاً

لفقد الملك العادل يبكي الملك والعدل وقد أنظمت الافاق لاشمس ولاظلم
ولما غاب نور الدين غنا أظلم الحفل وزال الخصب والحير وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجود وعاش اليأس والبخل وعز النقص لماهان أهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العلم اذا ما نفق الجهل وما كان لنور الدين لولا نجسه مثل
وملك بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل ولم يباغ الحلم وحلف له الامراء والمقدمون
بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وتولى تربيته الامير شمس الدين
محمد بن المقدم ثم كتب الملك الصالح الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتابا
يخبره فيه بوفاة والده طالباً منه المساعدة والمعونة على قتال الصليبيين فخطب الملك
الناصر له بمصر وضرب السكة باسمه وأرسل اليه صلاح الدين كتابا بتعزيزته ونصحه
مع رجال دولته ومما فيه (الله الله ان تختلف القلوب والايدي فتبلغ الاعداء مرادها
وتعدم الآراء رشادها وتثقل النعم التي تعبت الايام فيها الى ان اعطت قيادها فكونوا
يداً واحدة واعضاداً متساعدة وقلوبا يجمعها ود وسيوفا يضمها غمد ولا تختلفوا
فتشكلوا ولا تنازعوا فتفشلوا وقوموا على أمشاط الارجل ولا تأخذوا الامر
باطراف الانمل فالعداوة محذقة بكم من كل مكان والكفر مجتمع على الايمان ولهذا
البيت منا ناصر لانخذله وقأم لانسلمه وقد كانت وصيته الينا سبقت ورسالته عندنا
تحققت بان ولده القائم بالامر وسعد الدين كمشتكين الاتابك بين يديه قال كانت الوصية
ظهرت وقبلت والطاعة في الغيبة والحضور أديت وفعلت والا فبحن لهذا الولد يد
على من ناواه وسيف على من عاداه وان اسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب

والنذر الذي يحل على الايدي والقلوب)

﴿ حصار الصليبيين حصن بانياس وعودهم عنه ﴾

لما مات نور الدين اجتمع الصليبيون لطمعهم في بلاده وساروا الى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم العساكر بدمشق وراسل الافرنج ولاطفهم ثم أغلظ لهم في القول وقال لهم ان اتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فتحن على ما كنا عليه والا فترسل الى سيف الدين صاحب الموصل ونعلمه ونصالحه ونستتجده ونرسل الى صلاح الدين بمصر فنستتجده وتقصد بلادكم من جهاتها كلها واتم تعلمون طمع صلاح الدين في بلادكم واذا طلبناه لذلك فلا يمتنع فعلموا صدقه فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى كانوا عند المسلمين أطلقوهم وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك انكره ولم يعجبه وكتب الى جماعة الاعيان كتبادلة على التوييخ والملام ومن جملتها كتاب الى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون يخبره فيه انه لما باغه قدوم الصليبيين خرج وسار أربعة مراحل ثم جاءه خبر الهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة واطلاق الاسارى وان ذلك لا يصح وكان يجب الانتظار حين حضوره

﴿ وفاة الملك أموري وتولية ابنه الملك الابرس ﴾

في سنة ٥٧٠ هـ توفي الملك أموري ملك القدس وقد كان طماعا عديم الفطنة حتى انه اتفق جميع خزائنه في طلب امتلاكه الديار المصرية ولم يحصل له ثمرة مطلقا خلاف الخسائر التي عادت عليه وعلى قومه لانه قبل حروبه مصر كانت مراكبهم تأتي اليها بالتجارة وتأخذ منها المحصولات ولما علموا غدره منعوا من دخول البلاد المصرية وكان كثيراً ما تخرج المراكب المصرية في البحر تبحث على مراكب الصليبيين وتنهبها وتأخذها وبعد وفاته تولى ابنه بودوين الرابع وكان عمره ثلاث عشرة سنة وذلك في سنة ١١٧٤ افرنكيه ولهذا الملك صفات جليله ولكن لسوء حظه ابتلى بمرض البرص ولذلك لقبوه بالملك الابرس ومرضه وعجزه عن تدبير المملكة اقيم له وكيل ملوكي (نائب الملك) وهو رايغوند صاحب طرابلس وهو رابع اولاد رايغوند دي سان غيلاس

• ورود اسطول جزيرة صقلية ومحاصرة الاسكندرية •

تقدم ان جماعة من المصريين كاتبوا الصليبيين في سوريا وجزيرة صقلية ولما احس بهم صلاح الدين صلهم ورسول الصليبيين في مصر فاعلم اصحابه في سوريا بما كان اما ملك صقلية فلم يعلم ما تم فارسل اسطولا عظيما في اواخر شهر الحجة سنة ٥٦٩ الى نغر الاسكندرية ففي يوم الاحد ٢٦ منه وقت الظهر وصل اول الاسطول وظل يتتابع الى وقت العصر وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر (الناضورجيه) فغلا البحر لوفور عدته وكثرة مرابيه لانه كان يحتوي على ٢٦ طريدة تحمل الخيل و٢٠٠ شيني (مركب حربيه) في كل شيني ١٥٠ راجلا وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار وغيرها ست سفن وأربعين مركباً تحمل الازواد وصناع المراكب فكان عدد المقاتلين ثلاثين الفاً ما عدا صناع المراكب وأبراج الزحف والدبابات والمنجنقات فيبلغ عدد جميعهم ٥٠ الف رجل ولما تكاملوا نزلوا على البر وحملوا على المسلمين حملة اوصولهم الى السور وفقد من أهل الشعر سبعة انفس وقتل محمود بن البصار وزحفت مرابك الافرنج داخلة الى المينا وكان بها مرابك حربية ومرابك تجاربه فصب الافرنج المنجنقات والدبابات وقتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الافرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم أما أهلها فانهم أرسلوا الى صلاح الدين وكان مقياً بفاقوس بواسطة الحمام يعلمونه بالخبر ويطلبون منه المساعدة لدفع العدو عنهم ودام القتال اول يوم وعاود الافرنج القتال في اليوم التالي ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قرب السور ووصل في ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان في اقطاعه قريباً من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث ففتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الافرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال حتى ظهرت لهم أمارات النصر ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل أهل البلد وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من ظفرهم وفشل الافرنج وقبور حربهم وكثرة القتل والجراح في المدو وأما صلاح الدين فلما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكاه ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية مبشراً بوصوله وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها فسار ذلك

المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعسكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا الى القتال وقد زال ما بهم من التعب وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين وعساكره فكلمت أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الافرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب البعض وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الافرنج فغرقت تخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثمائة من فرسانهم على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى ان أضحى النهار فغلهم اهل البلد وقهروهم فساروا بين قتيل وأسير ونهب المسلمون ما لا يحصى وأقلعت باقي مراكب الاسطول في يوم الخميس اول محرم سنة ٥٧٠

﴿ واقعة الكنز و قتله ﴾

الكنز هو رجل مصري كان مقدماً على فرقة من الجيش وفي أول محرم سنة ٥٧٠ قام المذكور في الصعيد وجمع من كان في البلاد من العربان والعييد وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الامراء الصلاحية أخ لحسام الدين أبو الهيجاء السمين ففتك به وبمن معه هناك فعظم قتله على أخيه وهو من اكبر الامراء وأشجعهم وطلب أخذ الثار وساعده سيف الدين (أخو صلاح الدين) وعز الدين موسك ابن خاله وعدة من أمراءه ورجاله وجاؤا الى مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من فيها فظفروا بهم وقتلوا منهم كثيراً وذلوا بعد العز ثم قصدوا الكنز ورجاله وحاربوهم وقتلوا الكنز ومن معه من الاعراب والعييد واطمأنت بعد قتله البلاد ولم يبق للدولة الصلاحية بعد كثرها كثر يفسد عليها بلادها وكان ذلك في شهر صفر سنة ٥٧٠

﴿ عزيم صلاح الدين على المسير الى بلاد سوريا ﴾

بعد انقضاء واقعة الكنز وخلو الديار المصرية من الفتن بلغ صلاح الدين ان سيف الدين غازي بن قطب الدين سار وملك بلاد الجزيرة ولم يرسل من مع الملك

الصالح بن نور الدين من الامراء الى صلاح الدين ولا أعلموه بما كان فكتب الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاهه ليحضر في خدمته ويمنعه وكتب الى الامراء يقول (ان الملك العادل لو علم ان فيكم من يقوم مقامي أو يثق اليه مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي اعظم ممالكه وولاياته ولو لم يجعل عليه الموت لاقامني وصياً على ابنه وأرى انكم تحاولون اخراج يدي ولكنني سأذهب الى دمشق بنفسي وأقدم عبوديتي الى هذا السلطان الجديد معترفاً بالافعال العظيمة التي حملها ابوه أما أنتم فساعاملكم بمقتضي تصرف كل واحد منكم فاني أعتبركم قوماً تلقون القلاقل والفتن في البلاد) ثم ان صلاح الدين أقام خصيه بهاء الدين قراقوش حاكماً على مصر في غيابه وتجهز للسفر الى البلاد السورية

﴿ حكم قراقوش وبناء القلعة والسور وغيرهم ﴾

لما عزم صلاح الدين على السفر الى سوريا وأقام بهاء الدين الاسدي قراقوش حاكماً بمصر مدة غيابه وعهد اليه تدبير الاحكام وأمره ان يقيم البناءات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها ومنفتحتها فأفند بهاء الدين ما عهد اليه بغيرة ونشاط وكانت جسور النيل قد أهمل شأنها منذ تولي الخلفاء الفاطميين فكان اذا فاض طفت مياهه على الاراضي وخربت الطرق وأفسدت الزرع فهدد الطرق واحتفر الترعة وأقام الجسور والسدود واستخدم لذلك حجارة بعض الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام الحيزه وغيرها من ابنية المصريين القدماء وأنشأ طريقاً تمتد طويلاً على ضفة النيل فتقيها من صدمات المياه وتسهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلى وشاد فوق الترعة التي كانت تجري بين الحيزه واهرامها جسراً عظيماً مؤلفاً من أربعين قنطرة لا يزال بعضها باقياً الآن

ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكن الا القصران اللذان كانا مسكناً للخليفة والوزير السابقين ولم يكونا متباعدين حق المتعة فجعلهما منزلاً لضباط الحكومة وقواد الجيوش وشاد عند الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب الاهالي اذا حاولوا العصيان وجعل فيها قصرأ بلبلطه وكان في ذلك المكان بناء قديم من عهد الدولة الطولونية يعرف بقصر الهوى فهدمه وأقام القلعة على انقاضه وأتى بحجارتها من خزائب منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وليس في القاهرة بناء آخر أعز موقعاً منها وهي التي لا تزال باقية

الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل او قلعة القاهرة . وجعل قراقوش في القلعة بئراً
نقرأ في الصخر عميقاً جداً يسع كلما تحتاج اليه الحامية من الماء ولا يزال البئر والقصر
الى هذه الساعة يعرفان باسمه فالبئر (يدعى ببئر يوسف) ويظن بعض العامة انه
سمي هكذا نسبة الى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح نسبة الى يوسف صلاح
الدين الذي أمر باحتفاره والمظنون ان هذه البئر كانت محفورة من أيام قدماء
المصريين ثم طمرت بالرمال فاعاد صلاح الدين حفرها وتسمى أيضاً بالحلزون وما
بقي من القصر يعرف بديوان يوسف أو ديوان صلاح الدين . وابنتي قراقوش أيضاً
حواصل كبيرة في الفسطاط (مصر القديمة) لحزن الحاصلات التي ترد من الاقاليم
سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقد ظن بعض المتفرجين والعامة
انها من بناء فرعون في أيام يوسف الصديق . وبعد ان فرغ قراقوش من اصلاح
الترع والخنادق والطرق وبناء القلعة أخذتهم بآتمام سور القاهرة وكان صلاح
الدين ابتداءً بعمارته سنة ٥٦٦ وهو يومئذ على وزارة العاضد فعمل له قراقوش
رسماً عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الارض الا
انه استعظم بناءه بهذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعه
هذا ان يهدم جوامع وبيوتاً وقبوراً كثيرة كانت قائمة في مكان السور ولم يكن
الاهالي معتادين على الازعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وكان بعضهم لا يزال
متشعباً للدولة الفاطمية فاتهموه بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش
أي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم
بالاستبداد والعسف وينسبون اليه أحكاماً عجيبية في ولايته حتى ان الاسعد بن مماتي
له كتاب لطيف سماه الغاشوش في أحكام قراقوش وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه
والظاهر انها موضوعة لان صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ولولا
وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه وكان قراقوش رجلاً سعيداً وصاحب
همة عالية .

وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناه جوهر وفي الثانية
بناه أمير الجيوش وفي الثالثة قراقوش بأمر صلاح الدين فزاد فيه قطعة من باب
القنطرة الى باب الشعريه ومن باب الشعريه الى باب البحر وبنى قلعة المقس وهي
برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع أولاد عنان
وهو خارج باب البحر على يسار الناهب من الشارع الجديد الى محطة السكة الحديد

وانقطع السور من هناك . وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى البريقة والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة وجاء طول هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ بالذراع الهاشمي . وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلقاً على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير صاحب شمس الدين عند ما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ هجرية وجعل في مكان البرج المذكور خنية . وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من باب الفتوح الى المقس ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى باب البريقة وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بأبراج مبنية بالحجارة الا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم الا في بعض الاماكن

﴿ مسير الملك الناصر صلاح الدين الى سوريا واستيلاءه على دمشق وغيرها ﴾
 بعد تولية قراقوش حكم مصر سار صلاح الدين قاصداً سوريا فخرج الى البركة في مستهل صفر سنة ٥٧٠ وأقام حتى اجتمع العسكر ثم رحل الى بليس في ١٣ ربيع اول وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى وشمس الدين بن المقدم عنده تستورى في الحث والبعث زنده وتستقدمه وجنده وسار مجدداً حتى أناخ على بصرى فاستقبله صاحبها وشده ازره وسار صلاح الدين في آخر شهر ربيع الاول الى ان وصل الى دمشق ودخلها وكان يظن عكس ذلك ودخل الى دار العقيلي مسكن أبيه وبقي في قاعة دمشق جمال الدين ريجان الخادم بدون تسليم فراسله حتى استماله بالمال وتملك المدينة والقلعة ونزل بالقلعة سيف الاسلام اخو صلاح الدين وأظهر انه جاء لترسية الملك الصالح وحفظ ماله وبلاده وتدبير ملكه فهو أحق بصيانة حقه واجتمع به أعيانها وفرق فيهم المال وخطب للملك الصالح ومدحه وحيش الاسدي بقصيدة اولها

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبها	فكن لضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد	أدنى فريسته الايام ان وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نظير له	فجتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها	وأزعم الخلق من أوطانها هربا
أحببتها مثل ما أحببت مصر فقد	أعدت من عدلها ما كان قد ذهبها

ويوم دمياط والاسكندرية قد أصارهم مثلاً في الأرض قد ضربا
 والشام لو لم يدارك أهله اندرست آثاره وعفت آياته حقباً
 ولما اتصل بمن في حلب دخول الملك الناصر دمشق وميل الناس إليه خافوا
 منه وأجمعوا على مراسلته وأرسلوا إليه قطب الدين ينال بن حسان برسالة أوردوا
 فيها وقالوا له (هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرمح التي حوت بها
 قصور المصريين على اكتافنا والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك
 وأنت فقد تعدت طورك وتجاوزت حدك وأنت أحد غلمان نور الدين ومن يجب
 عليه حفظه في ولده) ولما باع السلطان ورود ابن حسان تلقاه بموكبه وبنفسه وبالغ
 في إكرامه ثم أحضره بعد ثلاثة أيام لسماع الرسالة منه فلما فاه ابن حسان بتلك
 الشقاشق الباطلة وقع بتلك التوهّمات العاطلة لم يعره صلاح الدين طرفاً ولا سمعاً
 وضرب عنه صفحاً وتغاضياً وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له (يا هذا اعلم اني
 وصلت الى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور وحيطة الجمهور وسد الثغور
 وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين) فقال له ابن حسان انك انما حضرت
 لاخذ الملك لنفسك ونحن لا نطوئك على ذلك ودون ما ترومه خرط القناد
 وايتام الاولاد فلم يلفت لمقاله واومى الى رجاله باقامته من بين يديه ونادي في
 عساكره الاستعداد بقصد الشام الاسفل ورحل متوجهاً الى حمص فتسلمها
 وقاتل قلعها ولم ير تضيق الزمان عليها فوكل بها من يحصرها ورحل الى جهة حماه
 فلما وصل الى الرستن خرج صاحبها عز الدين جرديك وأمر من فيها من العساكر
 بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع اوامره وسار جرديك حتى لقي صلاح الدين
 واجتمع به بالرستن وأقام عنده يوماً وليلاً وظهر من نتيجة اجتماعه به انه سلم اليه
 مدينة حماه وسأله ان يكون السفير بينه وبين من بحلب فاجابه الى ذلك فلما
 وصل حلب اجتمع بالامراء والملك الصالح و اشار عليهم بمصالحة الملك الناصر
 فاتهمه الامراء بالخيانة وردوا مشورته و اشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح ولج
 سعد الدين كمشتكين في القبض عليه فقل بالحديد وحمل الى الجب الذي فيه اولاد
 الداية ولما دلوه الى الجب وأحس به اولاد الداية قام ائنه منهم حسين وشمته أقبح
 شتم وحلف بالله ان انزل اليهم ليقبلنه فامتنعوا من تدليته وأعلموا سعد
 الدين كمشتكين فحضر الى الجب وصاح على حسن وشمته وتوعده فسكن حسن
 وانزل جرديك الجب . ولم يزل صلاح الدين مقبياً على الرستن ثم طال عليه الامر

فسار الى حباب التركان فلقه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى لسيدته من
الاعتقال والقهر فرحل صلاح الدين من ساعته عادداً الى حماه وطلب من أخي
جرديك تسليم حماه اليه وأخبره بما جرى على أخيه ففعل وولاهها لاحد امرأته
مبارز الدين علي بن أبي الفوارس وذلك مستهل جمادي الآخرة وسار صلاح الدين
الى حلب ونزل على أتق جبل جوشن فوق مشهد الدكة في ثالث الشهر وأمدت
عساكره الى الحنافية والى السعدى فلما رأى من بحلب عساكر صلاح الدين خافوا
من الحلبيين ان يسلموا البلد كما فعل اهمل دمشق فاشاروا على الملك الصالح ان
يجمعهم في الميدان ويخطبهم بنفسه فامر ان ينادي باجتماع الناس الى ميدان باب
العراق فاجتمعوا فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف في رأس
الميدان من الشمال وقال لهم يا أهل حلب انا ربيكم ونزيلكم واللاحق اليكم كبيركم
عندي بمنزلة الاب وشابكم بمنزلة الاخ وصغيركم عندي يحل محل الولد وخفته العبرة
وسبقته الدمة فاقتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء
والعويل وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك ونبذل اموالنا وانفسنا
لك . وأرسل صلاح الدين الى حاب رسولا يطالب الصالح فامتنع كمشكين فاشتد
صلاح الدين في قتال البلد . واجتمع الامراء بالملك الصالح ليدبروا الحيل في قتل
صلاح الدين فاجعوا اراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية ومقدمهم ليرسل
من يفتك بصلاح الدين وضمنوا له على ذلك اموالاً حمة وعدة من القرى فارسل
سنان جماعة من اصحابه الفتاكين فجاءوا الى جبل جوشن واختلطوا بالعساكر فعرّفهم
الامير ناصح الدين خمارتكين صاحب بوقيس لانه كان مثاعراً لهم فقال لهم يا ويلكم
كيف تجاسرتم على الوصول فقتلوه خوفاً من غائلته وجاء قوم للدفاع عنه فجرحوا
بعضهم وقتلوا البعض ووثب احد الاسماعيليه ويده سكينه مشهورة ليقتل السلطان في
خيمته فلما صار الى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله وطلب الباقيين
فقتلوا بعد ان قتلوا جماعة ولما يئس من بحلب من هذه الحيلة راسلوا رايوندا صاحب طرابلس
ونائب الملك بودوين الرابع وضمنوا له اشياء كثيرة متى رحل صلاح الدين عن
حلب فارسل رايوندا الى صلاح الدين في أمر الحلبيين وأخبره ان الصليبيين تعاضدوا
وصاروا يداً واحدة فقال صلاح الدين لست بمن يرهب تألب الصليبيين وها انا سأر
اليهم ثم انهض قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكية فغنموا غنيمة حسنة وعادوا
فقصد رايوندا جهة حمص فرحل صلاح الدين من حلب اليها فسمع رايوندا فنكص

راجعاً الى بلاده وحصل الغرض من رحيل صلاح الدين عن حلب ووصل الى
 حمص فتسلم القمامة ورتب فيها والياً من قبله وقال العماد في فتح حمص من قصيدة طويلة
 اياك بن أيوب نحو الشام م على كل ما يرتجيه ظهور
 بيوسف مصر وأيامه تفر العيون وتشفي الصدور
 رأيت منك حمص لها كفايا فواتك منها القوي العسير

ثم سار صلاح الدين الى ان وصل الى بعلبك وكان فيها والي يقال له يمن فلما
 شاهد كثرة عساكر صلاح الدين اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح
 طائر فلم يرجع اليه منهم خبر فطلب الامان وسلم بعلبك الى صلاح الدين في رابع
 رمضان وعاد الى حمص

* في استقلال صلاح الدين بالملك وسلطنته {*

كان امراء حلب قد راسلوا سيف الدين صاحب الموصل يطلبون منه نجدة ابن
 عمه الملك الصالح فارس لهم جيشاً كبيراً بقيادة أخيه عز الدين مسعود فوصل الى
 حلب بعد رحيل صلاح الدين عنها فخرجت معه عساكر حلب جميعها وساروا الى
 ان وصلوا حماء وحاصروها فلما علم صلاح الدين سار بفرقة من جيشه فتأخرت
 عساكر الموصل وحلب الى قرون حماء وراسلوا صلاح الدين في الصلح فاجابهم
 فطلبوا منه تسليم جميع القلاع والحصون وانه يقنع بدمشق وحدها نائباً فيها عن الملك
 الصالح فاجاب فلما راوه قد اجابهم طمعوا فيه وقالوا لا بد من المصاف ظناً منهم انه
 لكثرتهم وقتله يغلبونه وساروا يناوشونه القتال الى ان وصلت العساكر المصرية
 بقيادة تقي الدين عمر وقام المصاف بين العسكرين فانكسرت العساكر الحلبية
 والموصلية وانهمزوا وتبعتهم عساكر صلاح الدين واستباحوا أموالهم وخيامهم
 وأسروا منهم جماعة وأمر صلاح الدين عساكره ان لا يوغلوا في طلبهم ولا
 يقتلوا من راوه منهزماً ثم رحل حتى نزل بمرج قرأ حصارو لم يزل هناك حتى عيد
 الفطر فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وان يقر الملك الصالح على ما في يده
 وما هو جار تحت حكمه من الشام الاسفل الى بلد حماء فلم يرض بذلك فجعلوا
 له مع حماء المعرة وكفر ظاب فرضي بذلك وحلف لهم على ذلك وعاد ثم رأى
 صلاح الدين قواته وانه لا يمكن أحد يعارضه في شيء مما طالما تمناه من استقلاله
 بالملك فصرح بسطانته على مصر والشام ولما وصل الى حماء وصلت اليه رسل

الخليفة المستضيء العباسي ومعهم التشريعات الجليلة والاعلام السود وتوقيع من
 الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام وفي ذلك يقول ابن سعدان الحلبي
 يا أيها الملك الغزير فضله لقد غدوت بالعلي مليا
 كفى أمير المؤمنين شرفاً انك أصبحت له وليا
 طارقك الودعي شحط النوى فكنت ذاك الصادق الوفيا
 أولاك من لباس زخرقة لم يولها قبلك أدما
 ناسبت الروض سنا وبهجة حتى حكته رونقاً وريا
 ثم سار السلطان صلاح الدين الى حصن بعين وحاصره حتى تسلمه

﴿ حرب السلطان مع الموصلية وهدنة الصليبيين ﴾

لما دخلت سنة ٥٧١ هـ والسلطان نازل بمرج الصفر من أعمال دمشق جاءه
 رسول الصليبيين بطلب الهدنة فاجابه السلطان على ذلك بعد ان اشترط عليهم أموراً
 التزموها وأصاب الشام في ذلك العام جرب فاذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل
 الى بلادهم ولما علم سيف الدين صاحب الموصل بما جرى بين السلطان والحلبين
 عتب عليهم ووجههم ونسبهم الى العجلة وأنفذ من أخذ على الحلبيين الموائيق بنقض
 العهد ثم توجه ذلك الرسول الى دمشق ليأخذ من السلطان العهد القديم فلما خلا
 به طالبه السلطان بنسخة العهد (أي الذي تعاهدوا عليه) في السنة الماضية فغاط
 الرسول وأخرج نسخة يمين الحلبيين لهم فقاملها وأطلع على ما اتفقوا عليه من
 نقض العهد فردها اليه وقال لعلها قد تبدلت فعرف الرسول انه قد غلط وقال
 السلطان كيف حلف الحلبيون للموصلين ومن شرط ايمانهم انهم لا يعتمدون
 الا بمراحمهم ايانا واستئذنانا ثم شاع خبر خروج الموصلين في الربيع فارسل الى
 أخيه العادل بمصر يعلمه بذلك ويأمره ان يأمر العساكر بالاستعداد والخروج في
 شعبان وكتب الى الخليفة ببغداد يعلمه بما جرى من الموصلين والحلبين ونقضهم
 العهد وانه الآن بين عدوين عدو متظاهر بالاسلام وهم المذكورون وعدو آخر وهم
 الصليبيون وطلب منه ان يأمر ملوك الاطراف بمساعدته على الصليبيين أما سيف الدين
 فانه قصد حلب واجتمع بالملك الصالح ثم سار الى ان وصل الى تل السلطان ومعه جمع
 كثير وأهل ديار بكر وكانت العساكر المصرية قد وصلت فسار بها السلطان حتى أتى
 قرون حماء فبلغهم انه قد قارب عسكرهم فاخرجوا اليك وتبعوا تعبى القتال

وأصبح القوم على مصاف وذلك يوم الخميس عشرة شوال فالتقى العسكران وتصادما
وجرى قتال عظيم وحمل السلطان بنفسه فأنكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما
من كبار الامراء منهم الامير نحر الدين عبد المسيح فنّ عليهم وأطلقهم وعاد
سيف الدين الى حلب ووكل السلطان ابن أخيه عز الدين فرخشاه بسرادق
سيف الدين ثم أمر السلطان بالكف عن باقي العساكر وتسلم ما في السرادق من
الاموال وما يتبعه من الاصطبلات وفرق جميع ذلك على عسكره ورأى في السرادق
طيورا من القماري والبلابل والهزار والبيغاء في الاقفاص فاستدعى مظفر الاقرع
أحد الندماء وقال خذ هذه الاقفاص واذهب بها الى سيف الدين وقل له عد الى
العب بهذه الطيور فهي سليمة لاتوقعك في مثل هذا المحذور وانها الذ من مقاساة
الحروب . ثم نزل السلطان على حصن بزاعه وتسلمه في ٢٢ شوال وفتح منبج
في ٢٩ منه وكان فيها الامير قطب الدين ينال ابن حسان فاخرجه منها وتسلم
جميع ما بها من الخزائن والذخائر ومن جملة أموالها ٣٠٠ الف دينار ومن الفضة
والاينة الذهبية والاسلحة والذخائر ما يناهز الف دينار وحانت من السلطان
التفاته فرأى مكتوبا على الاكياس والانية اسم يوسف فسأل عن هذا الاسم
فقيل له كان ولد يحبه اسمه يوسف ويدخر هذه الاموال له فقال السلطان ان يوسف
وقد أخذت ما خبي لي فتعجب الناس من ذلك ثم نزل على عزاز نصب عليها عدة
منجنانيقات وجد في القتال فتسلمها حادي عشر ذي الحجة بعد حصارها ٣٨ يوماً
وقال العماد قصيدة منها

أعطاه رب العالمين دولة عزت أهل الدين في اعزازها
حاز العلى ببأسه وجوده وهو أحق الخلق باحتيازها
بجده أفنى كنوزاً في الملوك في الجدد على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طرأرومها أر منها افرنجها الخازها
تفاخر الاسلام من سلطانه تفاخر الفرس باراوازها

* ماجرى للسلطان مع الحشيشين *

في حادي عشر ذي القعدة بينما كان السلطان محاصراً اعزاز وجالسا في خيمة
الامير جاولي الاسدي قريبا من المنجنانيقات اذ وثب عليه احد الحشيشية أو الاسماعيلية
فضرب رأسه بسكين فتمتته الزردية لانه كان دائما متخوفاً من هؤلاء الملاعين فلم

تؤثر ضربة الحشيشي شيئاً وأحس بصفائح الحديد على رأس السلطان فمد يده بالسكينة الى خده فخدشته فثبت جأش السلطان وقبض على رأس الحشيشي وجذبه ووقع عليه وادركه سيف الدين باز كوج وقتل الحشيشي وجاء حشيشي آخر فاعترضه الامير داود بن منكلان فثمنه وجرحه الحشيشي في جنبه ومات بعد أيام وجاء آخر فعانقه الامير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت ابطيه وبقيت يد الحشيشي من ورأه لا يتمكن من الضرب فصاح الامير علي اقتلوني انا واياه فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فظعن بطن الحشيشي بسيفه ومازال يخضخض فيه حتى مات ونجا علي بن أبي الفوارس وخرج حشيشي آخر منهزماً فقابله شهاب الدين الحارمي خال السلطان فترحزح الحشيشي عن طريقه فقصده اصحابه وقطعوه بالسيف أما السلطان فسار الى خيمته فهاج العسكر وماج فاضطر السلطان للركوب والخروج ليراه جميع العسكر فسكن هياجهم وكان سبب ذلك ان أهل حلب خافوا من السلطان فارسلوا الى سنان رئيس الاسماعيليين مرة ثانية وطلبوا منه قتل السلطان ووعدوه كما فعلوا أولاً فارسلا اربعة من اعظم رجاله فترىوا يزي عساكر السلطان واندسوا بينهم وهو محاصر عزاز وحاربوا مع عساكره واطهروا بسالة عظيمة ثم حصل منهم ما تقدم وقاتلوا

{ استيلاء تور انشاه على حضر موت واستيلاء قراقوش على بعض بلاد المغرب }

في سنة ٥٧١ سار شمس الدولة تور انشاه الى بلاد حضر موت ففتحها واستناب عنه بها رجلا كريداً يسمى هارون ثم ولى ثغر تعز مملوكه ياقوت وجعل اليه امر الجند وولى قلعة بعكر مملوكه قايماز ثم سار قاصداً سوريا فوصلها ولحق باخيه وهو يجارب سيف الدين صاحب الموصل فكانت له اليد البيضاء في ذلك . وبلغ قراقوش بان قلعة ازبري هي بوغاز المغرب وكانت خراباً . فاشير عليه بعمارتها وقيل له متى عمرت وسكنها جنود اقوياء شجيمان ملكك برقة واذا ملكك برقة ملكك ماوراءها فسار بهاء الدين قراقوش ومعه جماعة من اجناده ومماليكه الى القلعة وشرعوا في عمارتها واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فخدته عن بلاد المغرب وذكر له كثرة خيرها وغزارة اموالها وضعف أهلها ورغبه في دخولها فاخذ جماعة من اصحابه وسار في حادي عشر المحرم من هذه السنة فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام فاشرف على مدينة أوجلة فلقيه صاحبها واكرمه واحترمه وسأله المقام

عنده ليعتضد به ويروجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون الف دينار فاخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين الف دينار وكان الى جانب أوجلة مدينة يقال لها مدينة الازراقية فبلغ اهلها صنيع قراقوش في أوجلة وانه حرس غلالهم فساروا اليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيريه وطيب هواه ورغبوه في المسير اليهم على انهم يملكونه عليهم فاجاب سؤلهم واستخاف على أوجلة رجلا من اصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من اصحابه فحصل لقراقوش اموال كثيرة واتفق ان صاحب أوجلة مات فقتل اهل أوجلة اصحاب قراقوش فجاء قراقوش وحاصرها وفتحها عنوة وقتل من اهلها سبعمائة رجل وغنم اصحابه منها غنيمة عظيمة واستولى على البلاد ثم ان اصحابه طلبوا العود الى مصر وخشي قراقوش الاقامه وحده فرجع معهم

﴿ حصار حلب و حرب الاسماعيليه ﴾

لما فرغ السلطان من حرب عزاز سار قاصدا حلب فحاصرها وضرب خيمته على رأس الباروقية فوق جبل جوشن ودخلت سنة ٥٧٢ والسلطان مشدد حصارها فرأى أهل حلب ان لاطافة لهم به فدخلوا من باب التندل وطلبوا الصلح فاجابهم وعفى عنهم وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها وأرسل الملك الصالح الى السلطان أخذت خاتون وهي صغيرة فوقف اجلالا لها قائما وقبل الارض وبكى على والدها نور الدين فسألته ان يرد عليهم عزاز فقال سمعاً وطاعة فاعطاها اياها وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً واتفق مع الملك الصالح ان يكون للسلطان من حماه وما فتحه الى مصر وان يطلق الملك الصالح اولاد الداية وكان الصلح عاماً لحلب والموصل وديار بكر وبعد ذلك تذكر السلطان ثاره عند الاسماعيليه وكيف رموه بتلك البلية فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصيات ونصب عليه المنجنيقات الكبار وأوسعهم قتلا وأسراً وساق أبقارهم وخرّب ديارهم وهدم أعمارهم وهتك أستارهم حتى تشفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي صاحب حماه وكانوا قد راسلوه في ذلك لانهم جيرانه فرحل عنهم وقد انتقم منهم وكان الصليبيون قد أغاروا على البقاع فخرج اليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بان المقدم وهو متولي بعلبك فحاربهم وقتل منهم وأسراً أكثر من مائتي أسير وأحضرهم الى السلطان وهو محاصر مصيات فجدد شوقه لغزو الصليبيين وكان هذا من دواعي مصالحة سنان وعاد الى دمشق وكان شمس الدولة قد خرج منها

لمحاربة الصليبيين ايضاً عند ما بلغه خبر خروجهم لانشغال السلطان بمحاربة حلب وغيرها فحاربهم عند عين الجبر في تلك المروج فلم يقو عليهم ووقع من أصحابه عدة في الاسر فبلغ ذلك السلطان فارسل اليه جنوداً مصرية فارجعوا الصليبيين على أعقابهم وعاد شمس الدولة الى دمشق وتقابل مع السلطان وفوض السلطان اليه دمشق ليكون امام الصليبيين وعاد هو الى مصر وكان خروجه من دمشق في يوم الجمعة ٤ ربيع اول فوصل القاهرة يوم السبت ١٦ منه

﴿ تقوية اسطول مصر وبعض فتوحات ﴾

بعد رجوع السلطان الى مصر أعجبه حسن تنظيمها وسافر منها في شعبان الى دمياط لتفقد ها ومنها الى اسكندرية وهناك عرض عليه الاسطول المصري فوجد مرآكه قد لحقها ضرر كثير فامر بإصلاحها وتقويتها وجعل لها ديواناً مخصوصاً (يشابه البحرية) واقام عليه احد الامراء وكتب الى جميع النغور بان يكون الامر امر قأداً لاسطول وله ان يأخذ ما يحتاج من العساكر والمال وكان ذلك في رمضان فرجع الى القاهرة واما بهاء الدين قراقوش فانه سافر الى أوجلة وفتح بلاد فزان بأسرها وخرج السلطان من القاهرة قاصداً اعمال الشرقية فاقام بمرج فاقوس وهو يركب الى الصيد والقنص والتطلع لاحوال الصليبيين وفي اثناء ذلك بينما السلطان قد عزم على محاربة الصليبيين بغزه اذ وصلت اساطيل ثغري دمياط واسكندرية بأسرى الافرنج وقد اربوا على الالف ففرح السلطان بهذا الانتصار

﴿ حرب السلطان مع الصليبيين وواقعة الرملة ﴾

في شهر جمادي الاولي سنة ٥٧٣ سار السلطان بعساكره قاصداً بلاد الافرنج فوصل الى مدينة عسقلان في يوم الاربعاء ٢٩ منه فخارب الصليبيين وكسرهم وأخذ أكثرهم أسرى وتفرق عسكره في الاعمال مغيرين ومبيدين آمنين من طوارق الحدائق فلما رأوا ان الصليبيين خامدون استرسلوا وتوسط السلطان البلاد واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادي الآخرة بالرملة قاصداً بعض المعامل فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت المساكر للعبور وكان يودوين الرابع ملك القدس قد بلغه خروج السلطان صلاح الدين قاصداً عسقلان فسار بعساكره وعساكر الجمعيات الرهبانيين فاخذوا طريق شط البحر وأخفوا مسيرهم السريع بكيمان الرمل الى ان وصلوا الى عسقلان بدون علم السلطان صلاح الدين ولما

كانت عساكره مزدحمة على عبور النهر اذ فاجأته العساكر الصليبية بغتة وسرايا المسلمين في القرى مغيرة فوقف الملك المنظر تقي الدين ونازلهم الحرب فاستشهد من أصحابه عدة من الكرام وكان لثقي الدين ولد اسمه أحمد قد طرشاربه فاستشهد أيضاً بعد ما قتل من الصليبيين كثيرين وكان له ولد آخر اسمه شاهنشاه قد أسر بيد الصليبيين بحيلة عمها معه أرمني بدمشق ثم سلمه الى جمعية الهيكلين الرهبانية وتفرقت العساكر الاسلامية بالصحراء وحمل الصليديون على السلطان قنبت ووقف ومعه من الامراء ابراهيم بن قنابر وفضل الفيضي وسويد ابن غشم المصري وصار السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن انه تحلف أحد من العساكر ودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل وقد تعسفوا السلوك في تلك الرمال بقوا أياماً وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا الى الديار ووقع في الاسر كثير من المسلمين منهم الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير وقد انتهت هذه الواقعة بظفر الصليديين

﴿ محاربة الصليبيين حماه وحارم ورجوعهم الى بلادهم ﴾

وصل في سنة ٥٧٣ الى ساحل سوريا من البحر ملك يقال له اقلندس وكان يعتقد خلو الشام من حامية فاجتمع بالصليبيين واتحدوا وساروا الى حماه في ٢٠ جمادي الاولى وكان صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريضاً وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب بالقرب منها فدخلها وخرج للحرب وتقاتل مع الصليبيين قتالاً شديداً انتهى بكسرهم ورحيلهم عنها بعد حصارهم أربعة أيام ولما قتل من الصليبيين ما يزيد عن الف فارس انهزموا من حماه ونزلوا على حصن حارم فخرج انهم الملك الصالح وكانت حارم تابعة كمشتكين فطلب أخذها فابوا تسليمها اليه ولما حاصرها الصليبيون جاء الملك الصالح لمحاربتهم وأقام الحصار من ابتدا شهر جمادي الآخرة فلما رأى أهل القلعة الخطر المحقق بهم من الصليبيين سلموها الى الملك الصالح في العشر الآخر من شهر رمضان وما اتصل ذلك بالصليبيين حتى رحلوا عنها عائدين الى بلادهم وعاد الملك الصالح الى حلب واجتمع قسم من الصليبيين وقصدوا أعمال حمص فنهوها وغنموا وأسروا وسبوا فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم وكن لهم في الطريق فلما وصلوا اليه خرج عليهم من كمينه ووضع السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسرى جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يقات الا وهو مشخن بالجراح واسترد منهم جميع ما غنموه فرده على أصحابه وكان ذلك في سنة ٥٧٣

﴿ مسير السلطان صلاح الدين الى سوريا ومحاربه الصليبيين ﴾

في شوال سنة ٥٧٣ هـ سار السلطان صلاح الدين قاصداً سوريا فنزل دمشق وأخذ يتنقل من بلد الى آخر متفقداً القلاع والحصون وفي شهر ربيع أول سنة ٥٧٤ هـ سار جمع كثير من الصليبيين الى مدينة حماه وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغنيمة فشنوا الغارة ونهبوا وخرّبوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماه سار اليهم فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فانهمزم الصليبيون وكثر القتل والاسر فيهم واسترد منهم ما غنموه وكان صلاح الدين نازلاً بظاهر حصص فحملت الرؤوس والاسرى والاسلاب اليه فامر بقتل الاسرى . وفي شهر القعدة سار الملك بودوين الرابع بحيشه الى دمشق فاغار على أعمالها فهبوها وأسروا وقتلوا فارسل السلطان عز الدين فرخشاه في جمع من العسكر اليهم وأمره اذا قاربهم يرسل اليه يخبره على جناح الطائر ليسيير اليه وتقدم اليه ان يأمر أهل البلاد بالانتزاع من بين يدي الصليبيين فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم فلم يشعر الا والصليبيون قد خالطوه فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس والتي فرخشاه نفسه عليهم وغشي الحرب ولم يكلها الى سواه فانهمزم الصليبيون ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفري وغيره ولم يزد عدد عساكر فرخشاه على الفي فارس . وفي هذه السنة أغار البرنس رانود دي شاتيلون على جمع من التركان فاجتحف باموالهم وكان صلاح الدين على حصن بانياس فسير اليه ولد أخيه تقي الدين عمر الى حماه وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو

﴿ محاربه الصليبيين بمرج عيون وانتصار الاسطول المصري ﴾

في ثاني محرم سنة ٥٧٥ هـ جاء الخبر الى السلطان بان الصليبيين قد خرجوا فالتقاهم وقاتلوا قتالاً شديداً وانتصر المسلمون على الصليبيين وأسرت فرسانهم وشجعانهم وانهمزمت رجالهم في أول اللقاء فكان من جملة الاسرى مقدم جمعية الهيكليين الرهبانية ومقدم جمعية القديس يوحنا المعمدان وصاحب طبريه وأخو صاحب جبيل وابن بارزان صاحب الرملة وقسطلان يافا وابن صاحب مرقية وكثير من خيالة القدس وعكا وغيرهم من المقدمين الاكبر ما زاد عن مائتين وثلاثين وسبعين ثم عرضوا الاسرى على السلطان فامر بتقلهم الى دمشق ومات مقدم جمعية الهيكليين

فطلب الصليبيون جثته فافدوها بأسير مسلم وطال أسر الآخرين فمنهم من افتدى بمال وأطلق ومنهم من مات ومنهم من بقي مسجوناً وهذه الواقعة كانت في مرج عيون وكانت عدة الصليبيين عشرة آلاف فارس وانهزم ملكهم مجروحاً وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الواقعة بلاء حسن ومن أحسن ما اتفق أنه في اليوم الذي كسر فيه الصليبيين بمرج عيون ظفر الاسطول المصري ببطسة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد الى الشغر مستصحباً ألف رأس من السبي فما أقرب ما النصرين في المصرين وانظر كيف عم النصر وتساوى في البر والبحر

* { تخريب حصن بيت الاحزان } *

كان الصليبيون قد بنوا حصناً عند مخاضة بيت الاحزان سموه بحصن بيت الاحزان فلما بلغ خبره الى السلطان أشار عليه الامراء بمخابرتهم في هدمه لان بقاء هذا الحصن يضر بالمسلمين كثيراً فارسل السلطان الى الصليبيين يطلب منهم هدم الحصن فقالوا انه يهدمه اذا اذنا أعطانا تكليفه وكان هذا الحصن لجمعية الهيكليين الرهبانية فجعل لهم السلطان ستين الف دينار فابوا فزادهم الى ان جعل المبلغ مائة الف دينار فابوا فقال تقي الدين عمر للسلطان الاحسن ان تصرف هذا المبلغ في العساكر وهم يهدمونه بالقوة فسار السلطان بجيشه الي ان وصل الى المخاضة في يوم السبت ١٩ ربيع أول سنة ٥٧٥ نجيم بالقرب منها وضاق ذلك المرج عن العساكر واحتاج الي نصب ستائر فركب السلطان بكرة الاحد ٢٠ منه الي ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ لا داويه وهي الجمعية المذكورة فأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها فأخذ كل ما احتاج اليه ورجع بعد الظهر ورجعوا الي الحصن بعد العصر فما أمسى المساء الا وهم قد استولوا على الباشوره وانتقلوا بكليتهم اليها وابتوا طول الليل يحرسون وخافوا ان يفتح الصليبيون الابواب ويغيروا عليهم على غرة منهم واذا بالصليبيين قد اوقدوا النار خلف كل باب ليأمنوا من المسلمين اغتراراً فاطمأن المسلمون وقالوا ما بقي الا نقب البرج ففرقه السلطان على الامراء فأخذ فرخشاه الجانب القبلي وأخذ السلطان الجانب الشمالي وقصد ناصر الدين شيركوه بقربه نقباً وكذلك تقي الدين وكل كبير في الدولة جعل له قسماً وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الاحد الا وقد تم نقب السلطان وعلق وحشي بالخطب ليلة الاثنين وحرق وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاثة اذرع وكان عرض السور تسع اذرع فما تأثر بذلك فاحتاج السلطان صديحة

يوم الاثنين الي اطفاء النيران ليتم نقيه وقال من جاء بقربة ماء فله دينار فكانت الناس للقرب حاملين ولاوعية الماء ناقلين حتى اغرقوا تلك الثقوب فحمدت فعاد نقابوها وقد بردت نخر قوده وعمقوه وقتحوه وشقوا حجره وفلقوه ثم حشوه وعلقوه واستظهر وافته يوم الثلاثاء والاربعاء ثم احرقوه واشتد الحرص عليه لان الخبر اتاهم بان الصليبيين قد اجتمعوا بطبريه في جمع كثير فلما اصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر وتعالى النهار انقض الجدار واستبشر المسلمون وكان الصليبيون قد جمعوا وراء ذلك الموضع المتداعي حطباً فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم واحرقت بيوتهم وطأفة منهم فاجتمعوا الى الجانب البعيد من النار وطلبوا الامان فلما خمدت النار دخل الناس وقتلوا واسروا وغنموا ما به الف قطعة من الحديد من جميع انواع الاسلحة وشيئاً كثيراً من الاقوات وغيرها ووجيء بالاسارى الى السلطان فن كان مرتدياً او رامياً ضربت عنقه وأكثر من أسر قتلة المتطوعون في الطريق وكان عدد الاسارى نحو ٧٠٠ وخلص من الاسر اكثر من مائة مسلم وسير باقي الاسارى الى دمشق واقام السلطان في منزلته حتى هدموا الحصن الى الاساس وكان الصليبيون قد حفروا في وسطه جب ماء معين فامر السلطان برمي القنلى فيه وكان عند السلطان رسول من رايغوند قص طراباس وهو يشاهد بليعة قومه وأهل ملته ومدة مقام السلطان على الحصن في ايام فتحه وبعدها حتى دكها اربعة عشر يوماً وبعد ذلك سار السلطان الى أعمال طبريه وصور وبيروت وغيرها فاغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله اليها ثم رجع الى دمشق ومرض جماعة من الامراء المسلمين لان الحر كان شديداً وانتنت الجثث فنفشى الوباء وتوفى أكثر من عشرة أمراء

﴿ محاربة الاسطول المصري ميناء عكا ﴾

سار الاسطول المصري يغزو بلاد الصليبيين ومراكبهم وكانت قوة الاسطول قد زادت في هذه السنة واستخدم فيه عساكر بحرية مغربية ممن سبق لهم غزو الافرنج وكذلك رجاله المصريين الاقوياء المعروفين بالشهامة والقوة ومراكبه كانت كناناً الا انها تمرق مروق السهام ورواكد هي مدائن الا انها تمر مر السحاب غير الجهم فلا أعجب ان تسمى غرباناً وتنتشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى جوارى وكى يسر مجراها من النصر فوصلت في الاحد حادي عشر جمادى الاولى سنة ٥٧٥ ميناء عكا وكانت مملوءة بمراكب الصليبيين ومراكب التجارة فاستولى

الاسطول على عدة من المراكب تحطياً وتكسيراً وأخلى المينا من الباقي وهذا مما لم يعهد من اسطول اسلامي في سالف الدهر ومما يذكر ان عساكر الاسطول قتلوا بعض رجال قلعة عكا رميةً بالسهم من بعد كبير

﴿ وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله ﴾

في ثاني ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ توفي الامام المستضيء بامر الله أمير المؤمنين ابو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضي الله عنه وأمه أم ولد ارمنية تدعى غضة وكانت خلاقته تسع سنين وستة اشهر وواحداً وعشرين يوماً وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال والناس معه في أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليماً قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو والصفح عن المذنبين فقد كانت أيامه كما قيل

كان أيامه من حسن سيرته مواسم الحج والاعياد والجمع

ثم اخذت البيعة لولده الناصر لدين الله فبايعه أخوه الامير ابو منصور هاشم ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والاعيان وكان والده المستضيء قبل وفاته قد عهد اليه وسمي ولي العهد

﴿ محاربة السلطان بلاد الارمن ﴾

في سنة ٥٧٦ هـ استمال ابن لاوون ملك الارمن بعض التركان ليرعوا مواشيتهم في مراعي بلاده ثم غدر بهم وأسروهم فلما بلغ ذلك الى السلطان صلاح الدين سار بجيشه ودخل بلاد الارمن وحارب ملكهم وأذل أعوانه وأجناده ومن خوف ملكهم أمر باحراق قلعة شامحة تعرف بالمناقير فبادر المسلمون الى اخراج ما فيها من الآلات والغلات فنقروا بها وتمموا هدمها الى الاساس ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً بآلات من نحاس وفضة وذهب مضى عليها زمن طويل وأخذ السلطان كثيراً من الارمن أسرى فبذل ملكهم كثيراً من المال وتمهد ان يطلق من عنده من الاسارى لاجل خروج السلطان من بلاده فلم يرض السلطان بما بذله فزاد في المال وانه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الصليبيين ويعتقهم فاجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك وأذعن الارمني وذل وأطلق ما بيده من الاسارى واشترى الاسرى من الصليبيين وعتقهم ورجع السلطان منصوراً فقال الجلال الواسطي ابو غالب محمد وكان مشاهداً هذه الواقعة قصيدة منها

لقد حمل الله منك الوري بأوفى مليك وفي هجان
ازرت ابن لاون لأواء فأضحى به خبراً عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى حذاراً من الراءفات اللدان

﴿ وفاة شمس الدولة وورود التشریف للسلطان ورجوعه الى مصر ﴾

كان السلطان قد أخذ شمس الدولة تورانشاه الى الاسكندرية وجعل اليه ولايتها فلما أقام بها لم توافقه وكان يمتاده القوانج فمات به في ٥ صفر سنة ٥٧٦ ودفن بقصر الاسكندرية ثم نقلته منها اخته ست الشام بنت أيوب ودفنته في مدرستها التي انشأها بظاهر مدينة دمشق فهناك قبره وقبرها هي وولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين ابن اسد الدين شيركوه وكانت قد تزوجته بعد لاجين ووصل الخبر الى السلطان وهو نازل بظاهر حمص فخرن عليه حزناً شديداً لانه كان شجاعاً باسلاً عظيم الهيبة واسع الصدر جواداً كريماً قال فيه ابن سعدان قصيدة منها

هو الملك ان تسمع بكسرى وقيصر فانهما في الجود والبأس عباده
وما حاتم ممن يقاس بمثله نخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيراً فانه يجيرك من جور الزمان وعدواه
فلا تتحمل للسحاب منسة اذا هطلت جوداً سحاب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما فليمن يمناه ولليسر يسراه

وفي رجب من السنة المذكورة وصلت رسل الديوان العزيز الناصري صدر الدين الشيخ أبو القاسم عبد الرحيم ومعهم شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشریف الجديد فخرج السلطان للقاءهم بموكبه وقابلهم بالاحترام اللائق والتعظيم والتبجيل ثم ركبوا ودخلوا المدينة وهذه أول خلعة وصلت من الامام الناصر الى السلطان الناصر وهذه الخلعة هي ثوب أطلس اسود واسع الكم مذهب وبيقار اسود مذهب وطيلسان اسود مذهب ومشدة سوداء مذهبة وطوق وتخت وسر فسار وجواد كيت من ركائب الخليفة عليه سرج اسود وسلال اسود وطوق مجوهر وقصبة ذهب وعلم اسود وعدة خيول وبقية وركب السلطان بالخلعة وكان يوم عظيم زينت له دمشق وأولت الولاة لرسد الخليفة . ثم اراد السلطان الرجوع الى مصر فاناب عنه بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه لقوته ليكون امام الصليبيين

﴿ محاربة عز الدين فرخشاه رانود صاحب الكرك ﴾

في سنة ٥٧٧ كان رانود دي شاتيلون من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين قد عزم على المسير في البر الى تيماء ومنها الى المدينة المنورة باراضي الحجاز وكان دائماً ينقض عهوده فجمع جيشه واستعد لذلك فسمع عز الدين فرخشاه فجمع العساكر الدمشقية وسار الى الكرك ونهبها وخربها وعاد الى اطراف بلاد الصليبيين وأقام بها ليمنع البرنس رانود من العبور الى بلاد المسلمين ولما طال مقام كل منهما في مقابلة الآخر وخاف رانود من العساكر الاسلامية أمر بتفريق عساكره الى بلادهم وانقطع طمعه من الحركة فعاد عز الدين فرخشاه الى دمشق

﴿ وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ﴾

في التاسع من رجب سنة ٥٧٧ مرض الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وكان مرضه بالقولنج فلما اشتد عليه وصف له الاطباء شرب الخمر تداوياً بها فقال لا افعل حتى استفتي الفقهاء فاستفتى فافتاه فقيه من مدرسى الحنفية بجواز ذلك فقال له ارأيت ان قدر الله تعالى بقرب الأجل ايؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا والله فقال الصالح والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه علي فلم يشربه . فلما آيس من نفسه احضر الامراء وسائر الاجناد وأوصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل واستحلفهم بذلك فقال له بعضهم ان عماد الدين ابن عمك ايضاً وزوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وتولى تربيته وليس له غير سنجار فلو اعطيتك البلد لكان اصلح وعز الدين بلاده واسعة ولا حاجة به الى بلدك فقال اعلم ذلك ولكن قد علمتم بان صلاح الدين قد ملك اكثر الشام سوى ما بيدي ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها وان سلمتها الى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات في الخامس والعشرين منه وكان حليماً كريماً عفيف اليد والفرج واللسان وكان عمره ١٩ سنة وبعد وفاته ارسلوا الى ابن عمه عز الدين فحضر واستلم حلب واقام بها واستلم جميع الخزان والسلاح ثم بادل بها ابن عمه عماد الدين بسنجار فاستلم عماد الدين حلب واستلم عز الدين سنجار

﴿ في سفر السلطان صلاح الدين الى الشام ومحاربة الصليبيين ﴾

لما بلغ السلطان خبر وفاة الملك الصالح خاف على بلاده من عز الدين وندم على سفره من الشام وعزم على العودة اليها لحفظ بلاده وفي هذه السنة أيضاً سار بهاء الدين قراقوش الى بلاد الغرب فاوغل فيها ونهب ما قدر عليه وحارب عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان ثم بلغه ان ابراهيم السلحدار احتوى على أهل قراقوش وبلده فرجع اليه فهرب ابراهيم وسار الى خدمة ابن عبد المؤمن وملك قراقوش ما كان بيد ابراهيم أما السلطان صلاح الدين فانه رأى ان عز الدين قد خرق المعاهدة بملكه واتصل به أيضاً ان أمراء الموصل تأمروا عليه سراً مع الصليبيين فجمع عساكره واستصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر لحفظ الثغور المصرية ثم سار السلطان من البركة وأخذ على طريق صدر وابله في المفاوز فبات باليوب ثم سار على الجسر ووادي موسى حتى وصل عقبة أيله وهناك سمع باجتماع الصليبيين على الكرك فاحترز بحفظ الاطراف وانحاز بحمي ثم عقبة شتار ثم القريتين وأغار في تلك الايام على اطراف بلاد العدو ثم تجرد السلطان بكأته وسلك بهم سمت الكرك الى الحمبي وأمر أخاه تاج الملوك بوري على العسكر وأمره ان يسير بهم على يمينه ففعل واجتمع بالسلطان بالازرق بعد أسبوع ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه لانه لما بلغه تجمع الصليبيين على الكرك اغتمم خلو ديارهم فاغار على بلاد طبريه وعكا وفتح دبوريه وجاء الى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين ففتحها واسكن المسلمين فيه فبقي عيناً على الصليبيين بعد ما كان لهم ورجع بالاسرى والغنائم منصوراً ومعه الف أسير وعشرون الف رأس من الانعام ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق في ١٧ صفر سنة ٥٧٨ هـ وفي اوائل ربيع اول خرج السلطان وأغار على بلاد طبريه وييسان والتحم القتال بينه وبين الصليبيين تحت حصن كوكب فانهزمت الصليبيون وقتل وأسروا منهم كثير وعاد السلطان منصوراً

﴿ محاصرة بيروت براً وبحراً ومسير السلطان الى الموصل ﴾

أمر السلطان الاسطول المصري بالحجى الى بيروت فسار اليها ونازلها واغار عليها وسار السلطان فوافاه اليها ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة أيام فاتاه الخبر وهو عليها ان قد نزل دمياط جميع عظيم من الافرنج وكانوا قد خرجوا من بلادهم لزيارة القدس فأسروا من بها بعد ان غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى

الف وستامة وستا وسبعون أسيراً ثم أرسل اليه مظفر الدين كوكبري صاحب حران واعلمه انه معه وطلب منه سرعة قدومه الى الفرات فجد صلاح الدين في السير مظهراً انه يريد حصر حلب تستراً فلما قارب الفرات سار اليه مظفر الدين واجتمع به فقصده البيه وكان صاحبها معه ثم سار الى الرها فحاصرها في جماد الاولي سنة ٥٧٨هـ وقتلها اشد قتال ووالى الزحف عليها وكان بها الامير نحر الدين مسعود فلما رأى شدة القتال أذعن للتسليم وطب الامان وسلم البلد وسار في خدمة صلاح الدين الذي سلمها الى مظفر الدين مع حران ثم سار السلطان الى الرقة فملكها ومنها الى نصيبين فملكها أيضاً وجمع أمراءه واستشارهم في أي البلاد يبدأ بالموصل أو سنجان أو جزيرة ابن عمر فأشاروا عليه بالموصل فسار اليها وحاصرها فوجدها منيعة جداً وعلماً ان ليس له قدرة عليها ولكنه لزم حصارها ثم حصل تردد في الصلح فلم يتم وأخيراً تركها وسار الى سنجان وحاصرها وجد في قتلها الى ان تسلمها بالامان وقفل عائداً

﴿ الصليبيون في البحر الاحمر او بحر القلزم وهلاكهم ﴾

في سنة ٥٧٨هـ أيضاً طمع البرنس رانود بالاستيلاء على أراضي الحجاز فانشأ المراكب ونقل أخشابها على الجمال الى الساحل ثم ركبها وشحنها بالرجال والآلات القتال وجعلها قسمين قسما سار الى جزيرة قلعة ايله فمنع اهلها من ورود الماء فنال اهلها شدة وضيق عليهم والقسم الثاني سار نحو عيذاب وافسد في السواحل ونهب وأخذ ما وجد من المراكب الاسلامية وما فيها من التجار وبقوا الناس في بلادهم على حين غفلة لانهم لم يمهّدوا بهذا البحر أفرنجياً لا تاجراً ولا محارباً وكان بمصر الملك العادل ابو بكر بن أيوب نائب عن أخيه صلاح الدين فعمّر اسطولا في بحر القلزم بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ وشحنه بالرجال البحريين ذوي التجربة من أهل النخوة للدين وسار الى ايله فظفر بمراكب العدو بعد ما خرقتها وأخذ جندها ومن هرب منهم في البرية تتبعته العرب وأحضرتة اليه ثم سار نحو عيذاب مقتنياً اثر الباقي من مراكب الصليبيين فوجدهم قد قتلوا اهل عيذاب وأسروهم ونهبوهم وساروا فنبعهم فوجدهم قد قطعوا طريق التجار وشرعوا في القتل والنهب وتوجهوا الى أرض الحجاز فعظم البلاء على الناس وأشرف أهل المدينة ومكة على خطر وسار لؤلؤ يتبعهم فوصل رابع ساحل الحوراء فأدركهم هناك فأوقع بهم من القتل والاسر فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خر جوا الى البر واعتمسوا ببعض تلك الشعب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقتلهم اشد قتال وأخذ خيلاً من صرب البلاد

فركبها وقتلهم فرساناً ورجالة فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم الى متى لينحروا بها عقوبة لمن رام اخافة البلاد الحرام وعاد بالباقيين الى مصر فقتلوا جميعاً لئلا يدل من يظل منهم حياً على تلك الجهات فقال ابو الحسن ابن الذروي يمدح لؤلؤ بقصيدة منها

مر يوم من الزمان عجيب كاد يبدي فيه السرور الجماد
اذ أتى الحاجب الاجل بأسرى قرتهم في طيها الاصفاذ
بجمال كأنهن جبال وعلوج كأنهم اطواد *
قلت بعد التكبير لما تبدي هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الاعادي وسواه من اللآلئ يصاد

* { استيلاء السلطان على حلب } *

في سنة ٥٧٩ سار السلطان الى آمد وحصرها وقتحها عنوة بعد حرب شديدة وسلمها الى صاحب الحصن نور الدين ثم سار الى تل خالد فيحاصره واستلمه وسار الي عينتاب فتسلمها ايضاً بالامان ثم سار الى حلب وحاصرها وشدد حصارها وأقام عليها أياماً والقتال بين العسكريين كل يوم فلما رأى عماد الدين صاحب حلب كثرة المصاريف شح بالمال فحضر عنده بعض الاجناد وطلبوا منه شيئاً فاعتذر اليهم بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد ان يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلي نساءه فقال عماد الدين الي تسليم حلب وأخذ العوض عنها وأرسل الي السلطان الامير طمان الياروقي بأنه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيدين والخابور والرقه وسروج وجرى اليمين على ذلك فنزل منها في ١٨ صفر سنة ٥٧٩ وسلمها واستلم البديل عنها ونصب السلطان علمه الاصفر فوق السور وقال محي الدين بن الزكي قاضي دمشق في مدح السلطان قصيدة منها

وقتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ٥٨٣ وهو من الاتفاق العجيب وجعل فيها

ولده الملك الظاهر غازي

﴿ في تنازل بودوين الرابع وولاية بودوين الخامس ﴾

في سنة ٥٧٩ عمي السلطان بودوين الرابع المسمى بالملك الارص وصار كفيفاً ولذلك انتدب غوى دي لوزينانا زوج أخته سيلا وأقامه نائباً على الملك وكان

ضعيفاً طائش الرأي فسار مرة في عشرة آلاف مقاتل فلقاه السلطان صلاح الدين فهزمه وقتل رجاله ولذلك كرهه الصليبيون وعزله بودوين الرابع وأقام وكيلاً عنه رايغوند صاحب طراباس ثم ان الملك بودوين الرابع تنازل عن الملك لابن أخته سييلا من زوجها الاول غويليوم دي مونت فراتا وعمره خمس سنوات فهذا الفتى صعد على كرسي سلطنة القدس (أورشليم) سنة ١١٨٣ ميلاديه ولقب ببودوين الخامس

﴿ مناوشات الصليبيين مع العساكر الاسلاميه ﴾

انتهت سنة ٥٧٩ في مناوشات تقع بين الصليبيين وعساكر السلطان صلاح الدين وكان النصر دائماً ملازماً لعساكر السلطان لانه في كل واقعة كان يقتل ويؤسر بعض الصليبيين خصوصاً في جهات بيسان فانهم استولوا على أشياء كثيرة من أمتعة وقماش وغلال والحلوت وهي قرية عامرة فانهم عثروا على نجدة للصليبيين كانت قاصدة الشوبك والكرك فانقضوا عليهم وقتلوهم وأسروا منهم زهاء مائة نفر. ثم بلغ السلطان ان الصليبيين اجتمعوا في صفوريه ورحلوا الى الفولة وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف فلما سمع ذلك تعي لقتال وسار للقاء العدو فالتقوا وجرى قتال عظيم فقتل من العدو جماعة وجرح منهم جماعة وهم ينضم بعضهم الى بعض يحمي راجلهم فارسمهم ولم يخرجوا للمصاف وظلوا سارين حتى اتوا العين فزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف وهم لا يخرجون فرأى السلطان ان يرحل عنهم قليلاً لعلهم يخرجون فيضرب معهم المصاف فرحل ونزل تحت الحيل متقبلاً خروجهم فكص الصليبيون على أعقابهم فزحف عليهم وأخذ يرميهم بالنشاب ويطلب مصافهم فلم يخرجوا ولم يزل السلطان وراءهم حتى نزلوا الفولة راجعين الى بلادهم فعاد ثم طلب السلطان أخاه العادل نائبه بمصر وولاه حلب وأرسل تقي الدين الى مصر نائباً عنه وأتاب سيف الاسلام على جميع البين

﴿ محاصرة الكرك ودخول السلطان بلاد الصليبيين ﴾

في سنة ٥٨٠ طلب السلطان العساكر المصرية الى الكرك وسار اليها بمن معه وحاصرها بعد مجيء العساكر المصرية وركب المنجانيقات عليها وضيق عليهم الحصار ولما بلغ الصليبيون ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم فملك المسلمون الربض

وبقي الحصن وهو والريض على سطح جبل واحد الا ان بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً فأمر السلطان بالقاء الاحجار والتراب لردمه فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام والاحجار من المنجانيقات فأمر أن يبنى بالاحشاب سقايف يمكن الرجال يمشون تحتها لردمه ومنجانيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهاراً أما الصليبيون فانهم زحفوا لنجدة اخوانهم فلما بلغ السلطان قدومهم سار ليمنهم وكانوا قد نزلوا في مكان يقال له الواله فسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسان امام الصليبيين في طريقهم ورحل منها الى موضع يقال له ماء عين ثم رحل الصليبيون الى الكرك فسار بعض العسكر ورائهم فقاتلوهم الى آخر النهار ولما رأى السلطان تصميم الصليبيين على الكرك ورأى الساحل خالياً سار بعساكره فاغار على نابلس ونهبها وغنم ما فيها ثم سار الى سبسطيه وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وجماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ورحل الى جنين فنهبا وخربها وعاد الى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا في طريقه يميناً وشمالاً يغمون ويخربون

﴿ مرض السلطان وصلحه مع عز الدين صاحب الموصل ﴾

في سنة ٥٨١ سار السلطان بعسكره قاصداً الموصل فوصلها وحاصرها وضايق أهلها ثم أصابه مرض وهو يقيم الحصار فاغتم عز الدين صاحب الموصل فرصة مرضه وأرسل اليه يطلب الصلح فصالحه بشروط ان تبقى البلاد بيد عز الدين ويخطب للسلطان فيها وان السلطان اذا طلب عسكراً للجهاد يكون عز الدين ملزوماً بالسفر بنفسه للمساعدة ثم رجع السلطان الى حران وهو مريض واشتد به المرض حتى يئس الناس منه وسافر اليه أخوه العادل ومعه الاطباء من حلب وعاده جميع الامراء والعساكر وفي أثناء مرضه أشار عليه بعض الزايرين ان يتنذر لله نذراً اذا شفاه الله من مرضه هذا وهو ان يشتغل بفتح البيت المقدس وانه لا يصرف بقية عمره الا في قتال الاعداء الصليبيين ثم أخذ السلطان في التقدم في الشفاء من ذلك المرض شيئاً فشيئاً الى ان عوفي تماماً ففرح جميع المسلمين بذلك

﴿ وفاة بودوين الخامس وولاية غوى دي لوزينانا ﴾

في سنة ٥٨١ توفي الملك بودوين الخامس ابن أخت بودوين الرابع وهو صغير السن كما تقدم وكانت مدة حكمه سنتين وكان النائب عنه البرنس رايون صاحب طرابلس

وقبل وفاة المذكور بأيام قليلة توفي بودوين الرابع الذي كان كفيفاً وتنازل عن الملك كما تقدم ثم بعد وفاة بودوين الخامس تولت المملكة والدته سيلا أخت بودوين الرابع وتنازلت عن الملك لزوجها غوى دي لوزيانا وأبستته التاج أمام القسوس والبطاركة ورؤساء جمعية ماري يوحنا المعمدان وجمعية الهيكلين وأمرتهم باتباع أحكامه وأوامره فاجابوها بالسمع والطاعة وصار من ذلك الوقت ملكاً على القدس

﴿ حساب المنجمين بخراب الكون ﴾

في سنة ٥٨٢ حكم الفلكيون رصاد النجوم انه في الثامن والعشرون من جمادي الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمس والشمس والقمر في برج الميزان ويشير ذلك هواء عظيماً وغياً سمومياً وفي يوم الثالث التاسع والعشرين تهلك جميع البلاد وتحمل الرمل وقالوا يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء الى نصف ليلة الاربعاء وخوفوا من ذلك جميع ملوك العجم والروم وأشعروهم بتأثيرات النجوم فشرعوا في حفر مغارات في الصخور وتعميق السرايب وتوثيقها وسد منافسها على الريح ونقلوا اليها الماء والازاد وانتقلوا اليها وانتظروا الميعاد وخاف كذلك جميع الرعايا في كل البلدان ولما جاءت ليلة الميعاد فكانت ليلة هادية وما تحرك فيها ريح قط فخزي أهل التنجيم من ذلك وعملت الشعراء في كذبهم أشعاراً قال أبو الغنائم منها

قل لابي الفضل قول معترف	مضى جمادي وجاءنا رجب
وما جرت زعزع كما حكموا	ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا	أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما	يقضي عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاصطراب	خير من سفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفي	أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الامر واحد ومتى	للسبب في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل	باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق	وانجاب التماذي وزالت الريب
فليطل المدعون ما وضعوا	في كتبهم ولتتحرق الكتب

﴿ اختلاف الصليبيين وانحياز رايوند الى السلطان صلاح الدين ﴾

كان رايوند صاحب طرابلس وصياً على بودوين الخامس ولما توفي بودوين وتولى بعده زوج أمه غوى دي لوزيانا طالب البرنس رايوند بحساب ما جباه من الاموال مدته ولاية الصبي فادعى انه انفق عليه وزاده ذلك الامر نفوراً وكذراً وجاهر بالعداوة وراسل السلطان صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج الصليبيين ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعدوه النصر والسعي له في كل ما يريد وضمن له ان يجعله ملكاً مستقلاً للصليبيين قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان رايوند أسرى فاطلقهم فحل ذلك عنده أعظم محل واطهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الصليبيين فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك في سنة ٥٨٢ هجرية

﴿ غدر رانود صاحب الكرك بالهدنة ﴾

كان البرنس رانود صاحب الكرك من أشد أعداء المسلمين وكان يوالي غدراتهم وكان السلطان يحاصره المرة بعد الاخرى حتى اذله نخضع وطلب الهدنة فهادنه وتحالفا بعدم التعرض لاحد وترددت القوافل من الشام الى مصر ومن مصر الى الشام ففي هذه السنة اجتازت به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومعها جماعة من الجند كانت واردة من مصر فغدر رانود بهم وأخذهم عن آخرهم وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم وادعهم السجن فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فاستخف بهم وقال قولوا لمحمدكم يخلصكم فبلغ ذلك السلطان وراسله في اطلاقهم فابى فحمله الدين والحمية على انه نذر ان ظفر به قتله

﴿ واقعة صفورية وحصار الكرك ﴾

في اول محرم سنة ٥٨٣ برز السلطان من دمشق في العسكر العرمرم فلما واصل الى رأس الماء أمر ولده الملك الافضل بالاقامة هناك لمقابلة الامراء القادمين لمساعدته من جميع البلاد وسار السلطان الى بصرى وخيم على قصر السلامه ثم سار ونزل على الكرك واخاف أهله واخذ ما كان حوله ورعي زرعهم وقطع أشجارهم وكر ومهم ثم سار الى الشوبك وفعل به مثل ذلك ووصل عسكر مصر فقتلناه وفرقه على أعمال القلعتين واقام على هذه الحالة شهرين والملك الافضل مقيم برأس الماء ومعه جميع العساكر القادمة ينتظر أمراً من أبيه فلما طال به الانتظار سار بسرية منهم قاصداً

الاغارة على اعمال طبرية حتى اصبح صفورية فخرج اليهم الصليبيون من جمعية الهيكلين (الداويه) وجمعية ماري يوحنا المعمدان (الاستباريه) واقتتلوا قتلاً شديداً وخرج من الصليبيين فارس راكب حصاناً ابيض وهو يدعى يعقوب دي مالي رئيس الاستبارية وهجم على العساكر الاسلامية فقتلوه وقتلوا باقي قومه وأسروا اكثرهم وأيقن باقي الصليبيين بالهلاك وهرب مقدم الهيكلين وعادت العساكر الاسلامية سالمة غائمة فكانت هذه الواقعة با كورة البركات وجاءت البشرى الى السلطان وهو على الكرك والشوبك فسار السلطان حتى خيم بعشرا ثم سار حتى قابل العساكر الاسلامية فبعي المسكر قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقية وعرف كل منهم موضعه وسار على تعبية فنزل بالاخوانة بقرب طبرية وكان البرنس رايوند المسمى لصالح الدين قد اصطاح مع قومه لان ملكهم غوي قد أرسل له البطرك والقسوس والرهبان فقالوا له لاشك أنك اسلمت والا لما كنت تصبر على ما فعله المسلمين في صفورية وتهده البطرك ان يحرمه فلما رأى رايوند شدة الامر عليه خاف واعتذر وتاب وسار معهم الى القدس وتصلح مع الملك غوي

﴿ فتح طبرية ومجلس مشورة الصليبيين ﴾

لما رأى الصليبيون ما حصل لهم جمعوا عساكرهم باراضي صفورية . ثم عرض السلطان عساكره في منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسيل ورتبهم وأندفع قاصداً بلاد العدو في وسط نهار الجمعة وكان دائماً يقصد بوقعائه الجمع لاسيا اوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب الى الاجابة فسار ونزل على بحيرة طبرية غربي المدينة على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظراً ان الصليبيين اذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من مكانهم ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر عساكره بالنزول امام عساكر الصليبيين لاجل منعهم من القتال ونزل بجريدة من عسكره الى طبرية وقائلها وتقب بعض ابراجها واخذ المدينة عنوة في ساعة ولجأ من بها الى قلعتها فامتنعوا بها وفيها زوجة رايوند واولاده فهب المدينة واحرقها ونال بلغ الصليبيون ما فعله صالح الدين من اخذ طبرية واحرقها بعد سلب ما بها عقدوا مجلسهم للمشورة بمدينة القدس فقام رايوند وقال اني متنازل عن مدينة طبرية للعدو ويلز منا التجمع حول القدس لحفظه من العدو لاني ما رأيت قط جيشاً مثل هذا ذا قوة وبطش فقام رانود صاحب الكرك وقال له قد اطلت في التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريد تميل اليهم والا ما كنت تقول هذا وأما قولك انهم

كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب فقال رايوند هاأنا واحد منكم
 وبين أيديكم فقرروا بمسير العساكر الى مرج صفورية فزحفوا وكان أمامهم رايوند
 مع عساكره وغوي سلطان القدس مع الفرسان الهيكليين (الداوية) وضياف الغربا
 أي جمعية ماري يوحنا المعمدان (الاستبارية) كانوا وراء الجيوش بصفة خفراء وكان
 في الوسط باقي الصليبيين مع مطران عكا حاملا الصليب الحقيقي (صليب الصلبوت
 الذي صلب عليه المسيح كما يدعون) فلما بلغ ذلك السلطان صلاح الدين عاد عن
 طبرية الى عسكره وكان قريباً منه وإنما كان قصده من محاربة طبرية ان الصليبيين
 يفارقون مكانهم ليقا تلهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء وكان الوقت قيظ شديد
 الحر فحصل للصليبيين عطش ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين
 وقد افنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين
 فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم الجمعة وقد اخذ العطش منهم وأما المسلمون
 فانهم طعموا قيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يجرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا
 ريح النصر والظفر وكلا رأوا حال الصليبيين بخلاف عاداتهم مما ركبهم من الخذلان
 زاد طمعهم وجرائهم فكثروا التكبير والتهيل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة
 الجاليشية وفرق فيهم النشاب

واقعة حطين واخذ المسلمين صليب الصلبوت

لما كان صبح يوم الجمعة ٢٣ ربيع آخر ركب العسكران وتصادما وذلك بارض
 قرية تسمى اللوبيا ولم يزل القتال مشتبكا الى ان حال بينهم الظلام وجرى في ذلك
 اليوم من الوقائع العظيمة ما لم يروه السابقون وبات كل فريق شاكياً سلاحه ينتظر
 خصمه في كل ساعة وفي صباح يوم السبت ٢٤ منه ركب السلطان وتقدم الى الصليبيين
 وركبت الصليبيون بترتيبهم السابق حتى اذا دنا بعضهم من بعض اقتتلوا واشتد القتال
 وصبر الفريقان ورمى الجاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا
 من خيول الصليبيين كثيراً فاجتمع الصليبيون وقد اشتد بهم العطش وهم يقاتلون
 فساروا نحو طبرية لعلهم يردون الماء فلما علم السلطان صلاح الدين ذلك صدهم
 عن مرادهم ووقف بالعسكر في وجوههم وطاف بنفسه في المسلمين
 يجرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم والناس يتبعون اوامره فحمل
 مملوك من ممالكة الصبيان حملة منكرة على صف الصليبيين فقاتل قتالاً عجب منه
 الناس ثم تكاثر الصليبيون عليه فقتلوه فلما قتل حمل المسلمون حملة منكرة وضعوا

معها الصليبيين وقتلوا منهم كثيراً فلما رأى رايوند شدة الامر وعلم ان لا طاقة
 لهم على المسلمين اتفق هو وجماعة وحملوا على من بينهم وكان مقدم المسلمين في
 تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى حملة الصليبيين حملة
 مكروب علم ان لا سبب للوقوف في وجوههم أمر اصحابه ان يفتحوا لهم طريق
 يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد اشعل في تلك الارض ناراً فالتهب الهشيم
 الكثير وهبت الريح فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر
 الزمان وحر النار والدخان وحر القتال وانهمز رايوند وتبعه بعض عسكره وحمل
 الصليبيون حملات متداركة فكانوا يحملون الحملة فيرجعون وقد قتل منهم كثير
 فوهت لذلك قواهم وهناً عظيماً فاحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها واعتصم
 من بقي من الصليبيين بتل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب عليه السلام
 وارادوا ان ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم بها فاشتد عليهم القتال من سائر الجهات
 ومنعواهم عما ارادوا ولم يتمكنوا الا من نصب خيمة ملكهم وأخذ المسلمون صليبيهم
 الاعظم (صليب الصلבות) فكان ذلك عليهم من أعظم المصائب وأيقنوا بعده
 بالقتل والهلاك ودام فيهم القتل والاسر وبقي الملك على التل في قسم من جيشه
 ومعه الامراء والقواد فحمل عليهم المسلمون حملة شديدة حتى هلك الصليبيون
 فزلوا عن خيولهم وتراوا الى الارض فاخذتهم العساكر الاسلامية أسرى باليد وكان
 في جملتهم الملك غوي ملك القدس والبرنس رانود صاحب الكرك والشوبك وجميع
 ضباط الصليبيين حتى كان من يرى القتلى لا يظن انهم أسروا أحداً ومن يرى
 الاسرى لا يظن انهم قتلوا أحداً ولم يصب الصليبيون منذ خرجوا من بلادهم الى
 فلسطين اي من سنة ٤٩١ الى الآن بمثل هذه الواقعة فلما فرغ المسلمون من ذلك نزل
 صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الصليبيين غوي دي لوزيانا ورانود دي شانيلون
 صاحب الكرك وأجلس الملك غوي الى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا
 فشرب وأعطى الباقي الى رانود فشرب فقال السلطان صلاح الدين للترجمان ان
 هذا الملعون لم يشرب الماء باذني بل الذي سقاه الملك وكان من جميل عادة العرب
 ان الاسير اذا اكل او شرب من مال من أسره أمن فتصد السلطان بقوله هذا
 ان الملك غوي أمن وأما رانود فلم يأمن ثم أمر السلطان بمسيرهم الى موضع معين
 لنزولهم فوضوا وأكلوا شيئاً ثم استحضرهم بين يديه فاقعد الملك غوي في الدهليز
 وأوقف رانود وقال له على ما حصل منه ثم قال السلطان ها أنا انتصر لمحمد

صلى الله عليه وسلم ثم عرض عليه الاسلام فابي ثم سل سيفه وضربه بنفسه فاطارها مته
فمسح الى باب الحيمة فارتعدت فرائص الملك ولم يشك في انه يثني به فاستحضره
وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك أما هذا فانه جاوز الحد

﴿ اخذ قلعة طبرية ﴾

لما فرغ السلطان من هذه الواقعة في يوم السبت أقام بموضعه باقي يومه فلما
اصبح يوم الاحد ٢٥ ربيع آخر عاد الى طبرية ونازلها فارسلت صاحبها زوجة
رايموند صاحب طرابلس تطلب الامان لها ولاولادها واصحابها وما لها فاجابها الى
ذلك نخرجت بالجميع فوفى لها فسارت آمنة ثم أمر الملك غوي وجماعة من
أعيان الصليبيين الاسرى فارسوا الى دمشق وأمر بمن اسر من الداوية (الهيكين)
والاستبارية (جمعية ماري يوحنا) الرهبانيين بان يجمعوا ليقتلهم وأمر بان كل من
عنده اسير منهم يأخذ بدله خمسين ديناراً مصرياً ولما جمعوهم أمر بقتلهم
وقد خص هؤلاء بالقتل لانهم أشد شوكة من جميع الصليبيين فراح الناس من شرهم
وكتب الى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم اما القمص رايموند صاحب
طرابلس الذي هرب من الواقعة السابقة فانه ذهب الى صور ثم قصد طرابلس
ولم يلبث الا أياماً قلائل ومات ومدح العماد السلطان بقصيدة منها

يا يوم حطين والابطال عابسة	وبالعجاجة وجه الشمس قد عابسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقراً	معفراً خذه والانف قد تعابسا
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد	اصاب اعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص اذ طار ذاك الرأس في دمه	كأنه ضفضع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس من كوماً بغدرته	والقتل تسميت من بالغدر قد عطسا
عري ظباه من الاغمد امهرقة	دما من الشرك ردا هابه وكسا
من سيفه في دماء القوم منغمس	من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
افناهم قتلهم والاسر فاتكسوا	ويت كفرهم من خبهم كنسا

﴿ فتح عكا وغيرها من الحصون ﴾

لما فرغ السلطان من طبرية سار عنها في يوم الثلاثاء ٢٧ ربيع آخر سنة ٥٨٣
ووصل الى عكا يوم الاربعاء ٢٨ منه وقد صعد أهلها على سورها يظهر ون الامتاع
والحفظ فتعجب السلطان لانهم علموا ان عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل

وأسير وأنه لم يسلم منهم الا القليل الا انه نزل يومه وركب يوم الخميس ٢٩ منه
وقد صمم على الزحف على البلد وقتاله فينما هو يعمن النظر في اختيار الجهة التي
يزحف منها ويقا تل اذ خرج كثير من أهلها يطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأمنهم
على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاخثاروا الرحيل خوفاً
من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي
على حاله ودخل المسلمون اليها يوم الجمعة غرة جماد الاولى وصلوا بها الجمعة في
جامع كان للمسلمين قديماً جعله الفرنج بيعة لهم ثم جعله صلاح الدين جامعاً وهذه
أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد ان ملكه الصليبيون واستنقذ ما كان بها من
أسرى المسلمين وهم ما ينوف عن أربعة آلاف مسلم وسلم البلد الى ولده الافضل
واعطى جميع ما كان في البلد ملكا للداوية (الهيكليين) للفقير عيسى وغنم المسلمون
ما بقي مما لم يطق الصليبيون حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فراوا فيها
من الذهب والجوهر والسقلاط والبندق والسلاح وغير ذلك من الامتعة كثيراً
لانها كانت مينا عمومية لتجار الافرنج والروم وغيرهم ففرق صلاح الدين وابنه
الافضل ذلك جميعه على أصحابهما وفي مدة اقامة السلطان في عكا أرسل عساكره
الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والقولة وغيرها من البلاد
المجاورة لمدينة عكا فلكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وقدموا من
ذلك ما سد القضاء وأرسل صلاح الدين الى أخيه العادل بمصر يشره بما فتحه
الله على يديه ويأمره بالمسير الى بلاد الصليبيين من جهة مصر بمن بقي عنده من
العسكر ومحاصرة ما يليه منها فسارع الى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل
يابا وحصره وغنم ما فيه وسار الى مدينة يافا وهي على الساحل فحصرها وملكها
عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحرير وجرى على أهلها ما لم يجز على أحد
من تلك البلاد وورد كتابة بذلك الى صلاح الدين . وقد سير السلطان حسام
الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس فأتى بسبسطيه وبها قبر زكريا عليه السلام
فاخذته من أيدي الصليبيين وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر
قلعتها واستنزل من فيها بالامان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم
وأموالهم . وسير تقي الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور

﴿ فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت ﴾

لما وصل تقي الدين الى تبنين نازها وأقام عليها فراي حصرها لا يتم الا

بوصول عمه صلاح الدين اليه فارسل اليه يعلمه بالامر ويحثه على المسير اليه فرحل من عكا في ثامن جمادي الاولى ونزل عليها في ١١ منه فحصرها وضيقها وقتاتها وهي من القلاع المنبوعة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما انضموا الى عسكر السلطان أحضرهم اليه وكساهم واعطاهم نفقة وصيرهم الى اهلهم وبقي الصليبيون محصورين خمسة ايام ثم أرسلوا يطلبون الامان فأمهم على انفسهم فسلموا اليه ووفى لهم وسيرهم اليه مأمهم ثم سار السلطان الى صيدا فاجتاز بطريقه بصرفند فاخذها صفوا عفواً بغير قتال وسار عنها الى صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها خالية من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة واصله فلما كملها في ٢١ منه ثم سار عنها في يومه نحو بيروت وهي من أحصن مدن الساحل وأزهدا وأطيبها فوصل اليها من الغد فرأى أهلها قد صدعوا على سورها وأظهروا القوة والجلد وقتلوا على سورها قتلا شديداً واغرتوا بحصانة البلد وظنوا انهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد أخرى فينبأ الصليبيون يقاتلون اذ سمعوا من البلد جبلة عظيمة وضوضاء زائدة فاتاهم من أخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى قهراً وغلبة فأرسلوا الرسل يستطلعون فلم يجدوا احداً فارادوا تسكين الخواطر فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الامان فأمهم على انفسهم وأمواهم وتسلمها في ٢٩ منه فكانت مدة حصرها ثمانية ايام وفي أثناء حصار بيروت كان صاحب جيبيل من جملة الاسرى المسجونين بدمشق ففاوض نائب السلطان بدمشق في تسليم جيبيل بشرط اطلاقه فأعلم صلاح الدين بذلك فأحضره اليه مقيداً فسلم حصنه للعساكر الاسلامية وأطلق مابه من أسرى المسلمين وأطلقه السلطان كما اشترط

﴿ فتح عسقلان وما يجاورها من البلاد والحصون ﴾

لما ملك السلطان بيروت وجيبيل وغيرها لم يبق عنده أهم من فتح عسقلان والقدس فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر فنزلوها يوم الاحد سادس عشر جمادي الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر الملك غوي ومقدم الداوية (الهيكليين) اليه من دمشق وقال لهما ان سلمتالي البلاد فلما الامان فأرسلنا الى من بعسقلان من الصليبيين يأمرانهم بتسليم البلد

فلم يسمعوا أمرها ووردوا عليها ما أقبح رد فلما رأى السلطان ذلك جد في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقبون الى السور فقالوا من باشورته شيئاً وصار ملكهم يكرر لهم الارسال بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم انه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً واستجد بأهل اوروبوا وأجلب الحيل والرجال من أقاصي البلدان وهم لا يجيبون الى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ولما رأوا انهم كل يوم يزدادون ضعفاً ووهناً واذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم اليها وكان قد قتل أثناء الحصار من الامراء الاكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني نخاف الصليبيون ان تأخذ عشيرته منهم بثاره اذا خرجوا فاحتاطوا بذلك فيما اشترطوا لانفسهم فأجيبوا الى ذلك جميعه وسلموا المدينة في آخر شهر جمادي الآخرة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوماً وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس ووفى لهم الامان . وأقام السلطان بظاھرھا وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزه ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنظرون وجميع ما كان للداوية

﴿ فتح البيت المقدس شرفه الله ﴾

لما تسلّم السلطان عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد والاجتهاد في قصده واجتمعت اليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لباتها من النهب والغارة فسار نحوه معتمداً على الله منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث على اتهازه اذا فتح بقوله عليه الصلاة والسلام (من فتح له باب خير فلينتهزه فانه لا يعلم متى يعلق دونه) وكان القدس مملوئاً من الصليبيين حتى قدرهم بعض المؤرخين بستين الف مقاتل ماعدا النساء والصبيان والجميع بدون ملك فلذلك أنتخبوا عليهم رئيساً عسكرياً وهو باليان دي ايبالين فاجتهد في الاستعداد لمحاصرة المدينة من داخلها . وسار السلطان صلاح الدين الى أن قرب من المدينة فراسل الى الصليبيين رسولا من قبله يخاطبهم بما يأتي حسب تقرير مؤرخي فرانساقائلا لهم (اني انا نظيركم اعرف ان اورشليم) (القدس) هي بيت الله فانا لست آتياً لكي ادنس قدساتها بسفك الدماء فاتم اهلوها لي وانا اخصصكم بقسم من خزائني

واعطيتكم اراضي بمقدار ما اتم تستطيعون أن تقوموا باعمالها) . فاجابه سكان المدينة بقولهم (اننا لا نقدر أن نترك لك مدينة قدمنا فيها الهنا بالجسد وبأكثر من ذلك نحن لا نقدر أن نبيعها أنتهى) وكان السلطان قد ارسل الى مصر يطلب الاسطول الذي بها في جمع من المقاتله ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة فسار الاسطول يقطع الطريق على الافرنج بحراً وينغم ما يجده من مراكزهم . واجتمع الصليبيون بيت المقدس كما تقدم وحصنوه بما وجدوا اليه سيلا وصعدوا على سورهم وحديدتهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة بقدر استطاعتهم ونصبوا المنجنقيات ليمنعوا من يريد الدنو منه والتزول عليه ولما قرب صلاح الدين زحف فرحاً الى القدس الامير جمال الدين شروين بن حسن الزرزاري فقبله فريق من الصليبيين كان قد خرج للاستطلاع فقاتله ليلا في موضع يعرف بالقيبات فاستشهد رحمه الله ولما علم بذلك صلاح الدين اسرع بالمسير ونزل على القدس في منتصف رجب سنة ٥٩٢ هـ بالجانب الغربي وكان مشحوناً بالمقاتلة من الفرسان والرجال ثم انتقل الى الجهة الشمالية نحو باب عمودا وكنيسة صهيون في عشرين منه ونصب تلك الليلة المنجنقيات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الصليبيون على السور منجنقيات ورموا بها وقتلوا أشد قتال لان كل واحد من الفريقين كان يرى ذلك القتال دينياً وحثماً واجباً فلا يحتاج فيه الى امر سلطاني وكانت فرسان الصليبيين تخرج كل يوم الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل خلق كثير من الفريقين ومن استشهد من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وأبوه صاحب قلعة جعبر وكان عز الدين يباشر القتال كل يوم بنفسه فقتل وكان محبوباً عند الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم فحملوا حمله رجل واحد فازالوا الصليبيون عن مواقفهم وادخلوهم بلدهم وزحفوا الى الخندق فاجتازوه ووصلوا الى السور فقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنقيات ترمى دراكاً وتمكن النقبابون من عملهم ولما علم الصليبيون انهم قد اشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم للمشاورة فيما يفعلون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبارهم واعيانهم في طلب الامان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم بهله المسلمين حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ هجرية من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين

ارسل باليان دي ايبالين رئيسهم العسكري وطلب الامان لنفسه ليحضر الى السلطان
 صلاح الدين في هذا الامر فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه
 فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف فلما يتس من ذلك قال له أيها السلطان
 اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله انما هم يقترون عن القتال
 رجاء الامان ظانين انك تجيهم اليه كما اجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون
 في الحياة فاذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا
 وامتعتنا ولا نترككم تعتنون منها ديناراً واحداً ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا
 ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخبرنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرها من المواضع
 ثم تقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة
 أو حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه
 ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل امثاله ونموت اعزاء او نظفر كراماً
 فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجعوا على اجابتهم الى الامان والا يخرجوا ويحملوا على
 ركوب ما لا يدري عاقبة الامر فيه عن أي شيء تنجلي وقالوا نحسب انهم اسارى
 بايدينا فنبعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان
 للصليبيين فاستقر ان يؤخذ عن الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ومن
 كل طفل من الذكور أو الاناث دينارين ومن كل امرأة خمسة دنانير فمن
 أدى ذلك الى أربعين يوماً فقد نجا وان انقضت الاربعون يوماً عنه
 ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فاجيب الى ذلك وسامت المدينة يوم الجمعة
 السابع والعشرون من رجب سنة ٥٨٣ هـ أي في صباح ليلة المعراج وكان يوماً
 مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوار المدينة ورتب صلاح الدين على أبواب
 البلد في كل باب أميناً من الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا
 الحياة ولم يحفظوا في عملهم الامانة واقتسم الامناء الاموال ولو أدت كلها للملأ
 الخزان لان المدينة كانت مملوءة لكثرة ما اجتمع فيها من عسقلان والداروم
 والرملة وغزه وغيرها ودفع باليان ثلاثين الف دينار وبقي بعد ذلك من لم يكن
 معه ما يعطي وأخذ أسيراً نحو ستة عشر الف ما بين رجل وامرأة وصبي ثم قام جماعة
 من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس
 فكان يطلق ويأخذ هو قطيعتهم واحتال آخرون بان البسوا الصليبيين زي
 الجند المسلمين وأخرجوهم وأخذوا منهم قطعة قرروها واستوهب جماعة من

صلاح الدين عدداً من الصليبيين فوجههم لهم فاخذوا قطيعتهم ولم يصل خزان
السلطان الا القليل وكان بالقدس الملكة سيلا زوجة الملك غوي الماسور وزوجة
البرنس رانود وغيرهم من نساء مقدمي الصليبيين فاطلقهم بخدمهم وحشمهم
واستأذنته الملكة سيلا في المسير الى زوجها الملك غوي وكان محبوساً بقلعة نابلس
فاذن لها فوجهت اليه وأقامت عنده وأتته امرأة البرنس رانود وطلبت اطلاق
ولد لها محبوس في الاسر فقال لها صلاح الدين ان سلمتي لي قلعة الكرك أطلقته
فوجهت الى الكرك فلم يرض الصليبيون الذين بها تسليمها فلم يطلق ولدها وخرج
البطريرك الاورشليمي ايراكلوس يتبعه الاكليروس ومعهم الاواني المقدسة مع خزنة
كنيسة قبر المسيح وغيرها وكان له من المال كثير فقيل للسلطان ان يأخذ ما معه
فقال لا أعذر به وسير الجميع مع من يحميمهم الى مدينة صور وكان هذا اليوم يوم
فرح وافتخار لحيش المسلمين فنقاطر الشعراء من سائر الأنحاء لتهنئة السلطان
صلاح الدين بما أناه الله من الفتح ونظموا القصائد وألقت الخطب وسالت أقلام
الكتاب وفاضت قرائحهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر ويحرض واما شاعراً
يحمد الله ويمدح الفتح أو مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لحيش الاسلام
وقد أشار العماد في قصيدة طويلة الى ذلك منها

قل للمليك صلاح الدين أكرم من	يمشي على الارض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى	صور فان فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لب	وابعث الى ليل انطاكية العسسا
واخل ساحل هذا الشام أجمعه	من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً	فانهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى	تقصد طرابلسا فانزل على قدسا

وقال أبو الحسين بن حبيب الاندلسي من قصيدة

هو الفاتح البيت المقدس بعد ما	تحامته سادات الدنا ومسودها
فضيلة فتح كان ثاني خليفة	من القوم مبيدتها وأنت معيها

وقال الرشدي بن بدر النابلسي من قصيدة طويلة

هذا الذي كانت الآمال تنتظر	فديوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذالفتح لا والله ما حكيت	في سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به جان هلك المشركين فيا	لله طيب العشايا منه والبكر

الآن قرت جنوب في مضاجعها ونام من لم يزل حلقاً له السهر
 يابهجة القدس إذ أضحى به علم الاسلام من بعد طي وهو منتشر
 وقال نثر الكتاب ابو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من اهل بغداد
 هذه القصيدة في الفتح وهي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهلهم له تسعين عاماً
 حتى تجرد له صلاح الدين نذكر منها ما يأتي

جند السماء لهذا الملك أعوان	من شك فيهم فهذا الفتح برهان
مترأى الناس ماتحكيه في زمن	وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الانبياء وما	له سوى الشكر بالافعال اثمان
أنحت ملوك الفرنج الصيدي يده	صيدا وماضعفوا يوماً وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم	خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طراباس	نخام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الاسلام	يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ واليا	سلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم	بامر من هو للمعوان معوان
لناصر ادخرت هذه الفتوح وما	سمت لها همم الاملاك مذ كانوا
حياه ذوالعرش بالنصر العزيز قفا	ل الناس داود هذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلماً	فظهرت منه اقطار وبلدان
فاين مسامة عنها واخوته	بل أين والدهم بل أين مروان
وعد عما سواه فالفرنجة لم	يبدهم من ملوك الارض انسان
لو ان ذا الفتح في عصر النبي لقد	نزلت فيه آيات وقرآن
ياقبح اوجه عباد الصليب وقد	غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند اله العرش سائر ما	ملكته وملوك الارض خزان
فالله يبيك للاسلام تحرسه	من ان يضام ويلقى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة	فالكفر في سنة والنصر يقظان
يا جامعاً كلمة الايمان قانع من	معبوده دون رب العرش صلبان
اذا طوى الله ديوان العباد فما	يطوى لاجر صلاح الدين ديوان

﴿ اظهار محراب المسجد الاقصى والصخرة المقدسة ومحراب داود ﴾

لما دخل السلطان صلاح الدين بيت المقدس في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ

كما تقدم لم يتمكن من اقامة صلاة الجمعة في هذا اليوم لان الصليبيين كانوا قد بنوا على محراب المسجد الاقصى مخزناً للجلال وبنيت جمعية الهيكلين غربيه داراً كبيرة لسكنائها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من مراحيض وغيره فامر السلطان بازالة جميع ما أحدثوه من المباني وكان على رأس قبة الصخرة المقدسة صليب كبير مذهب فتسلق جماعة من المسلمين الى أعلى القبة وأنزلوه فهتف المسلمون بالتكبير والتهليل وكان الصليبيون قد بنوا عليها بناية وذلك ان البطاركة والقسوس كانوا يقطعوا منها ما يبيعونه للملك اوروبا تبركا بها فشفق عليها أحد ملوكها وبنى عليها لعدم مسها فامر السلطان بازالة ما عليها من المباني أيضاً وأمر بتطهير ذلك جميعه وكان السلطان يكنس بيده وبعد الفراغ من كنس الصخرة والمسجد الاقصى أمر بغسلها بالماء مراراً ثم غسلها بنفسه بماء الورد وأمر باطلاق البخور عليها ثم فرش المسجد ومحل الصخرة بالبسط الفاخرة وأمر باعمال منبر من خشب لتأدية صلاة الجمعة القابلة ريثما يصل المنبر الذي كان قد أمر بصنعه الملك العادل محمود نور الدين أتاك لوضعه بالقدس لانه كان عازماً على فتحه ومات ولم يتم ما عزم عليه فامر بوضعه في حلب .
وأما محراب داود عليه السلام فانه كان خارج المسجد الاقصى في حصن منيع عند باب المدينة وموضع عال رفيع وهو الحصن الذي يقيم به الوالي فرتب السلطان له اماماً ومؤذنين وقواماً وهو مثابة الصالحين ومزار الغادين والراحمين فاحياه وجدده وأمر بعمارة جميع المساجد وفي يوم الجمعة التالي الموافق ٤ شعبان عزموا على اقامة صلاة الجمعة فاستعدت العلماء والخطباء وكل منهم يطلب ان يكون هو الخطيب ليحصل له الشرف العظيم ولما قربت الصلاة أمر السلطان القاضي محي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بان يحطب ويصلي بالمسلمين وخلع عليه خلعة سوداء من تشريفات الخلافة فصعد المنبر وتلا الخطبة الآتية

﴿ أول خطبة بالمسجد الاقصى بعد فتحه ﴾

افتتح الخطبة بآيات الحمد الواردة بالقرآن الشريف بعد البسملة ثم قال الحمد لله معز الاسلام بنصره . ومذل الشرك بقرهه . ومصرف الامور بامرہ . ومديم النعم بشكره . ومستدرج الكافرين بمكره . الذي قدر الايام دولاً بعدله . وجعل العاقبة للمتقين بفضله . وافاه على عباده من ظله . وأظهر دينه على الدين كله . الفاهر فوق عباده فلا يمانع . والظاهر على خليفته فلا يتنازع . والأمر بما يشاء فلا يراجع . والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمده على انظاره واطهاره .

واعزازة لاوليائه ونصره لانصاره . وتطهير بيته المقدس من ادناس الشرك
واوضاره . حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره . واشهد ان لا اله الا
الله وحده لا شريك له الاحد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً
أحد . شهادة من طهر بالتوحيد قلبه . وأرضي به ربه . وأشهد أن محمداً صلى
الله عليه وسلم عبده ورسوله . رافع الشك . وداحض الشرك . وراحض الافك .
الذي أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الاقصى . وعرج به منه الى
السموات العلى . الى سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى .
ما زاغ البصر وما طغى . صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق الى
الايمان . وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اول من رفع عن هذا البيت شعار
الصلبان . وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن . وعلى أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب منزل الشوك ومكسر الاوثان . وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم
باحسان . أيها الناس ايشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى . والدرجة العليا .
لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة . من الامة الضالة . وردھا الى
مقرها من الاسلام . بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام . وتطهير
هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وان يذكر فيها اسمه . واماطة الشرك عن طريقه .
بعد ان امتد عليه رواقه . واستعمر فيه رسمه . ورفع قواعده بالتوحيد . فانه بني
عليه . وبالتقوى فانه أسس على التقوى . من خلفه ومن بين يديه . فهو موطن أبيكم ابراهيم
ومعراج نبيكم محمد عليه السلام . وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام . وهو مقر
الانبياء . ومقصد الاولياء . ومقر الرسل . ومهبط الوحي . ومثل نزل الامر والنهي .
وهو في أرض المحشر . وصعيد المنشر . وهو في الارض المقدسة التي ذكرها الله في
كتابه المبين . وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة
المقربين . وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله . وكنتم التي القاها الى مريم . وروحه
عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته . ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته . فقال
تعالى . لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله . وقال لقد كفر الذين قالوا ان الله هو
المسيح بن مريم . وهو اول القبليتين . وثاني المسجدين . وثالث الحرمين . لا تشد الرحال
بعد المسجدين الا اليه . ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين الا عليه . ولولا انكم ممن
اختاره الله من عباده واصطفاه . من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة . التي لا يجاريكم
فيها مجار . ولا يباريكم في شرفها مبار . فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات

النبوية . والوقعات البدرية . والعزيمات الصديقية . والقنوح العمرية . والجيوش العثمانية .
والفتكات العلوية . جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية . والمنازلات
الخيرية . والهجمات الخالدية . فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم افضل
الجزاء . وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الاعداء . وتقبل منكم ما
تقربتم به اليه من مهراق الدماء . واثابكم الجنة فهي دار السعداء . فأقدروا رحمكم
الله هذه النعمة حق قدرها . وقوموا لله تعالى بواجب شكرها . فله النعمة عليكم
بتخصيصكم بهذه النعمة . وترشيحكم لهذه الخدمة . فهذا هو الفتح الذي فتحت له
أبواب السماء . وتباعدت بأنواره وجوه الظلماء . وابتهج به الملائكة المقربون . وقر
به عينا الانبياء المرسلون . فإذا عليكم من النعمة بان جعلكم الجيش الذي يفتح عليه
البيت المقدس في آخر الزمان . والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة
أعلام الايمان . فيوشك ان تكون التهاني به بين أهل الحضراء . أكثر من التهاني
به بين أهل الغبراء . ليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه . ونص عليه في
خطابه . فقال تعالى سبحانه الذي أسرى بعبد ليلا من المسجد الحرام الى المسجد
الاقصى الذي باركنا حوله الآية ليس هو البيت الذي عظمته الملوك . واثنت عليه
الرسول . وتليت فيه الكتب الاربعة المنزلة من الهكم عز وجل . ليس هو البيت
الذي امسك الله عز وجل الشمس على يوشع لاجله ان تغرب . وابعدي بين خطواتها
ليتيسر فتحه ويقرب . ليس هو البيت الذي أمر الله موسى ان يأمر قومه باستنقاذه
قلم يجهبه الا رجالان . وغضب عليهم لاجله فاقاهم في السية عقوبة لامصيان . فاحمدوا
الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنوا اسرائيل . وقد فضلهم على العالمين
ووقفكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الامم الماضيين . وجمع لاجله كلمتكم وكانت
شقي . واغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحق . فليهنئكم ان الله قد ذكركم به
في من عنده . وجعلكم بعد ان كنتم جنوداً لاهوائكم جنده . وشكركم الملائكة
المنزولون . على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد . ونشر التقديس
والتحميد . وما أمطم عن طرقتهم فيه من اذى الشرك والتثليل . والاعتقاد
الفاجر الخبيث . فالآن يستغفر لكم أملاك السموات . وتصلي عليكم الصلوات
المباركات . فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم . واحرسوا هذه النعمة عنكم
بتقوى الله التي من تمسك بها سلم . ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم . واحذروا
من اتباع الهوى . وموافقة الردى . ورجوع القهقري . والنكول عن العدا .

وخذوا في انتهاز الفرصه . وازالة ما بقي من الغصه . وجاهدوا في الله حق جهاده .
 وبيعوا عباد الله انفسكم في رضاه . اذ جعلكم من خير عباده . واياكم ان يستذلكم
 الشيطان . وان يتداخلكم الطغيان . فيخيل لكم ان هذا النصر بسيف فكم الحداد .
 وبخيولكم الحياض . وبجلادكم في مواطن الجلاد . لا والله ما النصر الا من عند الله ان
 الله عزيز حكيم . واحذروا عباد الله بعد ان شرفكم بهذا الفتح الجليل . والمنح
 الجزيل . وخصكم بهذا الفتح المبين . وأعلق أيديكم بحبله المتين . ان تقترفوا
 كبيراً من مناهيه . وان تأتوا عظيماً من معاصيه . فتكونوا كالتي تقضت غزها من بعد
 قوة انكاثا . والذي آتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .
 والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم . وأشرف عاداتكم . انصروا الله ينصركم
 اذكروا أيام الله يذكركم . اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا في حسم الداء .
 وقطع شافة الاعداء . وتطهير بقية الارض التي اغضبت الله ورسوله . واقطعوا
 فروع الكفر واجتثوا أصوله . فقد نادت الايام بالثارات الاسلامية . والملة المحمدية
 الله اكبر فتح الله ونصر . غلب الله وقهر . اذل الله من كفر . واعلموا رحمكم
 الله ان هذه فرصة فاتهزوها . وفريسة فتناجزوها . ومهمة فاخرجوا لها هممكم
 وابرزوها . وسيروا اليها عزماتكم وجهزوها . فالامور بأواخرها . والمكاسب
 بذخايرها . فقد أظفركم الله بهذا العدو المخدول . وهم مثلكم أو يزيدون . فكيف
 وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون . وقد قال الله تعالى . ان يكن منكم
 عشرون صابرون يغلبون مائتين . أعلننا الله واياكم على اتباع أوامره . والازدجار
 بزواجره . وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده . ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان
 يخذلكم فن ذا الذي ينصركم من بعده .

وتتم الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة وقال بعد الدعاء للخليفة
 اللهم وأدم سلطاننا . عبدك الخاضع لهيبتك . الشاكر لتعمتك . المعترف بموهبتك
 سيفك القاطع . وشهابك اللامع . والحامي عن دينك المدافع . والذاب عن حرمك
 المانع . السيد الاجل الملك الناصر . جامع كلمة الايمان . وقامع عبدة الصليبان . صلاح
 الدنيا والدين . سلطان الاسلام والمسلمين . مطهر البيت المقدس . ابا المظفر يوسف بن
 أيوب . محيي دولة أمير المؤمنين . اللهم عم بدولته البسيطة . واجمل ملائكتك برآياته
 محيطة . واحسن عن الدين الحنيفي جزاءه . واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه .
 اللهم ابق للاسلام مهجته . ووق للايمان حوزته . وانشر في المغارب والمشارك

دعوته اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد ان ظنت الظنون . وابتلي
المؤمنون . فافتح على يده أداني الارض وأقاصيها . وملكه صياحي الكفر ونواصيها .
فلا تلقاه منهم كتيبة الا مزقتها . ولا جماعة الا فرقها . ولا طائفة بعد طائفة الا
ألقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم نسعيه . وانفذ في المشارق
والمغرب أمره ونهيه . اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها . وأرجاء الممالك
واكنافها . اللهم زلزل به معاطس الكفار . وارغم به انوف الفجار . وانشر ذوائب
ملكه على الامصار . وأتب سرايا جنوده في سبل الاقطار . اللهم ثبت الملك فيه وفي
عقبه الى يوم الدين . واحفظه في بنيه وبني أيوب الملوك الميامين . واشدد عضده ببقائهم .
واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده في الاسلام . هذه الحسنة
التي تبقى على الايام . وتتخذ على مر الشهور والاعوام . فارزقه الملك الابدي الذي
لا ينفذ في دار المتقين . وأجب دعاءه في قوله رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي
انعمت عليّ وعلى والديّ وان أعمل صالحاً ترضاه وادخاني برحمتك في عبادك
الصالحين

﴿ حصار مدينة صور وفتح هونين ﴾

لما فتح السلطان صلاح الدين القدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من
شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وجعل دار الاسبتارية (جمعية القديس ماري يوحنا
المعمدان) مدرسة للاشافية وهي حسنة جداً ثم سار الى مدينة صور وكان قد
اجتمع بها من الصليبيين عالم كثير لان الصليبيين أهل عسقلان والقدس وغيرهم
لما سلموا بلادهم وأخذوا الامان ساروا الى صور وكان قد جاءها كوراد بن
المركز منثفات بسفنه وتسميه العرب المركيس فاقام حاكماً بها وحصنها كل التحصين
ووصل صلاح الدين الى عكا وأقام بها أياماً ثم سار الى ان وصل الى صور تسع
رمضان فنزل على نهر قرب البلد حتى اجتمع العسكر الاسلامي فلما علم
كوراد بقدوم صلاح الدين الى بلده أخذ يحدد التحصين ويعمق الخنادق ومدينة
صور واقعة على رأس ممتد في البحر فكانت محاطة بالمياه من ثلاث جهات ومتصلة
بالبر من جهة واحدة ثم سار صلاح الدين في الثاني والعشرين منه الى تل
يقارب سور البلد وقسم القتال على عساكره وجعل لكل أمير من امرائه وقتاً
يحارب فيه بعسكره لكي تكون الحرب متصلة دواماً على اهل البلد وكان موضع
القتال قريباً ويكفيه جماعة للمجاربة فقط فزحفت العساكر الاسلامية بالمتجنقات

والديابات وكان اهل صلاح الدين متولين الحرب مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه نقي الدين وكانت للصليبيين شوان يحاربون بها كي يمنعوا العساكر الاسلامية من محاربة البلد فارسل صلاح الدين يطلب الشواني التي بعكافارسلت اليه وعددها عشر برجالها فلما وصلت منعت شواني العدو من مقاتلة المسلمين فتمكن حينئذ المسلمون من الدنو من البلد ومن قتاله فقاتلوه برأ وبجرأ وضايقوه حتى كادوا يظفرون نجاءت الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان عبد السلام المغربي مقدم شواني المسلمين الموصوف بالحدق في صناعته وشجاعته وقف على باب المينا في ليلة لمنع خروج شواني العدو فباتوا ليلتهم يحرسون فلما كان وقت السحرا منوا فناموا فما شعروا الا بشواني الصليبيين قد نزلتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتل الصليبيون من أرادوا قتله وأخذوا خمس شوان من المسلمين بما فيها وأدخلوها مينا صور والمسلمون في البر ينظرون اليها ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر فمنهم من سبح فنجوا ومنهم من غرق وأسر المقدم عبد السلام ومثوله بدران الفارسي وأمر السلطان بمسير الشواني الباقية الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فخرجت شواني الصليبيين وراءها فنجما منها شيني رئيس جيل والباقون نظروا شدة طلب العدو لهم فالتقوا انفسهم في الماء وخرجوا الى البر على وجوههم وبعد هذا طمع الصليبيون فخرجوا عصر أحد الايام للقتال فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الصليبيين وأسر أحد مقدميهم وظن انه كوزراد فسلمه السلطان الى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم ان كوزراد لا يزال حياً ثم طال الحصار حتى ضجر كثير من امراء المسلمين لانهم رأوا ما لم يألفوه من تعسر الفتح عليهم فاشاروا على السلطان بالرحيل لثلاثي الرجال وكان البرد قد اشتد عليهم وكان رأي السلطان وبعض الامراء كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعز الدين جرديك النوري الثابت الجبان الى الفتح لثلاثي يضيع ما تقدم من الاعمال وانفاق الاموال وقال السلطان قد هدمنا السور وقاربنا الامور فاصبروا فلهجوا واصابروا تقصحوا ولا تعجلوا فانظروا الموافقة وفي انفسهم ما فيها فلم يصدقوا القتال وتعلموا بان الرجال جرحى والعلف قد قل فلم يسع السلطان بعد ذلك الا الرحيل فامر بنقل الاتقال فحمل بعضها الى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لثلاثي يناله العدو وفي اثناء حصار السلطان لصور جاءه الخبر بان الصليبيين المقيمين في هونين قد طلبوا الامان فانفذ الامير بدر الدين

دلرم ففتحها وأخرج الصليبيين منها وكان السلطان قبل ذلك قد وكل عليها بعض
العسكر لمحاصرتها ورحل السلطان عن مدينة صور في آخر شوال وسار تقي الدين
الى دمشق عن طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل
والجزيرة وسنجار وماردين ورحل السلطان الى عكا من طريق الناقورة وهي
طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب المثل لا يعبر بها الا جمل جمل فعبرت بها
الاثقال والاحمال في اسبوع وكان قد عين يوم رحيله امرء يقيمون على صور
الى أن تعبر الاثقال وخيم السلطان عند التل وسار العادل الى مصر والظاهر الى
حلب وفي مدة رحيل السلطان توفي الامير سيف الدين محمود أخو عز الدين
جاولي وسبب ذلك انه كان باقياً من اعمال الصليبيين حصان بدون فتح وهما حصن
صفد وفيه الداوية (الهيكلين) وحصن كوكب وفيه الاسبتارية (جمعية ماري
يوخنا المعمدان) واحتاج السلطان في فتحهما الى المطاولة فوكل بحصن صفد جماعة
يعرفون بالناصرية ومقدمهم مسعود الصائقي ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين
فاقام في حصن عقربلا وهو قريب من حصن كوكب ومنع عن المقيمين فيه المطعم
والمشرب وضيق عليهم المذهب الى ان دخل الشتاء فاخذت الحراسة فلما كانت
ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة حرس اصحاب سيف الدين حتى ضجروا فغلغلم
التعاس فما استيقظوا الا وافرنج كوكب عليهم باركة فدافعوا عن انفسهم حتى استشهدوا
وأخذ الصليبيون غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب

﴿ في التحريض على طاب الحروب الصليبية الثالثة ﴾

بينما كان البابا أوربانوس الثالث موجوداً في مدينة البندقية مشدداً في تحريض
أهل البندقية على سرعة تجهيز عمارة مراكب المشيخة وارسالها الى فلسطين
اسعافاً لآخواتهم الصليبيين بلغه خبر سقوط مدينة اورشليم (القدس) في ايدي
صلاح الدين سلطان المسلمين فسقط طريق الفراش مريضاً ولما اشتد مرضه انتقل
الى مدينة فرارا فمات هناك ثم تعين بعهده البابا غرغوريوس الثامن وبعد تعيينه
حضر بين يديه غويليوم الصوري رئيس اساقفة صور وراى على قدميه وطلب
منه المساعدة التامة في تسيير حملة صليبية لاسترداد القبر المقدس من ايدي المسلمين
فاصدر البابا منشوراً عاماً لسكان أوروبا أوضح لهم فيه عظم ما ألم بالصليبيين
اخواتهم وخصوصاً املاك المسلمين مدينة القبر المقدس وقد جاء في هذا المنشور
ما يأتي (انه لقد جاء الزمان الذي فيه يصير الامتحان والحين الذي فيه نستخدم

خزائن الارض وكنوزها لاجل اكتساب البلاد جديداً التي مات فيها يسوع المسيح لكي يكتسب لنا بموته خزائن السماء وكنوزها والاوران الذي فيه تسبح الخيرات الزائلة لاجل امتلاك الخيرات الدائمة) ثم انه اختتم منشوره المذكور بقوله (غير انكم لا تسيرون الى هذه الحروب الصليبية بانواب فاخرة وملابس ثمينة آخذين صخبكم الطيور والبواشق والكلاب للصيد بل تجنّبوا كل ما يشير الى السعة ولا يفيد سوى البذخ والمجد الباطل واحتشموا في محاميلكم أولى من اهتمامكم بما يرجع الى الفخفخة والصلف ثم أظهروا باعمالكم حقائق روح التوبة والخشوع) وبعد تحرر هذا المنشور لم يتمكن البابا من اعمال الوسائط اللازمة لارسال حملة صليبية ثالثة لانه اعتراه مرض في مدينة (بيزا) ومات وتعين بعده البابا اكليمينضوس الثالث الذي بعد تعيينه اناب عنه في التحريض على ذلك رئيس اساقفة صور المذكور وفوض اليه الانذار بهذه الحرب المقدسة وبعد ذلك اخذ الاسقف غويليوم الصوري المذكور يخطب في أهالي ايطاليا ويحرضهم على التجهيز لاسترداد القبر المقدس ثم اسرع الى بلاد فرانساً منهضاً غيرتهم الشهيرة

﴿ صاح فرانساً وانكلترا وتحريضهم على الحروب الصليبية ﴾

بينما كان الملك فليب أوغسطس ملك فرانساً يحارب الملك هنريكوس الثاني ملك انكلترا لاجل تملك بند فاكسين حضر غويليوم الصوري لتحريضهم على الحروب الصليبية فوجدهم على هذه الحالة فسعى بينهما في الصلح حتى انه كلفهما باصدار أمر بعقد جمعية عمومية من الجيشين في فرانساً للمفاوضة في الحروب المقدسة وبعد انعقاد تلك الجمعية التي حضرها ضباط الجيشين قوبل غيليوم باحتفال ديني عظيم ثم أخذ يشرح لهم حوادث حروب المسلمين وكيفية استيلائهم على القدس وان هذه المدينة صارت الآن مسكونة بشعب بربري وانها تدفع الخراج والحزبة تحت رقب العبودية وان سكانها المسيحيين والصليبيين مساقون كالغنم الى بلاد الاسلام يباعون في الاسواق كالعبيد ثم قال ما يأتي: ان امارات المشرق المسيحية بقيت صامدة على ثلاث مدن فقط وهي انطاكية وطرابلس وصور لاغير ونحن قد شاهدنا باعيننا ما كان قد فاه به اشعيا النبي بقوله ان الرب قد مد يده وضرباته بالقروح من حد نهر الفرات الى حد نيل مصر لان سكان أربعين مدينة قد طردوا من مساكنهم وفقدوا خيراتهم وموجوداتهم المحتطفة منهم وساروا تاهبين مع عيالهم بالشقاء والضعف فيما بين شعوب اسيا خالين من ان يجردوا لهم حجراً

يسندون اليه رؤوسهم . ثم تلاع عليهم منشور البابا فحذب قلوب سامعيه الى الغيرة والحرارة كما ان فليب أوغسطس ملك فرانسوا وهنريكوس الثاني ملك انكلترا تعانقا وتقدما قبل الجمع واستلما صليب الحرب المقدسة ثم تبعهم ريكارد دوكد دي غونيانا ابن السلطان اريكوس ثم فيلبس كونت دي فلاندر او هو كوز دوكد دي يرغونيا وهنريكوس كونت دي شامبانيا وتيبوت كونت دي بلواز ومثلهم امراء سواسون وناقار وباروفاندوم وأقسم الاخوان يوسالين ومتي دي هورانسى على تخليص اورشليم (القدس) من أيدي المسلمين ثم هتف أعضاء هذه الجمعية صارخين هلموا نحو الصليب . فلنذهبن وراء الصليب . وشرعوا جميعاً في التجهيزات للمسير للحروب الصليبية

﴿ ضريبة العشور للحروب الصليبية الثالثة ﴾

لما شرع كل من ملك فرانسوا وملك انكلترا في اعداد معدات السفر للحروب الصليبية وجدوا ان ذلك يحتاج لاموال عظيمة ففقدوا مجلس شورا هم الذي قرر باتحاد اراء الملكين والامراء والاشراف بان كل من لم يرغب السفر للحروب الصليبية او تعذر عليه السفر يدفع عشر مداخيله مع عشر ثمن موجوداته المنتقلة (لا الثابتة) وقد سموها (ضريبة العشور الصلاحية) رمزا الى انتصار السلطان صلاح الدين عليهم وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفع هذه الضريبة وعينوا لجمعها اناساً اقتضواها بصرامة كلية غير ان الاموال المجموعة من ضريبة العشور الصلاحية لم تكن كافية لهذه الاستعدادات ولذلك اكره ملك فرانسوا اليهود على ان يدفعوا الى الخزينه مبلغ خمسة آلاف وزنه فضة (كل وزنه تساوي مائة درهم)

﴿ موت ملك الانكليز وتولية ولده ريكاردوس وذبح اليهود ﴾

في اثناء تلك الاستعدادات مات الملك هنريكوس الثاني ملك انكلترا ثم حضر ابنه ريكاردوس الى بلاد الانكليز لاستلام زمام الملك وأخذ يشغل في اكتساب الفخر باسترجاع القدس ولذلك ترى ان أول أمر سعى اليه عند استلامه مقاليد الاحكام انما هو جمع النقود استعداداً للحملة الصليبية فبذل في سبيل ذلك كل تليد وطارف واستخدم كل وسيلة ممكنة حتى انه باع طاعة الاسكوتلانديين الذين أخضعهم أبوه بمبلغ عشرة آلاف ميرك (الميرك نقود اسكوتلاندية قديمة يساوي

الواحد منها ثلاثة ريات مصرية تقريباً) ثم طلب الاموال من أغنياء البلاد وصيارفها واكثرهم من اليهود وحدث ان اليهود سيقوا من فرانسوا بعضا الاضطهاد فالتجأوا الى انكلترا وكان وصولهم اليها يوم تنصيب ريكاردوس فنارت عليهم رعا على الناس يدعوى ان الملك أمر بذبجهم فدارت عليهم رحى الموت حتى جرت دماؤهم في الاسواق والتجأ منهم نحو خمسمائة الى قلعة بورك بنسائم واولادهم فضيق عليهم أهل المدينة فالتمسوا ان يقبلوا منهم الفدية فما ارادوا فاشتد غيظ اليهود وقطوا من الحياة فاحرقوا كل ما كان لديهم من الاموال والمتاع والحلى وفضلوا ان يقتل بعضهم بعضاً من ان يقتلهم عدوهم فقتلوا اولادهم بايديهم ثم أخذوا يقتل احدهم الآخر وبقيت منهم بقية استقلوا وفتحوا ابواب القلعة فدخل اليهم بعض الرعا الثأرين وقتلوه وحصل مثل ذلك أيضاً في نوريش وستامفورد وليكون وغيرها وكل ذلك حصل بغير ارادة الملك فعاقب المعتدين عقاباً طفيفاً وأمن من بقي من اليهود وجعلهم تحت حمايته فلما اهتم باعداد الحملة الصليبية طلب مساعدتهم فامدوه بالمال

﴿ التحريض على الحروب الصليبية ببلاد النمسا ﴾

بعد ما عزم كل من ملك فرانسوا وملك انكلترا على السفر الى بلاد فلسطين سافر غويليوم الصوري المفوض بانذار الحروب الصليبية من قبل البابا الى بلاد النمسا وقابل ملكها فريدريكوس الاول الملقب باللحية الحمراء وكان بينه وبين كرسي البابا بعض ضغائن فازالها ثم طلب منه المساعدة في تخليص بيت المقدس من يد المسلمين فامر في الحال بعقد جمعية في ماينانص وفي هذه الجمعية لبس الاثواب المكرسة المختصة بالحروب الصليبية ثم اقتدى به أعظم أمراء مملكته وكذلك جميع كنائس المانيا أثرت فيها خطب غويليوم الصوري فاستعدوا للسفر برئاسة ملكهم المذكور وبما ان الملك فريدريكوس كان عرف بلاد فلسطين في الحروب الصليبية الثانية اذ كان مع عمه الملك كونراد الذي رجع بخفي حنين وعرف ما يلزمه من الجيش وما يحصل له من المشقة والتعب خاف من نيات افراد العساكر الصليبية في اثناء سيرهم فلذلك قرر بانه لايقبل تحت علمه الصليبي احداً من الراغبين في السفر الا اذا كان معه على الاقل ثلاث وزنات فضة وذلك بعد انعقاد جمعية في مدينة نورامبارك فلذلك امتنع عن السفر الاشقياء الذين كانوا يفرحون بسفرهم لنهب في الطريق وعزم على ان يكون مسيره برأ

﴿ في اتحاد فرنسا وانكاته للمسير الى سوريا ﴾

اجتمع الملكان فليس وريكاردوس بمدينة نورمنديا واقفا على تهذيب العساكر وابعاد كل الرذائل عنها فاصدرا امراً بمنع النساء من السفر صحبة العساكر لان وجودهن في وسط العسكر في الدفتين السابقتين اخل انتظام العساكر وامر ايضاً بعدم لعب القمار وجمعها عساكرها تحت علم الصليب في مدينة فاسلاي حيث كان القديس برزدوس (الذي كان محرصاً على الحروب الصليبية الثانية) وجددا تحالفهما على يديه وتواعدا على المسير الى سوريا وان يسافر ريكاردوس الى مرسيليا ثم ينزل في المراكب وان فليس يسافر الى جنوبي ثم يتقابلان معاً بميناميسنا بجزيرة سيسيليا

﴿ حصر حصن كوكب وفتح بعض البلاد ﴾

في اوائل محرم سنة ٥٨٤ سار السلطان من عكا بمن بقي معه من العساكر الى قلعة كوكب فحصرها ونازلها ظاناً ان تملكها سهل فلما رآها عالية منيعة والوصول اليها متعذر وجنوده مشغلة بها وبصفد والكرك رحل عنها وكانت البلاد الساحلية من عكافا وراها جنوباً جميعها قد اصبحت ملكة فلم ير ان يظل في وسط بلاده ما يشغل قلبه ويحتاج الى حفظه وخوفاً من ان ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم فهذا اقام على كوكب بعدد رحيله قايمز النجمي ليديم حصارها ثم اناه بعض رسل ملوك المسلمين يهنئونه بالفتح وسار الى دمشق وكتب الى جميع عماله بالبلاد وجميع امراء الاسلام بخروج العساكر لمحاربة الصليبيين ثم رحل عن دمشق في منتصف ربيع الاول فنزل على بحيرة قدس غربي حصن فجاءته العساكر فسار حتى نزل على حصن الاكراد من الجانب الشرقي فاقام يومين وسار جريدة وترك العسكر في محله تحت الحصن ودخل بلاد الصليبيين فاغار على صافينا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد ووصل الى قرب طرابلس وابصر البلاد وعرف من أين يأتيها ومن أين يسلك منها ثم عاد الى معسكره سالماً وقد غنم العسكر كثيراً من الدواب على اختلاف انواعها وفي اثناء وجود السلطان تحت حصن الاكراد اناه قاضي جبلة وهو منصور ابن ثيبيل ليستدعيه اليه ليسلمها له وكان هذا القاضي عند بوهيموند صاحب انطاكية وجبله مسموع الكلمة له الحرمه الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها فحاملته

الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية
فسار صلاح الدين معه في الرابع من جمادى الاولى فنزل بانطرسوس في سادسه
فرأى الصليبيين قد اخلاها سكانها نخيم فيها السلطان وكانت الطريق الى جبلة ضيقة
ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وكان الداوية (جمعية
الهيكلين) باحدى البرجين فحصرها صلاح الدين فنزل من البرج الثاني وطلبوا
الامان فامنهم وسلموه وخرب البرج والتقى حجارته في البحر

﴿ فتح جبلة واللاذقية وغيرها وخبر اسطول صقلية ﴾

ثم رحل السلطان من انطرسوس في الرابع عشر من جمادى الاولى سنة ٥٨٤
ونزل على مرقية وقد اخلاها سكانها نخيم فيها السلطان وكانت الطريق الى جبلة ضيقة
المسالك وهناك لجمعية الاستتاريه (ضياف الغرباء) حصن اسمه المرقب ولا طريق
الاتحت تله ومما اتفق ان صاحب جزيرة صقلية أرسل اسطولا يحتوي على ستين
قطعة من الشواني كل واحدة منها مثل قلعة ولما وصل الاسطول الى ساحل
فلسطين امام طرابلس سمع بمسير السلطان فجاؤ ووقف في البحر تحت المرقب
ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما رأى السلطان ذلك أمر بالطاريقات والجفنيات فصفت
على الطريق مما يلي البحر من اول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة
فمنعوا الصليبيين من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق
ووصلوا الى جبلة في اليوم الثامن عشر من ذلك الشهر وتسلمها السلطان وقت
وصوله وكان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل السلطان رفع أعلامه على سورها
وتحصن الصليبيون الذين كانوا بها بالقلعة فزال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى
استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهائن منهم عنده الى ان يطلق الصليبيون رهائن
المسلمين الذين بانطاكية وكان قد أخذهم بوهموند من القاضي . ثم جاء مقدمو
الجبل مطيعين وكان في الجبل على طريق حماه حصن يعرف ببيكرائيل وكان
استعاده الجيليون من الصليبيين مندسين فسلمه السلطان أيضاً منهم ثم سلم جبلة
الى سابق الدين عثمان صاحب شيرز وبجل قاضي جبلة وحكمه في ولاية حكمه
وقضائه ثم سار الى اللاذقية فوصل في الرابع والعشرين منه فترك الصليبيون المدينة
لعجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون
المدينة وحصروا القامتين وزحفوا عليهما وتقبوا الاسوار ستين ذراعاً وأشعلوا فيها
النار وعظم القتال واشتد الامر عند الوصول الى السور فلما أيقن الصليبيون

بالعطب دخل اليهم قاضي جبلة يخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم السلطان ورفعت الاعلام الاسلامية على الحصنين وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول عليهما وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الابنية وأكثرها زخرفة مملوأة بالرخام على اختلاف انواعه ووصل اسطول صقلية بازاء ميناء اللاذقية فلما سلمها الصليبيون الى السلطان عزم من بالاسطول على أسر كل من يخرج منها غيظاً وحنقاً لانهم سلموها سريراً فلما سمع بذلك اهل اللاذقية أقاموا بها ودفعوا الجزية ثم طلب مقدم الاسطول مقابلة السلطان والامان له فأمنه وحضر بين يديه وقال ما معناه (انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالصليبيين ما فعلت فذلوا فتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والاجاءك من البحر ما لا طاقة لك به فيعظم عليك الامر ويشد الحال) فاجابه صلاح الدين بنحو كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وانهم ان خرجوا اذاقهم ما اذاق أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

فتح حصن صهيون وغيره من الحصون

ثم رحل السلطان عن اللاذقية في يوم الاحد ٢٧ جمادى الاولى سنة ٥٨٤ طالباً صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها صباح الاربعاء ونصب عليها ستة منجنقات وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها اودية هائلة واسعة عميقة وليس لها خندق محذور الا من جانب واحد وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ريبضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب فلما اقبلت العساكر الاسلامية وقع فاستبشرت بالنصر واشتد القتال عابها من سائر الجوانب فضرها من جنائيق الملك الظاهر ولد السلطان وكان نصبه أمام جهة قريبة من السور وكان الحجر صائباً فلم يزل يضرها حتى هدم من السور قطعة عظيمة ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف وركب وتقدم وتواترت المنجنقات بالضرب وارتفعت الاصوات وما كان الا ساعة حتى رقي المسلمون على أسوار الريبض واشتد الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الريبض وانضم من كان في الريبض الى القلعة بما امكنهم ان يحملوه من أموالهم ونهب المسلمون باقي الاموال واستدارت العساكر حول أسوار القلعة فلما رأى الصليبيون الهلاك استغاثوا بطالب الامان فأمنهم السلطان على أن يسلموا بانفسهم وأموالهم ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير وعن المرأة خمسة

وعن الصغير دينارين فسلمت القلعة وأقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيدو وبلاطس وقلعة الجماهريين وغيرها

﴿ فتح بكاس والشعر والسمرمانية وبرزية ﴾

ثم رحل السلطان حتى أتى بكاس وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ولها نهر يخرج من تحتها وكان النزول على ذلك الشاطئ يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ هـ فصعد السلطان بجريدة الى القلعة وهي جبل مطل على العاصي فاحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنقات والزحف المضيق الى يوم الجمعة تاسع شهره ففتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قلعة (تصغير قلعة) تسمى الشعر قريبة منها يعبر منها اليها بجسر وهي في غاية المنعة ليس اليها طريق فسلطت عليها المنجنقات من سائر الجوانب ورأوا أنهم لاناصر لهم فطلبوا الامان وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره وسأوه ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان انطاكية لانها تابعة لها فأذن في ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشره ثم عاد السلطان الى عسكره وسير ولده الظاهر الى قلعة تسمى سمرمانية يوم السبت سابع عشره فقاتلها قتالاً شديداً وضيقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة الثالث والعشرين منه ومن غريب الاتفاق ان فتوح الساحل من حيلة الى سمرمانية في أيام الجمع المتواليه وهذان نوادر الفتوح التي لم يتفق مثالا . ثم سار السلطان بجريدة الى قلعة برزية وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق تحيط بها اودية من سائر جوانبها فحاصرها وفي صباح الاحد الخامس والعشرين منه ركب عليها المنجنقات وآلات الحصار من سائر نواحيها وشد القتال وضرب أسوارها بالمنجنقات المتواترة ليلاً ونهاراً وظل يقاتلها حتى يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه فقسم العسكر ثلاثة أقسام كل قسم يقاتل شطراً من النهار ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر حتى لا يفتقر القتال ساعة واحدة وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه فلما ركب وسار عدة خطوات صاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن الا بضعة ساعة حتى رقي الناس على الاسوار وهجموا على القلعة فاحذوها عنوة وطلب من فيها الامان وقد ملئت الايدي منهم فلم يك ينفعهم أمانهم ونهب جميع ما كان فيها وأسر جميع من كان بها وكان قد أوى اليها

خلق عظيم وهذه القلعة من قلاعهم المشهورة ويوم أخذها كان يوماً عظيماً ثم عاد الناس إلى خيامهم غافلين وعاد السلطان إلى معسكره وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلاً كبيراً منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً فمن عليهم السلطان ورق لهم وانفذهم إلى صاحب انطاكية استماله له لانهم كانوا من ذوي قريبه وكانت هذه القلعة مقابلة لحصن اقاميا وتناصفا في أعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي وقد مدحه الشهاب قتيان الشاغوري بقصيدة منها

لما ملكت حصون انطاكية ينس الصليب وحزبه من مظهر
أردت كل مثلك متكبر بموحد متواضع ومكبر
برزت إلى برزية عزمتك التي مدت يداً عن مطلب لم يقصر
فتناولته بيدها من باذخ في الأفق ذي مثل يروع مسير
فأنهض لصور فهي أحسن صورة في هيكل الدنيا بدت لمصور
ما سور صور عاصم منه وهل سور المعاصم عاصم لمصور

﴿ فتح حصن دربساك وحصن بغراس ﴾

ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً ومنه سار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن رجب سنة ٥٨٤ هـ وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية فنزل عليها وقتلها قتلاً شديداً بالمنجنقات وضايقتها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ووقفت في الشجرة رجال يحمونها عن يصدفها وكان كلما قتل منهم رجل قام غيره مكانه وهم قيام عوض الجدار واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشتروا مراجعة انطاكية وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ورقى عليها العلم الإسلامي في يوم الجمعة ثاني عشر رجب وتسلمها بما فيها وسار السلطان إلى قلعة بغراس وهي قلعة منيعة أقرب إلى انطاكية من دربساك وكانت كثيرة العدة والرجال فنزل العسكر في مرج لها واحد ق العسكر بها واقام يرك لحفظها من ناحية انطاكية خوفاً من هجوم أهل انطاكية بضرب على بابها بحيث لا يمكن أحد الخروج منها ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان انطاكية ورقى العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان وتسلمها بما فيها من الأموال والذخائر والغلال وسلمها السلطان مع دربساك إلى علم الدين صاحب عزاز وفتح السلطان أبراج ومغارات وشققان كثيرة حتى خاض ذلك الأقليم

﴿ الهدنة ﴾ ورجوع السلطان عن انطاكية وفتح الكرك وصفد وكوكب ﴿

لما فتح السلطان بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها بخاف بوهموند صاحبها فارسى يطلب الهدنة على أن يطلق كل اسير عنده من المسلمين بعد ان استشار الامراء فاشاروا اكثرهم في ذلك ليرتاح الناس ويجمعوا ما يحتاجون اليه أما السلطان فانه اجابه وجعلت مدة الهدنة ثمانية أشهر ثم أرسل رسوله الى بوهموند ليستلم منه الاسرى وذلك في ثاني شعبان سنة ٥٨٤ وعاد الى حلب في ثلثه ومنها سار الى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وعسكر الموصل ولما هل رمضان اشير عليه بالاستراحة في شهر الصوم فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقى بيد الصليبيين حصن كوكب وصفد والكرك وغيرها ولا بد من اخذها فانها في وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر اهلها وان اغفلناهم ندمنا وكان السلطان قد جعل على الكرك من يحصره فلازموا حصاره مدة طويلة حتى فئت ازواد أهله وذخائرهم وأكلوا دوابهم فراسلوا الملك العادل اخا صلاح الدين ونابئيه على هذه البلاد يبذلون تسليم القلعة اليه ويطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر المحاصرين بذلك فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضاً ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وارتاح المسلمون من تلك النواحي . ثم سار السلطان في منتصف شهر رمضان الى قلعة صفد فحصرها وقتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمي ليلا ونهاراً بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم النفوذ في المدة التي كانوا فيها محصورين فخافوا من بطشه فراسلوا اليه يطلبون الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا منها وساروا الى مدينة صور . ولما كان السلطان محاصراً صفداً جمع من في مدينة صور وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذه البلاد واتفق رأيهم على ارسال نجدة اليها سراً من رجال وسلاح وغير ذلك فراسلوا مائتي رجل من شجعانهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين واتفق ان رجلا من المسلمين المحاصرين كوكب خرج للاصطياد فلقى رجلا من تلك النجدة فاستغرب وجوده بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وسبب قدومه الى هناك فاقر ودله على اصحابه فعاد الجندي المسلم الى قايماز النجدي وهو مقدم العسكر

فاعلمه الخبر والافرنجي معه فركب في طائفة من رجاله الى الموضوع الذي احتفى فيه الصليبيون فكسبهم فاخذهم على غرة وتبعهم في الشعب والكهوف فلم يفلت منهم أحد وكان معهم مقدمان من الاستبارية (جمعية ضياف الغرباء) فحملوا الى السلطان وهو على صفد ولما احضر المقدمين احضرها ليقتلها وكانت عادة قتل الداوية (جمعية الهيكليين) والاستبارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم قال له أحدها لا أظن ان ينالنا سوء وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصييح وكان السلطان كثير العفو والاستعفاف يقبل الاعتذار فيعفوا ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلها وأمر بسجنهما ثم سار الى قلعة كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل الي من بها يعلمهم بانهم اذا سلموا آمنهم واذا امنعوا يقتلهم وينهبهم فلم يصغوا اليه واصروا على الامتناع فجد في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رشقهم بالاحجار وزحف مرة بعد مرة وكانت الامطار كثيرة لا تنقطع ليلا ولا نهاراً فلم يتمكن المسلمون من القتال كما يريدون وطال مقامهم الى أن زحف اليها دفعات في يوم واحد فوصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقبون والرماة يحملونهم بالنشاب عن قوس اليد فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الصليبيون ذلك اذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم في منتصف القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمعوا بها . وكانت صور قد امتلأت بالصليبيين وابطالهم لان أهل جميع البلاد التي فتحت ساروا اليها وأرسلوا الى أوروبا يطلبون النجدة كما تقدم فذلك تكدر السلطان صلاح الدين لتركة صور وعدم استيلائه عليها قبل فتح القدس وعض بنانه ندماً وأسفاً . وسار الى القدس وعيد فيها عيد الاضحى ومنها الى عكا فاقام بها الى آخر السنة

} في بناء استحکامات عكا وحصار شقيف ارتون {

قلنا ان السلطان أقام بعكا في آخر سنة ٥٨٤ فامر باحضار بهاء الدين قراقوش من مصر ومعه المهندسون وطائفة البنائين وما يلزمهم لعامة سور عكا واستحکاماتها فوصلوا في شهر محرم سنة ٥٨٥ والسلطان مقيم بها فاقام بهاء الدين قراقوش والياً عليها وأمر ببناء السور أمتن بناء وترك معه حسام الدين بشاره وسار الى دمشق فوصلها في مستهل شهر صفر وأقام بها وجاءه من بغداد رسول الخليفة فامر بالخطبة لولي العهد عدة الدين أبي الفضل نصر محمد بن الامام الناصر نخطب له بذلك في يوم الجمعة ١٣ صفر ثم عاد الرسول ومعه رسول من السلطان بهدايا عظيمة واسرى من

الصلبيين والصليب الذي كان على قبة الصخرة (وقيل صليب الصلبوت الذي اخذ في واقعة حطين) وتاج ملك القدس . وفي يوم الجمعة الثالث من ربيع الاول خرج السلطان من دمشق فسار حتى نزل في مرج فلوس ونزل في صباح يوم السبت رابع شهره في مرج برغوث فاقام به والعساكر تتابع الى الحادي عشر ورحل الى بانياس ومنها الى مرج عيون نخيم به وهو قريب من شقيف ارتون فكان يركب كل يوم يشارفه ويعود والعساكر يجتمع وتطلبه من كل صوب نخاف صاحب الحصن من كثرة العساكر وعلم ان لاقدرته له عليها فرأى بان الصلح مع السلطان هو اسلم طريق الى سلامته فنزل بنفسه الى باب خيمة السلطان وطلب الاذن في الدخول فاذن له فدخل فاحترمه السلطان واكرمه وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على شئ من التواريخ والاحاديث وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وأكل مع السلطان الطعام ثم خلا به وذكر انه تحت طاعته وأن يسلم اليه الحصن من غير تعب وطلب أن يعطي موضعاً لسكنه في دمشق لانه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الافرنج واقطاعاً بدمشق تقوم به وباهله وان يفتح له مدة ثلاثة شهور ليظل في حصنه ويتمكن من تخلص أهله وجماعته من صور ويأخذ غلة هذه السنة فأجيب الى ذلك كله وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل وقت وينظر المسلمين في صحة دينه وينظرونه في بطلانه وكان حسن المحاوره متأدباً في حديثه ثم ظهر ان جميع ذلك مخادعة منه لطول الوقت وظهر على ذلك دلائل كثيرة في تحصيل الميرة واتقان الابواب فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع كل نجدة وميرة تأتيه واظهر ان ذلك فراراً من وخم المرج فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان وقال تفكر في ذلك وتأخذ رأي الجماعة ثم وكل به من حيث لا يشعور فانكشفت سريرته الغادرة فقبض عليه السلطان وطلب تسليم الحصن فقال انا انفذ الى نوابي في التسليم وكان قد أوصاهم بما يفعلونه فقالوا الانسلم ويبقى عندكم مكانه فقيدوه وحملوه الى قلعة بانياس ثم احضره السلطان في سادس رجب وهدده وتوعده فلم يفد فأمر بسجنه في دمشق وعين بعض الامراء لحصار الحصن صيفاً وشتاء

مناوشات بين الصليبيين وعساكر المسلمين

قلنا ان مدينة صور امثلات بالصليبيين الذين اتوها من جميع البلاد التي فتحها المسلمون ولما وجدوا كثرتهم اتفقوا جميعاً على مهاجمة المسلمين فخرجوا عسكر واعلى باب صور وبينما كان السلطان في مرج عيون محاصراً شقيف ارتون يوم الاثنين سابع عشر

جمادى الاولى سنة ٥٨٥ بلغه من اليزك ان الصليبيين قد قطعوا الجسر الفاصل بين
أرض صور وأرض صيدا وهي الارض التي عليها السلطان فركب نحو اليزك وكان
جماعة من الصليبيين قد عبروا الجسر فهض اليزك الاسلام وكانوا في عدة وقوة
فقاتلوهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجرحوا اضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة
فغرقوا ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بابيك الاخرش وكان شجاعاً
باسلاً مجرباً للحرب ممارساً له جمع به فرسه فلجأ الى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فنى
نشابه ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه وفي يوم الاربعاء تاسع
عشر من ذلك الشهر ركب السلطان كي يشرف على القوم على عادته فتبع العسكر خلق
عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة فامرهم بالرجوع فلم يفعلوا وخاف عليهم لان المكان
حرج وليس للرجال فيه ملجاء ثم اندفع الرجالة على الجسر وناوشوا العدو القتال
وعبر منهم جماعة اليهم وجرى بينهم قتال شديد واجتمع عليهم من الصليبيين خلق عظيم
لانهم علموا ان ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان
لانه كان بعيداً عنهم ولم يكن معه عسكر لانه لم يخرج للقتال وانما ركب مستشرفاً
عليهم على عادته ولما بان له الواقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه
ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والصليبيين قد تكاثروا حتى خافت منهم
السرية التي بعثها السلطان وظفر الصليبيون بالرجالة ظفراً عظيماً وأسروا
جماعة وعدد من قتل من الرجالة فكان ١٨٠ في ذلك اليوم وقتل من الصليبيين
عدد عظيم وغرق أيضاً منهم كثيرون وكانت هذه الواقعة لم يتفق للصليبيين مثلها
ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في هذه الواقعة السائرة جمع أصحابه وشاورهم
وقرر معهم ان يهجم على الصليبيين ويعبر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شاقهم وكانوا
قد رحلوا عن صور ونزلوا قريباً من الجسر وبين الجسر وصور فرسخ وزيادة
فلما صمم على ذلك رحل الصليبيون عائدن الى صور متجهين الى سورها فأرى ان
يسير الى عكا ليلاحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي فسار على تبنين ولم يرجع
على مرج عيون فمضى الى عكا ورتب أحوالها وعاد الى العسكر بمرج عيون منتظراً
مهلة صاحب الشقيف ولما كان يوم السبت سادس جمادى الاخرى بلغه ان جماعة
من رجالة العدو يخرجون الى جبل تبنين فيحتطبون ووراءهم من الفرسان من يحفظهم
فارسل الى عسكر تبنين ان يخرج منهم نفر يسير الى أولئك المحتطبين فاذا تبعهم خيل
العدو ينهزمون الى جهة عينها لهم وان يكون ذلك في صبيحة يوم الاثنين ٨ منه

وأرسل الى عسكر عكا ان يسير حتى يكون وراء عسكر الصليبيين حتى اذا تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم وركب هو وعسكره الى الجهة التي عندها خيمة عسكر تبين ورتب عسكره ثمانية اطلاب واستخرج من كل طلب عشرين فارساً وأمرهم ان يترأوا للعدو حتى يخرج اليهم ويتناوشهم فيهربون من وجهه حتى يصلوا الى الكمين ففعلوا وخرج اليهم من الصليبيين معظم عسكرهم وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وانفت من الانهزام وحماتها الحمية على مخالفة السلطان واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم الليل فبعث بعونا كثيرة فعاد الصليبيون ناكسين على أعقابهم ومن نوادر هذه الواقعة ان مملوك للسلطان اسمه ايبك الساقى وقع عن فرسه فجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فخرج منهم عدة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو على آخر رفق فظنوه ميتاً فتركوه وانصرفوا عنه ثم ان المسلمين جاؤا في صباح يوم الثلاثاء ٩ منه الى موضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حياً فحملوه في كساء وهو لا يبي شيئاً فيسوا من حياته فعرضوا عليه الشهادة وتركوه وعادوا اليه فرأوه قد قويت نفسه فقبلوا عليه بمشروب فعوفى وكان بعد ذلك لا يحضر موقعة الا كان له فيها أثر عظيم ثم عاد السلطان الى مخيمه في يوم الاربعاء ١٠ منه

﴿ محاصرة الصليبيين عكا ومحاربتهم ومصارعة الصبيان ﴾

لما كان السلطان على حصن الشقيف بلغه ان الصليبيين خرجوا بجمعهم من مدينة صور وساروا قاصدين عكا بقيادة ملكهم غوي الذي كان أسيراً وأطلق سراحه السلطان فلم ير المسارعة بالمسير الى عكا خوفاً من ان يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف فاقام مستكشفاً للحال الى يوم الاحد ثاني عشر رجب سنة ٥٨٥ فوصل رسول يقول ان الصليبيين رحلوا ونزلوا عين بصره ووصل أوائلهم الى الزيب فعظم عنده ذلك وكتب الى سائر أرباب الاطراف بالمسير اليه وسار السلطان بالثقل (عموم الجيش) ليلاً وأصبح يوم الاثنين ١٣ منه سائراً الى عكا على طريق طبرية اذ لم تكن طريق أخرى تسع العسكر وسير جماعة على طريق تبين يستشرفون العدو ويواصلونه باخباره وظل مواصلاً الزحف حتى اتى الجولة في منتصف النهار فنزل فيها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضع يقال له المنية صباح الثلاثاء وفيه بلغه خبر نزول الصليبيين على عكا فإرسل صاحب الشقيف الى دمشق

ليسجن فيها وسار السلطان بجريدة من المنية حتى تقابل ببقية العسكر الذي كان قد أرسله
 بطريق تبين بمرج صفورية الذي واعدهم اليه وأمر الشغل ان يلحقه الى مرج
 صفورية ولم يزل سائراً حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر فدخل
 عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثاً بعد بعث حتى اجتمع
 فيها خلق كثير وسار من الخروبة الى تل كيسان في أوائل مرج عكا فنزل عليه وأمر
 الناس ان ينزلوا على التعية فكان في آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر
 الميمنة بالقرب من تل العياضية واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو وأخذوا عليهم الطرق
 من سائر الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر
 العدو في خيامه بحيث لا يخرج منها أحد الا يخرج أو يقتل وكان عسكر الصليبيين على
 شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصليبين قريباً من باب البلد وعدد فرسانهم
 الفان وعدد راجلهم ثلاثون ألفاً وكان المدد يأتيهم من البحر خصوصاً ممن أتاهم
 من طائفتي الفريزيين والدانيين وعددهم اثنا عشر الف غير الذي أتاهم من الانكليز
 والفلامنديين وكان مقدمهم رئيس أساقفة كانطورباري ويعقوب دي افسناس الفلامندي
 وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهاقنون على قتالهم
 والسلطان يمنعمهم من ذلك الى وقته ثم وصل تقي الدين من حماه ومظفر الدين
 بن زين الدين واستفحل أمر الصليبيين فاستداروا بالبلد في آخر شهر رجب ومنعوا
 الناس من الدخول والخروج اليها فعظم على السلطان ذلك وضاق صدره وثار
 همته العالية في فتح الطريق الى عكا لتستمر وصول الميرة والنجدة اليها فباكرهم في
 أول شعبان وضايقتهم مضايقة شديدة فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة وانتشر
 عسكر الصليبيين الى ان ملكوا التلول وكانت ميسرة عسكرهم الى البحر الحلو ممتدة
 الى البحر المالح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا واتصلت الحرب الى ان حال
 بين الفتيين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين السلاح محرس
 كل طائفة نفسها من الأخرى واصبحوا يوم السبت ثاني شعبان على القتال وانفذ السلطان
 طائفة من شجعان المسلمين الى البحر من شمالي عكا ولم يكن هناك للصليبيين خيم
 لكن عسكره كان قد امتد جريدة شمالي عكا الى البحر فحمل شجعان المسلمين على
 عسكر الصليبيين الواقف شمالي عكا فانكسروا كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً
 والنتفت المسلمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم الى أوائل خيامهم ووقف
 اليزك الاسلامي مانعاً من ان يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل اليه داخل وانفتح

الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جرده
 وصار الطريق آمناً واليزك بين الطريق وبين العدو ودخل السلطان في ذلك اليوم
 عكا ورتقي على السور ونظر الى عسكر الصليبيين . وتراجع الناس عن القتال بعد
 صلاة الظهر لسقيا الدواب والاستراحة ولم يعودوا الى القتال وفي صباح الاحد ثلثة
 رأى بعض الامراء تأخير القتال الى ان يدخل الجيش الراجل كله الى عكا ويخرجوا
 مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو ومن وراءه وتركب العساكر من خارج
 من سائر النواحي ويحملون حملة الرجل الواحد وكان السلطان يعاين هذه الامور
 كلها بنفسه ويلاحظها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه
 ووفور همته كالوالدة الشكلى وقال أحد اطباؤه انه بقي من يوم الجمعة الى يوم الاحد
 لم يتناول من الغذاء الا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه وفعولوا ما كانوا قد عزموا عليه
 واشتدت منعة العدو وحسى نفسه في خيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس
 وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومرؤس حتى كان يوم الجمعة ثامنهم فعزم
 الصليبيون على الخروج بمجموعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول
 وساروا الهولينا غير مقرطين في نفوسهم ولا خارجين من راجلهم والرجالة حولهم
 كالسور المبني يتلو بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك فصاح السلطان بالعساكر
 الاسلامية فركبوا باجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد فماد الصليبيون ناكسين على
 عقبهم والسيوف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح والعاطب طريح يشدون هزيمة فيعثر
 جريحهم بقتيلهم حتى لحق خيامهم من سلم منهم وكفوا عن القتال اياماً وكان قصاراهم
 ان يحفظوا نفوسهم واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون اليها . ثم رأى
 السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلمهم يخرجون الى مصارعهم فبقل الثقل الى تل
 العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو . ثم بلغ السلطان
 ان جماعة من الصليبيين تخرج للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فامر
 السلطان بان يكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لحقتهم على خيلهم فجمعوا
 عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً واسروا جماعة واحضروا الرؤس بين يديه وذلك
 يوم السبت تاسع عشره وفي مساء ذلك اليوم كانت حرب شديدة بين أهل البلد
 والصليبيين قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين وطال الامر بين القشتين ولا يخاووم
 عن قتال وانس البعض البعض حتى ان الطائفتين كانتا تتحدثان معاً ويتركان القتال
 ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة وستموا يوماً فقالوا الى كم يتقاتل الكبار وليس

للصغار حظ زيد ان يسطرع صبيان صبي منا وصبي منكم فاخرج صبيان من البلد الى صبيين من الافرنج فوثب أحد الصبيين المسلمين على احد الصبيين الافرنج فاحتضنه وضرب به الارض واخذه اسيراً فاشتراه منه بعض الصليبيين بدينارين وقالوا هو اسيرك حقاً فاخذ الدينارين واطاقه

* { ورود المدد للصليبيين وواقعة عكا الكبرى } *

وما زالت الامداد تتوالى على الصليبيين من البحر مع المراكب من بلاد البندقية وبيزا وجنوى وكذلك عدد وافر من العساكر الفرنسية والاطالية والنمساوية والانكليزية واتحدوا مع الصليبيين الآخزين وكان يوجد بين الصليبيين الجدد اساقفة ورؤساء كنائسيون وامراء ودوكلات مثل كونت دي فرارا وانسلموس أمير المونت راله وفيس كونت دي شاطالاروتل وحاكم برغاس مع رئيس اساقفة بيزا وارملة ملك البانيمرك وصحبها ٤٠٠ عسكري . وغوي دي داميارا واسقف نيرونا وصلا مع بعض عساكر رومانية وجمعوا جميع جنودهم واعلامهم الى جنود الصليبيين الذين كانوا برئاسة غوي (الذي كان أسيراً) يحاصرون عكا حتى اصبح جيش الصليبيين نيفاً ومائة الف مقاتل ثم قرر رأيهم على مقاتلة المسلمين قتالاً شديداً فرتبوا صفوفهم كما يأتي فالملك غوي تقدم على العساكر الفرنسية وعلى خيالة الاسبتارية (جمعية ضياف الغرباء) وامامه أربعة فرسان حاملون بشائر الانجيل المقدس والشاب كونراد صاحب صور ترأس جنود البندقية ولومبارديا وأهل صور ولاندغرافا دي طورينجا ترأس العساكر النمساوية والبيزاوية والانكليزية في وسط الحرب . والدوك دي غوالدرا قاد عساكره وفرسان الداوية (جمعية الهيكليين) وأقاموا الحفر منهم ورؤساء كنائس رافينا . وبيزا . وبيزانصون . وكانطورباري . وبوفيس . وغاميراى . وغيرهم تسلحوا بالحدود والزرديات وفي يوم الاربعاء الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٨٥ هـ تحرك الصليبيون فأمر السلطان صلاح الدين أن ينادي في الناس بالاسلام فركبوا وكان السلطان قد انزل الجند في الخيم ميمنة وميسرة وقلباً على تعمية الحرب حتى اذا وقعت صيحة لايحتاجون الى ترتيب جديد وكان هو في القلب وفي ميمنة القلب ولده الافضل ثم ولده الظافر ثم عسكر الموصل يتقدمهم ظهر الدين ابن البكنسكري ثم عسكر ديار بكر وعليه قطب الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس ثم قايماز النجمي وجموع عظيمة تتصل بطرف الميمنة ويلها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر

وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين برقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسيديّة كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا وجماعة الأسيديّة الذين يضرب بهم المثل وكان في مقدّمة القلب الفقيه عيسى والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال ويدعوهم إلى النزال ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى منه أربع ساعات وعند ذلك انحرفت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجليلي وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على تقي الدين وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً اطماعاً لهم لعلمهم يفصلون عن أصحابهم فينال منهم غرضه فلما رأى السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فأمده بأطلاب من القلب حتى قوى جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في قلب معسكر الصليبيين ضعف من في قلب المسلمين ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم على عسكر ديار بكر فانكسروا وكسرة عظيمة وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المهزومين إلى العياضية لأنهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من الصليبيين إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دارا واسماعيل المكبس وابن رواحة وأما الميسرة فلما ثبتت وأما السلطان فانه أخذ يطوف على الأطلاب ينهضهم ويوعدهم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم بالاسلام ولم يبق غير خمسة رجال معه وهو يطوف ويتخرق الصفوف وأوى إلى تحت التل الذي كانت عليه الخيام أما المهزومون من العسكر فبلغت هزيمتهم إلى الأحيوانة وراء جسر طبرية والحقهم الصليبيون إلى العياضية فقط حتى إذا ماراؤهم قد صعدوا الجبل رجوعاً عنهم إلى عسكرهم فلقبهم جماعة من الغلمان والحر بنديّة والساسة فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة وأما الذين صعدوا الخيم فلم يقتلوا غير الثلاثة المذكورين ثم راوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا ان الكسرة لم تتم فعادوا منهجرين من التل يطلبون عسكرهم والسلطان واقف تحت التل يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو فلما رأى الصليبيين نازلين عن التل اراد رجاله لقاءهم فامرهم بالصبر إلى ان ولوا ظهورهم واسرعوا يطلبون أصحابهم فصاح في الناس فحملوا عليهم وقتلوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثرت الناس وراءهم

حتى لحقوا أصحابهم والطردهم وراءهم فلما رأوهم الصليبيين مهزمين والمسلمون
 خلفهم في عدد كثير ظنوا ان من حمل منهم قد قتل وانه انما نجا منهم
 هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة
 وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وحياى الرجال وتداعت
 وتراجعت الناس من كل جانب وظل المسلمون يتقلون ويضربون الى ان وصل
 المهزومون الى معسكرهم فهجم المسلمون عليهم في الخيام فخرج منهم اطلاب كانوا
 عدوها خشية من هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذهم
 والعرق قد ألجمهم فتراجعوا عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم
 فرحين مسرورين وعاد السلطان وجلس وحصرها من قتل منهم من الغلمان
 والمجهولين ١٥٠ نفرًا ومن المعروفين استشهد ظهر الدين أخو الفقيه عيسى والامير
 بجلى ابن مروان والحاجب خليل الهكاري ومن قتل من الصليبيين بلغ سبعة آلاف
 وقيل أقل . في اثناء هزيمة المسلمين رأى الغلمان خلو الخيام من معارض لان
 العسكر انقسم قسمين مهزم ومقاتل ولم يبق في الخيم أحد فظنوا ان الكسرة تم
 على المسلمين وان العدو سينهب جميع ما في الخيم فاسرعوا هم في نهب جميع ما فيها
 فلما عاد السلطان الى الخيم ورأى ما حصل سارع في ارسال الكتب والرسائل برد
 المهزمين وتبع من شذ من العسكر فردهم وأخبرهم بانتصار المسلمين وأمر
 السلطان بجمع الاقشة من اكف الغلمان فجمعوا ذلك حتى الخالى امامه فامر
 بان كل من يعرف له شيئاً وحلف عليه يسلم له أما الصليبيون فانهم عادوا الى خيمهم
 وقد قتلت شجعانهم وقتل مقدموهم وأمر السلطان باخراج عربيات من عكا
 ليحملوا القتلى ويرموهم في النهر ثم جمع رؤساء جيوشه واستشارهم فيما يفعل وهل
 يناجز العدو أم لا فقالوا جميعاً الاوفق ان تنتظر قدوم الملك العادل وتستريح العساكر
 لان العساكر قد تعبت جداً وعند قدوم الملك العادل نشره في الرأي فوافقهم
 على ذلك وأشير على السلطان بالانتقال الى الخروبة فسار اليها رابع رمضان وأمر
 باغلاق أبواب عكا فوجد الصليبيون بذلك فرجالهم وشرعوا في حفر خندق على
 معسكرهم حوالى عكا من البحر الى البحر وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات
 الحصر . وعملوا حولهم سوراً من تراب حفر الخندق فكان معسكرهم كانه بلد
 ورتبوا على سورهم رجلاً لحفظه . وكان الذي أوجب رحيل السلطان من هذا
 الموضع هو فساد الهواء بدم المقتولين وتناثرة الرائحة

﴿ وصول العساكر المصرية والاسطول المصري

وهجوم الصليبيين على الزك ﴾

في منتصف شهر شوال سنة ٥٨٥ وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت النفوس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار ومن الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيئاً كثيراً وفي منتصف شهر القعدة وصل الاسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ نجاة على مراكب الصليبيين فبعثها وسحقها وبددها وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغلالهم وكان عدد مراكب الاسطول خمسين مركباً فيها زهاء عشرة آلاف مقاتل وأرسل السلطان الى عكا في المراكب جماعة من الامراء باخوانهم وأزوادهم فاستظهر بهم من بالبلد وبالاسطول وحمدوا الله وأخذت العساكر الاسلامية تخرج الى العدو ليلاً وتديقه مرارة القتل والاسر والسرقة وكانوا يحتفون بالحشيش في أجراف الانهار ليفتكوا بمن يرد الماء وقد وأرسل صاحب الموصل الى السلطان من أحمال النفط الابيض شيئاً كثيراً مع عزة وجوده ومن التروس والرماح من كل جنس أحكمه وأجوده وأقام السلطان بموضعه بالحروبة مدة الشتاء وكان يزكه وطلائعه لا تنقطع عن الصليبيين فلما هل شهر صفر سنة ٥٨٦ سمع الصليبيون بان صلاح الدين قد سار للصيد ورأوا العسكر الذين في الزك قليلاً وان الاحوال التي في مرج عكا كثيرة تمتع من سلوك من يريد ان ينجد الزك فاعتصموا الفوصة وخرجوا من خنادقهم على الزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب حتى فنى نشابهم فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الامر وعلم المسلمون انه لا ينجحهم الا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل الى ان جاء الليل وقتل من الفريقين جمع كثير وعاد الصليبيون الى خنادقهم . ولما عاد السلطان الى المعسكر بلغه الخبر فندب الناس الى نصره اخوانهم فاتاه الخبر ان الصليبيين قد وصلوا مأمنهم

﴿ احراق أبراج الصليبيين وواقعة الاسطول ﴾

كان الصليبيون مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة ابراج من الحشب عالية جداً طول كل برج منها ستون ذراعاً وعملوا كل برج منها خمس طبقات وكل طبقة مملوءة بالمقاتلة وغشوها بالجلود المدهونة بالخل وعالجوها بما يمنع النار من احراقها

وأصلحوا الطرق لها وعملوها بعجل لاجل جرها وتسييرها الى حيث شاءوا وشرعوا في طم خندقها وزحفوا بها في ٢٠ ربيع اول سنة ٥٨٦ هـ فأشرفت على السور وقاتل من بها من عليه وأنكشف من بالبلد وأشرفت البلد على الهلاك وكان السلطان لما وجد البلد محصورة رغب بعض الناس في السباحة ودخول الميناء فكانوا واسطة في المفاوضة بينه وبين البلد فأرسل اهلها احد العوامين الى السلطان وأخبروه بتلك الابراج وبضررها وانها اذا استمرت أخذ العدو البلد عنوة فركب مسرعاً بعسكره وتقدم الى الصليبيين وقتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيماً دائماً يشغلهم عن اهل البلد فافترق الصليبيون فرقتين فرقة تقاتل السلطان وفرقة تقاتل اهل عكا ولكن خف الامر عنهم ودام القتال ثمانية ايام متتابعة آخرها ٢٨ منه وسُمّ الفريقان القتال ومولوا منه ملازمة ليلاً ونهاراً والمسلمون تيقنوا من استيلاء العدو على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج لانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها ولم يقدمهم ذلك شيئاً وتابعوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فمن الطاف الله بهم ان شخصاً من اهل دمشق اسمه علي ابن شيخ النحاسين كان في عكا وهو مولع بجمع آلات النفاطين وايجاد عقاير تقوي عمل النار . فلما رأى تلك الابراج وما فعلته باهل المدينة شرع في عمل ما يعرفه من تلك الادوية المقوية للنار ولما فرغ منها حضر الى الامير بهاء الدين قراقوش حاكم البلد وقال له ان يأمر المنجنيني ان يرمي بالمنجنيق المحاذي لاحد هذه الابراج ما أعطيه لكي يحرقه وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظاً بقوله وقال له قد بالغ اهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا اذا وافقناه على كلامه فأجابه الى ذلك وأمر المنجنيني بامثال امره فرمى عدة قدور خالية من النفط والصليبيون اذا رأوا القدور لا تحرق شيئاً يفرحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم ان الذي القاه قد تمكن من البرج التي قدرة مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج ورمى ثانية وثالثة فاضطربت النيران في نواحي البرج فاحترق بما فيه من السلاح والزرديات وكان شيئاً كثيراً وكان الصليبيون قد استهانوا امر القدور الاولى لانها لم تفعل شيئاً فاطمأنوا وتركوا السبي في الخلاص ولما احترق البرج الاول انتقل الى البرج الثاني وقد هرب من فيه خوفاً فأحرقه وكذلك الثالث وكان ذلك يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون فرحين وقد

أبرقت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر وخلصهم من القتل وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه شيئاً وقال انا عملت ذلك لوجه الله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وارسل السلطان بطاب العساكر الشرقية فأول من أتاه عماد الدين زنكي وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين بن عز الدين مسعود سيره ابوه مقدماً على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل وكان كل منهم اذا وصل يتقدم الى الصليبيين ويقاتلهم ثم ينضم الى الآخرين ووصل الاسطول من مصر فلما سمع الصليبيون بقربه جهزوا اسطولا ليلقاه في طريقه ويقاتله فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقتلهم من كل جهة ليستغلوا بقتاله عن قتال الاسطول فيتمكن من دخول عكا فلم يشغلوا وخرج اسطولهم وكانت الناس خرجت على جانب البحر تقوية للاسطول وايناساً له ولرجاله والنقي الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطرت نار الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه وجرى قتال شديد اقشع عن نصرة الاسطول المصري بعد اخذ مركب منه وقتل من باسطول الصليبيين ونهب ما فيه وأخذ منه مركباً ايضاً ودخل الاسطول المصري المنصور الى عكا وكان قد صحبته مراكب من الساحل فيها مير وذخائر وطابت قلوب اهل البلد بذلك وانشرحت صدورهم واتصل القتال بين العسكرين خارج البلد الى ان فصل بينهما الليل وعاد كل فريق الى خيمه وقتل من الصليبيين في هذا اليوم كثيرون لان اهل البلد اشتدوا في قتالهم والاسطول وعساكر السلطان فكان قتال الصليبيين في ثلاث مواضع .

﴿ الحروب الصليبية الثالثة ﴾

﴿ سفر ملك النمسا والمانيا الى فلسطين وما جرى له ووفاته ﴾
 ثم أقام الملك فريديريكوس عوضاً عنه في تدبير المملكة مدة غيابه عنها ولده هنريكوس وسافر من راتيسبونا بعسكره مجتازاً بلاد هونكريا ثم بلغاريا حيث لاقت العساكر النمساوية موانع واهانات كثيرة من سكانها فكان كل من كان يقع في ايديهم يعذبونه ويربطونه من رجليه في الشجر منكساً . وكان جالساً على تحت القسطنطينية الملك اسحاق فلما بلغه قدوم العساكر النمساوية ارسل الى السلطان صلاح الدين يخبره بذلك ووعده بمنعهم من العبور وأمر عساكره بمحاربة النمساويين فلما وصل الملك فريديريكوس الى مدينة فيلبوبولي تحقق ان وفده الذي ارسله

الى ملك الروم مسجون بالقسطنطينية وكان يظن ملك الروم صديقاً له فوجده عدواً
فغضب وأخذ يحارب جميع المدن التي يجتازها حتى انه امك المدن الآتية . ادريانوبولي .
ديديموتيك . سيليفريا . غاليلي . وسائر السهول الواقعة على شاطئ بوربونديا الايمن
مع هاليسبوت وكادت تقع مدينة القسطنطينية في يده وكانت العساكر المقبلة من
بلاد البندقية ومن انكونا ومن جنوى يبرأ بهم قد علمت بما جرى للعساكر
الصليبية النمساوية فغزموا على ضرب مدينة القسطنطينية من البحر فحينئذ خاف
الملك اسحاق ملك الروم من هذه الجيوش فاطلق سراح وفد ملك النمسا وقدم
الذخائر للصليبيين وهياً لهم ١٥٠٠ مركب و ٢٦ غلاطه لاجل نزول العساكر
النمساوية فيها ونقلهم الى موالي اسياولما نزلوا باراضي اسيا الصغرى مارين بمملكة
قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان ثار بهم التركان وظلوا يترصدهم
ويقتلون من انفرد منهم وكان الزمن شتاء وقد أهلكهم البرد فلما قربوا من
مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه ابن قليج ارسلان وحاربهم
فلم يقدر عليهم فعاد الى قونية وسار الصليبيون وراه ولكنهم ضلوا الطريق وساروا
في ارض لا ماء فيها حتى هلكوا من العطش ومن الجوع وكانوا يترامون في الطرق
ويستخرجون دم الحيل ويمتصونه الى ان وصلوا الى مدينة قونية فارسلوا الى
قليج ارسلان هدايا عظيمة وقالوا له ما قصدنا بلادك ولا اردناها واتما نحن نقصد
البيت المقدس وطلبوا منه ان يأذن لرعيته في اخراج ما يحتاجون اليه من قوت
وغيره فاذن في ذلك فاتاهم ما يريدون فشبعوا وزودوا وقال المؤرخون النمساويون
ان الملك فريديكوس لما وصل الى مدينة قونية حاربها حتى امتاكتها (وساروا
الى بلاد الارمن فبالحرب تعب زائد ومشقة عظيمة وفي ذات ليلة حصت زلزلة عظيمة
وشعروا بعمقة الاسلحة وصهيل الحيل كان جيوشاً قد فاجأهم فثقت قلوبهم
خوفاً ولكنهم لم يروا احداً فكانوا يتساءلون عن سبب ذلك فقالت رؤسائهم ان
في ذلك رمزاً عن قرب حصول حادث مهول يقعون فيه (وهذا ما ذكره مؤرخوهم
ايضاً) ثم وصلوا الى بلاد الارمن وصاحبها لافون ابن اصطفان فارسل اليهم وفداً
لمقابلتهم وقدموا لهم جميع ما يحتاجون اليه من ذخائر وزادوغيره من العلف وقدموا
لهم الطاعة ثم سار الصليبيون قاصدين انطاكية فحصل لهم من التعب ما لا يوصف
ثم ساروا وكان في طريقهم هم فنزولوا عنده ونزل الملك فريديكوس في النهر ليغتسل
فغرق في مكان لا يبلغ الماء فيه وسط الرجل فاعتزته قشعريرة شديدة وطلب الاعانة

فاخرجوه ميتاً وحزوا عليه حزناً شديداً وكان معه ولده فاقاموه ملكاً مكانه ولكن الحلاف وقع بينهم فاحب بعضهم العود الى بلاده وبعضهم مال الى تملك اخيه فعادوا وسار ولده فيمن رضي به ملكاً قاصداً انطاكية فوصلوها وقد تفشى بينهم الوباء فاهلكهم وبددهم فحسن لهم صاحبها المسير لمشاركة الصليبيين في حصار عكا فساروا على جبلة واللاذقية وغيرها من البلاد التي ملكها المسلمون وخرج اهل حلب اليهم واخذوا منهم خلقاً كثيراً ومات اكثر من أخذ فبلغوا طرابلس واقاموا بها اياماً فكثرت فيهم الموت فلم يبق منهم الا الف رجل وعلى قول مؤرخهم خمسة آلاف نسمة (فانظر الى لطف الله كيف خرجت هذه الحملة الصليبية من بلادها نحو ٢٠٠ الف مقاتل وقيل اكثر وكيف بقي منهم الف فارس) ثم وصلوا الى عسكر الصليبيين حول عكا فوجدوهم في خلاف وكان الملك قليش ارسلان يكتب السلطان باخبارهم ويومه انه يمنعهم من العبور في بلاده فلما عبروها ارسل يعتذر بالعجز عنه لان اولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته فلما ورد الخبر الى السلطان بعبور الملك فريدريكوس استشار امراءه فاشار كثير منهم بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل وصولهم الى عكا فقال السلطان بل نقيم الى ان يقربوا منا وحينئذ نعمل ذلك لثلاثي تسليم من عكا من عساكرنا ولكنه سير من عنده من العساكر عسكر حلب وجبلة واللاذقية وشيزر وغير ذلك ليكونوا في اطراف البلاد يحفظونها من العدو فكفي الله المسلمين القتال

﴿ الواقعة العادلية على عكا بين الصليبيين والمسلمين ﴾

لما ارسل السلطان العساكر الاسلامية الى بلادها خوفاً من ملك النمسا وعلم الصليبيون ان العساكر قد تفرقت في اطراف البلاد وان الميمنة قد خفت لان معظم من سار كان منها اجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجاءة فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم الملك العادل فلما بصر الناس بهم صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها وركب السلطان وصاح منادياً يا للاسلام وكان هو اول ركب وهو كالفائدة لولدها الثالثة لوحيدها ثم ضرب الصنوج فاجابته صنوج الامراء من اماكنها وركب الناس وسارع الصليبيون في قصد الميمنة حتى وصلوا الى مخيم الملك العادل قبل ان تركب جميع العساكر ودخلوا في وجاقه وامتدت ايديهم في السوق واطراف الخيم بالنهب والغارة وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالتواشي قايماز النجمي

وعز الدين جرديك النوري ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم
ويشتغلوا بالنهب وكان كاظن ولما علم باشتغالهم بالنهب صاح بالناس وحمل بنفسه
يتقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود وحمل بحملته من كان يليه من اليمينه واتصل
الامر بجميع اليمينه حتى وصل الصالح الى عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة
الاسود على فرانسها وأوقعوا فيهم القتل فعاد الصليبيون هاربين الى خيامهم وعلى
أعقابهم ناكسين والسيف يعمل فيهم وصاح صائح السلطان في الناس يا أبطال الموحدين
هذا عدوكم قد أمكنكم الله منه وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه فبادر
الى اجابة دعوته أهل حلقتة وخاصة ثم عسكر الموصل يتقدمهم علاء الدين ولد عز
الدين ثم عسكر مصر يتقدمهم سنقر الحلبي وتتابعت العساكر وتحاربت الابطال
وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى ترامى الصليبيون صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية
وغطت قتلاهم الأرض من خيم الملك العادل الى خيامهم فكان اولهم بالخيام الاسلامية
وأخرهم بخيام العدو صرعى على التبول والوهاد وكان ما بين العسكرين ما يزيد
عن فرسخ مفروش باشلائهم ولم ينج من القوم الا النادر وأسرى قفر يسير لان
السلطان أمر بالابقوا على احدو كان هذا جميعه في اليمينه وبعض القلب اما الميسرة
فما اتصل الصالح بهم الا وقد نجز الامر وقضى القضاء على العدو لبعده المساقين
وكانت هذه الواقعة ما بين الظهر والعصر تم أمر السلطان العساكر الاسلامية
بالرجوع وكانت النصره في هذا اليوم عظيمة جداً للمسلمين ولم يقتل منهم الا عشرة
انفس ومن الصليبيين ثمانية آلاف وقال مؤرخوهم بان عسكر الصليبيين لما
رأى عساكر السلطان قد سافرت طمع في الباقي وطلب من رؤسائهم حرباً عمومية
ضد المسلمين فنعوهم فلم يمتنعوا وخرجوا بدون ارادة رؤسائهم ويعترفون بالواقعة
كما تقدم ويقولون هذا جزاء مخالفتهم لاوامر الرؤساء: وكان المسلمون الذين بالبلد
ينظرون الى هذه الواقعة من أعلى السور ولما علموا بكسرة الصليبيين خرجوا
من البلد وأوقعوا في عسكر الصليبيين قتلاً ونهباً حتى انهم أخذوا القنود وفيها
الطعام وكثيراً من الاقشة

﴿ حصار عكا من البحر ودخول الزاد اليها قهراً ﴾

لما رأى الصليبيون اتصال المدد من البحر الي عكا عزمو على محاصرة المينا من
البحر لمنع دخول مراكب المسلمين اليها وكان ورد للصليبيين مدد من البحر من
فرنساويين وانكليز واطالين تحت رياسة قائدهم هنريكوس كونت دي شمبانيا

ومعهم من آلات الحرب والحصار شيء كثير . وكان السلطان قد أمر بشحن
 بطسة كبيرة بالغلل والبصل والحين والغنم وغير ذلك من الميرة من مينا بيروت
 لان أهل البلد قد اشتدت حاجتهم الى الطعام والميرة فركب في تلك البطسة جماعة
 من المسلمين وتزوا بزى الافرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح
 البطسة لتظهر من بعد وعلقوا الصلبان وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا
 مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم نراكم
 قاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا اولم تكونوا أخذتم البلد فقالوا نأخذ البلد
 بعد فقالوا نحن نرد القلوع الى العسكر ولكن وراءنا بطسة أخرى في هوائها
 فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة أفرنجية قد اتفقت معهم في البحر
 قاصدين العسكر فظروا فراوها فقصدها لينذروها فاشتدت البطسة الاسلامية في
 السير واستقام لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت ولله الحمد وكان ذلك في
 أواخر شهر رجب سنة ٥٨٦ ثم أرسل بهاء الدين قراقوش والي البلد والحاجب
 حسام الدين لؤلؤ مقدم الاسطول الى السلطان في أول شعبان يذكران له انه لم
 يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي البلد الى ليلة النصف من شعبان لا غير فاسرها
 يوسف في نفسه ولم يبدها لاحد لامن خاصته ولامن الحيش خشية الشيع والبلوغ
 الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب السلطان الى مصر بتجهيز ثلاث بطس
 مشحونة بالاقوات والادام والميرو جميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك
 طول الشتاء فاقلمت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تتوخي
 النوتية بها الريح التي تحملها الي عكا فطابت لهم الريح حتى وصلوا اليها
 ليلة النصف من شعبان وقد فئت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك
 اليوم وخرج أسطول العدو يقاتل البطس والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من
 الساحل والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يتهلون الى الله
 تعالى في القضاء بسلامتها الى البلد والسلطان على الساحل كالوادة الشكلي يشاهد
 القتال ويدعوا ربه بنصره وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره وفي قلبه
 ما في قلبه والله يشتهه ولم يزل القتال حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها
 والريح يشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعا يخرق الحجب حتى وصلت
 بحمد الله سالمة الى مينا البلد وتلقاها أهل عكا تلقى الامطار عند جذب وكان
 دخولها وقت العصر رابع عشر شعبان

﴿ احراق منجنقات الصليبيين ومراكبهم واداء الامانة بعد الموت ﴾

ونصب الصليبيون على البلد منجنقات هائلة محكمة على السور وتواترت حجارتها حتى اُرت فيه أراً بئناً وخيف من غائلته فاخذ سهمان من الجرخ العظيم وأحرق نصلها حتى امسيا كالشعلة من النار ثم رميا في المنجنق الواحد فعلقا فيه واجتهد الصليبيون في اطفاء النار فلم يقدروا وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما واتصل اللهب بالآخر فاحرقه واشتدت نارها بحيث لم يقدر أحدان يقرب من مكانهما ليحتال في اطفائهما وكان في أثناء ذلك يرسل السلطان الكتب والمال المخصوص بنفقات العساكر التي داخل البلد بواسطة أناس عوامين ومن غريب ما حصل ان عواماً من هؤلاء العوامين اسمه عيسى مسلماً أخذ كتاباً من السلطان وشد على وسطه ثلاثة اكياس داخلها الف دينار وعام في البحر كعادته (لانه كان يفتس بذلك من وراء مراكب العدو ويخرج في المينا من البحر) فاتاه القضاء المحتوم وكان كلما يصل الى البلد يرسلون طاراً الى السلطان فيعلم بوصوله فلما انتظر السلطان الطائر عن هذه الرسالة فابظا الطائر فاستشعر السلطان بهلاك عيسى العوام فلما كان بعد أيام بينا الناس على شط البحر في البلد واذا البحر قد قذف اليهم ميتاً غريباً فاقتدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب وكان الذهب نفقة المجاهدين فما رؤي من لم يمكنه ان يؤدي الامانة في حال حياته فاذاها بعد وفاته الا هذا الرجل الذي برأه الله مما قالوه فيه وكان يوجد برج اسمه برج الذبان في وسط البحر مبني على الصخر على باب مينا عكا يحرس المينا وكان متى عبره المراكب أمن من غائلة العدو فاراد الصليبيون اخذه لتسقي المينا بمحكمهم ويمنعوا دخول شيء من البطس الى البلد فتقطع الميرة عنها فاجتهد ليوبولدوك دي او طريش وعساكره وعساكر البيزاويه فعملوا على صواري بطسة كبيره برجا وملؤوه حطباً ونفطاً لاجل ان يسيروا فاذا قاربت البرج ولاصقته احرقوا البرج الذي على الصواري ولصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه فيحرقوه من الاعلى ويقتلوا من فيه من المقاتلة ويأخذوه وعبوا بطسة أخرى بالحطب والوقود على انهم يدفعونها الى ان تدخل بين بطس المسلمين ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك من فيها وجعلوا في بطسة نالسة مقاتلة تحت قبو عملوه فيها بحيث لا يصل اليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح حتى اذا احرقوا ما أرادوا احرقه دخلوا تحت القبو فامنوا ثم احرقوا ما أرادوا وقربوا

البطسة من البرج المذكور وكان طمعهم شديداً لان الهواء كان مساعداً لهم فاقعدوا النار واشعلوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج الخشبي بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بهامن المقاتلة ولم يصب البرج بضرر (برج الذبان) ثم احترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق مراكب المسلمين فوثب المسلمون عليها فاخذوها . وأما البطسة التي كان فيها القبو فانهم ازعجوا وخافوا وهما بالرجوع فاختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً فانقلبت وهلك جميع من بها لانهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها فكان ذلك من أعظم آيات الله وقد رد الله كيدهم في نحرهم

﴿ واقعات الدبابات والخندق والكمين ﴾

انشأ الصليبيون دبابات من حديد تشبه البرج على عجل تتحرك بها وفيها المقاتلة ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد وهي تسمى كبشاً ينطح بها السور بشدة وعنف فهدمه بتكرار النطح وآلة أخرى وهي قبو وفيها رجال أيضاً ولها رأس محدد كرأس الحراث ويسمى سفود فرأس الكبش مدور يهدم بثقله والسفود يشق بحدته وفي ثالث رمضان سنة ٥٨٦ زحف الصليبيون على البلد في خناق لا يخصى بدباباتهم فامهلهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى كادوا يلصقونها بالسور ويحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة فاطلق المسلمون عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقتحوا الابواب وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم في الخنادق فهربوا واعمل السيف في من بقي في الخندق منهم ثم هجموا على دباباتهم فلقوا فيها النار والنفط وتمكنوا من احراقها هرب المقاتلة فكان لهيب شديد رارتفعت الاصوات بالتكبير والتهيل وسرت النار بالدبابات من واحدة الى أخرى فاحترقت كلها وعلق المسلمون في الكبوش الكلايب الحديد فجروها وهي مشتعلة حتى أخذوها وأدخلوها في البلد وكانت منشأة من آلات هائلة عظيمة فالتقى عليها اماء حتى برد حديدتها بعد أيام فكانت زنته مائة قنطار وفي يوم الاثنين حادي عشر شوال اقام من الصليبيين على البلد الملك فريديريكوس الصغير ملك النمسا بفرقة عظيمة لمحاصرته وخرج باقي معسكرهم ومعه ميرة أربعة أيام للاجيش والحيل وكان يزك السلطان مخيماً على تل العياضية فلما رأى السلطان ذلك نقل اقبال المسلمين الى ميمون وهي على ثلاثة فراسخ من عكا وكان قد عاد اليه

من سافر من عساكره بعد وفاة ملك النمسا فلق الصليبيين بجيش عرمرم تام التعبئة وولى اولاده الافضل علي والظاهر غازي والظافر القلب واخاه العادل ابا بكر الميمنة المؤلفة من عساكر مصر ومن انضم اليها وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماء ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من امرائه وانفق ان السلطان اخذه مغص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم فسار الصليبيون شرقي نهر هناك حتى وصلوا الى رأس النهر فرأوا عساكر المسلمين وكثرتها فارتاعوا ولقيهم الجاليشية وامطروهم من السهام ما كاد يستر الشمس فتحولوا الى غربي النهر وثبت الجاليشية على قتالهم حتى تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً وكان مقصد الجاليشية ان يحمل الصليبيون عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس ولكن الصليبيين ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وابتوا ليلهم فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخنادقهم والجاليشية في اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرمح وتارة بالسهام وكلما قتل منهم قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ولولا ذلك الالم الذي حدث للسلطان لكانت هذه الواقعة هي الفصل (وانما لله أمر هو بالغه) فاما بلغوا خنادقهم واستكنوا بها لا يخرجون عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الصليبيين خلقاً كثيراً وفي الثالث والعشرين منه كمن جماعة من المسلمين وتحرش بالعدو جماعة أخرى فخرج اليهم بعض عسكر الصليبيين فقاتلوهم يسيراً وطاردوا متقهقرين فبعثهم الصليبيون حتى جازوا الكمين فخرج عليهم من فيه فزقوهم ولم يفلت من سيوفهم احد

❖ في دخول البدل العسكري عكا ❖

لما حل فصل الشتاء وعصفت الرياح خاف الصليبيون على مراكزهم التي يحاصرون بها عكا لانها لم تتمكن من الميناء ولا امكنها رد المسلمين عن دخول البلد فسيروها الى بلادهم صور وغيرها فانفتح طريق عكا في البحر وأرسل اهلها الى السلطان يشكون الضجر والملل والسامة وكان بها الامير حسام الدين ابوالهيچاء المسلمين مقدماً على جندها فامر السلطان باقامة البدل وانفاذه الى البلد واخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني فكان يرسل عليها الى عكا كل جماعة تقدم عليه من العساكر فيحتل البلد ويخرج جماعة فدخل اليها عشرون اميراً وكان بها

ستون فكان الذين دخلوا اقل من الذين خرجوا وأهمل نواب السلطان تجنيد الرجال وانقاذهم وكان على خزانة ماله قوم من النصارى فكانوا اذا جاءهم جماعة قد تجندوا تقننوا عليهم بانواع شتى تارة باقامة معرفة وتارة بغير ذلك فنفرق بهذا السبب خالق كثير وزاد الامر خطارة تواني صلاح الدين نفسه لوثوقه بنوابه واهمال النواب فانتهى الشتاء والامر كذلك وكان من جملة الامراء الذين دخلوا عكا سيف الدين علي بن احمد المشطوب وعز الدين ارسل مقدم الاسديه بعد جولي وذلك في غرة سنة ٥٨٧ هـ وكان قد اشار بعض الامراء على السلطان بان يرسل الى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والاقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام لانهم قد جربوا وتدرّبوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه فلم يفعل السلطان ذلك خوفاً من ان ضجرهم وملهمهم يحملهم على الفشل

﴿ سفر العساكر الصليبية الثالثة في البحر وما جرى لملك الانكليز

بسييليا وقبرص وزواجه ﴾

بعد ان تعاهد ملك فرنسا فيلبس اوغسطوس وملك الانكليز ريكاردوس الملقب بقلب الاسد على المقابلة في مدينة ميسينا بجزيرة سييليا (صقلية) لنصرة الصليبيين باراضي فلسطين سار ملك فرنسا عن طريق جنوى وسازملك الانكليز الى مرسييليا وانتظر اسطوله فلم يحضر حتى ملّ الانتظار فركب سفناً صغيرة وقصد ميسينا وأوعز الى جنده ان يركبوا الاسطول حين وصوله ويلحقوا به . وأخيراً التقى الحيشان في ميسينا على حدود سييليا مما يلي ايطاليا وكان لريكاردوس أخت اسمها جوانا تزوجت بوليم ملك سييليا فبات في شرح شبابه واختلس الملك من أرملته امير اسمه تنكريد واستولى على اموال زوجها فعلم بذلك ريكاردوس في أثناء اقامته بميسينا فعزم على محاربة اهل سييليا ورفع علمه على اسوار ميسينا ولما رأى ذلك الملك فيلبس ملك فرنسا اغتاض منه فامر عساكره بانزال العلم الانكليزي من على السور فعزم ريكاردوس على محاربة فيلبس ولكن ملك فرنسا لكونه اكبر سنامن ملك الانكليز لم يرغب في هذه الحرب وأعمال السلاح المعد لمحاربة المسلمين ضد الصليبيين فركب مراكبه وسار قاصداً فلسطين وأما ملك الانكليز فانه تهدد تنكريد بملك سييليا فأرضاه بمال مقداره عشرون الف اوقية من الذهب . وكان ريكاردوس قد خطب برنجاريادي نافار ولم يتأت له الاقتران بها في انكلترا

خوفاً من التأخر عن الجهاد فأشار بحملها اليه في صقلية فجاءت بها والدته ووقت السفر قد دنا فأجل الزفافي الى وقت آخر وعهد بخطيبته الى اخته جوانا أرملة وليم ملك صقلية المتقدم ذكرها وركب اسطوله وهما معه وسار قاصداً المشرق فهبت عليهم أنواء شديدة قذفت بمراكبهم الى سواحل كريد فاقتصد ريكاردوس الاسطول فعلم ان ثلاثاً من سفنه قد ضاعت وفيها خطيبته وحاشيتها فانفذ من يبحث عن السفن فأبأوه ان اثنتين منها جنحتا عند سواحل قبرص وان ملكها اسحق قتل النوتية وحجر على النساء في ليموسا وطلب من ريكاردوس ان يقدم اليه ليعقدا مؤتمراً فغضب ريكاردوس لذلك غضباً شديداً وسبه بالانكليزية ويقال انها المرة الوحيدة التي تكلم بها ريكاردوس بالانكليزية لانهم كانوا يستعملون اللغة الفرنساوية القديمة (النورماندية) اذ ذلك وأسرع ريكاردوس الى قبرص وخرج الى البر بعساكره وقبض على ملكها وأوثقه بسلاسل من فضة واغتم وجوده هناك فرصة للاقتران بخطيبته برنجاريا فزفت اليه وكان ريكاردوس قد ألف أثناء اقامته في صقلية جمعية من الفرسان سماها (جمعية السير الازرق) لان أعضاءها كانوا يلبسون في أخفادهم اليسرى سيوراً من جلد أزرق وقد تعاهدوا على فتح عكا فسار ريكاردوس بجيشه قاصداً تلك المدينة

﴿ وصول الصليبيين الى عكا ومحاصرتهم لها وقتل بعض أمرائهم ﴾

وصل الملك فيلبس ملك فرنسا الى عكا في ثاني عشر ربيع الاول سنة ٥٨٧ ففرح به الصليبيون وجعلوه رئيساً عليهم وكتب السلطان صلاح الدين الى عز الدين سامة متولي بيروت بمحاربة من يمر به من الصليبيين وكان في أثناء اقامة الملك ريكاردوس ملك الانكليز بجزيرة قبرص قد سافرت بعض مراكبه قاصدة عكا فخرج عليها عز الدين واستولى على خمس مراكب مملوءة رجالاً ونساءً وأمواً وخيلاً وتقدم الصليبيون الى عكا فقصبوا عليها المتخفيات وذلك في رابع جمادي الاولى وأرسل اهل عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس أن يشغل العدو عنهم فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما ضيقوا على البلد فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر واذا رجع عنهم عاودوه وكانت العلامة بين السلطان وأهل البلد انه متى زحف العدو عليهم دقوا صنوجهم فتدق صنوج السلطان اجابة لهم وكان السلطان مخيماً على شفر عم واستبعد منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادي الاولى ثم وصل الملك ريكاردوس في ثالث عشره وكان السلطان لما علم بقرب وصوله قد أمر بتجهيز

بطسه كبيرة مملوءة بالرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسارت من بيروت وفيها
سبعماية مقاتل فلقبها ريكاردوس فقاتلها وصبر من فيها على القتال واحتاطت بها
مراكب الانكليز من كل جانب ولما يئس من بها من الخلاص نزل المقدم الى اسفلها
وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر بها العدو بمن فيها
وما معهم من الذخائر ففرق جميع ما فيها ولما وصل ريكاردوس الى عكا كما تقدم
فرح به الصليبيون وقويت شوكتهم وبالغوا في محاصرة البلد وقتل أهلها ليلاً ونهاراً
واسرعوا الى طمي الخندق وكانوا يرمون فيه جثث الاموات وصنعوا دبابة عظيمة ذات
اربع طبقات الاولى من خشب والثانية من رصاص والثالثة من الحديد والرابعة
من النحاس وكانت تعلق على سور البلد ويركب فيها المقاتلة تخاف منها أهل البلد
وقربها أصحابها من السور فواصل المسلمون رشقها بالنفط ليلاً ونهاراً الى ان
احترقت وزادت شكوى اهل البلد لاستفحال أمر العدو ومواصلة قتالهم ليلاً
ونهاراً من حين قدوم ريكاردوس ثم ناب كلا من ريكاردوس وفلبس مرض شديد
فارسل ريكاردوس الى السلطان صلاح الدين يطب دجاجاً وطيراً وأرسل ثانية
يطاب فاكهة وتلجأ فارسل اليه كل ما طلب والقتال مستمر من الصليبيين
وأهل البلد حتى ضعفت الحامية وبقي أكثر المسلمين بدون نوم عدة ايام لا ليلاً
ولا نهاراً وفي سابع جمادى الآخرة ركب السلطان بالعسكر الاسلامي وزحف على
خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر وجرى قتال عظيم وهو كالوالدة الثكلي يجرى
فرسه من طلب الى طلب ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه بالاسلام وعينه
قد غرقت بالدمع وكلما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على من بها
من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ولم يأكل في ذلك اليوم طعاماً ولما
هجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ثم ركب سحراً
وأصبحوا على ما أمسوا عليه وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها
انا قد بلغ بنا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ونحن في العمد ان لم تعملوا
معنا شيئاً نطلب الامان ونسلم ونشتري مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على
المسلمين فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر لان رجال الصليبيين
وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم
عليهم بعض العسكر من اطرافهم فقتلوا وذبوا غاية الذب . ثم ان الصليبيين بعد
ما أعيتهم الحيلة في الاستيلاء على البلد وانهم كلما عملوا ابراجاً أو دبابات أو كبوشاً

اوغيرها يجرىها المسلمون فعمدوا الى اقامة سور من تراب يستترون وراءه للمحاربة كي لا يصيبهم نشاب ولا سهام من المسلمين باعلى سور البلد ثم أخذوا يمدونه شيئاً فشيئاً الى أن صار قريباً من سور البلد فاختار المسلمون لان العدو قرب منهم وليس في وسعهم ايصال أي اذى اليه لان السور التراب لا تؤثر فيه النار ولا السهام ولم تزل الحرب قائمة حتى ضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فملاها وتقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه فوقعت بدنة من الباشورة ودخل بعض الصليبيين منها فاجتمعت أهل البلد على هذا الثقب وقتلوا ما يزيد عن المائة وخمسين نفساً وكان من ضمنهم كل من روطروا • وتيوددي شامانيا • والكونت دي بلواز واستفانوس دي سانسارًا • وغوي دي شاتيليون • وجفروا دي أومالا • وفيس كونت دي شاتا لارولت • وفلورانت دي انجارس • وراول دي كوزي ثم ان بعض الصليبيين أراد الصعود على سور البلد وكان في مقدمتهم الباريك كلامان فنصب سلماً وصعد عليها الى أن بلغ السور وتبعه بعض رجاله ونصبوا السلم فتكرست بهم ووقعوا جميعاً ولم ينالوا مرادهم وأما الباريك فان المسلمين تكاثروا عليه وقتلوه

﴿ طلب الصلح ودخول الصليبيين عكا ﴾

تابع السلطان صلاح الدين زحفه وهجأته على معسكر الصليبيين لكي يشغلهم عن محاربة أهل البلد ولكنهم لم ينفكوا عن قتالهم ومضايقتهم فامر قايمز النجمي بان يزحف هو وأصحابه الى اسوار العدو وترجل جماعة من امراء الاكراد كالنجاح وأصحابه وهو أخو المشطوب وزحفوا حتى بلغوا أسوار العدو ونصب قايمز علمه بنفسه على سورهم وقاتل عن العلم ووصل عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظراً نجاح الامل ولما علم السلطان بان عكا قد وهنت أرسل الى جماعة من فيها سرراً وقال لهم خذوا من العدو حذراً وأتفقوا واخرجوا ليلاً من البلد يداً واحدة وسيروا الى جانب البحر وصادموا العدو بالقهر واتركوا البلد بما فيه فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ولم يعلم ان التهاه به يهلكه فما تمكنوا من المراد حتى اسفر الصباح ولم يصح كذلك في الليلة الثانية لوصول الخبر الى الصليبيين فخرسوا الجوانب والابواب ثم ان الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب وكان هو مقدم العسكر في البلد خرج الى ملك

فرانسا فيايس أوغسطوس وقال له انا قد أخذنا منكم بلاداً كثيرة وكنا نهدم البلد
وندخله ومع هذا اذا سالونا الامان أعطيناهم وحملناهم الى أممهم وكرمانهم ونحن
نسلم البلد وتعطينا الامان على انفسنا وبعد مداولة ملك فرانسا مع ديوان المشورة
العسكري قال انه لا يعطي الامان للمسلمين الا بعد ان يرجعوا مدينة القدس وجميع
البلاد التي استولوا عليها بعد حرب طبرية (سواحل سوريا) فانظر فرق المعاملة
بين المسلمين في استيلائهم على المدن من الصليبيين وكيف كانوا يعطونهم الامان
ويوصلونهم الى الجهات التي يريدونها ومعاملة هؤلاء الصليبيين لعساكر عكا المسلمين
وعدم اعطاهم الامان) فاغاظ المشطوب له القول وانصرف عنه ولما دخل البلد
بهذا الخبر خاف جماعة من الامراء فاخذوا لهم بركوسا وهو مركب صغير وركبوا
فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي منهم عز الدين ارسل وحسام الدين تيمرتاش
ابن الجاولي وسنقر الوشاتي وهو من الاسدية الاكبر ثم ان سيف الدين المشطوب
اتفق مع الصليبيين على تسليم البلد بجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب
ومائتي الف دينار والنف وخمسة أسير مجاهيل ومائة أسير معينين من جانبهم
يختارونهم وصيلب الصلبوت على انهم يخرجون بانفسهم سالمين وما معهم من
الاموال والاقنشة المختصة بهم وذرايرهم ونسائهم وضمنوا لكونراد صاحب صور
عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة الصلح ولاصحابه اربعة آلاف ولما وقف
السلطان على ذلك انكره وأعظمه وعزم على ان يكتب اليهم بانكار ذلك وجمع
أمراء وأصحاب مشورته فاحس المسلمون الا وقد ارتفعت اعلام الصليبيين
على اسوار البلد وذلك ظهيرة يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وهكذا دخلوا
البلد صلحاً بعد حصار سنتين وسفك دماء كثيرة وموت نيف ومائة الف مقاتل
كما قال مؤرخوهم ونصه « بعد ما ينيف عن مدة سنتين من حصار هذه المدينة
باتعب وشدائد وأعمال كلية وحروب شديدة دخلها المسيحيون آمنين في اليوم
الثالث عشر من شهر حزيران سنة ١١٩١ ونشروا بيارق الصليب فوق أسوارها
فهذه كانت نهاية حصار عكا الذائع الصيت الذي فيه سفكت دماء عظيمة المقدار
والصليبيون ندبوا فيه فقدان عدد وافر من كل ذي رتبة من الشجعان ضمن
نحو مائة معركة حربية خصوصية وتسع حروب عمومية عظيمة حدثت أمام
اسوار هذه المدينة بعساكر كانت اجواقها تحضر وتبتدي بالحرب بعد ان تكون
العساكر التي قبلها قد تلاشت اما تماماً او في اكثر اجزائها بعد ان تصل المراكب

العديدة التي كانت تتوارد من جميع ميين بلاد المغرب حاملة طغمت من المقاتلين الذين كانوا يتقاطرون من دكين نزولا حول تل طورمان وفوق ارمال بيولوس وبالاجمال انه في مدة هذا الحصار قد حصدت سيوف الاسلام وانواع الامراض الرديئة من الصليبيين نحو مائة الف مقاتل « وكان لما اتفق المشطوب مع الصليبيين على الصلح حدد لتحصيل المال والاسرى مدة شهرين فلما حلفوا له على ذلك سلم البلد اليهم ودخلوا سالما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى اموالهم وحبسوهم وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما يذل لهم وراسلو السلطان في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال فلما اجتمع عنده من المال مائة الف دينار جمع الامراء واستشارهم فاشاروا بان لا يرسل شيئا حتى يجددوا الحلف باطلاق أصحابه وان يضمّن رجال جمعية الداوية (الهيكليين) ذلك لانهم اهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لا نحاف ولا نضمن لاننا نحاف غدر من عندنا ثم قال ملوك الصليبيين اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار في من عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيئا وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء فقالوا لا نحلف ولا نفعل شيئا من ذلك بل تسلمون المال الذي تحصل والاسرى والصليب وتقعون بأمانتنا حتى نسلم اليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه انهم اذا تسلموا المال والصليب والاسرى بدون رهن لا يؤمن غدرهم فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم الى ظاهر خنادقهم بجميع عساكرهم وركبوا في وقت العصر في اليوم السابع والعشرين من رجب وساروا حتى اتوا الابرار تحت تل العياضية ثم أحضروا من الاسرى المسلمين نحو الثلاثة آلاف وأوقفوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف (وهي نقطة سوداء في تاريخ ريكاردوس) وانيزك الاسلامي يشاهد الصليبيين ولا يعلم ماذا يصنع لبعده عنهم وكان اليزك قد انفذ للسلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم فانفذ الى اليزك من قواه وبعد ان فرغ الصليبيون من قتل الاسرى حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة قتل فيها وجرح من الجانبين خلق كثير ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم قنولاهم حزن شديد أما الصليبيون فانهم

لم يقبوا من الاسرى الا المقدمين والاقوياء للعمل فتصرف السلطان في المال المجموع
وأرسل أسارى الصليبيين وصيلب الصليبوت الى دمشق

﴿ رمي علم النمسا في الخندق وسفر ملك فرانسالى بلاده ﴾

لما دخل الملك فيلبس ملك فرنسا وريكاردوس ملك الانكليز مدينة عكا كما
تقدم اقتسما بينهما خزان القوت وذخائر الحرب وكل ما كان فيها وكان الملك
فيلبس قد استعمل الرفق واللين في عسكره بخلاف ريكاردوس المتصف دائماً بالحقق
وحدة الطبع والشراسة ضد عساكر الصليبيين انفسهم ومن ذلك انه عند مادخلوا
المدينة ورفعوا اعلامهم على أسوارها رفع ليوبولدوس دو ك دي او طريش
(ملك النمسا) علمه على احد ابراج المدينة فغضب ريكاردوس من ذلك وأمر بنزع
علم النمسا ورميه في الخندق فلما فعل ذلك تألم ليوبولدوس باظناً ولم يظهر غيظه من
هذه الاهانة وكتمها في قلبه وحرم على عساكره الانتقام عن هذه الاهانة قائلاً
لهم سوف أنتقم بنفسى من عدوى عند وجود الفرصة ثم ان كوزاد صاحب
صور لما وجد شدة معاملة ريكاردوس انسحب بعساكره من عكا راجعاً الى صور
ولهذا السبب أيضاً عزم الملك فيلبس اوغسطوس ملك فرانسالى العود الى
بلادته وخصوصاً لما اعتراه مرض ضيق الصدر ولم يعد يحتمل كبر ملك الانكليز
ولعلمه انه لا يمكنه الاقامة مع ريكاردوس بالمسألة ففرح بذلك ريكاردوس لابتعاد
ملك مثل هذا عنه لكونه كان يشاركه في الانتصار والكسب ثم التمس من الملك
فيلبس القسم انه في رجوعه الى مملكته لا يمارس شيئاً ضد بلاد الانكليز ولا
يتعرض لها مدة غياب ريكاردوس عنها فخلف له على ذلك ثم سافر من عكا بجرأ
الى مدينة صور وترك من جيشه الفرنساوي عشرة آلاف محارب تحت رياسة الدوك
دي برغونيا ثم سافر من صور قاصداً بلاده وقال مؤرخوهم « سافر الملك فيلبس
بعد ان اهداه السلطان صلاح الدين هدايا عظيمة لانه كان رأى فيه صفات جليلة
بعكس غيره من الصليبيين وانه هو أعظم ملوك اوروبا ووصل الى مدينة روميه
وزار قبور الشهداء وقابله اهلها باحتفالات عظيمة ثم سار منها الى مملكته فدخل
مدينة باريس باحتفال عظيم »

﴿ سفر ريكاردوس من عكا وواقعة ارسوف وتخريب عسقلان ﴾

بعد سفر الملك فيلبس من عكا الى بلاده صار الرئيس على جميع الصليبيين

الملك ريكاردوس فبعد ترتيبه عكا جعلها مستقراً لزوجته برنجاريا وقد اخذه طمع
 فتح البلاد فجمع من العساكر الصليبية مائة الف ورفع علمه على سارية مقامة على
 اربعة دواليب نجر بمعدل في وسط جيشه نوى الاستيلاء على عسقلان ويافاو قيسارية
 وكان ذلك في أول شعبان سنة ٥٨٧ وسار نحو حيفا على شاطئ البحر لا يتعد
 عنه فلما سمع السلطان برجيلهم نادى في معسكره بالرحيل فساروا وكان على البرك
 الملك الافضل نجل السلطان ومعه سيف الدين ايازكوش وعز الدين جرديك
 فضايقوا الصليبيين في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا
 على ساقه الصليبيين فقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة فعاد ريكاردوس الى
 الساقه فحماها وجمعهم وساروا حتى اتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون
 بالقرب منهم وقدم السلطان ثقله الى مجدل بابا ثم سار الصليبيون الى
 قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه فيقتلون لان السلطان
 كان قد اقمم انه لا يظفر باحد منهم الا قتله اخذاً بثار من قتلوله ممن كان في عكا
 فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقتلواهم قتالا شديداً ونزل الصليبيون بنهر
 القصب وبات المسلمون قريباً منهم وفي اثناء اقامتهم على نهر القصب خرج من الصليبيين
 جماعة مسترسلين وتقدموا على البركة فبصر بهم ابن المقدم فعبر اليهم من ورائهم هو
 ومن معه وهم لم يأخذوا من خلفهم الحذر ففاجأهم وجمعهم وفرغ من القتل والاسر
 فيهم قبل ان يدركهم المدد ثم نهض الصليبيون اليه وحملوا عليه وجرت وقعة شديدة
 انتهت بهزيمة الصليبيين واحضر الاسارى لدى السلطان ثم رحل السلطان وعبر
 شعراء ارسوف ونزل على قرية تعرف بدير الراهب وكان المسلمون قد سبقوهم اليها
 ولم يمكنهم مسيرتهم لضيق الطريق فلما وصل الصليبيون حمل المسلمون عليهم حملة
 منكرة الحقوهم بالبحر فقتل منهم كثير والمسلمون يكبرون ويهملون ثم ان الصليبيين
 اجتمعوا وحملوا حملة واحدة وفي مقدمتهم ريكاردوس الشجاع وفرسان جمعية ضياف
 الغرباء (الاستباريه) وكانت هذه المعركة عمومية وقد اظهر فيها ريكاردوس من البسالة
 والشجاعة العجيبة وقتل من أمراء الصليبيين يعقوب دي افسناس وفي حال وقوعه
 صرخ قائلاً ياريكاردوس انتقم من الاعداء عن موتي وولى المسلمون منهزمين لايولي
 أحد على أحد وكان كثير من السوق قد الفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة
 فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ
 المنهزمون الى القلب الذي فيه السلطان صلاح الدين وكان بالقرب من المسلمين شعراء

(غابة) كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الصليبيون مكيدة فعادوا عنهم وزال عن المسلمين ما كانوا فيه من الضيق وقتل من المسلمين اياز الطويل مملوك السلطان صلاح الدين وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله وقد اشتهرت شجاعته بين العسكريين بحيث انه اذا كان في موضع وعرفه الصليبيون خفاوانه وسبب قتله سقط جواده فلما رأى السلطان ما حل بالمسامين سار حتى اتى عليه فوقف فيه ودق الصنوج فاجتمع في الطلب خلق كثير ووقفت الصليبيون قبالتهم على رؤس التلول والروابي ثم رجعوا الى منزلهم لخوفهم من وجودكمين وتراجعت باقي العساكر المنهزمة والجرحى وصدم الملك الافضل وانفتح دمل كان في وجهه . ثم سار ريكاردوس بمعسكر الصليبيين الى يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين فلكوها واقاموا بها واخذوا في بناء الاستحكامات فيها أما السلطان صلاح الدين فانه رحل باقاله الى مدينة الرملة تاسع عشر شعبان وهناك عقد مجلساً من أخيه الملك العادل وأمراء المسلمين واشتشارهم فاشار علم الدين بن سلمان بن جنسدر بخرابها للعجز عن حفظها على ما بها وواقفه الجماعة على ذلك وقالوا ان الصليبيين قد تقووا باخذ عكا وما فيها من الاسلحة فلم تسمح نفس السلطان بتخريبها ونذب الناس الى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد وقالوا هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل الى حفظ المدينتين فاعمد الى اشرف الموضعين فخصنه وحكمه فنقر الرأي على اقامة العادل ومعه عشرة من الامراء بقرب يافا حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم وسار السلطان حتى اتى عسقلان وضرب خيمته شمالها فبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان وقال والله لان افقد اولادي كلهم أحب اليّ من ان أهدم منها حجراً واحداً ولكن اذا قضى الله بذلك لحفظ منفعة المسلمين فكيف أصنع فاستحضر الوالي وأمره بذلك وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة ورجا يخرّبونه ودخل الناس البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء وشملهم عليه حزن عظيم وكان هو بنفسه وولده الافضل يحثان الناس على الخراب خشية ان يسمع العدو فيحضر ولا يمكنهم من خرابها وابعدهم الناس الذي كان ذخيرة في البلد وأمر بحرق البلد فاحترقت والاحبار تتوارد من جانب الصليبيين بعمارة يافا وكان عرض سور عسقلان تسعة اذرع وفي بعض مواضع عشرة واحرق برج الاسبتارية وذلك لغاية آخر شعبان

❖ في وقوع ريكاردوس في الاسر ونجاته وعرض زواج أخته جوانا

❖ بالملك العادل

ما كان السلطان صلاح الدين مهتماً بتخريب مدينة عسقلان وصله من عز الدين جرديك كتاب يذكر فيه ان الصليبيين قد تقسموا وصاروا يخرجون من يافا ويعبرون على البلاد القريبة منها ويطلب تحريك السلطان لعله يبلغ منهم غرضاً في عزاتهم فعزم على الرحيل وفارق عسقلان في يوم الثلاثاء ثاني رمضان سنة ٥٨٧ ونزل بالرملة يوم الاربعاء ثالثه وأمر بتخريب حصنها وتخريب كنيسة اللد وركب جريدة الى القدس فوصله يوم الخميس رابعه لاجل تقويته وخرج منه يوم الاثنين ثامنه وفي هذا اليوم خرج ريكاردوس وبعض خاصته لالتزه والصيد بين حقول صارون وجلس تحت شجرة هو ومن معه من الامراء والعساكر ففاجأته العساكر الاسلامية فركب هو ومن معه خيولهم ولكن قد كانت احاطتهم العساكر الاسلامية من كل ناحية فلم يقدروا على المدافعة عن أنفسهم فخاف ريكاردوس من سقوطه بيد المسلمين (فكان المسلمون لا يعلمون انه الملك) فاراد أحد خاصته وهو وليم دي براتراس المولود في اقليم بروفاص بفرانسا ان يجي ريكاردوس وكان وليم هذا لابساً ملابس أفرخ من ملابس ريكاردوس فنادى المسلمين بالعربية قائلاً (آواه يا شجعان احفظوا لي حياتي أنا هو الملك) فهجم عليه فرسان المسلمين وشدوا وناقوه وأخذوه أسيراً وبهذه الحيلة نجا ريكاردوس وهرب الى يافا لان المسلمين فرحوا باسره وليم ظانين انه الملك ولما علموا خطأهم أرسلوه الى دمشق ليسجن بها . اما ريكاردوس فانه أراد مكافأة هذا الامين على أمانته فطلب من السلطان صلاح الدين اطلاقه وفداه بعشرة امراء من المسلمين المأسورين عنده وتم ذلك فعلا وكان السلطان قد نزل على النظرون في ثالث عشره وخيم بها فراسله ريكاردوس يطلب المهادنة وكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب باصر ريكاردوس وأعلموه بان للملك أختاً اسمها جوانا كانت متزوجة بوليم ملك صقلية ومات ويرغب تزويجها للملك العادل بالشروط الآتية : ان يكون القدس وجميع بلاد الساحل التي بأيدي المسلمين للملك العادل وتكون عكا وما بيد الصليبيين من البلاد الى جوانا اخت ريكاردوس وان فرسان جمعية الهيكلين (الداوية) وجمعية ما ري يوحنا المعمدان (الاستبارية) خاضعين لهذا الاتفاق وان الملك العادل يقطعهم البلاد والقرى دون الحصون فلما وجد ذلك الملك العادل صواباً

ونافعاً لمصالح المسلمين عرضه على أخيه السلطان صلاح الدين فأجابه الى ذلك فلما شاع الخبر في معسكر الصليبيين اجتمع القيسيون والاساقفة والرهبان عند جوانا أخت ريكاردوس وانكروا عليها ذلك وخوفوها واتهموها في دينها وقالوا هذه فضيحة فظيعة ونسبة شنيعة وتكونين عاصية للمسيح فرجعت عن قصدتها

✽ مراسلة ريكاردوس لصلاح الدين بالصلح وما جرى بعد ذلك

وتعمير بيت المقدس ✽

وبعد ذلك أرسل ريكاردوس الى السلطان صلاح الدين يقول له ان المسامحين والصليبيين قد هلكوا وخربت البلاد وتلفت الاموال والارواح وان هذا كله بخصوص القدس والصليب والبلاد وحيث ان القدس متعبداً فلا نزل عنه ولو لم يبق منا واحد وأما البلاد فيعاد لنا ما هو قاطع الاردن وأما الصليب فهو خشبة عندهم لا قيمة لها وهو عندنا عظيم الشأن فيمن به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم فأرسل له السلطان في جوابه ان القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندهم فانه مسرى نينوا ومجتمع الملائكة فلا يتصور ان نزل عنه ولا تقدر على التلطف بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الاصل واستيلائكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين ذلك الوقت وأما الصليب (صليب الصلבות) فأتلافه عندنا قربة عظيمة لا يجوز ان نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام . ثم تواتر الخبر ان الصليبيين عزموا على النهوض ففسار السلطان من مخيمه بالنظرون الى الرملة سابع شوال سنة ٥٨٧ هـ وحصلت واقعة في ناحية يازور في ثامنه وكان النصر فيها للمسلمين وقد منهم ثلاثة وفي سادس عشره وقعت واقعة أخرى عظيمة قتل فيها جماعة من الامراء وأسرى فارسان من الصليبيين معروفان بالبأس سوى غيرها وقتل منهم زهاء ستين وورد خبر بان الاسطول المصري استولى على مراكب الصليبيين وفيها مركب تعرف بالمسطح وفي ثامن عشره اجتمع الملك العادل وريكاردوس على طعام ومحادثة وانفصلا على توادد ومطايبة وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان صلاح الدين فامتنع السلطان وقال الملوك اذا اجتمعوا تقبح بينهم المحاصمة بعد ذلك واذا انتظم أمر حسن الاجتماع وفي ثالث القعدة رحل الصليبيون الى الرملة وأظهروا قصد القدس بتلك الرحلة ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم وفي الثالث والعشرين من شهره رحل السلطان الى القدس ينوي الاقامة وكان الشتاء

قد حلّ والغيث قد اتصل فوصل القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء المجاورة
كنيسة القمامة وفي ثالث الحجة وصلت العساكر المصرية بقيادة أبي الهيجاء السمين
ومعها أموال وتحول الصليبيون الى النطرون فقوى السلطان البزك فوقعوا على سرية
فغنموها وساقوا منها الى القدس ما يزيد عن خمسين أسيراً عدا من قتل منهم
واقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيزر يوم عيد الاضحى ففجر منهم وضحي
واحتوي على عشرة من مقدمهم اسرا وقتلا وانهمز باقي الصليبيين في الجبال وتركوا
خيلهم فغنمها المسلمون ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدة مقامهم بالنطرون
وأخذوا يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بما فيها ولم يقدر
الصليبيون على تحليصها فرحلوا عائدين الى الرملة في الثاني والعشرين من شهره
وكان السلطان قد شرع في تحصين القدس وعمارة أبراجه وأسواره وحفر خنادقه
وأرسل الى البلاد بجمع رجال هذه الاعمال في هذا اليوم وصل من الموصل خمسون
رجلا لقطع الصخور من الخندق وأقبل الامراء للعمل فيه وعمل فيه السلطان بنفسه
بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء وقد قال الرشيد

ابن النابلسي من قصيدة له عن قصد الصليبيين المقدس

ويح الفرنجية بل ويل أمهم أو ما	فيهم لبيب على العلات يعتبر
فكم نثرهم ضربا اذ انتظموا	وكم نظمهم طعناً اذ انتثروا
كم قد سقيتهم ذلاً فلا عجب	ان عربدوا سفهاً فالقوم قد سكروا
ان يموك فلا بدع لجهلهم	تسعى الى الاسد في غاباتها الحمر
زاروا نموراً ولا تغني وقاحتهم	اذا أسودك في أباطهم زاروا
فخام عن حوطة البيت المقدس لا	خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما	فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها	وتحصد الفئة الاوغاد ما بذروا

وقد قسم السلطان سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فشرعوا في انشاء
سور جديد وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قروبوس سرجه فيتبعه الاكابر
والامراء في نقل الصخور واهتم السلطان بذلك اهتماماً زائداً

﴿ بناء الصليبيين مدينة عسقلان وما جرى في أثناء ذلك وغضب بعضهم ﴾

عقد الصليبيون مجلس شورا هم الملكي فقرر مسيرهم الى عسقلان وتعمير أسوارها
التي هدمها السلطان صلاح الدين وكان هذا على غير مرام العساكر الصليبيين

فغضب اللوك دي برغونيا وخرج هو وعساكره الفرنسية من تحت سنجق الصليب فأرسل اليه ريكاردوس وفداً لمصالحته وارجاعه وفي ثالث محرم سنة ٥٨٨ سار ريكاردوس بالمعسكر الصليبي الى عسقلان فشرعوا في بناء اسوارها وكان ريكاردوس يحثهم على ذلك ويطوف حولهم ثم ان بعض امراءهم شكوا من ذلك التعب وقالوا ما اتينا من بلادنا الى آسيا لنبتني المدن بل لتخليص القدس من أيدي المسلمين وكان الامير ليوبولدوس دي اوطريش هو وجيشه النمساوي ممتعاً عن الشغل وقال لريكاردوس اني لست حداداً ولا نجاراً ولا بناء ثم انه سحب عسكره وخرج عن معسكر الصليبيين بغضب وكذلك بعض الامراء قد أهملوا معسكر الصليبيين راجعين الى وراهم أما ريكاردوس فلم يهتم لهم وداوم في بناء السور وفي أثناء ذلك نظر ريكاردوس من بعد دخاناً فقصدته وكان ذلك جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وهم لا يعلمون بما دهمهم فوصل اليهم ريكاردوس وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين فلما وقع على احدهما ركب الفريق الثاني وواقعته حتى ركب الفريق الاول فدافعوهم وواقعوهم وساقوا قدامهم اتقاهم وخلصوا ناجين وسلم المسلمون من أعدائهم ولم يفقد منهم الا اربعة وكانت وقعة عظيمة دفع الله خطرها وهول ضررها وفي حادي عشره كبس عز الدين جرديك تني على من نزل بها من الصليبيين فأوقع بهم البلاء وساق منهم اثني عشر أسيراً ومتاعاً كثيراً وأغار ايضاً على ظاهر عسقلان في ثاني صفر وجاء بثلاثين اسيراً وفي ليلة رابع عشر صفر كتبت سرية مقدمها فارس الدين ميمون القصري عند تني الى ان عبرت قوافل الفرنج فساقها باحمالها واتقاهلها ونسأها ورجالها

﴿ في عزم ريكاردوس على السفر الى بلاده وموت كونراد ﴾

صاحب صور وغيره ﴿

اجتمعت العساكر الصليبية في سهل عسقلان للاحتفال بعيد الفصح واذا بوفد قد اقبل من بلاد الانكليز قاصداً ملكهم ريكاردوس وأخبروه بان اخاه يوحنا خرب المملكة واستولى عليها فلما سمع هذا الخبر جمع اليه رؤساء العساكر وأعلمهم بما جرى وانه يرغب السفر الى بلاده فتكبدوا لذلك وشرعوا في انتخاب رئيس عليهم بدلا منه يكون ذا كفاءة فانتخبوا الامير كونراد صاحب

مدينة صور ذلك الرجل المشهور بالمكر والدهاء وهو السبب في تجريد هذه الحروب الصليبية الثالثة وكان كونراد هذا مقبلاً بمدينته فارسوا اليه وفداً يعلمونه بانتخابهم هذا ففرح بذلك اهل مدينة صور وعسكره وشرعوا في الاحتفال بعيد له وكان ذلك في ثالث عشر ربيع آخر سنة ٥٨٨ وكان رجلاً من الاسماعيلية الحشاشين دخلاً مدينة صور قبل ذلك بمدة وتنصراً وأظهروا الترهيب والتعبد ولزما الكنيسة وشكرهما القسيسون والرهبان وأحبهما كونراد (وهو لا يعلم بأنهما سيكونان قاتليه) ولم يكن يصبر عنهما ففي اليوم المذكور الذي هو أعظم الايام يوم ورود الخبر بانتخابه رئيساً على جميع العساكر الصليبية وثب عليه الاسماعيليان وجرحاه جراحاً بليغة واحتفى احدهما بكنيسة فاتفق ان كونراد حمل اليها لتسد فيها جراحاته فوثب عليه الاسماعيلي ثانياً واجهز عليه فقبضوا عليهما وسألوهما عن اسباب ذلك فقالوا ان الذي أغرانا هو ريكاردوس (ولكن مؤرخي الصليبيين قد برأوا ريكاردوس من ذلك وبعض مؤرخي العرب قال ان السلطان صلاح الدين أرسل الى سنان رئيس الاسماعيلية يقول له أرسل من يقتل ريكاردوس او كونراد ولما علم سنان بان قتل ريكاردوس صعب أرسل هذين الرجلين الى صور وجرى ما تقدم) ثم بعد قتل كونراد المذكور تزوج أرمته هنري دي شمبانيا وعمه ملك فرنسا فيليب وخاله ملك الانكليز ريكاردوس فأقيم ملكاً على صور ثم ان خاله ريكاردوس لتصميمه على السفر تنازل له عن البلاد التي امتلكها فسار هنري الى عكا فقابلوه باحتفال لائق بملك لهم . وفي اثناء ذلك قدم من بلاد الانكليز وفد آخر جدد قلق ريكاردوس وانزعاجه بما أخبروه عن بلبلة مملكته من اعمال اخيه يوحنا وبان الملك فيليب ملك فرنسا قد هدد أمارة نورماندية

﴿ في تقرب الصليبيين الى القدس ورجوعهم عنه بقرار مجلس مشورتهم

﴿ وما فعله السلطان ﴾

لما اتت الوفود من بلاد الانكليز الى ريكاردوس وعزم على السفر وولى ابن أخته على بلاد فلسطين اراد ان يظهر اثرأ من شجاعته أمام الصليبيين لتكون تذكاراً له فجمع عسكره بجهة الرملة وفي تاسع جمادي الاولى سنة ٥٨٨ سار الى قاعة الداروم فاستولى عليها وخرها وكان السلطان صلاح الدين لدخول فصل الشتاء قد أمر باعادة العساكر الى بلادها (وهو مقم بالقدس الشريف) ليستريحوا ولم

يبقى الا بعض العساكر المصرية معه فلما علم بذلك ريكاردوس فرح وظن انها فرصة مناسبة له وأراد اغتنامها فسار بالعساكر الصليبية حتى بلغوا بيت نوبة وبينها وبين القدس عشرون ميلا وقد ألهمهم المسلمون بنهم وأضعفهم بسلبهم يتسلطون عليهم من كل ناحية ويكمنون لهم تحت كل رابية وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس وفي آخر شهره وصل ريكاردوس الى قلونية وهي على فرسخين من القدس فلما سمع السلطان صلاح الدين بقرهم فرق ابراج البلد على الامراء واستعد للقتال فلما وصلت الصليبيون الى قلونية صب المسلمون عليهم البلاء وتابعوا ارسال السرايا فبلى الصليبيون بما لا قبل لهم به فامر ريكاردوس بعقد مجلس مشورتهم مؤلفاً من خمسة أعضاء من جمعية الهيكليين (الداوية) ومن خمسة أمراء فرنساويين ومن خمسة أمراء من اهل سوريا فقام انعقاد هذا المجلس جملة ايام وكان الاعضاء الفرنساويون قد طلبوا حصار القدس عاجلاً لعلمهم بان العساكر الاسلامية في أجزائها وباقي الاعضاء قرروا بان هذه الاشاعات غير حقيقية وانها فقط حيلة وشرك وانه لا يجوز حصار هذه المدينة لانها الآن في غاية القوة خصوصاً لوجود السلطان بها وبعد مناقشات قرروا بأغلبية الآراء بعدم حصار هذه المدينة المقدسة والرجوع عنها والتوجه الى الديار المصرية ومحاصرة مدينة القاهرة. (فانظر قرار مجلس مشورة الصليبيين الثالثة وكيف انها خرجت من بلادها بقصد تخليص القدس من المسلمين والآن قرروا بعدم حصاره ومحاصرة القاهرة كأن القاهرة هي بيت المقدس الذي فيه قبر المسيح على دعواهم) مع ان هذا القرار جاء كما قال مؤرخوهم مذهلاً مبليلاً. وكان السلطان صلاح الدين أحضر عنده جميع الامراء وفي مقدمتهم الامير أبي الهيجاء السمين والمشطوب والاسدية بأسرهم فقام فيهم القاضي ابن شداد خطيباً يحثهم على الجهاد ومما قاله ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الامر بايعه الصحابة على الموت في لقاء العدو ومحن أولى من تأسى به والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت فعمل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكت زماناً وهو يفكر والناس سكوت كان على رؤوسهم الطير ثم قال الحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته وانتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذراتهم معلقة في ذمكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه الا اتم فان لو يتم أعتكم والعياذ بالله طوي البلاد كطي السجل للكتاب وكان

ذلك في ذمتكم فانكم اتم الذين تصدتم لهذا كله وأكتم مال بيت مال المسلمين فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يامولانا نحن مماليكك وعييدك وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك والله ما يرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت وقال الجماعة مثل ما قال فانسبطت نفس السلطان وانصرف من المجلس ثم اجتمع جماعة المماليك عند ابى الهيجاء السمين وأنكروا موافقة الامراء للسلطان على حصار القدس وقالوا انهم يخافون ان يحصروا بالقدس ويجري عليهم ما جرى على اهل عكا وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام وطلبوا ان يعمل مضاف فاما ان يكون النصر للمسلمين فيستولوا على باقي فلسطين واما ان يكون النصر للصليبيين فيأخذوا القدس واذا كان لا بد من الحصار فيكون بعض أقارب السلطان معنا أو هو معنا لان الاتراك لا يدينون للاكراد والاكراد لا يدينون للاتراك وكان ذلك في يوم الخميس وفي يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة وصار يتضرع الى الله سبحانه وتعالى وهو ساجد ودموعه تتقاطر على مصلاه ويطلب من الله النصر ويقول اللهم انصر دينك واحم بيتك المقدس واحفظ عبادك المسلمين انك سميع مجيب وفي صباح يوم السبت وصل مكتوب من عز الدين جرديك في البرك يفيد بان الصليبيين قد رجعوا جميعهم بعد قرار مجلس مشورتهم كما تقدم وكفى الله المؤمنين القتال

وكان ريكاردوس قد استعمل جواسيس من أهل سوريا ليأتوه باخبار المسلمين وكان قادماً بعض عسكر من مصر ومعهم قوافل للتجار فاقاموا بتابلس أياماً حتى اجتمعوا فأتى الجواسيس الى ريكاردوس وأعلموه بذلك فامر عسكره بالانحياز الى سفح الجبل وركب في الف فارس والف راجل فأتى تل الصافية فبات ثم سار حتى أتى موضعاً يقال له الحسي فانفذ السلطان الى هذا الركب يعلمه بنهوض الصليبيين نحوهم وأمرهم ان يبعدوا في البرية فركب ريكاردوس بصفة بدوي (اعرابي) مع بعض جواسيسه وسار حتى أتى الركب وطاف حوله بالصفة المذكورة ورأهم ساكنين قد غشيم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبة قرية الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله وداهمهم وكان الشجاع منهم الذي يركب فرسه وينجو وانقسم الركب ثلاثة أقسام قسم قصد الكرك مع جماعة من العرب وقسم أوغلو في البرية مع جماعة من العرب أيضاً وقسم استولى العدو عليه فساقهم بجمالمهم وأحالمهم

وجميع ما معهم وكانت واقعة شغناء لم يصب الاسلام بمنزلها من مدة مديدة وتبدد الناس في البرية وتركوا متاعهم وجمع ريكاردوس كثيرا من الخيل والبغال والاقشة وغيره وسار بالجميع الى معسكره فوصله في السادس عشر من جمادى الآخرة وكان يوماً عظيماً عندهم

﴿ استيلاء السلطان على يافا ومحاربه ريكاردوس ﴾

وباغ السلطان في العاشر من شهر رجب سنة ٥٨٨ بان الصليبيين قد خرجوا من عكا قاصدين بيروت فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الحيب وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل السلطان من الحيب الى بيت نوبة . ثم رحل الى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة واللد وركب جريدة حتى اتى يازور وبيت حن وأشرف على يافا ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره فجعل في اليمينه ولده الظاهر وفي اليسرة اخاه العادل وركب عليها المتجنقات وزحف عليها فارسل من بها يطلبون الصلح فاجابهم على قاعدة القدس وقطيعته فرضوا بذلك وطلبوا الانتظار الى يوم السبت التاسع عشر من رجب اما ان يقيمهم نجدة والا تكون القاعدة على ما استقر فابى السلطان وامر بالتقب فحشي وأحرق فوق بعض السور فعلا الغبار مع الدخان فآظم الافق وما يجاسر أحد على الدخول خوفاً من اقتحام النار فاما انكشف الغبار ظهر وقوف الصليبيين بأسلحتهم في الموضع المهذوم وجد السلطان في القتل ورمي المتجنقات فارسلوا يطلبون الصلح فقال لهم على قطعة القدس فسألوا السلطان ابطال القتال الى ان يأتي من داخل المدينة بقرار الصلح فقال السلطان ما أقدر على منع المسلمين من هذا الامر وقاتل المسلمون قتالاً شديداً وأخذوا البلد عنوة ودخلوها ونهبوا من الاقشة العظيمة والقالل شيئاً كثيراً وبقيت من مهوبات القافلة المصرية وبعد دخول المسلمين استقرت القاعدة على ما قرره السلطان وكان قايمز النجمي في طرف الغور لحميته من عسكر الصليبيين الذي بعكا فوصل منه كتاب بان ريكاردوس عدل عن قصد بيروت لما سمع باخبار يافا وقد جمع عسكره في المراكب وعزم على قصد يافا فاشتد عزم السلطان على تمة الامر وتسلم القلعة لانه لم يستول بعد عليها فطلبوا منهم الخروج من القلعة حسب الاتفاق فخرج البعض والباقي رأى مراكب الصليبيين قادمة فعلموا بانها نجدة لهم فشقوا عصا الطاعة قابضاً ريكاردوس بنزوله الى البر فخاف من بالقلعة وأرسلوا بطرهم وغيره في طلب الصلح كما كان ويعتذر عنهم وكان ريكاردوس لما وصل الى مينا يافا

وجدها مملوءة بمساكر الاسلام وكذلك المدينة مرفوعاً عليها اعلام المسلمين
 فعلم بان المسلمين قد استولوا عليها لاحالة فتأخر عن النزول الى البر ثم بلغه انه لم يزل
 البعض بالقامة فنزل من المراكب هو وعسكره وحمل على المسلمين فلما رأى السلطان
 ذلك قبض على الرسل وأمر بتأخير الاثقال والاسواق الى يازور فرحل العسكر
 وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من يافا واقام ريكاردوس في موضع السلطان
 الذي كان فيه لمضايقة البلد وأمر ريكاردوس من في القلعة ان يخرجوا اليه لتعظيم
 سواده وبلغ السلطان بان ريكاردوس مخيم بظاهر يافا بألفي رجل من عسكره فاراد
 كبسه فسار بجريدة ولما تقدم بمن معه لمحاربتهم وصار يحث العساكر على الشبات قال
 له الجناح أحد الامراء وهو أخو المشطوب قل لعلمائك الذين ضربوا الناس يوم
 فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون وكان أيضاً في قلوب العساكر الاسلامية غيظ
 من حصول الصلح بعد دخول يافا لان السلطان كان منعهم عن أخذ الغنيمة فلما
 رأى السلطان ذلك اعرض عن القتال وسار الى يازور وحصلت مناوشات بين
 العساكر الاسلامية والصليبية أظهر فيها ريكاردوس من الشجاعة ما لم يره أحد فانه
 استل سيفه وقال لعن الله من لم يتبعني وهجم على المسلمين هجمات شديدة بنفسه
 بدون مساعدة وحمل من طرف اليمين الى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد وصار
 في وسط العساكر الاسلامية وقد ظنه عسكره انه قتل أو اسر ثم وصل اليهم سالماً
 وقد مدحه مؤرخوهم مدحاً فاقوا حتى انهم فضلو اشجاعته على شجاعة الاسكندر الكبير وعن
 اعمال يهوذا المكابي ورولان وغيرهم

﴿ في مرض ريكاردوس والهدنة بينه وبين السلطان ﴾

في أوائل شعبان سنة ٥٨٨ هـ حصل لريكاردوس مرض فصار يرسل رساله الى
 السلطان في طلب الفاكهة والتلج والسلطان يرسل له كلما يشتهي وأرسل اليه طبيباً
 يعالجه وقد اكثر ريكاردوس في طلب الكمثرى والخوخ والسلطان يمد بذلك بقصد
 كشف الأخبار عن العدو بتواتر الرسل ثم جاء رسول من ريكاردوس مع الحاجب
 أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والتلج وقال أبو بكر ان ريكاردوس
 انفرد به وقال له قل لآخي (يعني الملك العادل) يتبصر كيف نتوصل الى السلطان
 في طلب الصلح وتستوهب لنا منه عسقلان وأسافر الى بلادي ويبقى هو هاهنا بهذه
 الشردمة ويأخذ البلاد منهم فليس عرضي الاقامة جاي بين ملوك أوروبا وان لم
 ينزل السلطان عن عسقلان فتأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها

فارس السلطان الى الملك العادل بانه اذا تنازل ريكاردوس عن عسقلان فصالحه لان
العساكر قد ضجرت من ملازمة اليبكار والنفقات قد نفذت ثم ان ريكاردوس تنازل
عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك فعقد السلطان ديوانه يوم
السبت ثامن عشر شعبان لاجل تحرير شروط الصلح وتحديد البلاد التي تكون بيد
الصليبيين فذكر يافا واعمالها وأخرج منها الرملة واللد ومجدل بابا وذكر قيسارية
واعمالها وارسوف واعمالها وحيفا واعمالها وعكا واعمالها واخرج منها الناصرة
وصفورية واثبت ذلك في الورقة وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في
أيديكم فان صالحتم على ذلك فبارك وقد اعطيتمكم يدي فينفذ ملككم من يحلف في
بكرة غد والا نعم ان هذه مماثلة وكان من القاعدة ان تكون عسقلان خرابا وان
يتفق المسلمون والصليبيون على خرابها واشترط دخول بلاد الاسماعيلية في يد
المسلمين وتكون انطاكية وطرابلس في الصلح وان تكون الرملة واللد بينهما مناصفة
وان جميع المسيحيين يزورون القدس بالراحة بدون ممانعة واستقرت القاعدة على
انهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شهره ورضي بذلك رجال الجمعيات
الرهبانية (جمعية الهيكلين وجمعية القديس يوحنا المعمدان) وسأر أمراء الصليبيين
مخلف هنري دي شامبانيا ابن اخت ريكاردوس وهو المتولي على بلاد سوريا وجماعة
من أمراءهم للسلطان على الصلح وأخذوا يده وحلف لهم الملك العادل والافضل
والظاهر وغيرهم وجميع أصحاب البلاد المجاورة لبلادهم وعقدت الهدنة العامة في
البر والبحر والسهل والوعر لمدة ثلاث سنوات وثمانية اشهر ابتداءهم الحادي
والعشرين من شعبان الموافق اول سبتمبر

❖ انتهاء الحروب الصليبية الثالثة ❖

بعد انتهاء شروط الصلح المذكورة بين السلطان صلاح الدين وريكاردوس ملك
الانكليز ورئيس العساكر الصليبية الثالثة امر السلطان صلاح الدين ان ينادى في
الوطنقات والاسواق والمدن ان الصلح قد تم فمن شاء من المسلمين الدخول في بلاد
النصارى فليدخل ومن دخل من النصارى في بلاد المسلمين فلا احد يمنعه ثم
أرسل مائة نقاب ومعهم امير لاجل الاشتغال في هدم سور عسقلان الذي بناه الصليبيون
كما هو مذكور في شروط الصلح ولخروج من بها من الصليبيين وقد اقام مع
النقابين بعض الصليبيين لاتمام هدم السور وكان ذلك اليوم الذي تم فيه الصلح
يوماً مشهوداً بين الطرفين ثم ان جميع العساكر الصليبية طلبوا زيارة القدس الشريف

قبل سفرهم فسارت العساكر الفرنسية بقيادة دوك دي بورغونيا وبعد الزيارة توفي القائد المذكور وسافرت العساكر الى بلادها ثم تبعهم العساكر النمساوية وغيرها لاجل الزيارة وكان السلطان صلاح الدين يرسل معهم الخفراء الى ان يتموا زيارتهم ويعودوا ولما وجد ريكاردوس كثرة الزوار من الصليبيين أرسل الى السلطان صلاح الدين لكي يمنع كل من أراد الزيارة ما لم يكن معه تصريح من ريكاردوس ولكن السلطان لما وجد الامراء والقواد قدموا اليه بقصد الزيارة أبي ردهم بل شرع في اكرام كل من يرد منهم وامدادهم بالطعام ومباستطهم ومحادثتهم وعرفهم أمر ملكهم وانه لم يلتفت اليه وارسل الى ريكاردوس يعتذر له ويقول ان اقواماً وردوا علينا لاجل الزيارة فلا يمكنني ان استحل منهم وقد مدح السلطان مؤرخوهم ثم أمر السلطان جميع العساكر الاسلامية بالانصراف الى بلادها .

﴿ سفر ريكاردوس ووقوعه في الاسر ببلاد النمسا ﴾

وفي ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨ سافر ريكاردوس من عكا بعساكره في المراكب قاصداً بلاده وعند وصوله الى سواحل ايطاليا حصلت انواء عظيمة ففرق بعض مراكبه وكسر الباقي ثم ان هذا الملك أبي ان يسافر الى بلاده عن طريق البر ماراً ببلاد فرانسوا (لكدره من الملك فيلبس لتهدده بلاده في غيابه ولم يعلم ما قدر له) وأراد السفر عن طريق بلاد النمسا فسار وحده متكرراً بصفة أحد زوار القدس والنزم ان يمر في مقاطعة الدوك ليوبولدوس دي اوطريش وكان هذا الدوك قد تكدر من ريكاردوس حالما رفع علمه على أحد أبراج عكا ورماه ريكاردوس في الخندق وكان اسرها في نفسه في أثناء مسير ريكاردوس ببلاده وعلمه بذلك ارسل جنوده يفتشون على ريكاردوس ويقبضون عليه حيثما وجدوه فلما عثروا به قبضوا عليه واحضروه بين يدي الدوك المذكور المملوء عداوة وغيظاً فامر بسجنه في حبس مظلم تحت الارض (وهكذا تم لريكاردوس الشجاع الذي لم يقدر احد ان يأسره في الحرب أسرى في السلم وحبس تحت الارض في حبس مظلم بعد عزه) واقام محبوساً بدون ان يعلم احد به بقلعة تنيروس وأما زوجته رنجاريا فكانت في سفينة أخرى لم يتغلب النوء عليها فنزلت البر سالمة ووصلت رومية آمنة فسمعت بما أصاب سفينة زوجها ولكنها لم تتحقق ذلك حتى رأت منطقتة الذهبية تباع في السوق فلبثت تتوقع خبره

﴿ في التقنيش على ريكاردوس ووجوده في السجن ونقله الى سجن آخر ﴾

وبعد ذلك صار عظماء الانكليز يرسلون الى جميع ممالك اوروبا للبحث على ريكاردوس فما وجدوه وكان يوجد شخص اسمه بلونديل احد خاصة ريكاردوس وكان يحببه ويرتاح الى مجالسته وكان في جملة اهل سفينته عند غرقها ونجا معه ثم انفصل عنه في بعض المزمحات ولم يعد يعرف مكانه حتى سمع بالقبض عليه وسجنه ولكنه لم يعرف اسم السجن فأخذ يقتش السجون متسكراً فلم يقف له على خبر فوصل يوماً الى قلعة تيروس وقد اعياه التعب (وهو بصفة شاعر بيده عود يضرب عليه ويغني) واستولى عليه اليأس فأسند كتفه الى سورها وغنى أبياتاً كان قد نظمها هو وريكاردوس معاً فلم يكذبها حتى سمع تكلمتها من داخل القلعة فعلم ان ريكاردوس هناك فاسرع الى والدته الملكة اليونورا وجميع ارباب الحكم في بلاد الانكليز ولما شاعت هذه القضية خاف ليوبولدوس دوك دي اوپريش من دوام حبس ريكاردوس فاسرع في ارساله تحت الحفظ الى الملك هنري السادس ملك النمسا وكان هذا الملك أيضاً عنده عداوة لريكاردوس وحسد على شجاعته فكان يترقب الفرصة للانتقام منه فلما وصلت عساكر ليوبولدوس اليه ومعهم ريكاردوس أمر بقيده بسلاسل حديدية

﴿ محاكمة ريكاردوس ظلماً واطلاقه من الاسر ﴾

لما وصل ريكاردوس الى هنري السادس وقيده بالسلاسل الحديدية أرسله الى ديوان عظماء المملكة المنعقد وقئئذ في مدينة فورمس فهناك قد صورت البغضاء والحسد لريكاردوس جملة تهم اختلقوها وطلبوا الجواب منه عنها ولكن هذا الشجاع الباسل صاحب القلب القوي لم تزعبه سطوتهم ولا مدة سجنه ولا قيده بالسلاسل الحديدية فاجاب عن كل تهمة بما يفيد براءته ببراهين قوية دامغة فلما ظهرت براءته بكى أكثر رجال الديوان على ظلمه وخرج القضاة أيضاً بعد معرفتهم اختلاق هذه التهم وأما الملك فلم يتنازل عن بغضه وحسده فامر بسجنه دائماً وأما عظماء الانكليز فكانوا دائماً مجتهدين في خلاص ملكهم باي طريقه لانهم كانوا يحبونه حباً شديداً فقارة بالخبايات مع الملك هنري المذكور والتوسل اليه وتارة بتوسط الملوك والامراء وقد ذهب تعبهم سدى حتى التزموا بتوسيط البابا لماله من الرئاسة الدينية فلم تنجح وساطته وأخيراً أنفذوا اثنين من رؤساء ديور جرمانيا ليقتدياه

من ملك النمسا بمئة وخمسين الف مارك فضة وبما ان خزنة الانكليز عجزت عن دفع هذا المبلغ التزمت الملكة اليونورا والدة ريكاردوس بان تكسر جميع الاواني الذهبية والفضية التي في قصرها الملوكي وأخذت أيضاً بعض أواني مقدسة من الكنائس وضربت الجميع مسكوكات لاجل اتمام دفع المبلغ المذكور الى هنري ثم أطلق سراحه فسار الى بلاده محفوفاً بالتجلة والاكرام وفيما هو في نورمنديا جاءه أخوه جون نادماً وجنا أمامه با كياً مستغفراً فعفا عنه ولما وصل انكلترا قوبل بالاحتفال اللائق .

﴿ سفر السلطان الى دمشق بعد الهدنة وعزمه على الحج ﴾

بعد الهدنة سار السلطان الى القدس وأمر باحكام سوره وأنشأ به مدرسة ورباطاً وبمارستاناً وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها أوقافاً وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والاحرام منه وكتب الى مصر واليمن بما عزم عليه وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج اليه من الزاد والنفقات فأرسل القاضي الفاضل الى السلطان يمنعه عن السفر وكذلك الامراء قالوا له لا يصح ان تسافر الى الحج وتترك هذه البلاد على ما بها من الشعب وهذه المعامل التي في الشغور فان حفظها من أهم الامور ولا تغتر بعقد الهدنة فان القوم على ترقب ودأبهم الغدر وما زالوا به حتى عدل عن هذا العزم وأقام بالقدس الى ان سافر ريكاردوس الى بلاد دقي أول شوال سنة ٥٨٨ هـ فعند ذلك عزم السلطان على دخول الساحل جريدة لتفقد القلاع والحصون وأن يدخل دمشق ويقم بها أياماً قليلاً ويعود الى القدس سائراً الى الديار المصرية لتفقد أحوالها والنظر في مصالحها وأقام على القدس عز الدين جرديك وسار منها في يوم الخميس خامس شوال وجاوز ناحية البيره ونزل بظاهر نابلس وكان بها سيف الدين المشطوب وقد ظلم أهلها جملة مظالم فشكا أهلها الى السلطان فأمر بازالة ما يشكون منه ثم سار الى بيسان وصعد الى قلعتها المهجورة ونظر قلعتها العالية وقال الصواب بناء هذه وتخريب كوكب ثم سار منها الى كوكب نزل بطبرية وهناك حضر بين يديه الامير بهاء الدين قراقوش وكان قد أطلق من أسره بعكا فتلقاه السلطان بالسرور والفرح وسار في خدمة السلطان الى دمشق حتى أطلقوا باقي أصحابه المصريين فأخذهم وسار الى مصر ثم سار السلطان الى قلعة صفد ومنها الى قلعة تبنين وجاز على هونين ثم سار الى مرج عيون وجسر حامد الى ان وصل بيروت فحضر البرنس بوهموند صاحب

انطاكية بين يدي السلطان وخدمه فأكرمه السلطان وأنعم عليه وعلى رؤساء
عسكره ثم سار السلطان الى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها
والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها وشحنها بالرجال فدخل دمشق بكرة يوم
الاربعاء السادس والعشرين من شوال فخرج أهلها جميعاً صغيراً وكبيراً نساء
ورجالاً لملاقاته وعملوا له زينة عظيمة وأقام بها ومعه الافضل والظاهر والظافر
وأولاده الصغار .

مرض السلطان صلاح الدين ووفاته

كان السلطان يحب مدينة دمشق ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد ولذلك أقام
بها مدة في رغد وسلام مع ان المنية على عجزها مهاجمة هذا الباسل في ساحة
الحرب لم تخف مهاجمته على فراشه وبين أولاده وأخوانه ففي يوم الجمعة ١٥ صفر
سنة ٥٨٩ هـ ركب السلطان للملاقة الحج فعاد الى منزله كسلاً ثم غشيته حمى صفراوية
ثم أصبح في اليوم التالي أكثر كسلاً وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوماً
الى اليوم التاسع من مرضه حدثت به رعشة وامتع من تناول المشروب واشتد
الارجاف في البلد وغشي الناس من الكآبة مالا يمكن حكايته وكان القاضي ابن
شداد والقاضي الفاضل يقيمان عنده الى ان يمضي من الليل ثلثه ثم ينصرفان
فكان الناس يتربون خروجهما لكي يقرأوا أحواله من صفحات وجوههما
وفي اليوم العاشر من مرضه حقن دفعتين فحصل له راحة وبعض الخفة وتناول شيئاً
من ماء الشعير وفرح الناس فرحاً شديداً ثم زاد به المرض حتى صار لا يقدر على التكلم
ولما رأى الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق اليأس منه شرع في تحليف الناس
فجلس واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطان مدة
حياته وبعد وفاته للملك الافضل واعتذر للناس بان المرض قد اشتد وانه يفعل هذا
احتياطاً على جاري عادة الملوك فحلف جماعة من الاكابر ولم يحضر أحد من
الامراء المصريين وفي الليلة الثانية عشرة من مرضه وهي ليلة الاربعاء ٢٧ صفر
اشتد مرضه وضعفت قوته وبات بجانبه الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة يقرأ القرآن
ويذكره بالله تعالى وكان ذهنه غائباً وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى الى قوله
تعالى : هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة : سمعه وهو يقول صحيح
وهذه لفظة في وقت الحاجة ولما بلغ الى قوله تعالى : لا اله الا هو عليه توكلت :
تبسم وتهلل وجهه وسلمت روحه الى ربه بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧

صفر وكان يوم وفاته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وغشى الملك والدينا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وكان سنه عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٦ سنة في مصر وسوريا فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان ممرضاً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص وقام بالعزاء ولده الافضل ويقول بعض المؤرخين ان السلطان صلاح الدين لم يترك في خزينته الخصوصية الا ديناراً واحداً و ٤٧ درهماً من النضة ولم يجدوا في جميع صناديقه ايراً للذهب او لغيره من الحجارة الكريمة وذلك مما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالاً كثيرة جاد بها جميعها وكان حليماً حسن الاخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التواضع عن ذنوب اصحابه يسمع من احدهم ما يكره ويتغافل عنه ولا يعلمه بذلك وقد رناه العماد بقصيدة مأتان اثنان وثلاثون بيتاً منها

شمس الهدى والملك عم شتاه	والدهر ساءت واقلعت حسنايه
أين الذي مذ لم يزل مخشيه	مرجوة رهبايه وهبايه
اين الذي كانت له طاعاتنا	مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي	لله خالصة صفت نيائه
أين الذي مازال سلطانا لنا	يرجى نداء وتتنى سطواته
اين الذي غنت الفرنج لبأسه	ذلا ومنها ادركت ثاراته
اغلال اعناق العدا اسيفه	اطواق أحياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطيب وكم وكم	اجدت لطب الدهر تدبيراته
من في صدور الكفر صدر قناته	حق تواترت بالصياح قناته
في نصره الاسلام يسهر دائماً	ليطول في روض الجنان سباته
لأحسبوه مات شخص واحد	فمات كل العالمين مماته

﴿ تقسيم مملكة صلاح الدين على اولاده وما جرى في أثناء الهدنة ﴾

ترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً وانثى واحدة وهي مؤنسة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل واقتسم كل من اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية فان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقطعات صغيرة وتم

كل ذلك بموافقة الامراء . فلقب اول اولاده المدعو نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشواطئ البحرية واورشليم (القدس) والبصرة وبنابيس وسوريا الغربية . ولقب ابو الفتح الغازي بالملك الظاهر غياث الدين فاخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل باشر وعيراز والمنبج ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر بجميع أعمالها . ومن هؤلاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية أما من بقي من تلك العائلة فكانوا ولاة على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين قبل وفاته الا انهم كانوا تحت سلطة هؤلاء الثلاثة فسيف الدين ابو بكر بن ايوب وأخو صلاح الدين الملقب بالملك العادل كان حاكماً في الكرك والشوبك وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احداخوى صلاح الدين كان أميراً على حماة والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الامجد حفيد شاهين شاه ايضاً كان ملقباً بملك الرها وشمس الدولة طورانشاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن بمرأخيه سنة ٥٦٩ كان قد اقام فيها مملكة وكان اخوه توغثقن حاكماً فيها تحت اسم الملك المعز . وفي سنة ٥٩٠ سار الملك العزيز صاحب مصر بعساكره وحاصر مدينة دمشق وكان بها الافضل فارسل الى عمه الملك العادل يستنجده فجاؤه وايضاً أخوه الملك الظاهر صاحب حلب وجميع الامراء الايوبية واجتمعوا بدمشق فعلم العزيز بانه لا قدرة له على اخذها فترددت الرسل بينهم على الصالح فاستقرت القاعدة على ان يكون البيت المقدس وما جاوره من اعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية واعمالها للافضل ويعطي الافضل اخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية وان يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد منهم الى بلده وفي سنة ٥٩١ سافر الى دمشق ثانياً بقصد محاصرتها واستيلائه عليها . وكان ذلك باغراء بعض مماليك ابيه المعروفين بالصلاحية مثل نحر الدين جر كس وسراسنقر وغيرهم فسار الافضل من دمشق واستنجد بعمه الملك العادل وباخيه الملك الظاهر فسبقه الملك العادل ودخل دمشق لثقتته به ثم ان بعض الامراء الاسديّة الذين بقيادة العزيز راسلوا الافضل والعادل بطلب انحيازهم لهما فقبلاهم واتفقا بان الافضل والعادل يأخذان دمشق فعلم بذلك العزيز فخاف على مملكته فرجع الى القاهرة ليحفظها وسار كل من الافضل والعادل الى ان وصلا ببلبيس فخاف العادل من الافضل انه اذا أخذ مصر لا يعطيه دمشق فأرسل الى العزيز بارسال القاضي

الفاضل ليتوسط في الصالح فاستقر الامر بان يكون للافضل القدس وجميع البلاد
بفلسطين وطبرية والاردن وجميع ما بيده ويكون للعادل اقطاعه القديمة ويكون
مقياً بمصر عند العزيز فتماهدوا وعاد الأفضل الى دمشق وبقي العادل بمصر مع العزيز
* { استيلاء الملك العادل على دمشق } *

لما أقام العادل بمصر رأى ان حصته قليلة ومنصبه حقير بالنسبة لاولاد أخيه
فنواتاً مع الملك العزيز على خلع الأفضل عن دمشق وتولية الملك العادل عليها فساروا
معاً من مصر الى دمشق وحصرها واستمالا أحد أمراء الأفضل واسمه العزيز
ابن أبي غالب المحصي وكان الأفضل كثير الاحسان اليه والوثوق به فسلمه الباب
الشرقي ليحفظه فوعد العزيز والعادل بفتحهم لهم في اليوم السابع والعشرين من
رجب سنة ٥٩٢ هـ فدخل منه الملك العادل وبعض رجاله ولم يعلم الأفضل ان عمه
معه بدمشق أيقن ان البلد قد ملكت منه فخرج الى أخيه العزيز وتحدثا ثم دخلا
معاً واجتمعا بعمهما ثم استقل الملك العادل بدمشق وعاد العزيز الى مصر وسار
الأفضل الى بغداد ملتحجاً الى الخليفة الناصر ابن الله وكانا كلاهما شاعرين ماجدين
فكتب الأفضل الى الامام الناصر

مولاي ان أبا بكر وصاحبه

وهو الذي كان قد ولاء والده

نخالفاه وحلا عقد بيعة

فاجابه الامام الناصر بقوله

وافي كتابك يا ابن يوسف معاناً

غصبا علياً حقه اذ لم يكن

فابشر فان غدا عليه حسابهم

* { ابتداء الحروب الصليبية الرابعة } *

(تحريض البابا وسفر العساكر الصليبية الرابعة)

لما توفي السلطان صلاح الدين كان البابا على رومية سيليستينوس الثالث
فرأى تقسيم مملكة صلاح الدين على أولاده وعائلته فاعتنم هذه الفرصة وأرسل
منشوراً الى ملوك اوربا يقول لهم فيه (بان السلطان صلاح الدين قد توفي ومملكته
تقسمت على أولاده وعائلته وكل منهم قد استقل بنفسه وأخذ يطلب منهم الاتحاد والخروج

لتجريد حملة صليبية رابعة والاستيلاء على القدس قبر الخالص لعدم وجود من يحميه من المسلمين) ولما وصل هذا المنشور الى الملوك لم يلتفتوا اليه لان الملك ريكاردوس ملك الانكليز بعد اطلاقه من الاسر لم ير الاهتمام الا بصالح مملكته والاستعداد لمحاربة ملك فرنسا وكذلك الملك فيلبس ملك فرنسا فانه كان خائفاً على مملكته من ريكاردوس فكان هذان الملكان واقفاً أحدهما للآخر بلمرصاد ولذلك لم يهتما بمنشور البابا أما الملك هنريكوس السادس ملك النمسا فانه كان قد حرمه البابا من يوم أسر ريكاردوس ولكن لما وجد البابا عدم التفات ملوك فرنسا وانكلترا أرسل وفداً الى ملك النمسا المذكور يطلب اليه الاستعداد للزحف الى بلاد فلسطين وأخذ القدس من المسلمين مذكراً اياه بمسائل والده فريدريكوس الاول فقبل الملك هنريكوس تجهيز الحروب الصليبية الرابعة وفي جمعية عظماء المملكة المنعقدة في مدينة فورمس أعلن بالحروب المذكورة وطلب من القواد والامراء المساعدة فقبل ذلك عدد عظيم من النمساويين والالمانيين والجرمانيين وجميع البلاد الخاضعة لهذا الملك وكل منهم استلم صليباً واستعد للسفر الى فلسطين ولما كان هنريكوس دأبه الطمع والجشع وحب المجد الباطل وكان طامعاً في الاستيلاء على جزيرة سيسيليا فرح بهذا الاستعداد لينال مرغوبه بهذه الوسيلة . ولما استعد كل الصليبيين للسفر اتقسم جيشهم ثلاثة أقسام وسار كل قسم من طريق مخصوص فالقسم الاول كان برئاسة الدوك دي ساكس والدوك دي براينت وسافر بحراً من مين البحر الباطيكي والقسم الثاني كان برئاسة الكونت دي لامبورك رئيس أساقفة مايا نص فاجتاز نهر الطونه وسار نحو مدينة القسطنطينية والقسم الثالث كان برئاسة الملك هنريكوس فسافر الى بلاد نابولي لكي يصلي الحرب التي كان عازماً عليها ضد جزيرة سيسيليا .

﴿ وصول الصليبيين الى عكا واستيلاء المسلمين على يافا ﴾

واخذ الصليبيين بيروت ﴿

لما وصلت العساكر الصليبية الرابعة الى عكا عزمت على محاربة المسلمين وكان هنريكوس كونت دي شمبانيا المتولي على بلاد الصليبيين بفلسطين قد عقد هدنة مع الملك العزيز صاحب مصر زاد فيها مدة الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وريكاردوس فاخذ يقنعهم بالعودة عن الحرب حتى انتهاء الهدنة فابوا ذلك وخرجوا من

عكاغاضين يقصدون بلاد المسلمين فلما علم بذلك الملك العادل وكان بدمشق أرسل الى الملك العزيز بمصر يطلب ارسال العساكر وأرسل كذلك بطلب العساكر من البلاد الشرقية فجاءه الامراء واجتمعوا على عين جالوت في شهر رمضان سنة ٥٩٣ وبعث شوال ثم سار الملك العادل بجميع العساكر الاسلامية قاصداً يافا وحاصرها وشدد في قناها فملكها وخرب البلد فاعتصم الصليبيون بقلعتها فحاصرها وضايقها وملكها عنوة وقهراً بالسيف وذبح منهم ما ينوف عن عشرين الف حسب تقرير مؤرخهم وكان هنريكوس كونت دي شمبانيا المذكور لم يزل بعكا وقد عزم على السير بعساكر الصليبيين لاجل خلاص يافا فوقع من شبك بقصره فمات ثم بعد دفته ساروا جميع الصليبيين لنجدة يافا فبلغهم خبر استيلاء المسلمين عليها فجزموا على المسير نحو بيروت والاستيلاء عليها ولما بلغ ذلك الى الملك العادل أرسل اليها بعض العسكر لاجل هدمها وتخريبها فشرعوا في هدم سور المدينة في سابع ذي الحجة فمنعهم اسامة (والي المدينة) من ذلك وتكفل بحفظها وعاد عسكر المسلمين منها فالتقوا بالصليبيين بنواحي صيدا وجرى بينهم قتال شديد قتل فيه كثير من الفريقين وحجز بينهم الليل وسار الصليبيون في ٩ منه فوصلوا بيروت فلما قابوها هرب منها اسامة وجميع من معه من المسلمين فلكها الصليبيون صفوا عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة وكان بها من أسرى الأفرنج ما ينوف على تسعة آلاف فاطقوهم فارسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقي منها لان صلاح الدين كان قد خرب اكثرها ثم سافرت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا أشجارها وخربوا ما لها من قرى وأبراج فلما سمع الصليبيون بذلك رحلوا من بيروت الى صور وأقاموا بها ونزل المسلمون عند قلعة هونين وأذن العادل للعساكر الشرقية بالعود ظاناً منه ان الصليبيين يقيمون ببلادهم

﴿ مسير القسم الثالث من الجيوش الصليبية الرابعة ﴾

سار الملك هنريكوس بالقسم الثالث من العساكر الصليبية الى ان وصل الى جزيرة سيسيليا فخارب أهلها وانتصر عليها واستعمل في حروبه معها القساوة والعذابات البربرية حتى تتوج عليها سلطاناً (وكان قد تزوج بقسطانسا ابنة روجار صاحب الجزيرة وكانت قسطانسا تستحق التملك عليها ولكن قد زاحمها تنكريد واستولى عليها وبعد وفاته كثرت التمزجات الى ان وصل هنريكوس واستولى عليها) ثم ان هذا الملك عزم على السفر الى فلسطين ليحارب سنة

تكفيراً عن ذنوبه (لانه اصبح محروما من رأس الكنيسة لمحاربه المسيحيين) فارس
الى عظماء مملكته بسفر كل من كان أقسم بالمسير الى الحروب الصليبية وبعد ان
استعد للمسير الى فلسطين برئاسة هذا القسم عدل عن هذا العزم وجعل كوزاد
اسقف هيدالكسيم رئيساً عليه فساروا بجرأ الى ان وصلوا الى سوريا ففرح بهم
جميع الصليبيين واشتدت قوتهم وعزموا على التوجه الى القدس ومحاصرتة ولما
كان ذلك في فصل الشتاء ولم يمكنهم المحاصرة لشدة البرد انتظروا فصل الربيع
﴿ حصار حصن تبين و قدوم العزيز اليه و رجوع الصليبيين على اعقابهم ﴾

وفي اثناء انتظار الصليبيين دخول فصل الربيع لمحاصرة القدس عزموا على
حصار حصن تبين وكان الملك العادل قد أتاه الخبر في منتصف المحرم سنة ٥٩٤
بانهم يريدون ان يحصروا تبين فسار اليه عسكرياً يحمونه ويمنعون عنه وأرسل أيضاً
الى العزيز بمصر يطلب منه ان يحضر هو بنفسه ويقول له ان حضرت نخير والا
فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز مجدداً في من بقي معه من العساكر ورحل
الصليبيون عن صور ونازلوا تبين في اول صفر وقاتلوا من به وجدوا في القتال وبقبوا
من جهاتهم من تحت الجبل فلما علم بذلك من بالحصن وخافوا ان يمتلكه
الصليبيون بالسيف نزل بعضهم الى الصليبيين يطلب الامان على انفسهم
وأموالهم ليسلموا القلعة فقال هؤلاء المسلمين بعض افرج سوريا ان سلمتم الحصن
استأسركم هؤلاء الصليبيون وقتلوكم فاحفظوا نفوسكم (وكان الخلاف واقعاً بين
الصليبيين) فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلموا فلما صدوا اليها
أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها الى ان وصل الملك العزيز
الى عسقلان في ربيع الاول فلما سمع الصليبيون بوصوله واجتمع المسلمين ورحلوا
وخصوصاً لان ليس لهم ملك يجمعهم فاقاموا الى ان وصل الملك العزيز في اول
شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر الى جبل الحيل المعروف بجبل عاملة
فاقاموا أياماً والامطار تهطل فبقي الى ١٣ منه ثم سار وقارب الصليبيين وأرسل
رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا ورتب العساكر ليزحف الى الصليبيين ويجد
في قتالهم فرحلوا الى صور في منتصف الشهر ليلاً ثم سار المسلمون الى اللجون
وتراسلوا في الصلح وطال الامر فعاد الملك العزيز الى الديار المصرية قبل
اتهاء الصلح

﴿ وفاة الملك هنريكوس السادس وتعيين الملك اموري على فلسطين ﴾

﴿ وانتهاء الحروب الصليبية الرابعة ﴾

لما قتل هنريكوس دي شمبانيا ملك فلسطين وترملت زوجته ايزابال قدم الملك اموري ملك قبرص وتزوج بها وفي اثناء حفلة العرس ورد عليهم ما كدر خاطر جميع الصليبيين وهو نهي الملك هنريكوس السادس ملك النمسا فينتد عزم جميع الامراء النمساويين والامانيين على السفر الى بلادهم فركبوا سفنهم الى بلادهم ولم يبق منهم في سوريا الا ملك هونكريا الذي حصلت بينه وبين العساكر الاسلامية مناوشات بجهة يافا فاحتاطت العساكر الاسلامية برجاله وقتلتهم عن آخرهم وكان قد حضر الكونت دي منتفورت الى سوريا منذ أيام قليلة فطلب من الملك العادل هدنة لمدة ثلاث سنوات فاجابه الى ذلك وكان في شعبان من السنة المذكورة وهكذا قد انتهت هذه الحرب الصليبية الرابعة

﴿ وفاة العزيز صاحب مصر وتولية ابنه المنصور وما جرى للافضل ﴾

في شهر محرم سنة ٥٩٥ هـ صار العزيز الى جهة الفيوم للصيد فطارد ذئباً ففقر به جواده فسقط على الارض وأصابته حمى فعاد الى القاهرة وحدث له يرقان وقرحة في الامعاء واحتبس طبعه فات في ليلة العشرين منه وكانت مدة حكمه ست سنين الا شهراً وكان عمره ٢٧ سنة وأشهرأ وكان في غاية الساحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والاحسان عليهم وكان الغالب على دولة العزيز نحر الدين جهاركس فاقام على المملكة ولد العزيز وهو الملك المنصور محمد وكان عمره تسع سنين وشهوراً واتفق الامراء على احضار احد بنى أيوب ليكون اتابكا للملك (أي وصياً عليه) فتشاوروا بالامر بحضور القاضي الفاضل فاشاروا بالملك الافضل وكان بصرخد فارسوا اليه فسار محمناً في ٢٨ منه فوصل الى بليس في ٥ ربيع الاول فخرج الملك المنصور للقائه فترجل له عمه الملك الافضل ودخل بين يديه الى دار الوزارة وهي قد كانت مقر السلطنة وكان الافضل لما وصل الى بليس فاتفق ان اخاه الملك المؤيد مسعود صنع له طعاماً وصنع له نحر الدين مملوك أبيه طعاماً أيضاً فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه انه يبدأ به فظن جهاركس انه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء اعتقاد فيه فغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طأفة من العرب قد اقتتلوا ويطلب المسير اليهم ليصلحهم فأذن له الافضل ففارقه

وسار مجدداً حتى وصل الى القدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الامراء الناصرية
 فقويت شوكتهم واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل فأرسلوا الى العادل يطلبون
 قدومه ليدخلوا معه الى مصر ليلكوها وكان محاصراً ماردين فلم يقدم اليهم وكان
 دخول الافضل القاهرة في ٧ ربيع اول ولما سمع بهرب جهاركس المذكور
 أرسل اليه ليعود فأبى ويومئذ قام الافضل اتابكا على المنصور بمصر وكان
 الوزير وقتئذ سيف الدين يازكج .

وأرسل الملك الظاهر صاحب حلب الى أخيه الافضل يشير عليه بقصد دمشق
 وأخذها من عمه الملك العادل وان يتهمز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين
 فبرز الملك الافضل خارج مصر وسار الى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره الى دمشق
 فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل وسار فسبق الافضل ودخل
 دمشق قبل نزول الافضل عليها بيومين ونزل الافضل على دمشق ثالث عشر
 شعبان وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكريه على المدينة
 حتى وصل الى باب البريد ولم يدمهم العسكر فتكاثر أصحاب العادل وأخرجوهم
 من البلد ثم تحاذل العسكر فتأخر العادل الى ذيل عقبة الكسوة ثم وصل الظاهر
 صاحب حلب لتجدد أخيه فعاد الى مضايقة دمشق وداوم الحصار عليها وقلت الاقوات
 عند الملك العادل حتى أهل البلد واشرف الافضل والظاهر على امتلاك دمشق
 وعزم العادل على التسليم ولكن حصل بين الاخوين منافرة فغضب الظاهر
 وترك قتال عمه العادل لآخيه الافضل وظهر الفشل في العساكر ثم انهما تأخرا
 بمرج الصفر في آخر صفر سنة ٥٩٦ ثم سارا الى رأس الماء ليقيا به الى انقضاء
 فصل الشتاء ومنه سار الافضل الى مصر والظاهر الى حلب ولما افترقا خرج الملك
 العادل في أثر الافضل الى مصر ولما وصل الافضل الى بلاده تفرقت عساكره
 في بلادهم الى الربيع فادركه عمه العادل فخرج الافضل بمن بقي عنده من العسكر
 وضرب معه مصافاً بموضع يقال له السالح في ٧ ربيع آخر فانكسر الافضل وانهمز
 الى القاهرة ودخلها ليلاً ثم سار العادل في أثره واتى القاهرة وحصرها فجمع الافضل
 من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تحاذلاً فأرسل الى عمه في الصلح
 وطلب العوض عن مصر وتسليمها اليه وأن يكون العوض ميفارقين وحاني
 وسميساط فاجابه الى ذلك ونحالفاه عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت
 ١٨ منه واجتمع بالعدل وسار الى صرخند وأرسل من يستلم البلاد المذكورة فالتفتع

نجم الدين أيوب ابن العادل عن تسليمه مياقارقين وسلم ماعداها
﴿ خلع الملك المنصور وسلطنة الملك العادل على مصر وسوريا ﴾

ودخل الملك العادل القاهرة يوم السبت ١٨ ربيع آخر ٥٩٦ هـ ولما خلا له
الجو وثبتت قدمه فيها خلع الملك المنصور محمد بن عبد العزيز في شوال
بعد ان حكم ٢١ شهراً وتولى الملك العادل سلطنة مصر وسوريا وخطب لنفسه
فلم يرض بذلك الامراء المصريون فراسلوا أخويه الظاهر بحلب والافضل بصرخدا
وتكررت المكاتبات والمراسلات يدعونهما الى قصد دمشق وحصرها ليخرج العادل
من مصر اليهم فيسلمونهم مصر فحضر الظاهر والافضل الى دمشق وحاصرها
وبعد قتال مع من بالبلد وكان العادل أرسل اليها من يحفظها حصل بين الاخرين
منافرة فعادا الى تجديد الصلح مع العادل . واستقرأ على ان يكون للظاهر منبج
وافامية وكفر طاب وقرى معينة من المعرة ويكون للافضل سميساط وسروج
ورأس العين وحملين ورحلا عن دمشق أول محرم سنة ٥٩٨ هـ وسار العادل الى
دمشق فوصلها تاسع شهره . ومازال يشتغل حتى جعل جميع الحكام الايوبيين
في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جماتهم الظاهر والافضل فعادت المملكة
الايوية بعد ان انقسمت حصصا الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد
وفي سنة ٥٩٨ هـ أيضاً أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر
الى الشام فسار بوالده واخوته وأقام عند عمه الملك الظاهر بحلب

﴿ الحروب الصليبية الخامسة ﴾

(تخرىض البابا اينوشانسيوس الثالث على الحروب الصليبية)

لما جلس على كرسي السدة البطرسيّة برومية البابا اينوشانسيوس الثالث
وعمره ٣٣ سنة أراد أن يجعل له اثرأ يذكر فاخذ يحرض على الحروب الصليبية
وأرسل الى جميع ملوك أوروبا منشورات بالاتحاد على الحروب الصليبية لتخليص
قبر المسيح من أيدي المسلمين ثم أرسل نوابا الى الملوك والى جميع قواد
العساكر ورؤساء الكنائس والى شعوب فرانسا وانكلترا وهونكاريا وسيسيليا وقد
أعلن لهم على انه عازم أن يضحي أعز مالديه بشأن استنقاذ قبر المسيح وحيث ان
ريكاردوس ملك الانكليز وقيلبس ملك فرانسا كانا دائماً متحاربين مع بعضهما
بخصوص بلادهما فكان لا يمكنهما ترك بلادهما والتوجه لحروب صليبية ولذلك قد

أرسل اليهما البابا الكردينال بطرس ليتوسط بينهما في الصلح باسمه وأن يعقد هدنة بينهما لمدة خمس سنوات فلم تحصل ثمرة ولم يتم صلحهما وكذلك كان اوثون والى ساكسيا وفيليس اميرسوا بافانها كان يخاصمان امير جرمانيا وجميع مملكة النمسا متداخلة في هذا المشكل وهذه الاسباب لم تثمر تحريضات البابا . ثم انه كان يوجد في فرانسوا كاهن اسمه فولك خوري كنيسة نوييلي سورفارنا وكان محبوباً عند الشعب لفصاحته وطلاقة لسانه حتى انهم كانوا يلقبونه بالقدّيس فارسل اليه البابا وفدأً ومعه تفويض منه بانذار الحروب الصليبية فقبل فولك هذا التفويض واخذ بالطواف ومعه بطرس دي رزوني لاجل ان ينذر بالحروب الصليبية فسار متجولاً في بلاد نورمانديا وفلانديا وبورغونيا فكان يخطب فيهم ويحثهم على الاستعداد للسفر الى الحروب الصليبية لتخليص قبر المسيح مفدي العالم ثم سار الى قلعة داكرى وكانت هناك جمعية عمومية من رؤساء العساكر في ولية قد أعدها لهم تيوبلت كونت دي شمبانيا وصار يخطب فيهم ويحثهم ويطلب منهم النظر الى البلاد المقدسة وما زال بهم حتى ان تيوبلت كونت دي شمبانيا وهو أخو هنريكوس ملك فلسطين المتوفي وابن أخي سلطان فرانسوا وابن أخت سلطان انكلترا قبل التوجه الى فلسطين واستنقاذ القدس من المسلمين تحت راية الصليب وتبعه كل من كونت دي تشارتراس . وكونت دي بلواز وكونت دي سانيول . وسمعان دي متفورت . ورنهارد . وبرندوس دي موتميريل وأخوه والكونت غوتير . والكونت يوحنا دي بريانومنى دي لينزلاورانوددي رايبارا . ومتى دي موغوراسي . وهو كوز ورمباتوس دي بورن وكونت دي أميانس والكونت رانوددي بولونيا . وجفر كونت دي براش وجفر كونت دي فيلا هروين والمرشال دي شمبانيا

﴿ سفر العساكر الصليبية الخامسة واتحادهم مع مشيخة البندقيه ﴾

اقتفى قواد بلاد فلانديرا أثر من ذكروا فاقسم كل من الكونت بودوين واسطاكوس وهنريكوس اخوه ويعقوب دي افنسا ومحافظ قلعة بورجس ويوحنا دي نزالا وكونون دي بيوتونا وغيرهم على المسير تحت راية الصليبيين لانقاذ القبر المقدس وتعين رئيساً عاماً على هذه الجيوش تيوبلت كونت دي شمبانيا ثم اجتمع الرؤساء في مدينة سواسنوس ثم في مدينة كومينا واتفقوا على ان العساكر تسافر الى المشرق بحراً وان يرسلوا وفدأً الى مشيخة

البندقية لاجل ان ترسل مراكبها لنقلهم الى بر اسيا وسار الوفد الى ان وصل
 البندقية في سنة ٥٩٦ هـ وتقدم هذا الوفد بين يدي الدوجا (لقب رئيس مشيخة
 البندقية) هنريكوس داندولو وعرض عليه الرسائل وطلب منه المساعدة بارسال
 المراكب لنقل الصليبيين فقال لهم باي شروط فقالوا كما تريد فاشار الدوجا بطريقتين
 احدهما ان يرسل مراكب لنقل الصليبيين لحمل أربعة آلاف وخمسة مائة من
 الفرسان وعشرين الفاً من الرجال وتستطيع ان توسق الذخائر اللازمة لهذا العسكر
 لمدة تسعة شهور بشرط ان يدفعوا له خمسة وثمانين الف وزنة فضة والثانية انه
 يرسل خمسين مراكباً بعساكرهم صعبة الصليبيين وان جميع الغنائم تقسم بينهم
 مناصفة أي للصليبيين النصف وللبنديقيين النصف الاخير ثم أرسلوا الشروط الى
 البابا ليصدق عليها فصديق عليها ثم عاد رجال الوفد الى الصليبيين فوجدوا تيوبلت
 الرئيس العام مريضاً ثم مات فانتخبوا رئيساً عليهم بوتيفاسيوس أمير مونتفرات
 واستلم الصليب من يد فولك الحوري بمحضر من الاكليروس في كنيسة السيدة
 مريم البتول ثم سار الصليبيون من بلاد فرانساجحتازوا الجبال الالية وواصلوا الزحف
 الى ان وصلوا الى البندقية وهناك قابلهم أهلها باكرام واحترام وقد أعدوا لهم
 المراكب اللازمة وزيادة حسب الشروط وطلبوا منهم ان يدفعوا لهم مبلغ ٨٥ الف
 وزنة فضة فوجد الصليبيون ان لا قدرة لهم على دفع المبلغ جميعه ودفعوا ثلثه فقط
 لذلك رئيس مشيخة البندقية أجمع امرائه وقال لهم بما ان الصليبيين ليس معهم
 الآن باقي المبلغ المتفق عليه فارى الاحسن ان نأخذهم معناني مقابلة باقي المبلغ
 لمساعدتنا على اخضاع مدينة زارا التي اغتصبها منا سلطان هونكرا فقبل
 هذا الرأي رؤساء الصليبيين وأما الصليبيون أنفسهم فاكثروهم رفض قبوله وكذلك
 الوكيل البابوي بطرس دي كابوا رفض هذا الرأي وقال انه نفاق ولكن الدوجا
 هنريكوس أراد ان يجذب الجميع الى رأيه وهذا ويتم مرغوبه وانتصاره على
 هذه المقاومة فاجتمع هو ورؤساء عساكره وشعبه في كنيسة القديس مرقص واتخذ
 علامة الصليب على صدره وتبعه جميع شعبه فصاروا جميعاً صليبيين ومتحدين معاً
 تحت راية الصليب فثبت على رأيه ورفض معارضة الوكيل البابوي وغيره

معارضة الصليبيين مدينة زارا والقسطنطينية وغيرها

سار جميع الصليبيين ومهمهم أهل البندقية الى ان وصلوا الى مدينة زارا
 وحاصروها مدة أسبوعين وفي كل يوم يقتلونهم واخيراً انتصروا على من في

المدينة واستولوا عليها واقسموا غنائمها بالسوية بينهم حسب الشروط ولمناسبة دخول
 فصل الشتاء عزموا على الاقامة بهذه المدينة الى ان يتقضي بسلام ثم أرسل اليهم
 البابا يوحنا على محاربتهم المسيحيين وتأخيرهم عن التوجه الى فلسطين فإرسلوا له
 وفد الاجل ان يعتذر لهم امامه ويطلب منه المغفرة والبركة فسأجبتهم البابا ثم انه قدم
 للصليبيين وفداً من الملك فيليب سوابا أحد ملوك النمسا يطلب منهم مساعدة
 اليكسيوس ابن ملك القسطنطينية اسحاق وتمليكها عليها (لان عمه اغتصب المملكة
 من ابيه وسجنه وسجن ابيه بعد ثل عينيه بالقسطنطينية فتخلص الولد المذكور وسافر
 الى صهره الملك فيليب) وتعهد بدفع مائتي الف وزنة من الفضة بصفة مصاريف
 للصليبيين وان يضع مملكة الروم كلها تحت طاعة الكنيسة الرومانية وانه يقدم
 للصليبيين ما يحتاجون اليه من القوت ويتبعهم الى بلاد فلسطين أو يرسل معهم
 عشرة آلاف محارب فانهقد مجلس مشورتهم وبعد معارضة من بعض الرؤساء قرر
 قبول هذه الشروط المقدمة لهم وانه في فصل الربيع ينزلون في المراكب ويسيرون
 الى القسطنطينية . ثم وردت اليهم رسائل من البابا بتوبيخهم على ما عزموا عليه
 فلم ياتفقوا اليه وباشروا في الاستعداد كما تقرر ثم حضر اليهم اليكسيوس نفسه وجدد
 امامهم توسلاته . ثم سار الصليبيون بالمراكب الى ان وصلوا ميناء دورتسيوس
 وميناء كورفو وهناك نودي بالامير اليكسيوس ملكاً ثم ساروا في البحر أيضاً وكما وصلوا
 الى مدينة أو بلد نادوا بان الملك هو اليكسيوس الى ان وصلوا الى مدخل البسفور ورموا
 مراسيم عندشط مدينة القديس استفانوس ثم قرروا بتشار اعلامهم على المراكب وبفك
 القلوع وعبور كل العماراة في الخليج الكبير وقد ساعدتهم الريح الى ان صاروا تحت أسوار
 القسطنطينية فظلموا الى البر فإرسل اليهم ملك القسطنطينية وقتئذ يسألهم عن أمرهم فقالوا
 لرسول انا حضرنا لاجل رد المملكة الى الملك اليكسيوس بن اسحاق صاحبها الاصلي
 واذا لم يشأ تسليم المملكة بدون حرب فاعلمه باننا سنأخذها بالقوة ثم قرر مجلس
 مشورتهم بانتقال العساكر الى الجهة الثانية لمحاصرة القسطنطينية من كل جهة وكان
 ذلك في شهر القعدة سنة ٥٩٩ واندثت الحرب بين الفريقين فتغلبت العساكر
 الفرنسية على برج غلطة وأخذوه ووضعوا علمهم فوقه وفي الوقت نفسه تغلبت
 عساكر البندقية على قطع السلسلة الحديدية التي تمنع المراكب من دخول قرن
 الذهب ودخلوا في قلب المدينة وتبعهم نحو عشرين الف مقاتل من الفرنسيين
 وحاصروا المدينة من البر والبحر وبعد قتال شديد بينهم أظهر فيه الشجاعة اهل

البندقية والدوجا كل النشاط والشجاعة مع انه كان كيف البصر ثم استولى الصليبيون على المدينة قهراً واضرموا النار في المنازل القريبة من السور اما الملك فانه هرب في ظلام الليل ونزل في مركب مع خزائنه وسار مفتشاً على موضع يلتجئ اليه ثم ان الروم هجموا على السجن واخرجوا منه الملك اسحاق وأجلسوه على تحت ملكة فارس الى الصليبيون يطلبون منه التصديق على الشروط التي حررها ولده الكيسوس في مدينة زارا وتنفيد مضمونها فهاله المبالغ المعين ولكنه كتم امره واطهر رضاه بالتصديق عليه ثم ان الصليبيين توجهوا ولده الكيسوس ليكون شريكاً في المملكة

﴿ ثورة القسطنطينية وامتلاك الصليبيين لها ﴾

وبعد ذلك طاب الصليبيون من الملك المبالغ المعين في الشروط وان تكون مملكة الروم خاضعة للبابا فينئذ اجبر الملك الكيسوس بطريك القسطنطينية بالاعتراف بسطة البابا الدينية ثم امر بجمع المال من الاهالي ولكنه لم يتم له تسديد المبلغ فاخذ جميع الاواني المقدسة التي بالكنائس وحملها وضررها مسكوكات لاجل تسديد المبلغ ولذلك تضررت الروم باجمعها ومما زاد ضررها ان عساكر الصليبيين الفلامنديين اشعلوا النار في كنيس لليهود فاحترق والتهبت النيران في باقي المدينة فلذلك جاهر الروم بالعداوة للصليبيين بقيادة من يدعى الكيسوس مورزوفلا وقبضوا على الملك الكيسوس وقتلوه ثم ان ابا الملك اسحاق مات حزناً على ولده المذكور فانتخب الروم الكيسوس مورزوفلا ملكاً عليهم واستعدوا لمحاربة الصليبيين وكذلك الصليبيون استعدوا لمحاربة الروم ونزلوا في المراكب واقتتل الفريقان فتأخر الصليبيون وبعد ثلاثة ايام انتصروا على الروم واستولوا على المدينة عنوة ووقعوا باهلها القتل والنهب وصاروا يجولون في المدينة شاهري سيفوفهم مشعلي مشاعلهم ليحرقوا بها الدور فأحرقوا اكثر منازل المدينة فالتجأت النساء الى كنيسة اياصوفيا للاحتماء بها فخرجت الاساقفة والقسس حاملين الانجيل امامهم يطلبون من الصليبيين الامان وان يبقوا على اهل المدينة فلم يلتفتوا اليهم (فانظر رافة الصليبيين الذين خرجوا من بلادهم بقصد تخليص قبر المسيح وادعاهم بالشفقة على مسيحي المشرق كيف فعلوا في مسيحيين القسطنطينية من القتل والنهب وحرق المدينة) وصاروا يقتلون وينهبون حتى كنيسة اياصوفيا نفسها فقد احرقوا جميع ما فيها من الستائر والتصاوير وغيرها ونهبوا قبور الملوك المدفونين فيها واخذوا ما بها من الذهب والاحجار الكريمة ولم يبقوا في المدينة منزلاً بدون نهب وقتل وكذلك احرقوا وكسروا جميع

التمثيل المقامة باليادين العموية وقد خرج بطريك الروم هاربا من القسطنطينية حافي الاقدام تاركاً جميع امتعته لتهب الصليبيين وهرب مورزو فلا في احد المراكب
*} تويج بودوين على القسطنطينية وما جرى للصليبيين بها

وانتهاء الحروب الصليبية الخامسة *

بعد امتلاك الصليبيين بلاد الروم شرعوا في انتخاب احدهم ليكون ملكاً على القسطنطينية فاختاروا ستة اشخاص ومن البندقيين ستة اشخاص وادخلوا الاثني عشر كنيسة ايا صوفيا وطلبوا منهم ان ينتخبوا احد الرؤساء الصليبيين ليكون ملكا فاقاموا بالكنيسة يومين ثم خرجوا ونادوا بان الذي يكون ملكا هو بودوين كونت دي فلاندر فاقاموه ملكاً ثم شرعوا في تقسيم المملكة ووظائفها فاستخدم بودوين اكثر رؤساء الصليبيين ليكونوا حكاماً على البلاد الرومية وكذلك اهل البندقية وكان ذلك في سنة ١٢٠٤ ميلادية الموافقة ٦٠١ هجرية ثم انعقد مجلس مشورتهم وقسم المملكة الرومية قسمين قسماً للفرنساويين والقسم الآخر لاهل البندقية ثم ان بودوين ملك القسطنطينية قد ارسل رؤساء الصليبيين الى البابا يعلمونه بما امتلكوه ويمتدرون اليه لتأخرهم عن التوجه الى البلاد السورية فغضب عليهم لمحاربة اخوانهم المسيحيين وبلغت انتصارات الصليبيين المذكورة على بلاد الروم اقصى البلاد فسارت خيالة الجمعيات الرهبانية جمعية الهيكلين وجمعية القديس يوحنا المعمدان اليها ولما استوطن الصليبيون القسطنطينية ارسلوا الى البلاد حكماً وعساكر منهم فكانوا كلما ذهبوا الى مدينة لاخضاءها يخرج عليهم الروم ويقاثلونهم وهكذا تفرقت عساكر الصليبيين في جميع البلاد ومن عصاهم اهل بلغاريا فاسروا بودوين المذكور وقتلوه فجلس بدلا عنه اخوه هنريكوس دي هالينولت ملكا على القسطنطينية ثم ارسلوا الى بلاد فرنسا واطاليا يطلبون النجدة منهما مستغيثين بأهلها وقد اقامت هذه المملكة تحت حكم فرنساوية نحو سبعة وخمسين سنة ثم استردها الروم منهم وهكذا انتهت الحروب الصليبية الخامسة بدون محاربة او قتال مع المسلمين

*} مناوشات الصليبيين والملك العادل *

واما الملك العادل ظل متمتماً بملكه العظيم وكلما انقضت هدنة بينه وبين الصليبيين جردها وفي سنة ٦٠٤ خرج الصليبيون الذين بطرابلس وحصن الاكراد واكثروا الاغارة على بلاد حمص وولايتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثير أفلم

يكن لصاحبها اسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه قوة علي دفعهم ومنعهم فاستجد بالظاهر غازي صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده احد الا الظاهر فانه سير اليه عسكرياً اقام عنده ومنع الصليبيين عن ولايته وفي هذه السنة أيضاً خرج اهل قبرص على الاسطول المصري فاخذوا منه مراكب واسروا من بها فارسل الملك العادل الى الملك اموري صاحب عكا في رد ما اخذوه وقال له حيث اننا في صلح فلم غدرتم باصحابنا فاعتذر الملك اموري وقال ان اهل قبرص ليسوا في طاعتي بل هم تابعون القسطنطينية ثم انه حصل غلاء بقبرص واعدت عليهم الاقوات فذهب اهلها الى القسطنطينية فاعادوهم الى حكم سوريا ثم راسل الملك العادل اموري صاحب عكا فلم ينفصل حال فخرج الملك العادل من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فصالحه صاحبها على قاعدة استقرت باطلاق اسرى المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص ونزل على بحيرة قدس وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة ودخل بلاد طرابلس وحاصر موضعاً يسمى القليعات واخذه صلحاً واطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخزبه وتقدم الى طرابلس فهب واحرق وسبي وغنم وعاد الى بحيرة قدس وتردت الرسل بينه وبين الصليبيين في الصلح فاصطلحوا

* موت الملك اموري صاحب عكا وتعيين خلفه والتحرير

على الحروب الصليبية السادسة *

في سنة ٦٠٦ مات الملك اموري ملك سوريا وماتت زوجته فأرسل الصليبيون المقيمون بسوريا الى الملك فيلبس اوغسطس ملك فرانسبا فيخبرونه بذلك فعين يوحنا بريانا ملكاً على سوريا فرضي به البابا وباركه وسار يوحنا المذكور الى فلسطين فقابله الصليبيون باحتفال عظيم وتوجوه بتاج الملك عليهم ولما جلس هذا الملك داخله الطمع فارسل الى البابا والى ملوك أوروبا يطلب اليهم تجريد عساكر صليبية سادسة لاجل تخليص القدس من المسلمين والاستيلاء على جميع البلاد الاسلامية بسوريا

* ابتداء الحروب الصليبية السادسة *

(التحرير على الحروب الصليبية السادسة والصليبيون القتبان ومؤتمر رومية) لما أرسل يوحنا بريانا ملك سوريا الى البابا والى ملوك أوروبا كما تقدم ارسل البابا الى الاساقفة ورؤساء الكنائس في جميع الممالك الأوروبية بالحضور الى رومية لعقد مؤتمر بذلك ولما وصلت رسل يوحنا المذكور الى بلاد أوروبا صاروا

يحثون الناس على الحروب الصليبية فتجتمع كثير من الشبان تحت اسم الصليبيين
 واتخذوا الصلبان على صدورهم وساروا مجددين واحتازوا الجبال الالية واقليم لومبارديا
 ونزلوا على ايطاليا وامامهم راية الصليب لاجل نزولهم في المراكب وتوجههم الي
 فلسطين فلما علم بذلك البابا باركهم ونزل اكثرهم بالمراكب فداهمتهم عواصف
 بحرية فاغرقهم بمرآكهم قريبا من الشطوط فامر البابا بانتشالهم ودفنهم بالشاطى وبنى
 عليهم كنيسة دعاها كنيسة الفتيان الابرار وتشتت باقي الصليبيين الفتيان بعد ذلك
 في البلاد ففهم من رجع الى بلاده ومنهم من خدم في فلاحة ارض ايطاليا وفي سنة
 ٦١٢ انعقد المؤتمر في مدينة رومية بكنيسة القديس يوحنا تحت رئاسة البابا اينوشانسوس
 وقد اجتمع فيه ما يزيد على ٥٠٠ من الاساقفة ورؤساء الكنائس وكذلك
 بطريرك القسطنطينية و بطريرك القدس ووكلاء كل من الملك فريديريكوس ملك النمسا
 وفيلبس ملك فرانسا وملك الانكليز وملك هونكريا فقام فيهم البابا خطيباً بفصاحة
 يصف لهم تعب مسيحي الشرق وما يقاسونه من العذاب وان القدس مغطى بازار
 الحزن الاسود ومقيد بسلاسل حديدية تحت عبودية الاسلام وصار يحتمهم على حض
 جميع المسيحيين بتحضير عساكر صليبية سادسة كي تنقذ قبر المسيح من ايدي
 المسلمين وبعد عدة جلسات تقرر بان البابا والكردينالية يقدمون عشر مداخيلهم
 لنفقات هذه الحرب المستجدة وكذلك الكنائسيين رؤساء ومروسين يقدمون نصف
 عشر مداخيلهم وتعهد جميع ملوك اوروبا برضاء تام على ابطال الحروب من
 بلادهم مدة خمس سنوات وفي سنة ٦١٣ توفي البابا المذكور فتمين خلفه البابا انوربوس
 الثالث ولما توسد السدة البطرسية حذا حذو سلفه في التحريض على الحروب
 الصليبية السادسة فارسل من عنده وفوداً الى جميع ملوك اوروبا بالتحريض والحث
 على تجهيز الحروب الصليبية المذكورة وذكرهم بوعودهم

{* سفر العساكر الصليبية السادسة }*

استعد للسفر تحت علم الصليب كل من الملك اندراوس الثاني ملك هونكريا
 وليوبولس دوك دي او طريش ودوك بافيرا وغيرها من الامراء والقواد فساروا
 الى ان وصلوا مدينة سبولاترو وهناك انتظروا قدوم المراكب من البندقية كي توصلهم
 الى فلسطين وسافر من مرسليليا وحينوى وبرنيداس جيوش كثيرة في المراكب الى
 فلسطين فسبقوا ملك هونكريا ومن معه وكذلك هو كوز الاول سلطان قبرص فانه

عند ما علم باخبار هذه الجيوش الصليبية السادسة اخذ معه أشرف دولته وعساكره ونزل بالمرأكب من ميناء ليميسون وسافروا جميعاً الى عكا ولما وصلوا اليها كان زادهم قد قل وأرض سوريا كانت وقتئذ مجذبة فاضطروا للخطف والنهب ثم خرجوا من عكا وأغاروا على البلاد الاسلامية وكان الملك العادل بمصر فسار منها توأ الى الشام

* محاربة الصليبيين مع الملك العادل وسفرهم الى مصر

وسفر ملك هونكريا وقدم صليبيين آخرين *

لما وصل الملك العادل الى الرملة ومنها الى اللد برز له الصليبيون من عكا فسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازماً على ان يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فقدم اليه الصليبيون في شعبان ٦١٤ هـ عازمين على محاربتهم لعلمهم انه في قليل من العسكر لان جنوده كانوا متفرقين في البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير ان يلقاهم في من معه خوفاً من هزيمة تكون شراً عليه وكان حازماً كثير الخذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقم بالقرب منها ويرسل الى البلاد ويجمع العساكر فوصل مرج الصفر فنزل فيه فاخذ الصليبيون كل ما كان في بيسان من الذخائر وكانت كثيرة ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبثوا سرايهم في القرى الى ان وصلوا الى خسفين وأطراف السويداء ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا وأقاموا به أياماً ثم خرجوا منه الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا وبينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا في النصف الاخير من رمضان ثم سير الملك العادل ولده الملك المعظم عيسى صاحب دمشق في قسم من جيشه الى نابلس لينع الصليبيين عن المقدس اما الصليبيون فانهزم ساروا مجتمعهم الى ان وصلوا قلعة الطور وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها حديثاً فقدم اليها الصليبيون وحاصروها وركبوا عليها المنجنيقات وآلات الحصار وزحفوا اليها وصعدوا على جبالها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه ثم ارتدوا عن القاعة وتركوها وساروا الى عكا وبعد رجوعهم حصل لهم فشل لان معسكرهم كان مركباً من ثلاثة رؤوس وهم ملك هونكريا بعساكره وملك قبرص وملك سوريا وكان معسكرهم مقسماً ثم ان ملك قبرص مرض ومات وكان عازماً على الرجوع الى مملكته وكذلك ملك هونكريا عزم على الرجوع

أيضاً ولكنه خاف لوم الصليبيين فأبقى نصف جيشه في سوريا تحت قيادة يوحنا ملك سوريا ورجع هو الى بلاده ثم وردت عساكر صليبية أخرى من بلاد فرنسا وإيطاليا وكانوا قد تأخروا عن المسير لمحاربة مسلمي اسبانيا ولما وصلوا الى عكا فرح جميع الصليبيين والمسيحيين بقدمهم وعقدوا مجلس مشورتهم فقرر سفر جميع الصليبيين من سوريا الى الديار المصرية ومحاربة المسلمين هناك

* محاصرة الصليبيين لمدينة دمياط *

قصد الصليبيون مدينة دمياط فوصلوها في يوم الثلاثاء ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ وهم نحو من ٧٠ الف فارس و ٤٠٠ الف راجل فحتموا اتجاه دمياط في البر الغربي وحفروا حول معسكرهم خندقاً وأقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط وكان برجاً منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المملح من الدخول الى ديار مصر في النيل وكان البر الذي نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المملح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة ممتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة تأتي اليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وقد انكسر ذلك الجسر بعد مدة فاغتم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبين موسوقين قيوداً وكان جميع الصليبيين بقيادة يوحنا بريانا ملك سوريا وليوبولدوس دي اوپريش فانزلوا في البرج الخشبي ليوبولدوس برجاله وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين فلما رأى المسلمون ذلك مجمهروا في البرج والسور وأخذوا في رمي السهام والحراب والحجارة والمتجانيقات على برج الصليبيين فلعبت به النار نخاف الذين فيه ثم انظفات حالا وتشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين فبلغ الملك الكامل قدوم الصليبيين ومحاصرتهم دمياط وكان يخلف أباه الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بنخبر الصليبيين وأمر والي الغربية بجمع العربان وسار هو في جمع كبير ونزل بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط وامتدت عساكره الى دمياط لينع الصليبيين من السور والقتال مستمر أربعة أشهر والملك العادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء

وفاة الملك العادل

كان الملك العادل نازلاً بمرج الصفر وقد أرسل العساكر الى ولده الكامل بالديار المصرية كما تقدم ثم رحل من مرج الصفر الى عالقين فنزل بها ومرض واشتد مرضه ثم توفي هناك الى رحمة الله في سابع جمادى الآخرة سنة ٦١٥ وكان مولده سنة ٥٤٠ وعمره ٧٥ سنة وكانت مدة سلطنته بمصر نحو عشرين سنة أو أقل وكان حازماً متيقظاً غزير العقل شديد الآراء ذا مكر وخديعة وصبوراً حليماً يسمع ما يكره ويفضي عنه واتسع ملكه وكثرت أولاده ورأى فيهم ما يحب ولم ير احداً من الملوك في أولادهما لقيه العادل فيهم من القوة والشجاعة والملك وخلف الملك العادل ستة عشر ولداً ذكرأ غير البنات ولما توفي لم يكن عنده احد من اولاده حاضرأ فحضر اليه ابنه الملك المعظم عيسى وكان قد أرسله الى نابلس لحماية القدس فكم موت أبيه وحمله في محفة وجعل عنده خادماً وطيباً راكباً الى جانب المحفة والشرا بدار يصاح الشراب ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم الناس ان السلطان شربه الى ان دخلوا به قلعة دمشق وصارت اليها الخزان والبيوتات فأعلن موته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية

محاربة الصليبيين بارض دمياط ودخولهم حتى اشمون طناح

واخماد ثورة المسلمين

لما بلغ الكامل موت أبيه وهو بمنزلة العادلية استلم زمام الاحكام أما الصليبيون فألحوا في القتال ولا سيما عند ما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في نهر النيل ويتمكنوا من البلاد فصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً الى ان قطعوه وكان قد انفق عليه وعلى البرج ما ينوف على سبعين الف دينار . وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال واعمال الحيلة في مكيدة الاعداء فامر ان تغرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين عن الابحار فيه فعمد الصليبيون الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديماً فحفروه وعمقوا حفره وأجروا فيه الماء الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم منه الى بورة على أرض جزيرة دمياط قبالة المنزلة المعسكر فيها الكامل ليقاتلوه منها فلما نزلوا في البورة ابتدأوا بقتاله بجرأ وزحفوا اليه مراراً فلم يظفروا منه بطائل ولم

يتغير على أهل دمياط شيء لان الميرة والامداد كانت تصل اليهم والثيل يحجز بينهم
وبين عدوهم وأبواب المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصار ضيق ولا ضرر وكان
العربان يغيروا على الافرنج في كل ليلة حتى منعوهم الرقاد خوفاً من غاراتهم فقوي طمع
العرب في الصليبيين حتى صاروا يحطفونهم نهراً ويأخذون الخيم بمن فيها فكمّن
لهم الصليبيون عدة كمناء وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فكفوا عن مناوشتهم . ثم أدرك الناس
الشقاء وهاج البحر على تخيم المسلمين وأغرقتهم فعمم البلاء وتزايد الغم وأحس
الصليبيون في القتال حتى كادوا يملكون كل مال المسلمين والملك الكامل يرسل الرسل
الى الجهات ويستصرخ اخوته ويستنجد أهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من
غلبة الصليبيين ولا من محبب . وفي أثناء ذلك ثارت بين رجاله ثورة كان زعيمها
عماد الدين أحمد بن المشطوب أحد كبراء الرجال على ان لا يقبلوا الكامل عليهم
سلطاناً بعد أبيه وكان ذلك باتفاق مع أخيه الملك الفائز فوقع الملك الكامل في حيرة
وأوجس خيفة على منصبه ولم ير من ينجده فسار من العادلية الى قرية تدعى
اشمون طناح (اشموم نطاح) بجريدة فأصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان
منهم هواه ولحقوا بالكامل ولم يتهملوا لاخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم
وأسلحتهم كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢٠ القعدة سنة
٦١٥ بلغهم ما كان من أمر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي)
أمينين لا يمتازعهم منازع وغنموا ما في معسكر المسلمين مما تركوه من أمتعتهم وغيرها
وكان شيئاً لا يحيط به الوصف فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخله وهم عظيم
وأوشك ان يفارق البلاد لانه أصبح لا يثق بنفسه ولا بمن حوله . أما مدينة
دمياط فبقيت محاصرة وقد شدد الصليبيون عليها برأً وبحراً وكانت تلك السنة ليس
أشد منها وطأة على المسلمين وقد أخذ اليأس منهم مأخذاً عظيماً ففياهم في ذلك
الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام بقيادة الملك المعظم عيسى أخي الملك
الكامل وكان قد تولى على دمشق بعد أبيه العادل فلما علم بما حل بجيوش أبيه
بعد وفاته أتى في عدة من رجال الشام فأطلعه الكامل على الحال سرّاً وأسرّ اليه
ان رأس هذه الطائفة ابن المشطوب فجاء الملك المعظم يوماً على غفلة الى خيمة ابن
المشطوب واستدعاه فخرج اليه فقال له أريد ان أفاوضك سرّاً في خلوة وسار معه
وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق بهم وقال لهم اتجوننا ولم يزل المعظم
يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء الى شيء حتى أبعدته عن المعسكر ثم قال له

ياعمد الدين هذه البلاد لك ونشتهي ان تهبا لنا وشيئاً من النفقة ثم قال لرجاله تسلموه حتى تخرجوه من الرمل فلم يسمع الا امتثال الامر لانفراده وعجزه عن المخالفة وعاد المعظم الى أخيه الكامل وأطعمه على ما جرى ثم جهز أخاه الملك الفأز شريك المتأمرين الى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لاجراجه من البلاد فلما خرج هذان الشخصان من العسكر نخلت عزائم من بقي من الامراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً

* { قدوم نجدة للصليبيين بقيادة بيلاجيوس وهدم سور البيت المقدس } *

ظل البابا انوربوس الثالث يحث ملوك اوربوا لنجدة اخوانهم الصليبيين حتى اجتمع لكلمته جيوش كثيرة من بلاد النمسا وبيزا وجنوى والبندقية وانكلترا وفرنسا فأرسلهم الى اخوانهم بدمياط بقيادة الكردينال بيلاجيوس بصفته نائب بابوي وأرسل معه خزائن المال الذي جمعه باسم الحروب الصليبية فسار الكردينال المذكور بمسارحه الى ان وصل الى معسكر الصليبيين باراضي دمياط وبعد يسير عاد الملك المعظم الى دمشق لينظر في احوال رعيته ثم خشي من الصليبيين ان امتلكوا دمياط ان يمدوا يدهم الى اورشليم (القدس) ففقوى سلطتهم فأمر بهدم أسوارها حتى اذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار

* { تشديد الحصار على دمياط واستيلاء الصليبيين عليها } *

شدد الصليبيون الحصار على دمياط ومنعوا القوت من الوصول اليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً وبنوا عليه سوراً وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال ويمنعونهم وقد نفذت من عندهم الاقوات وغلت الاسعار والملك الكامل كان لا يزال في أشمون ناظراً الى دمياط وهي محصورة ولا يقدر ان يصل اليها وخشي أخيراً ان يئس أهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب أحد الجندرية المدعو شمائل للدخول الى دمياط ليشط من فيها ويعدهم بالانقاذ فكان يسبح في النيل الى ان يصل الى أهل دمياط فيوصل اليهم الاخبار ويطمئنهم ويعود وبقي على ذلك مدة فخطي بذلك عند الكامل وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة واليه تنسب خزنة شمائل بالقاهرة . وفي أثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهاداً شديداً وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس هدمها

المسلمون خيفة ان يباغت الصليبيون الاسكندرية من أجلها فيتخذونها حصناً لانها كانت حصينة البناء كثيرة الاعمدة وجعلوها بعد ذلك جامعاً ولا تزال اثارها الى هذا العهد بقرب باب القباري . ثم دخلت سنة ٦١٦ وقد غلت الاسعار بدمياط بما هو فوق الحد فبلغ ثمن البيضة عدة دنانير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى أهل دمياط بجمل مختلفة فكانوا يأتون بجمل ويشقون جوفه ويملاونه فراخاً وفاكهة وتقلًا وغير ذلك ثم يخيطون جلده عليها ويرمونه في النيل فيسير منحدرًا مع الجرى فاذا جاء أمام دمياط نزل من فيها اليه وأخذوه واقتاتوا بما كان في جوفه . وكان الصليبيون يعرفون أحيانا هذه الحيل فيأخذون تلك المؤن ثم توات هجماتهم على من في المدينة فقاتلوهم قتالا شديداً خصوصاً جمعيات الرهبان (جمعية الهيكلين وجمعية السيطونيكين أي جمعية الشريط الازرق التي أسسها ريكاردوس قلب الاسد ملك الانكليز) ثم أمر الكردينال بيلاجيوس ان يتحد جميع الصليبيين للحرب دفعة واحدة برأ وبجراً وان يتسلحوا بالزروخ والزرديات فعلقوا السلام على الاسوار لتسلقوها وشدوا الحرب فجاهد المسلمون حق الجهاد واحرقوا سلام الصليبيين بقذف النيران عليها وهجموا على الصليبيين هجمة قوية فقتلوا منهم كثيراً وأغرقوا كثيراً ثم كر الصليبيون عليهم واشتد القتال فعلم بذلك الملك الكامل فسار بجيشه وهجم على مخيم الصليبيين لردهم عن محاربة المدينة فاتمروا قتاله ورجع بعضهم عن المدينة واشتد النزال بين الملك الكامل والصليبيين وبين هؤلاء ودمياط فانكسرت العساكر الصليبية في هذه الواقعة وقتل منهم كثير وانهمزم منهم كثير فاتبع الملك يوحنا ملك سوريا المهزمين ليردهم وصار يرسل الى كل فار من برجه ودامت هذه الحال بينهم أي كلما ضيق الصليبيون على أهل دمياط يصعد المسلمون الى أعلا البرج ويوقدوا ناراً لتنظرهم عساكر الملك الكامل فيعلمون بان أهل المدينة في ضيق فيهجم الملك الكامل بعساكره على مخيم الاعداء فيرتدون من محاربة المدينة ليحاربوا الملك الكامل وكانت تتواصل النجذات من أوروبا الى الصليبيين بتحريض البابا . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعاً وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير . وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً فدخلوها واحكموا السيف في من بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الانجرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى

فتلحق الاحياء بهم وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعا وليس من يسعى الى دفنه فيبقي في مكانه فيلحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا وجعل الصليبيون الجامع الكبير الذي بدمياط كنيسة لهم باسم القديسة مريم

{ في شقاق الصليبيين وبناء مدينة المنصورة }

بعد استيلاء الصليبيين على دمياط قرر مجلس مشورتهم بان تكون دمياط تابعة للملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا . ولما اتصل خبر سقوط دمياط بالملك الكامل رحل بعسكره بعد سقوطها بيومين ونزل قبالة طلخا على رأس بحر اشمووم ورأس بحر دمياط لينبع الصليبيين من المسير الى داخلية القطر بحراً وخيم في محلة المنزلة واقام معسكره هناك وكان الصليبيون قد قرروا سرعة المسير الى القاهرة ومحاصرتها حصل شقاق بين رؤسائهم وخصوصاً لان الكردينال بيلاجيوس كان يعتبر نفسه الرئيس الاعلى على جميع الصليبيين وجميع الرؤساء دونه رتبة والملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا يعتقد انه هو الرئيس والكردينال بصفة رئيس ديني فزاد التنافر بينهم فغضب الملك يوحنا وعاد الى مدينة عكا بعسكره ومعه الاسرى وترك باقي الصليبيين في دمياط وقدمت نجدات للصليبيين من فرانس والنمسا وايطاليا ففرح الكردينال بذلك وعزم على المسير الى مدينة القاهرة فابي رؤساء العساكر المسير معه فارسل وفداً الى الملك يوحنا كي يستسمحوه ويرجع الى معسكر الصليبيين وقد حصنوا دمياط تحصيناً عظيماً وبثوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون ويأسرون .

أما الملك الكامل فانه أخذ في تحصين معسكره في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق الى ان صارت مدينة عظيمة ولقبوها بالمنصورة اشارة الى انتصاره على الصليبيين هناك كما سيأتي وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الصليبيين واخراجهم من ديار المسلمين

{ ما جرى للصليبيين بعد ذلك واستيلاء المسلمين على دمياط }

ولما عاد الملك يوحنا دي بريانا الى معسكر الصليبيين انعقد مجلس مشورتهم وقرر سرعة المسير لمحاصرة القاهرة فتركوا أمتعتهم ومؤتتهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية كافية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة فيما هو أمام سراي المنصورة الآن وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة آلاف

فارس فقدم المسلمون شوانيمهم أمام المنصورة وعدتها مائة قطعة فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان الى القاهرة ونودي بالنفير العام ايضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقي فاجتمع عالم كثير وانزل السلطان على ناحية شارمساح الف فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الصليبيين ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الصليبيين من البر والبحر . وفي اثناء ذلك أتت النجيدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقها الملك المعظم عيسى فنلقاهم الملك الكامل وانزلهم عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الاخرى سنة ٦١٨ وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو أربعين الف فارس فخاروا الصليبيين وأخذوا منهم ست شواني وأسروا منهم الفين ونيفاً فتضعضوا وضاق بهم المقام فخبرهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الا شوبك والكرك لانهما أصبحتا ملكاً خاصاً له نالهما بالأرث من السلطان صلاح الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري فانعقد مجلس مشورتهم ورضي كل من يوحنا ملك سوريا وغيره من رؤساء العاكر وأما الكردينال فابي وداخله الطمع وبعد مجادلات أقر رأي الصليبيين على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم أسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرا من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى أغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على أرض مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم وبين بحجة أصحابهم فخافوا سوء المصير وبتوا يشكون قلة الطعام وكثرة المياه ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون طنح فعبرت العساكر عليها وملكت تلك الطريق فاضطرب الافرنج وضافت عليهم الارض . واتفق مجيء مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقدمت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفرت بها فاتصل ذلك بالصليبيين فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة المار ذكرها فطلبوا من

الملك الكامل الامان على ان ينسحبوا من القطر المصري جميعه ولا يطلبون لذلك مقابلاً فقبل منهم الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ هجرية بان يعطى كل من الفريقين رهائن فأعطى الصليبيون الملك يوحنا دي بريانا ملك عكا والكردينال بيلاجيوس نائب البابا رهناً وأعطى الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان سنه ١٥ سنة وجماعة من الامراء فسار الصليبيون الى دمياط وسلموها للمسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد أجهدوا انفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين ثم ارسل الصليبيون الملك الصالح ومن معه الى أبيه فأرسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم ثم عادوا وأقاموا بالمنصورة أياماً فأنشده هناك القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزوه

وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا	هنيئاً فان السعد جاء مخلدا
ميناً وانعاماً وعزاً مؤبداً	حبانا اله الخلق فتحاً لنا بدا
وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا	تهلل وجه الارض بعد قطوبه
طغاة وأضحى بالمرآك مزبدا	ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ
صقيلا كما سل الحسام المهندا	أقام لهذا الدين من سل عزمه
ثوى منهم أو من تراه مقيدا	فلم ينج الاكل شلو مجندل
عقيرته في الخافقين ومنشدا	ونادي لسان الكون في الارض رافعاً
وموسى جميعاً ينصران محمدا	أعباد عيسى ان عيسى وحزبه

فكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط الى ان أقلعوا عنها ثلاث سنين وأربعة أشهر و ١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة أشهر و ٢٤ يوماً ثم سار الملك الكامل الى مقر ملكه في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن القلعة

* ما جرى للملك فريديريكوس الثاني باوروبا

وامتيلانه على القدس صلحاً *

وبعد رجوع يوحنا دي بريانا الى عكا وجد مملكته في ضعف زايد من القوة والمال فسافر الى اوروبا طالباً المعونة من ملوكها فوصل الى البابا انوربوس الثالث

فقبله باحترام وكتب له منشورات الي جميع الملوك بالتحريض بارسال تجريدة صليبية لاستخلاص القبر المقدس من أيدي المسلمين ثم سار يوحنا الي جميع الملوك بهذا الشأن فما التقوا اليه وكان ملك النمسا فريديريكوس الثاني عند وفاة والده صغيراً فاقم عليه وصياً البابا اينوشانسوس الثالث الي ان بلغ وتسلم مملكته فلذلك كانت البابوية ذات دالة عليه فكتب اليه البابا يجرضه على المسير بنفسه الي سوريا وتجديد الحروب الصليبية ثم سعى في زواج فريديريكوس المذكور بابنة يوحنا سلطان سوريا المدعوة بولاندا لتوثيق العلاقة بينهما وتم الاحتفال بهذا الزواج في مدينة رومية وفي اثناء ذلك جدد فريديريكوس القسم بمسيره الي فلسطين ومخيلصه قبر المسيح من يد أعدائه واستعد للسفر وقد نادوا في اوروبا بذلك فحضر اليه حملة عساكر من الانكليز وفرانسا والمانيا والنمسا وغيرهم وتعين لاجتماع العساكر مدينة برينديس وكان من الرؤساء الذين قبلوا السفر للحروب الصليبية دوک دي بافير ودوگ دي أوتريش ولويس لاندغرافا وساروا بالحيوش فالتحدوا مع عساكر الملك فريديريكوس في المدينة المذكورة فاخذ يحثهم البابا بالمسير فنزلوا بالمرابك في سنة ٦٢٤ هـ وبعد مسيرهم من المينا حاجت عليهم العواصف فنشئت مصراكبهم وبعد ثلاثة ايام عدل الملك فريديريكوس عن المسير الي فلسطين ورجع بعساكره الي مدينة اترانتا اما الامير لاندغرافا فبعد نزوله في البحر اخذته حمى فلهق بفريديريكوس راجعاً الي المينا المذكورة وبعد ايام قلبه توفى . وكان البابا انوريوس قد توفي وتعين خلفاً له البابا غريغوريوس التاسع وهو الذي احتفل بنزول فريديريكوس الي البحر ولما بلغه عدوله عن السفر ورجوعه تكدر واعتبره عاصياً . ولذلك ارسل منشوراً الي جميع ملوك اوروبا يعلمهم فيه مجرمان الملك فريديريكوس فخارب الملك المذكور البابا برومية وأهانته اهانة شديدة أمام الهيكل المقدس وألزمه بالخروج من رومية . وفي ٦٢٥ هـ سافر برأ قاصداً القدس ولما وصل الي سوريا لم يقابله الصليبيون هناك لعلمهم انه محروم من البابا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج منها الي الشام بعد وفاة أخيه المعظم يريد امتلاك دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود ابن المعظم ولما سمع بذلك داود المذكور ارسل الي عمه الملك الاشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه الكامل فسار الي دمشق فترددت الرسل بينهم في الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الاشرف الي الملك الكامل فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الملك

فريدريكوس واستقرت القاعدة على ان يسلموا البيت المقدس بشرط ان يبقى
الجامع مع المسلمين ولا يتعرض أحد من الصليبيين للمسلمين فاستعظم المسلمون
ذلك وآكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه وتضرروا من
ذلك وكذلك جميع الصليبيين أنكروا هذا الصلح لانه على كلام مؤرخيهم صلح
نفاق لحصول الاسلام على جامع شهير أمام قبر المسيح ولذلك أرسل البطريك الى
البابا يعلمه وانه وضع المنع على الكنائس المقدسة المستخلصة بهذه الصورة ونهى
الزوار عن زيارتها ثم ان فريدريكوس سار بنفسه ومعه جماعة الى القدس ولم
يتبعه احد من الصليبيين فوجد القمامة والكنيسة وغيرها قد تركها خدمها
الرهبان لعدم مقابلته لانه محروم فلبس التاج فيها بنفسه من غير احتفال ككنائسي
وذلك في ربيع الآخر سنة ٦٢٦ ثم انه حرر رسائل الى البابا والى ملوك اوربا
يخبرهم فيه بامتلاكه القدس ثم أقام بالقدس يومين ولما وجد عدم احترامه عند
الصليبيين سافر راجعاً نحو عكا ومنها الى بلاده فر بايطاليا فخارب اهل لومبارديا
ثم حارب صهره يوحنا دي بريانا ثم توسل الى البابا غريغوريوس التاسع بالصفح عنه
فأرف به البابا وحله من الحرم

* { ذكر خلفاء المسلمين } *

وكان في سنة ٦٢٢ في آخر ليلة من رمضان قد توفي الخليفة الناصر لدين الله
ابو العباس احمد بن المستضيء بامر الله أبي محمد الحسن وكانت مدة خلافته نحو ٤٦
سنة وعشرة أشهر و ٢٨ يوماً وعمره نحو ٧٠ سنة وسبب موته بالدوسنطاريا وكان
سيئ السيرة ظالماً قتولى الخلافة بعده ولده ابو نصر محمد وتلقب بالظاهر بامر الله
فاظهر في الرعية العدل والاحسان وأطلق من في السجون ووزع عليهم نقوداً ثم
في ١٤ رجب سنة ٦٢٣ توفي الامام الظاهر بامر الله المذكور فكانت خلافته تسعة
أشهر و ١٤ يوماً وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه ثم بويع بالخلافة
ابنه الاكبر ابو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك في الرعية سيرة أبيه
في الخير والاحسان والعدل

* { مؤتمر مدينة سبولاته } *

أرسل الصليبيون بسوريا يطلبون من البابا المساعدة ويخبرونه بان المسلمين
يضيقون عليهم ويشنوا الغارة على بلادهم فعمد مؤتمر بمدينة سبولاته في سنة ٦٢٩

حضره الملك فريدريكوس وبطريك اورشليم وبطريك القسطنطينية وغيرهم من الاساقفة والرؤساء الكنائسيين فعرض عليهم البابا الرسائل الواردة له من سوريا وطلب منهم المساعدة والحث والتحريض بالحروب الصليبية المقدسة وكلفوا جمعية رهبان القديس عبد الاحد وجمعية رهبان القديس فرنسيس الاكبر بالانذار بالحروب الصليبية بصفة مفوضين من البابا وكذلك أرسل البابا قيسيين الى كل من بغداد ودمشق ومصر ليجادلوا علماء المسلمين

﴿ باقى سلطنة الكامل ووفاته وسلطنة ولده العادل ﴾

وأقام الملك الكامل سلطاناً على الديار المصرية بعد ابيه الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وكان قبل وفاة ابيه نائباً عنه على مصر كما تقدم وكان تارة يقيم بمصر وتارة يخرج منها الى الشام وذلك لقصد توسيع ملكه وأقام ابنه الملك العادل نائباً عنه بمصر في حال غيابه بالشام وأقام ولده الملك الصالح نجم الدين نائباً عنه في بلاد آمد . وحصن كيفا . وحران وغيرها من البلاد الشرقية وفي سنة ٦٣٥ بلغه وفاة أخيه الملك الاشرف فسار الى دمشق ومعه الناصر داوود صاحب الكرك فوصلها في جمادى الاولى وحاصرها وفيها أخوه الملك الصالح اسماعيل ثم استلمها من أخيه المذكور واعطاه بدلا منها بعلبك والبقاع وغيرها وذلك في ١٩ جمادى الاولى وأقام بدمشق ثم اصابه مرض فوات هناك في ٢١ رجب سنة ٦٣٥ وكان عمره نحو ستين سنة وكانت مدة سلطنته بمصر عشرين سنة ما عدا مدة نيابته بها قبل ان صار سلطاناً وهي قريباً من عشرين سنة وكان ملكاً جليلاً مهيباً حازماً أحسن التدبير يباشر شؤون المملكة بنفسه وينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل واصلاحها فعمرت في مدته ديار مصر أتم عمارة وكان محباً للعلماء ومجالسهم فاتفق رأي الامراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر بن الكامل وهو حينئذ نائب ابيه بمصر فخلف له جميع العسكر وانا بوا على دمشق الملك الجواد يونس ابن مودود بن العادل أبي بكر بن أيوب وصار الملك العادل سلطاناً على مصر واتفق في سنة ٦٣٦ كل من الملك الجواد يونس صاحب دمشق والملك الصالح نجم الدين أيوب شقيق سلطان مصر وكان اميراً على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات فأتى الملك الصالح الى دمشق وسار الملك الجواد يونس الى ما بين النهرين وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي لاحتلاس الملك من أخيه

* { في سجن الملك الصالح نجم الدين أيوب } *

لما استقر الملك الصالح بدمشق وردت إليه رسائل من بعض امراء مصر يطلبون قدومه لاستلام مصر فاقام ولده الملك المغيث فتح الدين عمر نائباً بدمشق وسار قاصداً مصر وشرع يكتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بملكه ويستدعيه اليه وهو محتج ويعتذر عن الحضور ويظهر أنه معه ويعمل في الباطن على امتلاك دمشق وكان الناصر صاحب الكرك قد سافر الى مصر واتفق مع الملك العادل على قتال الملك الصالح أيوب وفي سنة ٦٣٧ سار الملك الصالح اسماعيل ومعه شيركوه صاحب حصص بجموعهما فهاجوا دمشق وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وكان الصالح أيوب بنا بلس ولما بلغه ذلك فسدت نيات عساكره عليه وشرع الامراء ومن معه من الملوك يفارقونه ورحل هو الى القور ولم يبق عنده غير مماليكه واستاذ داره حسام الدين فاحتار بامره وليس له موضع يقصده فقصده بنا بلس ونزل بها بمن بقي معه وسمع الناصر صاحب الكرك بذلك وكان قد وصل من مصر فنزل بعساكره وامسك الصالح أيوب وأرسله الى الكرك واعتقله بها وتفرق عنه باقي اصحابه ومماليكه ولم يبق معه منهم غير جماعة قليلة فارسل أخيه الملك العادل صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر فلم يسلمه له فارسل يهدد الناصر فلم يلتفت اليه

* { استيلاء المسلمين على القدس وما جرى للبابا و فريديريكوس } *

واستمرت تجهيزات الصليبيين للسفر الى سنة ٦٣٥ ثم قدم الى البابا غريغوريوس التاسع بودوين ملك القسطنطينية يطلب مساعده على الروم فارسل البابا الصليبيين الذين تجمعوا الى القسطنطينية وفي سنة ٦٣٧ بعد اعتقاد الملك الصالح بالكرك سار الملك الناصر الى القدس وكان الصليبيون قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل فحاصرها وقتحها وخرب القلعه وخرب برج داود ايضاً لانه لما خربت القدس او لا لم يخرب برج داود فخربه في هذه المرة . ثم انه بعد سفر الصليبيين الى القسطنطينية حصل تفور بين البابا المذكور والملك فريديريكوس حتى حصلت بينهما محاربة شديدة برأ وبحراً ثم ان فريديريكوس حاصر مدينة رومية فتخلف اهلها عن البابا فاخذ هذا ذخائر القديسين بطرس وبولس وخرج بها من شوارع رومية قاصداً أعداء الرومانيين قائلاً لهم ألا ترغبون في المحاماة عن هذه الوديعة

المقدسة المحفوظة في وطنكم وتمهلونها لتفقد فعادت جميع العساكر الرومانية
والنمساوية عن محاربه وطردت الملك فريديريكوس ثم جمعت عساكر صليبية
بقيادة تيوبلت الرابع كونت دي شمبانيا سلطان نافار وهوكاز دوك دي بورغونيا
وبطرس دي دروكس وكونت دي بار وساروا قاصدين سوريا ولما وصلوا هنالك
تفرقوا كل رئيس بعسكره يحارب لنفسه

﴿ سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر وخلافة المستعصم ﴾

في آخر رمضان سنة ٦٣٧ أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن
عمه الملك الصالح أيوب واجتمع عليه مماليك وسار الناصر والصالح الى قبة الصخرة
ومخالفا بها على ان تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر ثم
سارا الى غزه فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه
وبرز بعسكر مصر الى بليس لقصد الناصر والصالح وأرسل الى عمه الصالح
اسماعيل صاحب دمشق ان يبرز ويقصدهما من وراء فسار الصالح اسماعيل من
دمشق فنزل الفوار فيمن الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدة بين جيشين
قد أحاطا بهما اذ ركبت جماعة من المماليك الاشرافية ومقدمهم ايبك الاسمر
وأحاطوا على دهليز الملك العادل وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليه من
يحفظه وذلك يوم الجمعة ٨ القعدة فكانت مدة ملكه نحو سنتين وأرسلوا الى الملك الصالح
أيوب يستدعونه فاتاه فرج لم يسمع بمثله وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر
داود الى مصر ودخل الملك الصالح قلعة الجبل في صباح يوم الاحد ٢٤ القعدة
المذكور فزنت له البلاد وفرحت بمقدمه الناس ثم سار الملك الناصر الى الكرك
ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر أخذ في تمكين قدمه فيها فامر في
السنة التالية وهي سنة ٦٣٨ بالقبض على ايبك الاسمر مقدم المماليك الاشرافية
والامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه وبايعوه مكانه وقتلهم جميعاً
وولى مكانهم من احتبر أمانتهم نحوه ثم شرع في بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكناً
لنفسه وفي سنة ٦٤٠ توفي المستنصر بالله في ١٠ جمادى الآخرة وكانت مدة
خلافته ١٦ سنة و١١ شهراً ثم تولى الخلافة بعده ولده المستعصم بالله وهو السابع
والثلاثون من بني العباس

* محاربة الصليبيين بغزه ورجوعهم الى بلادهم *

فسار بطرس دي دروكس نحو دمشق فاغار عليها وأخذ من القرى التابعة لها غنائم كثيرة من المواشي والبغال ولما علم بذلك باقى الامراء الصليبيين طمعوا في المسلمين وساروا الى نواحي غزه وكان في أثناء ذلك ان قبيلة الخوارزميين طردهم جنكيزخان ملك التتر من شرقي آسيا أثناء فتوحاته هناك فجاؤا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلا عقدوا معهم عهدة وعاهدوهم على محاربة الصليبيين وأمراء سوريا الذين على دعوتهم (لان بمض ملوك سوريا كانوا قد حالفوا صليبيين سوريا على محاربة مصر وفي نظير ذلك سلموهم طبرية وعسقلان والشقيف والقدس فاحتل الصليبيون تلك الاماكن) فتجند الخوارزميون واخترقوا سوريا الى أن بلغوا غزه فخاربوا الصليبيين عند اسوارها وانجدهم سلطان مصر من الجهة الثانية بمساكر مصر بقيادة ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح وكان من اكبر ممالিকে وهو الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك فانهمز الصليبيون فقتبوهم حتى استولوا على غزه والقدس باسم الملك الصالح وهلك الصليبيون الذين بقيادة الكونت دي بار وسمعان دي منتفورت عن آخرهم والرئيسان المذكوران وقعا في الاسر بايدي المسلمين مع من نجا وأرسلوا الى مصر مع بعض رؤوس القتل ولما بلغ الخبر الى تيوبلت سلطان نافار جمع باقى الصليبيين في مدينة عسقلان ثم سار منها بقصد نجدة الصليبيين المحاربين فلما وصل الى غزه وجد الحرب قد انتهت ودارت الدائرة على اخوانه فاخذوه الوهن هو وعساكره ومن معه من الصليبيين وأقام بسوريا جملة شهر ثم جدد هدنة مع السلطان الصالح الذي أطلق الاسرى الصليبيين ولم يكن بينهم الكونت دي بار فجزنوا عليه حزناً شديداً ثم سافروا كلهم الى بلادهم فأمين سلامتهم وقدمت عساكر صليبية اخرى الى مدينة عكا بقيادة ريكاردوس دي كوتوبلاس ابن أخي ريكاردوس قلب الاسد فاما أرادوا محاربة المسلمين تخلف صليبيو سوريا عن مساعدتهم فلذلك جددوا عقد الصلح مع المسلمين واستأذنوا من السلطان الصالح في دفن قتلى الصليبيين بنواحي غزه فاذن لهم فدفنوهم ثم زاروا القدس ورجعوا الى أوطانهم

* محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب وسجن بيبرس *

في سنة ٦٤٢ بلغ السلطان الصالح نجم الدين أيوب خبر وفاة ابنه الملك

المغيث فتح الدين عمر في حبس الصالح اسماعيل صاحب دمشق فاشتد حزنه وحنقه
 على الصالح اسماعيل وفي سنة ٦٤٣ سار معين الدين ابن الشيخ بعسكر السلطان
 الصالح أيوب الى دمشق وحاصرها وكان بها صاحبها الصالح اسماعيل و ابراهيم
 بن شيركوه صاحب حصص فتسلمها على أن يستقر بيد الصالح اسماعيل بعلمك
 وبصرى والسواد وتستقر بيد صاحب حصص بلده وما هو مضاف اليها فاجلها معين الدين
 الى ذلك ثم وصل الى دمشق حسام الدين بن أبي علي ومن معه من العسكر المصري
 وكان معين الدين بعد ما استلم دمشق قد مرض بها ومات فبقي حسام الدين نائباً
 بدمشق . ثم ان الخوارزميين خرجوا عن طاعة الصالح أيوب وصاروا مع الصالح
 اسماعيل وانضم اليه الناصر داود صاحب الكرك فساروا جميعاً الى دمشق وحاصروها
 وغلت بها الاقوات وقاسى اهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلها وقام حسام الدين في حفظ
 دمشق اتم قيام ثم اتفق الحليون والملك المنصور ابراهيم صاحب حصص وساروا مع
 الصالح أيوب وقصدوا الخوارزمية فرحل هؤلاء عن دمشق وساروا نحو الحليين
 وصاحب حصص والتقوا على القصب في سنة ٦٤٤ فانهمزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة
 تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه الى حلب
 ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشلوخان فلحقوا بالتر وصاروا معهم
 وانقطع منهم جماعة وتفرقوا في الشام وكفا الله الناس شرهم ولما وصل خبر كسرتهم
 الى السلطان الصالح أيوب بمصر فرح فرحاً شديداً ودقت البشار بمصر وزال
 ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حصص ثم رحل حسام الدين بن أبي علي
 الهذاني بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بعلمك وبها أولاد الصالح اسماعيل
 وحاصرها وتسلمها بالامان وحمل أولاد الصالح اسماعيل الى السلطان الصالح أيوب
 بمصر فاعتقلوا هناك ومعهم امين الدولة وزير الصالح اسماعيل واستاذ داره ناصر
 الدين تغمور فدقت البشار بمصر وزينت القاهرة لفتح بعلمك . ثم ان الصالح أيوب
 استولى على عجلون لوفاة صاحبها . ثم جهز الامير نخر الدين يوسف بن الشيخ
 الى حرب الملك الناصر صاحب الكرك فسار نخر الدين واستولى على جميع بلاد
 الملك الناصر وحاصر الكرك وخرب ضياعها فتولى على جميع البلاد ما عدا الكرك
 فانها بقيت بيد صاحبها وفي هذه السنة أيضاً حبس السلطان الصالح أيوب مملوكه
 ببيرس وهو الذي كان معه لما اعتقل في الكرك وسببه ان ببيرس المذكور مال الى
 الخوارزمية والى الناصر داود وصار معهم على استاذة (سيده) لما أرسله بتجريدة

الى غزه كما ذكر فارسل استاذ الصالح أيوب واستماله فوصل اليه فاعتقله ثم ان الصالح
 أيوب استقدم الامير حسام الدين من دمشق واباه بمصر وولي بدلا منه علي دمشق
 الامير جمال الدين مطروح وسار الصالح أيوب الى دمشق ومنها الى بعلبك ثم عاد الى
 دمشق وفي سنة ٦٤٥ عاد السلطان الصالح أيوب الى مصر ثم سار الامير نجر الدين
 ابن الشيخ وفتح قلعتي عسقلان وطبرية من الصليبيين . ثم توفي علاء الدين
 قراسنقر الساقى العادلي احد مماليك الملك العادل بن أيوب وصارت مماليكه بالولاء
 للصالح أيوب ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحى . وفي سنة ٦٤٦ أرسل الملك
 الناصر صاحب حلب عسكرياً مع شمس الدين لؤلؤ الارمني فحاصروا حصص مدة
 شهرين وبها الاشرف موسى فسلمها اليهم وتعوض عنها بتل باشر مضافا الى ما بيده
 من تدمر والرحبة فشق ذلك على السلطان الصالح أيوب وسار الى الشام لارجاع
 حصص من الحليين فوصل دمشق وأرسل عسكرياً الى حصص مع حسام الدين فنزل
 عليها وحاصرها وركب عليها المنتخبات ووصل اليه نجم الدين الباذراي رسول
 الخليفة وسعى في الصالح بين الصالح والحليين وان تستقر حصص بيد الحليين فاجاب
 الملك الصالح الى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حصص بعد ان اشرفوا على أخذها
 * التتر باوروبا ومؤتمر ليون بفرنسا *

لما ظهر التتر باسيا لم يقتنعوا بما ملكوا بل ساروا بقيادة رئيسهم جانكيز خان الى
 بلاد أوروبا فهجموا على بلاد هونكريا وبلاد النمسا وتهددوا باقي الممالك فوق العرب
 في قلوب ملوك أوروبا واحتراروا في أمرهم فامر البابا بايقاد حرب مقدسة ضدهؤلاء
 التتر ولكن نداء هذا لم يلاق صدى وأرسل ملك النمسا الى سائر الملوك يطلب اتحادهم
 لصد هجمات التتر ولكن العرب كان ملأ قلوبهم فلم يلتفت أحدهم واكتفوا بالتوسل
 في الكنائس يطلبون من الله ازالة هذا العدو . وكان الخوارزميون قد قاتلوا
 صليبيين سوريا وأهلكوهم كما ذكر فسافر أسقف بيروت فاليران الى بلاد أوروبا يطلب
 المساعدة فقابله البابا اينوشانسوس الرابع بالحنو والشفقة ووعدته بالمساعدة التامة .
 ثم ان بودوين الثاني ملك القسطنطينية التمس من البابا أيضاً الاغاثة لتعصيد كرسي
 مملكته المائل الى السقوط من الروم لانهم شقوا عليه عصا الطاعة . وكان البابا أيضاً
 قد تضايق من الحروب الحاصلة بينه وبين ملك النمسا فترك رومية وسار الى مملكة
 فرانسوا وعقد بها مؤتمراً عاماً في مدينة ليون سنة ٦٤٣ ففي هذا المؤتمر (السينودس)
 حضر الاساقفة وأمراء الشرق وبودوين ملك القسطنطينية ونواب الملك فريديريكوس

ملك النمسا للمدافعة عنه في التهم الموجهة اليه من البابا في الجلسة الاولى التي عقدت في يوم ١٨ يونيه سنة ١٢٤٥ م افتتح البابا المؤتمر وعرض عليه الاوجه الآتية . أولاً مسألة التتر باوروبا . ثانياً انشقاق الروم . ثالثاً غزوات الخوارزميين بسوريا . رابعاً الاضطهاد الذي تعمده الملك فريديريكوس . فقرر أعضاء المؤتمر ما يأتي . أولاً يلزم اعانة القسطنطينية وتحليص القبر المقدس وتجريد عساكر لايقاد حروب صليبية سابعة وان البابا والاساقفة يقدمون للنفقة على هذه الحروب عشر مداخيلهم وبقي الاكبريكيين نصف عشر مداخيلهم وأصدروا الاوامر اللازمة لتجهيز هذه الحروب . ثانياً قرر بعزل الملك فريديريكوس ملك النمسا وذلك بعد مدافعة نوابه التي لم تأت بفائدة ثالثاً أمر البابا ان الكردينالية يلبسون اثواب لونها أحمر علامة على استعدادهم لسفك دماهم في حفظ الكنيسة

* { ابتداء الحروب الصليبية السابعة } *

(سفر العساكر الصليبية السابعة)

بعد انتهاء المؤتمر السابق الذكر أرسل البابا وأعضاء المؤتمر الى الملك لويس التاسع سلطان فرانسوا يطلبون منه استعداده ومسيره لخلاص القبر المقدس من المسلمين فقبل طلبهم هذا ونبه على عساكره بالتجهيزات الحربية فنهته عن ذلك والدته وأرباب دولته . ثم أصابه مرض تهدد حياته فنذر للمسيح بأنه اذا شفي توجه بعساكره لخلاص قبره . فلما شفي استلم الصليب وصار يجهز العساكر الصليبية السابعة للمسير فاستعد للسفر كل من السلطان المذكور وأخواته الثلاثة والكونت دي برانيا واولاده والدوك دي يرغونيا . والكونت دي فلاندر . والكونت دي بار . والكونت دي منتفرت والكونت دي سان بول مع ابن أخيه شاتيلون والكونت دي سواسونس والكونت دي فاندوما وغيرهم كثيرون والامير جانفيللا صديق الملك لويس التاسع وهو مؤرخ هذه الحروب وعقد الملك المذكور جمعية بمدينة باريس لتحديد ميعاد السفر وأقام والدته بلانشا نأبة عنه في المملكة مدة غيابه وقد أقسم له رجال حكومته بان يحفظوا الطاعة لعائلته ان حدث له شيء في سفره وأرسل البابا منشورات تقرأ في الكنائس بمدح الملك لويس التاسع صاحب الحروب الصليبية السابعة والثناء عليه وسار الملك لويس الى كنيسة القديس ديونيسيوس واستلم سنجق الصليب هناك من يد النائب البابوي كما انه البسه ثوب الحروب الصليبية ورجع الى باريس وحضر الذبيحة الالهية في كنيسة والدة الاله الكاتدرائية وفي اليوم الثاني سار من باريس وبرفقته زوجته

مرغريتا وخرجت لوداعه الملكة بلانشا والدته وجميع الاكلروس ورجال الحكومة
ثم سار من بلاد فرانس الجنوبية واجتاز اقليم لانكادوك ونزل في المراكب من ميناء
اكس بورتاس وساروا في البحر المتوسط الى ان وصلوا جزيرة قبرص واقاموا بها
ثم انه تفتى في المعسكر الصليبي مرض وبائي شديد اهلك معظمهم ومات به هناك
الكونت دي دروكس . والكونت دي مونتفرت . والكونت دي فاندوما والارشابمبود
دي بوربون وغيرهم

✽ وصول الصليبيين الى دمياط ومخابرتهم للملك الصالح أيوب ✽

كان السلطان الصالح أيوب قد فاجأه مرض ثقيل وهو تورم في مابضه تكون
منه ناصور فتح وعسر برؤه وانضاف اليه قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق
فجاءه منبى يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر وأخذها وقد اكثروا من التجنيد
ووردت اليهم النجيدات من جميع ممالك أوروبا فلما علم بذلك وهو مريض لم يسعه
الا مبارحة دمشق فسار في محفة ونزل اشمون طنح في أول سنة ٦٤٧ وجمع في
مدينة دمياط من الاقوات والزاد والاسلحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان
يجرى على دمياط ما جرى في أيام أبيه وجهاز أسطولا من صناعة مصر وجعل فيه
ساراً ما يحتاج اليه الجند وسيره شيئاً فشيئاً وضم الي جنده كثيراً من العربان واكثرهم
من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد قيادة حامية هذه المدينة الى الامير
نحر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ففي صباح يوم الجمعة ٢٠ صفر من هذه السنة
وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جموعهم وحال وصولهم بعث ملكهم لويس
التاسع الى الملك الصالح كتابا نصه (أما بعد فانه لم يخف عليك اني أمين الامة
الغيسوية كما انه لا يخفى عليّ انك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك ان عندنا هل
جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر
ونقتل منهم الرجال ونزمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وأنا
قد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل
الايان وأدخلت عليّ الاقساء والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت
واصل اليك وقائمتك في أعز البقاع اليك فاما ان تكون البلاد لي فياهدية حصلت
في يديّ واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العلياء ممتدة اليّ وقد عرفتك
وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كمدد الحصى
وهم مرسلون اليك باسياف القضاء) فلما قرى الكتاب على السلطان الملك الصالح

وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب
 (بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين .
 أما بعد فإنه وصل كتابك وانت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فمحن أرباب
 السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بنى عاينا باغ الا دمرناه ولو رأيت عينك
 أيها المغرور حد سيفوقنا وعظم حروبا وقتحنا منكم الحصون والسواحل وتخزيننا
 ديار الاواخر منكم والاولى لكان لك ان تعض على اناملك بالندم ولا بد ان تزل بك
 القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهناك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب
 ينقلبون فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على أول سورة النحل أتى أمر الله فلا
 تستعجلوه وتكون على آخر سورة ص وتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله
 تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين
 وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقبلك والسلام)

﴿ في امتلاك الصليبيين دمياط ﴾

وبعد ذلك عقد الملك لويس التاسع مجلس مشورة الصليبيين ليقرروا هل تنزل
 عساكر الصليبيين الى بر دمياط أو تقيم أياماً بمراكبهم للاستراحة فقرر سرعة نزولهم
 فنزل الملك لويس ومعه اخوته وبجانبه أحد الرؤساء رافعاً علم الحرب وامامه النائب
 البابوي حاملا الصليب واصطفوا للقتال في يوم السبت ٢١ صفر سنة ٦٤٧ فحصلت
 بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين ثم حصلت أيضاً مناوشة في البحر
 بين مراكب الصليبيين ومراكب المسلمين وفي المساء فر الامير نجر الدين بغير
 داع فتبعه بنو كنانة وخرجوا من المدينة فنبعهم الاهالي في الليل هائمين على
 وجوههم لا يلتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في أشمون نفلت المدينة للصليبيين
 ففي يوم الاحد ٢٢ من الشهر المذكور سار الصليبيون قاصدين محاصرة المدينة فوجدوها
 مفتوحة خالية من سكانها فدخلوها بامان واستولوا على جميع ما فيها من المؤن والذخائر
 والاسلحة وعدة الحرب ودخلوا الجامع وجعلوه كنيسة فحصر سلطان مصر بذلك
 خسارة لا تعوض فاستشاط الملك الصالح غيظاً لذلك وجمع اليه بني كنانة وعنفهم
 لانهم هم على حين لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الا بعد ان رأينا
 الامير نجر الدين فاراً ومن وراءه رجاله فامر الملك الصالح باعدام ٥٤ من امراءهم
 لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنه

﴿ استيلاء الملك الصالح على الكرك ووفاته ﴾

وفي ٢٤ صفر سنة ٦٤٧ كان عسكر الصالح في المنصورة وحصنها واستعد للمدافعة وكان الملك الناصر صاحب الكرك قد سار الى حلب مستجيراً بصاحبها واستتاب على بلاده ابنه عيسى ولقبه الملك المعظم وكان له ولدان آخزان أكبر من عيسى وهما الامجد حسن والظاهر شاذي ففضبا لتقديم أخيهما عيسى عليهما وبعد سفر أيهما قبضا عليه وتوجه الامجد حسن الى الملك الصالح أيوب وهو مريض في المنصورة وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولاخيه بديار مصر فاحسن اليه الصالح أيوب وأعطاهما أقطاعاً أرضهما بها وأرسل الى الكرك من تسلمها يوم الاثنين ١٨ جمادى الآخرة وفرح الصالح بالكرك فرحاً عظيماً مع ما هو فيه من المرض وفي ليلة الاحد ١٤ شعبان توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب وكانت مدة سلطنته على الديار المصرية تسع سنين و٨ أشهر و٢٠ يوماً وعمره نحو أربعين سنة وكان مهيباً عالي الهمة عفيفاً طاهر اللسان والذيل شديد الوقار كثير الصمت وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره حتى كان أكثر امراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة منهم حول دهليزه وساهم البحرية ولم يبق من أولاده غير الملك المعظم تورانشاه وكان مقبلاً بحصن كيفا ومات الصالح ولم يوص بالملك لاحد فكان من جملة جواريه جارية تدعي شجرة الدر وهي والدة المعظم تورانشاه فتواطأت مع الامير نخر الدين ورئيس الخصي جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها ادارة الاحكام أثناء غيابه عنها في حملاته الحربية . فلما توفي كتمت أمر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة (ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه وقد عين الامير نخر الدين تائبك لادارة الاحكام) فبايع جميع الامراء . ثم أرسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد وأعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك محتومة بختم السلطان الصالح الى جميع أنحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حياً لكنهم عند ما علموا بان الامير نخر الدين أرسل قاصداً لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

﴿ محاربات الصليبيين وواقعة المنصورة ﴾

بعد امتلاك الصليبيين مدينة دمياط رتبوا حاهم فيها وأقامت بها الملكة مرغريتا وسافروا منها قاصدين مصر القاهرة فوجدوا معسكر المسلمين بالمنصورة فردهم عن غرضهم فقاموا في الموضع الذي قامت به العساكر الصليبية السادسة واستمرت بين العدوين المناوشات وأخذت العساكر الاسلامية تحذفهم بالنبال وكرات النار التي يسميها مؤرخوهم النيران (الفريجابوزيه) وكان كل يوم يقتل من الصليبيين كثيرون ويأسر منهم خطفأً كثيرون ولما بلغ الصليبيين خبر وفاة الملك الصالح طمعوا في البلاد فخاربوا العساكر الاسلامية محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي بقيادة الامير خرا الدين فخارب ببسالة كلية . كل ذلك حصل بين الجيشين ببحر أشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة وهم لا يعلمون طريقاً اليها غير النيل فأتى اليهم بعض من غدر من المسلمين وأخبرهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسان جمعية الهيكليين وجمعية القديس يوحنا المعمدان بقيادة الكونت روبرتوس دي ارتواز شقيق الملك لويس وهاجمت معسكر المنصورة بقتة وكان الامير نخر الدين في الحمام فأثته الاخبار بهجوم الصليبيين فنأدى برجاله وخرج للدفاع فأدركه بعضهم فقتله واشتد عزم الصليبيين حتى كادت تدور الدائرة على المسلمين لولا مماليك السلطان الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانقضوا على الصليبيين انقضاء الاسود على فريستها فقتلوا راول دي كوزي وغويليوم لونكانيه رؤساء الجمعيات المذكورة والكونت روبرتوس أخ الملك لويس ثم باقي الفرسان فلم يبقوا منهم احداً ولما بلغ خبر هذه الواقعة الملك لويس ومقتل أخيه أمر بوجود رئيس الجيوش بالسرعة في المسير الى معسكر المسلمين ومباغتتهم فسار الى ان وصل الى عسكر المسلمين واشتد بينهم القتال تارة بالنبال وأخرى بالرمح ومثلها بالبلطات وبالسيوف وبعد جهاد عجيب وصبر من المسلمين شديد قتل من الصليبيين والي تريباطو . وهو كز دي اكو سا . وراول دي فنوره . وفاريس دي لوبي وأما ارارد دي ايري فضر به أحد المماليك بسيفه فقد وجهه شطرين فلحقهم الملك لويس وقوى عزمهم وقد وقع اخوه الثاني الكونت دي انجو عن حصانه فاراد المسلمون أسره فلحقه لويس وجنده وخلصه من أيديهم واستمر القتال عاماً بين جميع الصليبيين وعساكر المسلمين وقد أعى الفريقان التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الحسار . وبعد انقضاء هذه

الواقعة العظيمة نزل بمعسكر الصليبيين امراض رديئة من كثرة جثث القتولين منهم وتصاعد العفونة فأفسدت الهواء عليهم فكثرت بينهم الموت كأنه وباء ثم أعقب ذلك قناء زادهم واشتد عليهم الجوع وضربهم بسيفه تكميلاً لمصائبهم . لان عساكر المسلمين وقفوا بمراكبهم في البحر بالقرب للمنصورة . وكما وجدوا مراكب واردة للصليبيين بالقوت هجموا عليها وأخذوها أو ارتدت ثانياً الى دمياط وكذلك الملك لويس نفسه مرض نحاف جميع الصليبيين ان يموت الملك فاجتمعوا وعولوا على طلب هدية لرفع السلاح أياماً معدودة

﴿ قدوم المعظم تورانشاه وسلطنته وواقعة الصليبيين ﴾

﴿ واسر لويس التاسع وغيره ﴾

في ٢١ القعدة سنة ٦٤٧ قدم السلطان غياث الدين تورانشاه من حصن كيفا فاستولى على سلطنته واشتد عزم المسلمين به وضعفت قلوب الصليبيين ووقع القتال بين الفريقين في البر والبحر فأسر المسلمون ٣٢ مراكباً فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم أرسل لويس التاسع يطلب المصالحة على ان يأخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط فرفض الملك المعظم هذا الطلب وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ عزم الصليبيون على الرجوع الى دمياط فنعقهم المسلمون حتى أدركوهم غربي فارسكور فاستلحموهم وأثخنوا في قتلهم ويقال أنهم قتلوا منهم ٣٠ ألفاً وأسروا الملك لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة وقيدوه بالسلاسل الحديدية وكان الملك لويس واخوته وجميع رؤساء جيشه قد انحازوا الى منية أبي عبد الله وطلبوا الامان فأمهم الطواشي محسن الصالحى ثم احتاطوا بهم وقبضوا على الملك المذكور واخوته وجميع الرؤساء وأحضرهم الى المنصورة وجعلوهم في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء نحر الدين بن لقمان ووكل بالملك لويس الطواشي صبيح المعظمي ثم رحل الملك المعظم من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب بها برجاً من الخشب

﴿ قتل المعظم وسلطنة شجرة الدر واطلاق الملك لويس التاسع ﴾

ثم ان الملك المعظم تورانشاه عزل جميع من كان بيده أزمة الحكومة من أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نقر قلبه منه واعتمد على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا وكانوا سفلة أراذل فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيف وكان اول من ضربه ركن الدين

بيرس فهرب الملك المعظم منهم الى البرج الحشبي الذي نصب له بفارسكور
 فاطلقوا في البرج النار فخرج المعظم من البرج هاربا طالباً البحر ليركب في حرا قته
 خالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فادركوه واتموا قتله في يوم الاثنين
 ٢٩ محرم سنة ٦٤٨ وكانت مدة اقامته في المملكة من حين وصوله الى الديار
 الديار المصرية شهرين وياماً وبموته انقرضت الدولة الايوبية ولما جري ذلك اجتمع
 الامراء واقفوا على ان يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وان يكون
 عز الدين ايبك الجاشنكير الصالح المعروف بالتركاني اتابك العسكر وحلقوا على
 ذلك في ١٠ صفر سنة ٦٤٨ وخطب لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة
 باسمها وكان نقش السكة (المستعصية الصالحة ملكة المسلمين والدة الملك المنصور
 خليل) وكانت قدرزقت من الملك الصالح ولداً اسمه خليل مات صغيراً (فسميت
 بهذا الاسم) وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل ثم دارت المحاربة
 بين رجال الحكومة المصرية وبين الملك لويس التاسع المحبوس بشأن اطلاقه هو
 ومن معه من الاسرى فقم الصالح على ان يدفع ٨٠٠ الف دينار ويسلم مدينة
 دمياط ويرحل بسلام وتطلق الحكومة المصرية جميع الاسرى فاستقر الرأي على
 ذلك وكانت دمياط لم تزل مع الصليبيين والعساكر الاسلامية محاطة بها والمملكة
 مرغريتا تقيم فيها وهي حامل فوضعت ولداً فسمته تريستان (اي الحزين) وكان
 الصليبيون الذين معها بالمدينة وهم البيزاويون والجنويون قد عزموا على ان يهربوا
 من المدينة ويتركوا هذه المملكة فوزعت عليهم جميع ما عندها من الذهب والفضة
 حتى استمالهم ثم ركب الملك لويس واخوته وبعض الرؤساء وساروا قاصدين
 دمياط وحوله والعساكر الاسلامية للاستيلاء على دمياط واستلام المبلغ المقرر فلما
 وصلها سلمها للعساكر المصرية ودفع ٤٠٠ الف دينار ونزل هو وباقي الصليبيين
 وزوجته بمراكب البحر وسار قاصداً عكا فقال جمال الدين يحيى ابن مطروح في
 ذلك ابياتاً منها

قال صدق عن قؤول نصيح	قل للفرنسيس اذا جئته
تحسب ان الزمر ياطبل ربح	آيت مصرا تبتي ملكها
بحسن تدبيرك بطن الضريح	وكل اصحابك اوردهم
غير قثيل أو أسير جريح	خسین الفأ لا ترى منهم
لعل عيسى منكم يستريح	الهمك الله الى مثلها

إذا كان باباكم بذا راضياً فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم ان اضمروا عودة لاخذ نار او لقصده صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صحيح

﴿ الملك لويس بعكا وسلطنة ايبك الجاشنكير ﴾

ولما وصل الملك لويس التاسع الى عكا ببعض رجاله لان الآخريين سافروا الى بلادهم اجتهد في جمع باقي المبلغ المقرر وقدره ٤٠٠ الف دينار ولما كمل عنده ارسله صحبة بعض الصليبيين الى الديار المصرية وطلب اطلاق باقي الاسارى فاستلموا المبلغ وأطلقوا نحو اربعمائة أسير فقط فاعتناظ لويس وأخذ يستعد في تحصين بلاد سوريا واما شجرة الدر فان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها فانفذ السوريون الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في أمر هذه الملكة فكتب اليهم ما مفاده (اذا لم يكن ينسبكم من يصلح لسلطنة اقدم اليكم فاقم عليكم من يحكم فيكم اما قرأتهم ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم عليهن) فاستمسك بمالك مصر بهذه الفتوى ونار رقاقاؤه في دمشق وخاعوا طاعة شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع اول سنة ٦٤٨ وقتلوا كل من كان في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر وفضل مثل ذلك اهل بعلبك وشميس وعجلون فنشأ بسبب ذلك خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل الى مواقع حربية فتمكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات والاستقلال والجا الامراء شجرة الدر الى الاستقالة فاستقلت ثم بويع عز الدين ايبك على مصر ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركي الصالحى وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبه الى حزبه . وبعد قليل اتقسم المماليك الى حزبين عرفا بالمعزيين نسبة الى الملك المعز ايبك وبالصالحين نسبة الى الملك الصالح نجم الدين وتنازعا النفوذ ففاز الصالحيون .

﴿ سفراخوات الملك لويس الى فرانسوا وسلطنة الملك الاشرف ابن يوسف ﴾

وفي أثناء ذلك ارسلت الملكة بلانشا والدة الملك لويس التاسع ونأبته على المملكة الى ولدها المذكور بسوريا تطلب منه سرعة سفره الى مملكته فعزم على السفر فاستغاث به صليبيو سوريا وطلبوا منه البقاء معهم خوفاً من استيلاء المسلمين على بلادهم بعد سفره فاجاب طلبهم وعدل عن السفر الى مملكته فلما رأى ذلك اخواه ابي عزمه على الاقامة بسوريا ركبا البحر وتبعهما باقى

الصليبيين وسافروا الى بلادهم . وأما المماليك الصالحيون فانهم اجبروا ايبك أن يقبل بمبايعة شاب من العائلة الايوبية لم يبلغ الثامنة من العمر وكان في اليمن واسمه موسى مظفر الدين بن يوسف اتسز ملك اليمن فبويع في ه جمادى الاولى سنة ٦٤٨ وبايعه الناس ولقبوه الملك الاشرف وتعين عز الدين ايبك اتابكاه غير ان ازمة الاحكام ما برحت في يده ولم يكن الاشرف الا اسماً بلا مسمى ومن الغريب تأليف هذه السلطنة المزدوجة من أحد سلالة العائلة الايوبية وأحد مماليكها والاعرب من ذلك أن يخطب لهما معاً

﴿ حروب بين المماليك والسوريين واتحادهم مع الملك لويس ﴾

﴿ وتخریب دمياط ﴾

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ بشار الملك المعظم فدعى اليه اقاربه امراء العائلة الايوبية للتعاقد على ذلك ولتأكيد النجاح بمساعده طلب من الملك لويس التاسع مساعدته ولما أحس بذلك المصريون أرسلوا الى لويس المذكور مائتي فارس من الاسرى وطلبوا منه عقد معاهدة مقنضهاها ان المصريين اذا انتصروا على صاحب دمشق اعطوا ملك فرانسوا القدس وان جميع البلاد التي يستولون عليها تكون مناصفة بينهم فقال الملك لويس الى معاهدة المصريين واعتذر الي صاحب دمشق بان بينه وبين المصريين هدنة بعشر سنين فانصل أمر تلك المحابرات بسلطان دمشق فانفذ فرقة من عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين فعثروا بالمصريين في غزاة فنهاضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحية فاجدهم الفارس اقطاعي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ في العباسية وتقاتلا فانكسر المصريون أولاً فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاعي انهزما نحو سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شردمة من رجاله فقتلاه وشتتا رجاله فاشتد ازرها فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شردمة قليلة من الجند . أما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الحيوش المصرية المهزومة فاضطر ناصر الدين الى الفرار بنفسه فتبعاه فلم يدركاه فعادا الى مصر فرأيا الحيوش السورية قد دخلت القاهرة وخاف اهلها ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوه وخطبوا له . الا ان الأئمة لم يوافقوا على تلك المبايعة فلم ينجوا من انتقام ايبك فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جداً وابطلوا

مبايعة ناصر الدين أما هذا فلما رأى أمر انكماره على ما تقدم لم يعد يمكنه إعادة الحرب ثانية فصالح المصريين على أن ينجلي لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس ولكنه ربح من الجهة الثانية ما كان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين . ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين إليها مرة أخرى فسيروا إليها الحجارين والفعلة فتولوا هدم أسوارها وحيت أنارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابتائها بعض الفقراء للسكن في قلبها ودعوا ذلك المكان المنشية . أما دمياط الباقية إلى هذا العهد فابتيت على انقاض تلك

﴿ طلب الملك لويس التاسع النجدة من أوروبا ووفاة الأشرف بن يوسف ﴾

لما علم الملك لويس بفساد المعاهدة المذكورة واتحاد المسلمين خاف على بلاد سوريا فأرسل إلى البابا برومية يطلب منه المساعدة في إرسال نجدة إلى سوريا وكذلك أرسل إلى والدته بلانشا نائبة المماليكة الفرنسية فسار إليها يرسل المنشورات بالحث والتحريض على نجدة لويس إلى ملوك أوروبا فلم يلتفت أحد إلى أوامره وكذلك في فرنسا وذلك لعلم الجميع بما حصل لملك فرنسا وغيره من الملوك وأنه من عهد الحروب الصليبية الأولى وبجريداتهم تذهب هباءً منثوراً . وأما من جهة المصريين فإن الفارس اقطاعي عظم في عيون المصريين لما أظهره من البسالة والاقدام في الحروب الأخيرة فلغبه احزابه بالملك وتزوج أخت المنصور سلطان حماه واسكنها في القلعة لاتصال جبل قربها بالعائلة المنوكية فاجس ايبك شراً من انتشار نفوذ الفارس المذكور حتى خشى مناظرته في الملك فاخذ يسعى للتخلص منه وكان الفارس زعيماً لحزب من المماليك الصالحية وكان يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الأشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقى كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطوز الذي صار ملكاً بعد ذلك . أما الفارس اقطاعي فقتله ايبك وهو داخل بسراي القلعة ثم خشى الوقوع في شر أعماله فأمر بقتل أبواب القلعة وأبواب المدينة ولبت يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى جاء الأمراء الصالحيون برئاسة ركن الدين بيبرس ومجهروا على أبواب القلعة وطلبوا الفارس اقطاعي ظناً منهم أنه كان مأسوراً فرمى إليهم برأسه من على السور فلما علموا بقتله ارتاعت قلوبهم فعمدوا إلى الفرار قاصدين باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم شرذمة قبض عليهم وأودعوا السجن . فلما تخلص الملك المعز

ايك من طائفة الامراء الصالحين قبض على الملك الاشرف وألقاه في سجن مظلم
فمات فيه تقيماً بعد ان حكم سنة وشهراً واستقل ايك بالسلطنة واستوزر
شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله ابن صاعد الفارزي أحد كتاب
الاقباط وكان قد تظاهر بالاسلام في أيام الملك الكامل وترقى في خدمة الكتابة
وكان طبيياً له مشهوراً بالطب والسياسة فلما صار وزيراً قرر على التجار وذوي
اليسار وأرباب العقاقير أموالاً ورتب مكوساً وهو أول قبضي ولي الوزارة

﴿ انتهاء الحروب الصليبية السابعة ﴾

لما علم الملك لويس التاسع بان اوربوا لا ترسل اليه عساكر صليبية ولا يأتيه
أحد من مملكته نفسها خاف من فشله فأرسل الى بلاد الموره ورومانيا وقبرص
يطلب الجنود على نفقته فجاءته عساكر منها برواتب شهرية ومصاريق وغيره حتى
فرغت خزائنه ولكنه لم يمكنه ان يتقدم لمحاربة المسلمين فحصل له فشل فصرق
جهده في تحصين بلاد الصليبيين بسوريا لصد هجمات الهاجين ثم أنه خبر من
فرانسا يفيد موت والدته الملكة بلانشا نائبة المملكة وطلب سرعة حضوره لاستلام
المملكة فخالاً استعد للسفر ونزل في مراكبه وسار نحو بلاد فرانسا قاصداً مملكته
وبذلك انتهت الحروب الصليبية السابعة

﴿ وفاة ايك الجاشنكير وسلطنة ولده نور الدين ﴾

ولما استتب المقام لايك وتخلص من المماليك الصالحية وغيرهم ممن كانوا
ينازعون الملك حسب الجود قد خلا له وما دري ان شجرة الدر لا تزال واقفة له
بالمرداد بعد ان صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن
يجسر على مقاومتها مع عامه باستقلالها من همام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا
التقييد والسلطان في يده فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود مع علمه
ان مكائد النساء أشد وطأة من ملاقاتة أبطال الرجال . فادعى انها عقيمة لا يرجو
منها نسلاً فاقنتي عليها سراري أخريات فولدت له أحداهن ولدأ دعاه نورالدين علي
ثم بلغها انه ساع الى التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد أمسك
عن زيارتها فاشتمت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك فخافت
ان تحبل محلها من العظمة فاقرت على الكيد به . فينما كان ماراً في ٢٣ ربيع اول
سنة ٦٥٥ في الدهليز السري الى دار الحرير وثب عليه خمسة خصيان بيض كانوا قد

كنوا له هناك وخنقوه بعمامته وكان ذلك بدسياسة شجرة الدر فاشاعت انه مات
 مصروعاً وكان ايبك ظلوماً غشوماً سفاكاً للدماء . ولم تجسر شجرة الدر تعاطي
 الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فجاءت بخاتم الملك الى أميرين من كبار الامراء
 وهما جمال الدين عضو غدى وعز الدين الحلبي وطلبت اليهما امام جثة زوجها ان
 يستلما زمام الاحكام فأبيا . وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلاً ولم يشع الخبر
 في القاهرة حتى الصباح التالي . فلما علم أصحابه من المماليك بما حل به أضمرؤا
 على الانتقام وكان سن ابنه نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور
 وكانت مدة ايبك في الاحكام عشرينسنوات و ١١ شهراً شاد في خلالها بنايات عظيمة
 وفي جهتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر
 القديمة وربط لها دخلاً مخصوصاً للنفقة عليها . وهو اول من أقام من ملوك الترك
 بقاعة الجليل . ولما بويع الملك المنصور قبض على قائلة أبيه وعهد بها الى نساء
 بيته فاماتوها ضرباً بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فأكلت
 الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة أما الملك المنصور
 فلم يحكم الا مدة قصيرة تحت مناظرة وصيه شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره ولم
 يلبث حتى استبدله بسيف الدين قطوز مع لقب آتابك اي وصي الملك ونائبه ولما
 تولى سيف الدين هذا المنصب استقدم اليه المماليك الصالحة من سوريا وعقد معهم
 مجلساً أقرؤا فيه على عدم لياقة نور الدين للاحكام نظراً لصغر سنه وأذاعوا ذلك
 فأزلوا نور الدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧ بعد ان حكم سنتين

﴿ استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية ﴾

في أول سنة ٦٥٦ قصد هولاءكو ملك التتر مدينة بغداد وملكها في ٢٠ محرم
 عنوة وقتل الخليفة المستعصم بالله وسبب ذلك ان وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي
 كان رفضياً وكان أهل الكرخ روافض فجرت فتنة بين السنة والشيعة ببغداد على
 جاري عادتهم فامر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين دويدار العسكر فمهبوا الكرخ
 وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب
 التتر واطمعهم في ملك بغداد وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم
 ليحمل الى التتر متحصلاً اقطاعهم وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس
 وارسل ابن العلقمي الى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين ببغداد في جحفل عظيم
 وخرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدويدار والتقوا على مرحلتين

من بغداد واقتلوا قتالا شديداً فانهمز عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم الى جهة الشام ونزل هولاءكو على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجووهو مقدم كبير في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي الى هولاءكو فتوثق منه لنفسه وعاد الي الخليفة المستعصم وقال له ان هولاءكو يبيئك في الخلافة كما فعل بسطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر وحسن له الخروج الي هولاءكو فخرج اليه المستعصم في جمع من اكابر اصحابه فانزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والامائل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محي الدين ابن الجوزي وأولاده وكذلك بقي يخرج الي الشتر طائفة بعد طائفة فلما تكاملوا قتلهم الشتر عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبدلوا السيف في بغداد وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ولم يسلم الا من كان صغيراً فاخذ أسيراً ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً ثم نودي بالامان وأما الخليفة فانهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل غرق في دجلة وقيل غير ذلك وكان المستعصم ضعيف الرأي وكانت خلافته نحو ١٦ سنة وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد وكان ابتداء دولتهم في سنة ١٣٢ وكانت مدة ملكها ٥٢٤ سنة تقريباً وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة

﴿ سلطنة المظفر سيف الدين قطوز وانتصار المصريين على التتر ﴾

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود شاه ابن اخ ملك خراسان فتح الشتر ببلاده فتشددت عائلته ولما تولى سلطنة مصر لقب بالملك المظفر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وأمر بقتله فحاول العلامة شرف الدين المدافعة عنه فوصله على باب القلعة . ثم لاح له ان دمياط بعدان دكت أسوارها لم يعد شيء يعيق مراكب العدو عن المرور في النيل فامر بدم صب النيل هناك وبعث بفرقة من الحجارين فضوا وقطعوا كثيراً من الحجارة والقوها فيه حتى ضاق وتعذر سير المراكب منه الي دمياط وهو على ذلك الي اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيه فتنقل البضائع منها الي الجروم والمتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل اورمل منجم هناك . ثم كاتب ركن الدين بيبرس البندقداري الملك المظفر قطوز فبذل له الامان ووعدته الوعود الجميلة فجاء بيبرس الي مصر في جماعة من اصحابه فأقبل عليه الملك المظفر واكرمه وانزله في دار الوزارة واقطعه قلوب واعمالها وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تترى ناقلاً منشوراً من هولاءكو

ملك المغول (التتر) حفيد جانكيز خان وكان التتر قد انتشروا في جميع آسيا الشمالية والشرقية واستولوا هولاً كوكو بعد بغداد الموصل وحلب ودمشق وجميع السواحل البحرية حتى قدم مصر فبعث اليها منشوراً ونصه (من ملك الملوك الحاكم من الغرب الى الشرق أعظم الخانات هولاً كوكو خان فاتح الفتوحات الغربية صاحب الحيوش العديدة الى أهل مصر . فيأهل مصر لا تخاطروا بانفسكم في محاربي لانكم ان فعلتم اذا اتم مخدولون فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل) فلما قرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوحات هذا التترى وما هو عليه من القوة والمنعة اوجس خيفة غير ان جيوشه كانوا قد حاربوا الحيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر وانفة النصر فاستخفوا بقول هولاً كوكو واصروا على القتال فحشدهم قطوز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليه قبائل العربان وفرق فيهم وفي سائر جيشة نحواً من ٦٠٠ الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاه تصقيع الاملاك وزكاتها واحداث على كل انسان ديناراً يؤخذ منه واخذ ثلث التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦ آلاف ديناراً سنوياً . ثم سار من القاهرة لملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ . وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاً كوكو خبر موت ابيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حاليلطالب بحقوق الوراثة فعاد تاركا في سوريا قسماً من نخبة فرسانه تحت قيادة نسيده ونائبه كتبوا محاربة قطوز فالتقى في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان فلهزمت التتر هزيمة قبيحة واخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبوغا واسر ابنه وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال وتبعهم المسلمون فأفقوهم وهرب من سلم منهم الى الشرق فأرسل ركن الدين بيبرس البندقداري في أثرهم فقبضهم المسلمون الى اطراف البلاد الشرقية فتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم لان القلوب كانت قد يئست من النصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولانهم ما قصدوا اقلها الا فتحوه ولا عسكرياً الا هزموه فاتبعت الرعايا بالنصرة عليهم وفي يوم دخول المظفر دمشق امر بشنق جماعة من المنتسبين الى التتر فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردي طيردار الملك الناصر يوسف وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على اثنى ما نهبه هولاً كوكو من اغنى المدن اثناء فتوحاته

﴿ قتل الملك المظفر وسلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ﴾

وبينا كان الملك المظفر قطوز عائداً من سوريا الى الديار المصرية اتحدت المماليك

الصالحية على قتله ومنهم ركن الدين بيبرس البندقداري وانص مملوك نجم الدين الرومي الصالحى والهاروتى وعلم الدين صغن أغلى وساروا معه يتوقعون الفرصة فلما وصل قرب الصالحية وقد سبقه العساكر الى الصالحية فينما هو سائر وحوله الامراء اذ مر بين يديه ارب بري وكان مولعاً بالصيد فسار في أثره في عرض الصحراء وساروا معه الامراء المذكورين فلما بعدوا تقدم اليه انص وشفع عنده في انسان فاجابه الملك المنظر قطوز الى ذلك فاهوى لتقيل يده وقبض عليها فحمل عليه ركن الدين بيبرس حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وذلك في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ ثم دفنوه في قبر صغير قرب قبر خلف نخشي ذوو الفقيه ان تبلغ الموسيقى لحاهم فنفرقوا في مصر السفلى لا يظهرن على أحد فكانت مدة ملكه احدى عشر شهراً و١٣ يوماً وسار بيبرس بعد ذلك ورفقاه حتى وصلوا الى الدهليز بالصالحية وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين اقطاعي المستعرب فسألهم نائب السلطنة المذكور وقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال له اقطاعي اجلس يا خوند في مرتبة السلطنة فجلس واستدعت العساكر للتحايف فحلفوا له في اليوم المذكور أيضاً واستقر بيبرس في السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لانه بلغه ان القاهر لقب غير مبارك وأضاف اليه أبو الفتح وكان يلقب أيضاً بالعلي وبالبنقداري نسبة الى سيده المسمى علاء الدين بنقدار الصالحى ثم سار الملك الظاهر بيبرس الى القاهرة فدخلها وكانت مزينة للملك المنظر فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس ولما تم له أمر السلطنة جعل بهاء الدين وزيراً وبيلي بك وهو من أعز أصدقائه من المماليك خزانداراً واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأنهم وضمهم اليه واطلق من في السجن جميعاً بغير استثناء وأكثر من العطايا لرجاله وابطل كثيراً من الضرائب التي كانت قد ضربها سلفه كتصحيح الاملاك وتقويمها وأخذ زكاة ثمنها في كل سنة وجباية دينار كل انسان وغير ذلك وأعلن امره هذا على لسان الخطباء في المنابر . على أنه مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية لاسيما السوربون فانهم شقوا عصا الطاعة وبايعوا الامير سنجر الحلبي حاكم دمشق ولقبوه بالملك المجاهد فارس الظاهر بيبرس عسكرياً بقيادة علاء الدين البندقدار سيده لقتال علم الدين سنجر الحلبي فوصلوا الى دمشق في ١٣ صفر سنه ٦٥٩ فخرج اليهم الحلبي لقتالهم وكان صاحب حماء وصاحب

حصص مقيمين في دمشق ولم يخرجوا مع الحلبي لقتال العساكر المصرية فاقتتل الحلبي مع علاء الدين فولى الحلبي واصحابه منهزمين الى قلعة دمشق واقام بها الى ان جن الليل فهرب منها الى جهة بعلمك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوا الى الديار المصرية فاعتقل ثم اطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس واقامت الخطبة له بها وبغيرها من سوريا مثل حماه وحلب وحمص واستقر علاء الدين ايدكين البندقداري نائباً بدمشق لتدبير امورها ثم رحل صاحب حماه وصاحب حمص من دمشق الى بلادهما ثم ارسل الظاهر بيبرس مرسوماً الى علاء الدين البندقدار نائب دمشق بالقبض على بهاء الدين بغدي الاشرفي وعلى شمس الدين اقوش البرلي فبقى علاء الدين متوقفاً الفرص لتنفيذ ذلك فقبض على بهاء الدين وخرج اقوش البرلي من دمشق ليلاً ونزل بالمرج فارسل علاء الدين اليه يطيب قلبه فلم يلتفت اليه وسار الى حلب ودخلها واخرج منها نفر الدين المحصى بحيلة واستبد فيها وجمع العرب والتركان واستعد لقتال عسكر مصر ثم ارسل الظاهر بيبرس جمال الدين المحمدي الصالح لقتال البرلي ثم رضي عن علم الدين سنجر الحلبي وجهزه بعسكر وراء المحمدي ثم اردفه بعز الدين الدماطي بعسكر آخر وساروا الجميع الى حلب لقتال البرلي فطردوه منها

﴿ انتقال الخلافة العباسية الى الديار المصرية ﴾

في رجب سنة ٦٥٩ قدم الى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص اسود اللون اسمه احمد زعموا انه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر وانه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها النثر فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه جماعة من الاكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الاعز فشهد أولئك العرب ان هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد بن الامام الناصر فيكون عم المستنصر واقام القاضي جماعة من الشهود اجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهادتهم ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة فأثبت القاضي تاج الدين نسب احمد المذكور ولقب المستنصر بالله أبا القاسم احمد وبايعه الملك الظاهر بيبرس والناس بالخلافة واهتم الملك الظاهر بامره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة واستخدم له عسكراً فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين غير ان سلطتهم لم تكن تعتبر الا من وجهها الديني فقط وكانوا يلقبون بالأئمة وقد رافق نزول العباسيين بالقاهرة

حط عم سائر القطر فتشاءم الناس بحلولهم . اما ببيرس فلم يأل جهداً في استجلاب
الاقوات من سائر جهات سوريا وغيرها وتفريقها على الناس فانفذ بلاده من
ضيق عظيم

﴿ فتوحات الملك الظاهر ببيرس ووفاة المستنصر وخلافة الحاكم بامر الله ﴾

ثم اراد ببيرس ان يسترجع مدينة بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة
المستنصر بالله جنداً عظيماً وبرز معه الظاهر ببيرس وتوجهها الى دمشق فنزل الظاهر
بالقلعة ونزل الخليفة في جبل الصالحية ونزل حول الخليفة امرائه واجناده
وجهاز الخليفة عسكره للمسير الى بغداد طمعاً في انه يستولى عليها ويجمع عليه
الناس فسار الخليفة المستنصر من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه
بالتأني في الامور ثم عاد الملك الظاهر من توديعه الى دمشق ثم سار الى الديار
المصرية ثم وصلت اليه كتب الخليفة المستنصر بانه قد استولى على عانة والحديثة
وولي عليهما وقبل ان يصل الخليفة ومن معه الى بغداد لا قاهم التتر في الطريق
فخاروبهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الا خمسة اشهر
وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بامر الله بعد ثبوت نسبه واقامه
الظاهر ببيرس في برج محتزماً واشرك له الدعا في الخطبة لاغير ثم امر السلطان الى
كل من سنقر الرومي وصاحب حماه وصاحب حمص ان يسيروا الى انطاكية وبلادها
للاغارة عليها فساروا اليها ونهبوا بلادها وضايقوها ثم عادوا فتوجهت العساكر
المصرية صحبة سنقر الرومي الى مصر ووصلوا اليها ومعهم ما ينوف عن ثمانية اسير
فقبأ بهم الملك الظاهر بالاحسان والانعام . ثم سار ببيرس بتجريدة اخرى لفتح
قلعة الكرك انتقاماً من صاحبها الملك المغيث فتح الدين عمر وسبب ذلك ان ببيرس
قبل توليته سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند المغيث فتح الدين وقاية لها مما
كان يقاسيه من الاسفار والاذاب وعهد اليه رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين
والشرف ففتك بها بغير وجه الحق فاتصل ذلك ببيرس وكان قد تولى سلطنة
مصر فنار فيه حب الانتقام فجرد العساكر وسار الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت
منيعه الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين ثم تمكن
ببيرس من القبض على المغيث فتح الدين احتيالا وسلمه الى امرأته فقتلته بالقباقيب
على مثل ما قتلت عليه شجرة الدر فأمت الكرك بغير رئيس فسلمت وصارت
جزءاً من مملكة مصر فأرسل ببيرس اليها بدر الدين اليسري الشمسي وعز الدين

أستاذ الدار في يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٦٦١ ثم عاد الى الديار المصرية
 ﴿ محاربات الظاهر بيبرس مع الصليبيين بسوريا ﴾

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمحاربة الصليبيين بسوريا وسار
 به في سنة ٦٦٣ الى ان وصل مدينة قيسارية في ٩ جمادى الاولى فحاصرها وضائقها
 وفتحها عنوة في ١٥ منه بعد محاصرتها ٦ أيام ثم أمر بهدمها ثم سار منها الى ارسوف
 فنازلها وفتحها في شهر جمادى الآخرة ثم أرسل الملك الظاهر بيبرس قسماً من
 جيشه الى ساحل طرابلس ففتحوا القليعات وحلب وعرقا ونزل هو على صفد
 في ٨ شعبان سنة ٦٦٤ فحاصرها وضائقها بالزحف وأقام عليها آلات الحصار وقدم
 اليه وهو على صفد الملك المنصور صاحب حماه ثم التصقت العساكر بالقلعة وكثر
 القتل والجرح في المسلمين الى ان فتحها في ١٩ منه بالامان ثم قتل أهلها عن
 آخرهم وسار الى دمشق فلما دخلها واستقر فيها جرد عسكرياً ضخمها قدم عليه
 الملك المنصور صاحب حماه وأمره بالمسير الى بلاد الارمن فسارت العساكر حتى
 نزلت على بلاد سيس في ذي القعدة وكان صاحب سيس هيثوم بن قسطنطين قد
 حصن الدرنيدات بالرجال والمنجنيق وجعل عسكريه مع ولديه على الدرنيدات لقتال
 العسكر الاسلامي ومنعه وما انتشب القتال حتى غلبتهم عساكر المسلمين وأوقعت
 فيهم القتل فأفنتهم عن آخرهم قتلاً وأسراً وقتل احد ولدهيثوم وأسرا الآخروهو
 ليفون وانتشرت العساكر الاسلامية في بلاد سيس وفتحوا قلعة العامودين وقتلوا
 أهلها ثم عادت العساكر وقد امتلأت أيديهم من الغنائم فلما وصل خبر هذا الفتح
 العظيم الى الملك الظاهر بيبرس رحل عن دمشق الى حماه ففامية حيث التقى
 بعساكره منصوره ولما وصلوا بلد قارا أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم وكانوا
 نصارى يسرقون المسلمين ويبيعونهم خفية للصليبيين وأخذ صبيانهم مماليك فتربوا
 بين الترك في الديار المصرية فصار منهم جنود وأمراء ثم عاد الظاهر الى الديار
 المصرية على طريق الكرك فجفل به فرسه عند بركة نريزا فانكسر فخذه وحل في
 محفة الى قلعة الجبل

﴿ اصلاحات الملك الظاهر بيبرس ﴾

لما رجع الظاهر بيبرس أخذ يستعد لحروب جديدة وينظم داخلية فابطل
 ضمان المزر وجهاته وأمر باراقة الحُجُور وابطال المنكرات وتعقبه بيوت المسكرات

ومنع الخانات والفواحش بجميع أقطار مملكة مصر والشام فظهرت من ذلك البقاع
وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال أحد الشعراء المعاصرين

ليس لابليس عندنا أرب غير بلاد الامير مأواه
حرقته الحمر والحشيش معاً حرمتا ماء ومرعاه

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوه من الفواحش فامر
بمنع النساء الخواطيء من التعرض للبعاء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب
أهلها جميع ما كان لهم ونفي بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع
ذلك توقيماً قريء في المنار . ثم علم ان الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر
البارز يشرب المسكر فشنقه تحت قلعة الجبل ولا شك ان الملك الظاهر لم يشدد في
ابطال جميع هذه المنكرات الا لعلمه يقيناً ان استعمالها يورث الفقر والذل ويخمد
الهمة ويضعف عزة النفس ويفضب الله

وكان في سنة ٦٦٢ قد بنى دارالعدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها ليعرض
العساكر في كل يوم اثنين وخميس وكان ينظر في أمر المتظلمين بنفسه فاذا كان
لاحد مظلمة يأتي بنفسه بدون أحد يمنعه ويشكو مظلمته للسلطان وهو يأمر في
الحال بصرفها بوجه الحق

﴿ فتوحات الظاهر بيبرس ببلاد الصليبيين بسوريا ﴾

في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره
العديدة الى الشام وفتح يافا وتملكها من الصليبيين ثم سار الى انطاكية ونازلها في
مستهل رمضان وحاصرها وضيق عليها وقتلها وفر صاحبها بوهموند دي طرابلس
الى طرابلس فشدد الحصار وزحفت العساكر الاسلامية على انطاكية فملكوها
بالسيف في يوم السبت رابع رمضان وقتلوا اهلها وسبوا ذراريهم وغنموا منهم
أموالاً جسيمة وفي ١٣ رمضان استولى الظاهر على حصن بغراس وكان أهله قد
تركوه فشنحه الظاهر بالرجال وجعله حصناً للمسلمين وفي شهر شوال وقع الصلح
بين الملك الظاهر بيبرس وبين هيثوم صاحب سيس على انه اذا أحضر صاحب
سيس سنقر الاشقر المأسور عند التتر (كان التتر قد أخذوه من قلعة حلب لما
ملكها هولاء كوكم) وان يسلم بهسناودر بساك ومرذبان ورعبان وشيخ الحديد
يطلق له بيبرس ابنه ليفون فدخل صاحب سيس على ابغا ملك التتر وطلب منه

سنتقر الاشقر فاعطاه اياه فارسله الى الظاهر بيبرس وسلم دريساك وغيرها من البلاد
المذكورة ما عدا بهسنا وأطلق الظاهر ابنه ليفون وعاد الى الديار المصرية

﴿ حجاج الملك الظاهر بيبرس ﴾

وفي سنة ٦٦٧ عزم الملك الظاهر بيبرس على اداء فريضة الحج وكان طريق
الحج من مصر الى مكة المشرفة في صحراء عيذاب فيركبون النبل من ساحل القسطنطينية
الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب الى
البحر الاحمر حيث ينزلون فيه الى جدة ساحل الحجاز وهكذا يعودهم الى مصر
وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق أيضاً
وصحراء عيذاب اذ ذاك أهلة بالسكان أمينة المسلك وبقيت طريق الحج على مثل ذلك
الى هذه السنة اذ تغيرت بالطريق التي سار فيها الملك الظاهر كما يأتي وأما التجار
فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ ومن ذلك الحين قلت
أهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت
مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة . ففي ٢٥ شوال سنة ٦٦٧ رحل الظاهر بيبرس
من الفوار ووصل الى الكرك وأقام بها أياماً وتوجه من الكرك في ٦ القعدة الى
الشوبك ورحل من الشوبك في ١١ منه ووصل الى المدينة النبوية في ٢٥ منه
ووصل الى مكة في ٥ الحجة وبعد اداء الفريضة كسا الكعبة بالديباج وكذلك الحجرة
النبوية ووقف لهما أوقافاً وعمل لها مفتاحاً ثم سار منها فوصل الكرك في آخر
الحجة سنة ٦٦٧ وفي أول محرم سنة ٦٦٨ سار من الكرك فوصل دمشق بقتة وتوجه
منها في يومه فوصل الى حماه في ٥ منه وتوجه من ساعته الى حلب ولم يعلم بالعسكر الا وهو
في الموكب معهم ثم عاد الى دمشق في ١٣ منه ثم توجه الى القدس فزاره ثم رجع
الى الديار المصرية فوصل القاهرة في ١٣ صفر وهكذا أتم سياحته الجهادية والدينية معاً
ثم سار الظاهر بيبرس بعساكره الى بلاد الاسماعيلية فتسلم مصيف في العشر
الاول من رجب سنة ٦٦٨ ثم عاد الى حماه ومنها الى دمشق في ٢٨ منه ثم
رحل الى مصر القاهرة

﴿ الحروب الصليبية الثامنة ﴾

(في التحريض على الحروب الصليبية الثامنة)

في سنة ٦٥٩ قام الروم على الصليبيين الذين تملكوا على القسطنطينية وقتلواهم

واستخلصوها منهم بقيادة زعيمهم مخائيل باليولوغوس الذي أقاموه ملكاً عليها (كانت الحملة السادسة للصليبيين اغتصبوها وصارت تابعة لهم الى ان خلعها مخائيل المذكور وعادت للروم) فسافر من نجا من الصليبيين من القسطنطينية الى البابا اكليمينوس الرابع وكذلك لما استولى السلطان الظاهر بيبرس على البلاد السورية من الصليبيين أرسلوا الى البابا المذكور يطلبون منه المساعدة والمعونة فارسل منشوراً الى جميع ملوك أوروبا يخبرهم فيه بان الروم استولوا على القسطنطينية وان بيبرس قد استولى على انطاكية وغيرها من بلاد سورية ويطلب منهم مساعدة اخوانهم الصليبيين وتشكيل عساكر صليبية ثامنة لاجل ذلك وخصوصاً لاستخلاص قبر المسيح من أيدي المسلمين (وهي حجته الواهية في كل حرب) وحيث ان ملوك أوروبا علموا بان جميع التجريدات والعساكر التي سبق تشكيلها وارسلها سواء كان لسوريا أو لمصر أو للقسطنطينية لم تأت بفائدة لاوروبا غير فقد العساكر وافناء المال فلذلك لم يلتفتوا الى منشورات البابا ولا الى نوابه الذين كان قد أرسلهم لهذه الغاية

﴿ تجهيز العساكر الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ﴾

وبعد جهد شديد قبل الملك لويس التاسع ملك فرنسا تجهيز عساكر صليبية ثامنة بقيادة كما فعل أولاً ثم انه أمر بان عقد جمعية في مدينة باريس من عظماء المملكة بقصر لويلا ثم حضر بنفسه هذه الجمعية ومعه نائب البابا حامل بيديه اكليل الشوك الذي تكلم به المسيح (على زعمهم وهو الآن محفوظ في كنيسة مريم العذراء الكاتدرائية بباريس) فقام لويس وقال لمن في الجمعية بانه عزم على تجهيز حروب صليبية ثامنة وطلب منهم مساعدته والتوجه معه ثم قام النائب البابوي وطلب منهم انقاذ اخوانهم المسيحيين بالمشرق فاستلم الملك لويس صليب الحرب من يد النائب الرسولي وتبعه ثلاثة من اولاده ثم تبعهم عدد وافر من رؤساء الكنائس ثم يوحنا كونت دي برانيا • وتيوت ملك نافار • والفونسوس دي بريانا • والكونتات دي فلاندر • ودي سان بول • ودي مارشا • ودي سواسون وغيرهم وعزم بعض أمراء أوروبا على تجهيز عساكر كما فعل سلطان فرنسا مثل ادوارد ملك الانكليز • وغاسطون ملك بيان وملك البرتغال وغيره • ثم ان لويس المذكور استعد في تجهيز عساكره للمسير بها وحيث انه وجد نفسه شيخاً كبيراً خاف على مملكته اذا مات هو في الحرب فعزم على تقسيمها على ورثته فقسمها على اولاده الاربعة المذكور وكذلك على بنتيه

اللتين لم تزوجا وعلى زوجته مرغربتا وذلك التقسيم يكون بعد مماته ثم اقام وكيان على مملكته بصفة نواب الملك وهما متى دي فاندوم وسمعان دي ناظلا

﴿ سفر العساكر الصليبية الثامنة ﴾

توجه الملك لويس الى كنيسة القديس ديونيسيوس للتبرك بها ثم حضر الذبيحة بكنيسة الكاتدرائية بباريس وسار الى مدينة اغوزمورتاس المعينة لاجتماع جميع العساكر الصليبية بها وكان قبل حضور الملك لويس المذكور الى هذه المدينة قد سافر بعض العساكر الصليبية الثامنة من اقليم اراغون وغيره قاصدين بلاد فلسطين ولما اجتمع الملك لويس وعساكره في هذه المدينة عقد مجلس شورا للحربي للتداول في خطة السفر والبلاد التي يقصدها فلبعض رأى المسير الى الديار المصرية والبعض رأى المسير الى تونس عاصمة الغرب وكان من هؤلاء الملك لويس لانه قال ان المغاربة طالما تعدوا على بحرية فرنسا وغيرها من أوروبا وبعد المداوات تقرر مسير العساكر الصليبية الثامنة الى تونس ومحاربتها واستعدت بالنزول في المراكب والمسير الى تونس

﴿ وصول الصليبيين الى تونس ومحاصرتها ﴾

سارت العساكر الصليبية في البحر الى ان نزلوا بانقراض مدينة قرطاجنة القديمة واقاموا فوق طلالها و عملوا خندقا حول معسكرهم وكان صاحب تونس يدعى أبا عبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي الملقب بالمستنصر بالله فجمع أمراء مملكته واستشارهم في صد الصليبيين عن النزول الى البر وأبتركهم ينزلون الى البر ويحاربهم فقال بعضهم اذا صديناهم عن النزول أمام الحامية فرما ساروا ونزلوا على ثغر من الثغور فامتلكوه واستباحوه واستصعبت مغالبتهم فوافق السلطان على هذا وأرسل الى جميع الثغور بالتحفظ ونادى السلطان في الناس بالاستعداد والنفير ثم أرسل الى جميع الممالك التابعة له يطلب المدد فجاءه أبو هلال صاحب بجاية وجاءته جميع العرب وسدويكش وولاصه وهوارة وقد أمدته ملوك المغرب من زناتة وسرح اليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان وعقد السلطان قيادة العسكر الى ستة رؤساء وهم اسماعيل بن أبي كلداس . وعيسى بن داود . ويحيى بن أبي بكر . ويحيى بن صالح وأبي هلال عياد صاحب بجاية . ومحمد بن عبو وأمرهم جميعاً راجع لامر يحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح واجتمع كثير من المسلمين والفقهاء والمرابطين لمباشرة الجهاد واستعدوا غاية الاستعداد فقال أحد أدباء تونس وهو احمد بن اسماعيل الزيات

يافرنسيس هذه أخت مصر فتهياً لما إليه تصير
 لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير
 (فقدر الله وفاة الملك لويس التاسع وهو محاصر لها كما سيأتي فحسن فألمهم)
 ثم ان الصليبيين حاصروا مدينة تونس وذلك في شهر القعدة سنة ٦٦٨
 * { محاربات الصليبيين ووفاة الملك لويس التاسع } *

بعد حصار مدينة تونس نشب القتال بين الفريقين وكانت الحرب سجالاً وكان
 الصليبيون منتظرين قدوم الكونت دي انجو كارلوس أخي لويس وهو صاحب جزيرة
 سيسيليا وفي سنة ٦٦٩ فرغت ذخائر وقوت العساكر الصليبية فاعتراهم داء الدسنتاريا
 والحمل الحثيث وفي زمن قصير هلك منهم نحو النصف وكان ذلك في فصل الصيف
 والحرب شديدة فاضطمت العساكر الاسلامية آلات يرمون بها الرمل على معسكر
 الصليبيين عند هبوب الرياح القبلية فنزل فوقهم كأنها حمية في أتون نار ومما زاد
 في مصائب الصليبيين هجمات العرب والسودانيين عليهم حتى أخذهم الضجر والملل
 ومات منهم الكونت دي نامورس ودي فاندوما . ودي مارشا . ودي موغرانسي
 ودي بيانا ودي بريك ثم لحقهم ابن الملك لويس المدعو تريستان (الحزين) الذي ولد
 في مدينة دمياط كما مر (ولد في حصار مدينة وتوفي في حصار أخرى) ثم شارك
 الملك لويس التاسع جيشه في الامراض بعد وفاة ابنه المذكور ورقد في فراشه ثم
 احضر ابنه البكري فيلبس ووريثه على تخت المملكة وأخذ يوصيه بمملكته واخوته
 وغير ذلك ثم مات

* { سفر كارلوس صاحب سيسيليا الى تونس وحصول الصلح }

وانتهاء الحروب الصليبية الثامنة *

وبعد موت الملك لويس التاسع ملك فرانساً ترأس على الجيوش ابنه فيلبس
 ثم توارد قدوم مراكب صليبية في البحر ونزل الرجال منها الى البر وكانوا عساكر
 كارلوس صاحب سيسيليا وفي أثناء نزولهم الى البر لم يجدوا أحداً من الصليبيين قد
 حضر لمقابلتهم فساروا الى ان وصلوا الى معسكر الصليبيين وسار كارلوس الى ان وصل
 الى خيمة لويس التاسع فوجده ميتاً فيسكى عليه وبعد ذلك عقدوا مجلس مشورتهم
 للنظر في أمرهم فقررروا استمرار الحصار والمحاربة وبعد مناقشات جرت بينهم تقرر
 الصلح في شهر ربيع الاول سنة ٦٦٩ على ما يأتي بان السلطان المستنصر بالله يخضع

لكارلوس ملك سيسيليا ويدفع له جزية سنوية ويدفع له مصاريف هذه الحروب البالغ مقدارها ٢٢٠ الف وزنة من الذهب وفي نظير ذلك ينسحب الصليبيون من البلاد التونسية وبعد تمام شروط الصلح التي أمضت من ملوك فرانسسا وسيسيليا ونافار سار الصليبيون ونزلوا بمراكبهم وساروا الى بلادهم وفي أثناء مسيرهم فاجأهم عواصف شديدة أغرقت أكثر مراكبهم ثم ان كارلوس نزل في مملكته ومعه صندوق داخله قلب الملك لويس بصفة ذخيرة ووضعها في كنيسة دير مونتسريال قرب مدينة ساليرنو وأما فيلبس الثالث ملك فرانسسا فداوم مسيره الى بلاده ومعه جثة والده وأخيه تريستان ولما وصل الى باريس وضعهم في كنيسة القديس ديونيسيوس في مدفن ملوك فرانسسا وهكذا انتهت الحروب الصليبية الثامنة

﴿ بقية الحروب الصليبية ﴾

من حيث ان الحروب الصليبية الثمانية قد انتهت كما تقدم ولكن بعض بلاد سوريا لم تزل في حكم الصليبيين لذلك التزمنا بمتابعة التاريخ الى اقتناح المسلمين باقي البلاد من الصليبيين وانقراضهم من آسيا كما سيأتي

﴿ باقي فتوحات الظاهر بيبرس ﴾

وفي سنة ٦٦٩ توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية الى الشام ونازل حصن الاكراد في تاسع شعبان وحاصره وضايقه ودام القتال فشدد حصاره الى ان فتحه بالامان في ٢٤ منه ثم رحل الى حصن عكار ونازله في ١٧ رمضان وجد في قتاله ومملكه بالامان في آخر رمضان وعيد الظاهر عيد الفطر عليه . وفي شوال تسلم قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية ثم سار الى دمشق ومنها الى حصن القرين ونازله في ثاني القعدة وزحف عليه وتسلمه بالامان ثم أمر بهدمه وعاد الى مصر وكان قد جهز اسطولا من عشر شواني لغزو قبرص فتكسرت في مرسي الميسوس وأسر الفرنج من كان بتلك الشواني من المسلمين فاهتم السلطان بعمارة اسطول بدله

وفي سنة ٦٧٠ توجه الظاهر الى دمشق فاغارت التتر على عينتاب وعلى الروح وقيطون الى قرب فامية فاستدعى الظاهر عسكرياً من مصر بقيادة بدر الدين اليسري فلما اتصل ذلك بالتتر عادوا من حيث أتوا ثم سار الظاهر بالمسكر الى حلب ومنها الى مصر فعاد التتر وحاصروا البيرة ونصبوا عليها المنجنيقات وضايقوها فتجنده اليهم

بيبرس وسارت معه فرقه تحت قيادة الامير قلاوون الالفي فالتقى الحيشان عند بيرة واشتد الحرب بين المسلمين والتتر واراد عبور الفرات الى بر البيرة فقاتله التتر على المخاضة فافتحم الفرات وهزم التتر فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها فصارت للمسلمين ثم عاد الظاهر الى الديار المصرية وفي هذه السنة أيضاً تسلمت نواب الملك الظاهر باقى حصون الاسماعيليه وهي الكهف والمينقه ووقدموس وفي سنة ٦٧٣ سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بجيوشه الى ارمينيا ففتحوها وغنموا منها غنائم كثيرة ثم عاد الى مصر ففرشوا له القاهرة بالبسط والسجاد الثمين احتفالاً بعوده ظافراً

وفي سنة ٦٧٤ قدم سوريا اباكا خان بن هولوكوخان وحاصر البيرة ثايبه فلاقاه الامير قلاوون بفرقة من الجيوش المصرية وارجمه على اعقابه فسر بيبرس من بسالته واتخذ ابنته غازية خاتون زوجة لابنه السعيد بركة خان ليكون ابنه في المستقبل أمناً في حمى حميه ٠ وفي هذه السنة أيضاً ارسل الظاهر بيبرس الامير اقسنقر ومعه عز الدين ايبك الافرم لافتح بلاد النوبة فافتحا اصوان بعد ان استوليا على جميع مصر العليا ٠ وفي هذه السنة أيضاً حارب بيبرس برقة وافتتحها وفي رمضان سنة ٦٧٥ سار بيبرس بعساكره الجرارة الى الشام حتى وصل الى حلب ثم الى النهر الازرق ثم سار الى ابلستين فوصل اليها في القعدة والتقى بها جمعاً من التتر بقيادة تناون فتحارب الفريقان في أرض ابلستين يوم الجمعة عشرة القعدة فانهزم التتر واخذتهم سيوف المسلمين وقتل قائدهم تناون وغالب كبرائهم واسر منهم جماعة كثيرة ثم سار الى بلاد الروم ثم عاد منها

﴿ وفاة الملك الظاهر بيبرس ﴾

في يوم الخميس ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ توفي الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوح الصالح النجمي بدمشق وقت الزوال عقب وصوله من بلاد الروم وسبب موته انه انكسف القمر كسوفاً كلياً وشاع بين الناس ان ذلك يدل على موت رجل جليل القدر فاراد الملك الظاهر ان يصرف التأويل الى غيره فاستدعى بشخص من اولاد الملوك الايوبية يقال له الملك القاهر ولد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى وأحضر قزاً (كاساً) مسموماً وأمر الساقى فسقا الملك القاهر وشرب بعده الملك الظاهر ناسياً فمات الملك القاهر عقيب ذلك واما الملك الظاهر فحصلت له حمى محرقة وتوفي في التاريخ المذكور وهكذا كانا قبيل الخرافات قبجها الله ما اضعف

حجتها وما اشد وطأتها وكم نأبؤه ومملوكه بدر الدين تنليك المعروف بالخرندار
 موته وصبره وتركه في قلعة دمشق الى ان تمت تربته بدمشق قرب الجامع فدفن
 فيها وارتحل بدر الدين تنليك بالعساكر ومعهم المحفة مظهراً ان الملك الظاهر فيها
 وانه مريض حتى وصل الى ديار مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده
 بركة خان ولقبه الملك السعيد وجعله ولي عهده فوصل تنليك الخزندار بالخرزان والعسكر
 الى الملك السعيد بقاعة الحبل وعند ذلك اظهر موت الملك الظاهر وجلس ابنه
 الملك السعيد للعزاء . وكانت مدة حكمه ١٧ سنة وشهرين وعشرة أيام وكان ملكا
 جليلاً عجولاً كثير المصادرات لرعيته ودواوينه طويل القامة مليح الشكل سريع
 الحركة فارساً مقداماً . وترك من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد بركة خان وقد
 ملك بعده وسلامش وهذا ملك بعده أيضاً والمسعود خضر . وترك من البنات
 سبعا . ومما فجع الله على يده من أيدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد
 وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبقراض والقصير وحصن الاكراد والقرين
 وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلب وقد ناصفهم على المرقب وبنائس وطرسوس
 وادنة والنصيصة وغيرها من مدن بر الاناضول وصار الى يده مما كان في أيدي
 المسلمين دمشق وبلبك وعجلون والبصرى وصرخد . والصلت . وحمص وتدمر
 والرحبة وتل باشم . وصهيون . وبلاطس . وقلعة الكهف والقدموس . والعليقة
 والحواي والرصافة . ومصيف . والقلمنة . والكرك . والشوبك وفتح بلاد
 النوبة وبرقة

✽ آثار الملك الظاهر بيبرس ✽

ومن أعماله المأثورة انه عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة بيت المقدس وزاد
 في أوقاف الخليل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشيد
 وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصيبة
 وبلبك والصلت وصرخد وعجلون وبصرى وشيزر وحمص وعمر المدرسة بين
 القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية وجعله الفرنساويون عند مجيئهم الى
 مصر قلعة وهو البناء القديم في سكة الظاهر وجعلته الحكومة مخازن الاقوات ،
 وحفر خليج اسكندرية القديم وباشره بنفسه وبني هناك قرية سماها الظاهرية
 وحفر بحر اشمون طناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة وأعاد اليه الخطبة وعمر
 بلد السعيدية بالشرقية بمصر وبني القصر الابلق في دمشق ومن آثاره في القاهرة

أيضاً قناطر السباع وهي عبارة عن سلسلة من قناطر ممتدة عرضاً من جوار فم الخليج الى قلعة الجبل ولا بد للمتوجه من القاهرة الى مصر القديمة من أن يقطعها هذا اذا لم يمر من عند فم الخليج فانه اذا ذك يمر بجانب منشأها وهي تنهي من طرفها الغربي بالسبع سواقي بجانب فم الخليج والسبع سواقي هو بنا قديم فيه سبعة دواليب لرفع المياه من النيل ومحويله الى قناة على ظهر هذه القناطر ليجري الماء فيه الى قلعة الجبل وجعل عليها سبباً من الحجارة ولذلك قيل لها قناطر السباع والقناطر المذكورة لم يزل يوجد بعضها . وكان محباً لركوب الخيل الحيات ورمي النبال فانشاء ميداناً دعاه ميدان القبق ويقال له أيضاً الميدان الاسود وميدان العيد والميدان الاخضر وميدان السباق . وكان شاعراً بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي تحت الجبل الاحمر وبنى فيه مصطبة سنة ٦٦٦ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية وكان يبحث الناس على لب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فما بقي أمير ولا مملوك الا وهذا شغله وما برح من بعده اولاده ومن بعدهم يمارسون هذا الميدان بجميع انواع الالعب الحربية وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال بدون أن يسلب الاهالي درهماً واحداً فوق ما اعتادوا دفعه من الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائه كانت تساعده كثيراً في النفقات

﴿ سلطنة الملك السعيد بركة خان ﴾

في شهر ربيع أول سنة ٦٧٦ بايعوا الملك السعيد بركة خان بالسلطنة بعد أبيه الظاهر بيبرس حسب وصيته وأقام بدر الدين تئليك الخزندار آتايكا وكان تئليك (باباي) في الاصل مملوكا ابتاعه بيبرس بشمن بنحس الا انه ارتقى في خدمته حتى صار أمين خزائنه (خزندار) ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة أن يكون وصياً على ابنه في مهام السلطنة وكان للملك السعيد ثقة كبرى في تئليك حتى انه اتى اليه كل مهام الدولة فسعدت مصر في بادي الامر الا انها ما لبثت حتى تعكر كاس صفائها بوقاة ذلك الوصي الامين الحكيم ولم يكن الملك السعيد واثقاً باحد من امرائه ليعهد اليه مهام السلطنة لانه كان يظن انهم هم الذين سعوا في قتل وصيه ولكنه لم يتأكد ذلك فنفر منهم فوقع اختياره على اقسنقر فاح النوبة فولاه الاتايبكية وبعد يسير خنقه في احدى ابراج الاسكندرية فقتل

الامراء عن هذا المنصب

﴿ سفر الملك السعيد والاغارة على ارمينية ﴾

في سنة ٦٧٧ سار الملك السعيد بركة خان الى الشام وصحبه العساكر فلما وصل الى دمشق جرد منها العساكر حجة الامير سيف الدين قلاوون وجرّد أيضاً صاحب حماه فساروا ودخلوا بلاد سيس (الارمن) وشنوا الغارة عليها وغنموا منها غنائم كثيرة ثم عادوا الى جهة دمشق واتفقوا على خلع الملك السعيد من السلطنة لسوء تدبيره وعبروا على دمشق ولم يدخلوها فارسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم ودخل عليهم بوالده فلم يفتقروا الى ذلك واتموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم الى مصر وطلع الى قلعة الجبل وسارت العساكر في اثره

﴿ خلع الملك السعيد بركة خان ﴾

وفي شهر ربيع أول سنة ٦٧٨ وصلت العساكر الحارجون عن طاعة الملك السعيد بركة خان وخصروه بقلعة الجبل فخامر عليه اكثر من كان معه من الامراء مثل لاجين الزبني وغيره وأخذوا يخرجون واحداً بعد واحد من القلعة وينضموا الى العسكر الذي يحاصرها فلما رأى الملك السعيد ذلك اجابهم الى الانخلاع من السلطنة وأن يهطى الكرك فاجابوه الى ذلك وانزلوه من القلعة وخلعوه في ربيع الاول وسفروه من وقته الى الكرك حجة بيدعان الركني وجماعة معه فوصل اليها وتسلمها بما فيها من الاموال

﴿ سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه ﴾

بعد خلع الملك السعيد كما تقدم اتفق ا كابر الامراء مثل بدر الدين البيسري الشمسي وايتمش السعدي وبكتاش الفخري امير السلاح وغيرهم على سلطنة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس ولقبوه الملك العادل وذلك في ربيع أول سنة ٦٧٨ وعمره اذ ذلك سبع سنين وشهور واقاموا الامير سيف الدين قلاوون الالفي وصياً عليه وخطب للعادل وضربت السكة باسمه . ولم يكن هم هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الصغير وفي شهر رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعه فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور

﴿ سلطنة الملك المنصور قلاوون الالفي ﴾

ولما استوى قلاوون على كرسي السلطنة استوزر نخر الدين وكان كاتب سره
الخصوصي وكان سنقر الاشقر بدمشق قد استقل بها وحلف له امرأها وعساكرها
وتلقب بالملك الكامل وفي سنة ٦٧٩ جهز الملك المنصور قلاوون عساكر مصر مع
علم الدين سنجر الحلبي وبدر الدين بكتاش وبدر الدين الايدمري وعز الدين الافرم
فسارت العساكر المذكورة الى الشام وبرز سنقر الاشقر (الملك الكامل) بعساكر
الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان في ١٩ صفر فولى سنقر وعساكره الشاميون
منهزمين ونهبت العساكر المصرية اثقالهم واستولوا على دمشق وتولى عليها بامر
الملك المنصور قلاوون مملوكة حسام الدين لاجين السلحدار . ثم ان سنقر الاشقر
كاتب اباكه خان ملك التتر اطعمه في تملك البلاد ثم سار سنقر واستولى على
بعض البلاد السورية ثم تصالح مع الملك المنصور قلاوون واعطاه بعض البلاد مثل
الشعر وبكاس

﴿ محاربة التتر ﴾

وفي سنة ٦٨٠ خرج التتر الى سوريا بجيشين الواحد تحت قيادة اباكه خان بن
هولاكو والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة اخيه منجوتيمور حتى
وصلوا حصص فسار السلطان قلاوون بالجيوش الاسلامية من دمشق الى جهة حصص
وأرسل الى سنقر الاشقر يستدعيه حسب اتفاق الصلح فسار سنقر من صهيون ثم
وصل الى قلاوون الملك المنصور صاحب حمص ثم وصل سنقر ومعه ايتمش السعدي
والحاج اذمر وعلم الدين الدويداري ورتب السلطان قلاوون عسكره ميمنة وميسرة
وكان رأس الميمنة الملك المنصور صاحب حمص ثم بدر الدين اليسري دونه ثم
علاء الدين طبيرس الوزيري ثم ايبك الافرم ثم جماعة من العساكر المصري ثم
عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين وكان رأس الميسرة سنقر الاشقر ثم
بدر الدين ثم بدر الدين بكتاش أمير السلاح وكان بر الميمنة العرب وبر
الميسرة التتركان وكان شاليش القلب حسام الدين طرنطاي ومن أضيف اليه والثقي
الفريقان بظاهر حصص في الساعة الرابعة في يوم الخميس ١٤ رجب وأنزل الله نصرته
على القلب والميمنة من العساكر الاسلامية فهزموا من كان قبالتهم من التتر وركبوا
قفاهم يقتلونهم وكان منجوتيمور قبالة القلب فانهزم أيضاً وأما ميسرة المسلمين

الامراء عن هذا المنصب

﴿ سفر الملك السعيد والاغارة على ارمينية ﴾

في سنة ٦٧٧ سار الملك السعيد بركة خان الى الشام وصحبه العساكر فلما وصل الى دمشق جرد منها العساكر صحبة الامير سيف الدين قلاوون وجرى أيضاً صاحب حماه فساروا ودخلوا بلاد سيس (الارمن) وشنوا الغارة عليها وغنموا منها غنائم كثيرة ثم عادوا الى جهة دمشق واتفقوا على خلع الملك السعيد من السلطنة لسوء تدبيره وعبروا على دمشق ولم يدخلوها فارسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم ودخل عليهم بوالده فلم يلتفتوا الى ذلك واتموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم الى مصر وطلع الى قلعة الجبل وسارت العساكر في اثره

﴿ خلع الملك السعيد بركة خان ﴾

وفي شهر ربيع اول سنة ٦٧٨ وصلت العساكر الحارجون عن طاعة الملك السعيد بركة خان وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه اكثر من كان معه من الامراء مثل لاجين الزبيني وغيره وأخذوا يخرجون واحداً بعد واحد من القلعة وينضموا الى العسكر الذي يحاصرها فلما رأى الملك السعيد ذلك اجلبهم الى الانحلال من السلطنة وأن يطى الكرك فاجابوه الى ذلك وانزلوه من القلعة وخاعوه في ربيع الاول وسفروه من وقته الى الكرك صحبة بيدعان الركني وجماعة معه فوصل اليها وتسلمها بما فيها من الاموال

﴿ سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه ﴾

بعد خلع الملك السعيد كما تقدم اتفق اكابر الامراء مثل بدر الدين البيسري الشمسي وايتمش السعدي وبكتاش الفخري امير السلاح وغيرهم على سلطنة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس ولقبوه الملك العادل وذلك في ربيع اول سنة ٦٧٨ وعمره اذ ذلك سبع سنين وشهور واقاموا الامير سيف الدين قلاوون الالفي وصياً عليه وخطب للعادل وضربت السكة باسمه . ولم يكن هم هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الصغير وفي شهر رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعه فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور

﴿ سلطنة الملك المنصور قلاوون الاني ﴾

ولما استوى قلاوون على كرسي السلطنة استوزر نحر الدين وكان كاتب سره الخصوصي وكان سنقر الاشقر بدمشق قد استقل بها وحلف له امرأها وعساكرها وتلقب بالملك الكامل وفي سنة ٦٧٩ جهز الملك المنصور قلاوون عساكر مصر مع علم الدين سنجر الحلبي وبدر الدين بكتاش وبدر الدين الايدمري وعز الدين الافرم فسارت العساكر المذكورة الى الشام وبرز سنقر الاشقر (الملك الكامل) بعساكر الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان في ١٩ صفر فولى سنقر وعساكره الشاميون منهزمين ونهبت العساكر المصرية اقلهم واستولوا على دمشق وتولى عليها بامر الملك المنصور قلاوون مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار . ثم ان سنقر الاشقر كاتب اباكه خان ملك التتر اطعمه في تملك البلاد ثم سار سنقر واستولى على بعض البلاد السورية ثم تصالح مع الملك المنصور قلاوون واعطاه بعض البلاد مثل الشفر وبكاس

﴿ محاربة التتر ﴾

وفي سنة ٦٨٠ خرج التتر الى سوريا بجيشين الواحد تحت قيادة اباكه خان بن هولاكو والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة اخيه منجوتيمور حتى وصلوا حصن فسار السلطان قلاوون بالجيوش الاسلامية من دمشق الى جهة حمص وارسل الى سنقر الاشقر يستدعيه حسب اتفاق الصلح فسار سنقر من صهيون ثم وصل الى قلاوون الملك المنصور صاحب حمص ثم وصل سنقر ومعه ايتمش السعدي والحاج اذمر وعلم الدين الدويداري ورتب السلطان قلاوون عسكره ميمنة وميسرة وكان رأس الميمنة الملك المنصور صاحب حمص ثم بدر الدين اليسري دونه ثم علاء الدين طبريس الوزيري ثم ايبك الافرم ثم جماعة من العسكر المصري ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين وكان رأس الميسرة سنقر الاشقر ثم بدر الدين ثم بدر الدين بكتاش أمير السلاح وكان بر الميمنة العرب وبر الميسرة التركمان وكان شاليش القلب حسام الدين طرنتاي ومن اضيف اليه والثقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة في يوم الخميس ١٤ رجب وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة من العساكر الاسلامية فهزموا من كان قبالتهم من التتر وركبوا قفاهم يقتلونهم وكان منجوتيمور قبالة القلب فانهم أيضاً وأما ميسرة المسلمين

فانها انكشفت وتم ببعضها الهزيمة وساق التتر في أثرهم ثم علموا بنصرة المسلمين عليهم وهزيمة جيشهم فولوا منهزمين على أعقابهم فنبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ولما وصل خبر هذه الكسرة الى ابا كه خان وهو محاصر الرحبة رحل عنها وكتب بهذا الفتح الى جميع البلاد الاسلامية وسافرت العساكر الى بلادها وسافر السلطان قلاوون الى دمشق والاسرى بين يديه وأما منجوتيمور فانه مات بعد ايام وفر ابا كه خان الى حمدان فسمه أخوه الثالث تيكودار أوغلان وتولى الحكم بعده وأظهر دين الاسلام ولقب بأحمد خان

* فتح حصن المرقب من الصليبيين وغيره *

في شهر ربيع اول سنة ٦٨٤ سار السلطان سيف الدين قلاوون بعساكره المصرية والشامية ونازل حصن المرقب (لجمية القديس يوحنا المعمدان) وهو في غاية العلو والحصانة لم يطمع أحد من الملوك قبله في فتحه فلما زحف العسكر عليه أخذ الحجارون يتقبون فيه ونصبت عليه عدة منجنقات ولما تمكنت القلوب من أسوار القلعة طلب أهله الامان فاجابهم على ان يخرجوا بما يقدرون على حمله غير السلاح وتسلمه في يوم الجمعة ١٩ منه ونصبت الاعلام الاسلامية باعلاء وكان يوماً مشهوداً وأمر السلطان بحمل أهل حصن المرقب الى مأمنهم ثم قرر أمر الحصن ورحل عنه

وفي سنة ٦٨٥ أرسل السلطان قلاوون نائب سلطنته حسام الدين طرناي الى الكرك فحاصرها وتسلمها بالامان وعاد معه أصحاب الكرك جمال الدين خضر وبدر الدين سلامش أولاد الملك الظاهر بيبرس فاقاما بمصر مدة ثم اعثلها

وفي سنة ٦٨٦ أرسل السلطان قلاوون حسام الدين المذكور الى قلعة صهيون فحاصرها ونصب عليها المنجنقات وضايقها فاجابه صاحبها سنقر الاشقر الى تسليمها بالامان في ربيع اول ثم سار طرناي الى اللاذقية وكان بها برج للصليبيين يحيط به البحر فحاصر البرج وتسلمه بالامان وهدمه ثم سار الى مصر وأرسل أيضاً في هذه السنة السلطان عسكرياً بقيادة علم الدين سنجروري المعروف بالحياط الى النوبة فساروا اليها وغزوها وغنموا وعادوا

وفي سنة ٦٨٧ توفي الملك الصالح علاء الدين علي ابن قلاوون وكان ولي عهده وسلطنته في حياته وكان مرضه بالدوسنطاريا فحزن عليه والده حزناً عظيماً

﴿ تورة الممالك وقتل الرعية ﴾*

وتمرد الممالك ونبذوا الطاعة فغضب السلطان عليهم غضباً اعمى بصره حتى لم يعد يميز المجرم من البريء فساق الجميع بعضا واحداً وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام متوالية حتى غصت الاسواق بجثثهم رجالا ونساء وأولاداً . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخفون من غيظه ويبنون له وجه عسفه فأنبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش فندماً لامتزيد عليه وتكفيراً لذلك أمر ببناء البنايات والتكايا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام ومن أجل ذلك أيضاً بنا ابنه الملك الناصر المستشفى الشهير المعروف بالبيارستان . وكان الممالك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم فامر قلاوون أن يغير الممالك ملابسهم فنعهم من استعمال الوشي والزينة بالذهب وعن الضفائر الطويلة التي كانوا يجعلونها في اكياس من حرير وجعل حالتهم من اللباس وغيره كما تقتضيه حالة رجال الحرب

﴿ فتح طرابلس من الصليبيين ﴾*

بعد وفاة ولده الصالح علاء الدين علي وحزنه عليه أمر بتجهيز حملة لافتح طرابلس من يد الصليبيين تسلياً له عن هواجسه فسار بعساكره في محرم سنة ٦٨٨ الى ان وصل الى مدينة طرابلس فنازلها ونصب عليها عدة من جنيقات ولازمها بالحصار واشتد عليها بالقتال حتى فتحها يوم الثلاثاء ٤ ربيع آخر ودخلتها العسكر عنوة فهرب أهلها الى المينا فنجا بعضهم في المراكب وقتل أكثرهم وسيت ذراريهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة وكان في البحر قريبان طرابلس جزيرة يقطنها كثير من الصليبيين فاقبحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم الى الجزيرة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا جميع ما بها من النساء والاولاد

﴿ وفاة الملك المنصور قلاوون وأثاره ﴾*

بعد فتح طرابلس عاد الملك المنصور قلاوون الى الديار المصرية فجاهه وفد من قبل ملك ارغون الفونس عقد معه معاهدة في ١٣ ربيع أول سنة ٦٨٩ . ثم عزم على فتح مدينة عكا من الصليبيين . غير ان كل ذلك لم يكن يشغله عن أحزانه وما زال كئيباً فاتاه مرض في العشر الاخير من شوال فتوفي يوم السبت ٦ القعدة سنة ٦٨٩ فاحتفل بجزائه احتفالاً حضره جمع غفير من جهادية وملكية وشيعوه الى البيارستان حيث واروه التراب ولا يزال مقامه هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمه

١١ سنة و ٣ أشهر و ٦ أيام

ومن أناره الباقية الى هذا اليوم جامعه الشمير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء
البيارستان الذي يشاهده المار في شارع النحاسين تجاه جامع الصالح نجم الدين أيوب
بعد ان يتجاوز خان الخليلي ولا تزال هذه الابنية رشحاً عن تكرار السنين قوينة العماد
تتجلى فيها العظمة والقوة ومهارة الصناعات الا البيارستان فانه أصبح أقرب الى الاثر
من العين . وفي مقام هذا السلطان مثل ما في غيره جماعات من النساء والاطفال هم في
الغالب من ذوي الامراض جاءوا يطلبون الشفاء وهم يأتون في أيام السبت وهم
في ذلك أساليب مختلفة فبعضهم يضع الطفل المريض تحت المحراب ويجلس مصلياً
وبعضهم يأتي بشيء من الليمون ويعصره على حجر هناك ثم ياحسه بلسانه طلباً للشفاء
ومن أعماله ميدانه الذي عرف بالميدان السلطاني جعله في موضع بستان الحشاش حيث
موردة البلاط وكان يتردد اليه كثيراً ولا يمر عليه من قلعة الجبل حتى يركب قناطر
السباع فتضرر من علوها وقال لمن حوله اني عندما أركب الى الميدان وأمر بهذه
القناطر يتألم ظهري من علوها وأشاع بعضهم انه أراد بالحقيقة نزع آثار من كان قبله
ليبقى الفخر له فامر بهدمها جميعها وبنائها ثانية فبنيت ولكن السباع لم توضع عليها
فغند ما رأى السلطان ذلك أمر باعادتها فاعيدت السباع الى أماكنها . ومما يحكى عنه
انه كان يجعل في بناياته أماكن مخصوصة يضع فيها الجبوب طعاماً للطيور . وكان
قلاوون سبباً لاخراج السلطنة من يد نسله كما كان الملك الصالح نجم الدين الايوبي
باستكثاره من المماليك الشراكية حتى جمع منهم نحواً من ١٢ الفاً جعل منهم بطانته
وكان يلقب بعضهم بالانفي أي المتباع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك

﴿ سلطنة الملك الاشرف ﴾ *

وتولى السلطنة بعد قلاوون ابنه البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف
وكان جلوسه في ٧ القعدة سنة ٦٨٩ ثم قبض على حسام الدين طرناي نائب
السلطنة وفوض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيدرا والوزارة الى شمس الدين
محمد بن السلقوس

﴿ في فتح عكا وانقراض الصليبيين ﴾

وفي سنة ٦٩٠ سار الملك الاشرف بالعساكر المصرية قاصداً عكا وارسل الى
العساكر الشامية وأمرهم بالحضور ومعهم المنتخبات فتوجه الملك المظفر صاحب

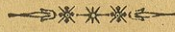
حاه وعم الملك الافضل وعسكرهم الى حصن الاكراد وتسلموا منه المنجنقات
 وكان هناك منجنق عظيم يسمى المنصوري حمل مائة عجلة ثم ساروا الى ان وصلوا
 عكا فترزت العساكر الاسلامية عليها (على عكا) في اوائل جماد الاولى واشتد
 عليها القتال ولم يعلق الصليبيون غالب ابوابها بل كانت مفتوحة وهم يقاتلون فيها
 فحاصر المسلمون المدينة ونصبوا عليها المنجنقات وفي بعض الليالي خرج الصليبيون
 وكبسوا المسلمين فتكأر عليهم المسلمون فولى الصليبيون منهزمين الى البلد
 واشتدت مضايقة المسلمين لهما حتى فتحوها عنوة في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر
 بالسيف ولما فتحها المسلمون هرب جماعة من اهلها بالمرابك وغنم المسلمون من عكا
 شيئاً يفوق الحصر من كثرته ثم استنزل السلطان من تحصن بالابراج من الصليبيين
 وقتلهم ثم امر بهدم مدينة عكا ومن غرائب الاتفاق ان الصليبيين استولوا على عكا
 من السلطان صلاح الدين الايوبي في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر سنة ٥٨٧ هـ
 وقتلوا من بها فقدر الله عز وجل ان المسلمين يفتحونها في يوم الجمعة ١٧ جمادى
 الآخر سنة ٦٩٠ على يد السلطان الملك الاشرف صلاح الدين وقتل من فيها
 فكان التاريخان مثل بعضهما كذلك لقب السلطانين . ولما فتحت عكا التى الله
 الرعب في قلوب جميع الصليبيين الذين بساحل الشام فاخلوا صيدا وبيروت وتسلمها
 الشجاعي في اواخر رجب وكذلك هرب اهل مدينة صور فتسلمها السلطان ثم
 تسلم عثيث في مستهل شعبان وفي هـ منه تسلم طرسوس واتفق لهذا السلطان من
 السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد الصليبية بغير قتال وتكاملت بهذه
 الفتوحات جميع البلاد الساحلية وانقرضت دولة الصليبيين من الشام والسواحل بعد
 ان كانوا قد اشرفوا على أخذ الديار المصرية فله الحمد والمنه

(انتهى)



﴿ الحمد لله أولاً وآخراً ﴾

بعون الله وحسن توفيقه قد تم طبع هذا الكتاب النفيس والسفر الجليل . الذي جمع
من شتات الحروب الصليبية ما تفرق . ووعى ما عبثت به يد التبديل فكادان يتمزق .
ولا غرو فهو اول كتاب وضع في العربية موضعاً اسماء من ورد ذكرهم في تلك
الحروب بالضبط الشافي . والاعتناء الكافي . حتى جاء جليلا في الوضع جميلا بالطبع .
لم ينسج له على منوال . ولم يسبق بمثال . تأليف حضرة الكاتب الاديب .
والمنشيء الاريب . سيد افندي علي الحريري . حيث طرزها احسن تطريز .
وجاء فيه بكل نادر عزيز . مرموقا بنظر صاحب السعادة
والاقبال . والفخر والجلال . ذي المجد الباذخ . والشرف المؤمل
الشاخ . من له الفضل الاعم . سعادتو عبد السلام باشا
المويلحي الانخم . شكر الله مسعاه الجليل . وجزاه
عن اهل الادب الجزاء الجميل . وقد بزغ
بالطبع بدر تمامه . وفاح مسك حتامه .
بالمطبعة العمومية . بمصر المحمية . في
اوائل رجب سنة ثلاثمائة وسبعة
عشر بعد الالف هجرية .
على صاحبها ازكى
السلام وابهى
التحية .



﴿ اعتذار ﴾

من ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلا ان تعد معائبه
وقعت سهواً بعض غامطات مطبعية في كتابنا هذا لا تخفى على الادباء فترجو ممن
يقع نظره على شيء من ذلك ان يسبل عليه ستر المعذرة فان العذر عند كرام الناس
مقبول

وان تجدد عيباً فسد الخلا فجل من لا عيب فيه وعلا

﴿ فهرست ﴾

﴿ كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية ﴾

	صفحة
المقدمة	٢
أسباب الحروب الصليبية	٤
مؤتمر مدينة بلاصانس بايطاليا	٥
مؤتمر مدينة كليرمون بفرانسا	٥
الحروب الصليبية الاولى	٨
دخول الصليبيين آسيا وهلاك هذه الجيوش في نيقية	٩
الحملة الثانية من الحروب الصليبية الاولى	٩
ما جرى للصليبيين في القسطنطينية	١٠
الصليبيون في آسيا واستيلاؤهم على قونية	١٢
وصول الصليبيين الى طرسوس واختلافهم	١٥
اخبار بودوين علي شطوط نهر الفرات	١٧
محاصرة الصليبيين انطاكية وامتلاكها	١٧
محاصرة المسلمين انطاكية وظهور الحربة المقدسة	٢٠
مسير الصليبيين من انطاكية قاصدين بيت المقدس	٢٢
محاصرة الصليبيين لبيت المقدس واستيلاؤهم عليه	٢٣
واقعة عسقلان وانتصار الصليبيين فيها	٢٥
انتهاء الحروب الصليبية الاولى وسفرهم الى اوطانهم	٢٦
الحروب الصليبية الجديدة	٢٦
محاصرة غودافرو مدينة ارسور	٢٨
اجتماع الامراء الصليبيين بالقدس وانتخاب قانون لحكومتها	٢٨
موت غودافرو سلطان القدس	٢٩
انتخاب بودوين سلطاناً للقدس	٢٩
خلافة الأمر بأحكام الله وواقعة عسقلان	٣٠

بوهيموند أمير انطاكية وما جرى له	٣١
استيلاء الافرنج على عكا	٣٢
محاصرة مدينة طرابلس	٣٣
باقي ولاية بودوين الاول على القدس	٣٤
جمعيات الرهبان الصليبيين	٣٥
في ولاية بودوين الثاني	٣٦
وفاة الامام المستظهر بالله العباسي وخلافة ولده المسترشد بالله	٣٦
واقعة ايلغازي مع الصليبيين بحدود انطاكية	٣٧
قتل الافضل بن بدر الجمالي وزير مصر	٣٨
محاربة بلك بن بهرام مع جوسلين أمير الرها وأسره	٣٩
محاربة بلك مع بغدوين ملك القدس وأسره	٣٩
ورود اهل البندقية للاشتراك مع الصليبيين	٤٠
استيلاء الصليبيين على مدينة صور	٤٠
محاصرة الصليبيين لمدينة حلب واستيلاء البرسقي عليها	٤١
في خلوص بودوين الثاني ملك القدس من الاسر	٤٢
استيلاء البرسقي على كفر طاب	٤٢
قتل المأمون بن البطاحي وزير خليفة مصر الأمر	٤٣
أخبار الاماعيليين وامتلاكهم قلعة بانياس	٤٣
محاربة طغتكين اتابك مع بودوين الثاني	٤٤
في الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله العباسي والسلطان محمود	٤٤
وفاة عز الدين البرسقي وولاية عماد الدين زنكي الموصل ومحاصرة الصليبيين حلب	٤٦
قتل الاماعيلية بدمشق واتحادهم بالافرنج	٤٧
محاصرة الصليبيين دمشق وانهزامهم	٤٨
فتح عماد الدين زنكي حصن الأتاب و محاصرة قلعة حارم	٤٨
وفاة الأمر بأحكام الله وخلافة الحافظ لدين الله بمصر	٤٠
وفاة جوسلين صاحب الرها	٥٠
وفاة بودوين الثاني ملك القدس	٥٠

٥٠	في تملك فولك دي الينو على القدس
٥١	وفاة السلطان محمود
٥١	استيلاء شمس الملوك على بانياس
٥١	محاربة فولك ملك القدس نائب حلب
٥٢	استيلاء شمس الملوك على حصن شقيف تيرون ونهبه بلاد الافرنج
٥٢	قتل الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله
٥٣	غزو العساكر الاتاكيه بلاد الافرنج
٥٣	خلع الخليفة الراشد بالله وخلافة المقتفي لامر الله
٥٤	استيلاء المسلمين على حصن وادي بن الاحمر
٥٤	استيلاء زنكي على قلعة بعرين
٥٥	في مسير ملك الروم يوحنا كومنينوس الى بلاد الشام
٥٧	محاصرة زنكي دمشق واستيلاء الافرنج على بانياس
٥٨	وفاة فولك ملك القدس وتولية ولده بودوين الثالث
٥٨	فتح زنكي مدينة الرها والبلاد الجزرية
٥٩	قتل اتابك عماد الدين زنكي وتولية اولاده
٦٠	عصيان أهل الرها واستيلاء نور الدين عليها
٦١	ابتداء الحروب الصليبية الثانية
٥	طلب الصليبيين النجدة من البابا ومن ملوك أوروبا
٦١	جمعية فينزالي بفرانسا
٦٣	مخريض الملك كونراد ملك المانيا باتحاده مع الصليبيين
٦٣	جمعية مدينة اناميس بفرانسا والاستعداد لسفر الصليبيين
٦٤	سفر الصليبيين واجتماعهم بالقسطنطينية
٦٤	اخبار الصليبيين في القسطنطينية
٦٥	مسير العساكر النمساوية والالمانية
٦٦	سفر العساكر الفرنساوية
٦٧	المشورة بالحروب الصليبية الثانية
٦٨	محاصرة الصليبيين مدينة دمشق

صفحة	
٦٩	استيلاء نور الدين على حصن العزيمة
٧٠	انهزام الافرنج بيغري
٧٠	قتل رايوند صاحب انطاكية
٧١	وفاة الحافظ لدين الله خليفة مصر وولاية الظافر بامر الله
٧١	أسر جوسلين
٧٢	قتل ابن السلار وزير الخليفة الظافر ووزارة عباس
٧٣	امتلاك الصليبيين مدينة عسقلان
٧٤	استيلاء نور الدين على مدينة دمشق
٧٥	قتل الخليفة انظافر وولاية ابنه الفائر
٧٦	محاصرة نور الدين حصن حارم
٧٧	انتصار العساكر النورية على الافرنج
٧٨	محاربة المصريين غزة وعسقلان
٧٩	وفاة الخليفة الفائر بنصر الله وولاية العاضد لدين الله العلوي
٧٩	وفاة الخليفة المقتفي لامر الله العباسي وخلافة المستنجد بالله
٨٠	تأريخ جامع سيدنا الحسين رضي الله عنه
٨١	قتل الصالح بن رزيق وزير مصر
٨٢	وفاة بودوين الثالث وولاية أخيه أموري
٨٢	وزارة شاور ووزارة ضرغام بعده
٨٣	في دخول أسد الدين شيركوه مصر أول مرة
٨٥	فتح حارم
٨٦	فتح بانياس
٨٧	في دخول أسد الدين شيركوه مصر المرة الثانية
٨٨	محاربة أسد الدين شيركوه المصريين والصليبيين
٨٩	استيلاء أسد الدين على الاسكندرية ومحاربة المصريين والصليبيين
٩٠	في رجوع أسد الدين والصليبيين من مصر
٩١	في محاربة نور الدين بلاد الافرنج
٩١	في تجهيز الملك أموري عسكره للاستيلاء على الديار المصرية

	صفحة
استيلاء الصليبيين على بلبس	٩٢
محاربة الصليبيين مدينة القاهرة	٩٢
دخول أسد الدين شيركوه مصر ثالث مرة	٩٣
قتل شاور ووزارة أسد الدين شيركوه	٩٤
حكيم الملك المنصور أسد الدين شيركوه ووفاته	٩٦
وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف	٩٧
قتل جوهر مؤتمن الخلافة وواقعة العيد	٩٩
محاصرة الصليبيين ثغر دمياط	١٠١
مسير نجم الدين أيوب وباقي عائلته الى مصر	١٠٣
محاربة نور الدين حصن السكر والزلزلة الكبرى	١٠٤
محاربة صلاح الدين بلاد الصليبيين	١٠٤
وفاة الخليفة المستنجد بالله وخلافة المستضيء بأمر الله	١٠٥
وفاة الخليفة العاضد لدين الله بمصر والخطبة فيها لبني العباس	١٠٥
محاربة نور الدين الصليبيين بناحية حصن عرقه وغيره	١٠٨
بريد الحمام	١٠٨
التفور بين صلاح الدين ونور الدين	١٠٩
محاربة نور الدين وصلاح الدين الصليبيين	١١٠
قتح بلاد التوبة	١١١
وفاة نجم الدين أيوب وبعض سيرته	١١٢
استيلاء بهاء الدين قراقوش على طرابلس الغرب وغيرها	١١٤
استيلاء شمس الدولة تورانشاه على بلاد اليمن	١١٥
ظهور المؤامرة وصلب اعضائها	١١٥
وفاة الملك العادل محمود آتابك نور الدين	١١٦
حصار الصليبيين حصن بانياس وعودهم عنه	١١٨
وفاة الملك أموري وتولية ابنه الملك الابرس	١١٨
ورود اسطول جزيرة صقلية ومحاصرة الاسكندرية	١١٩
واقعة الكنز وقتله	١٢٠

	صفحة
عزم صلاح الدين على المسير الى بلاد سوريا	١٢٠
حكم قراقوش وبناء القلعة والصور وغيرهم	١٢١
مسير الملك الناصر صلاح الدين الى سوريا واستيلاءه على دمشق وغيرها	١٢٣
في استقلال صلاح الدين بالملك وسلطته	١٢٦
حرب السلطان مع المواصلة وهدنة الصليبيين	١٢٧
ماجرى للسلطان مع الحشيشيين	١٢٨
استيلاء تورانشاه على حضرموت واستيلاء قراقوش على بعض بلاد الغرب	١٢٩
حصار حلب وحرب الاسماعيلية	١٣٠
تقوية اسطول مصر وبعض فتوحات	١٣١
حرب السلطان مع الصليبيين وواقعة الرملة	١٣١
محاربة الصليبيين حماء وحارم ورجوعهم الى بلادهم	١٣٢
مسير السلطان صلاح الدين الى سوريا ومحاربة الصليبيين	١٣٣
محاربة الصليبيين بمرج عيون وانتصار الاسطول المصري	١٣٣
تخريب حصن بيت الاحزان	١٣٤
محاربة الاسطول المصري ميناء عكا	١٣٥
وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله	١٣٦
محاربة السلطان بلاد الارمن	١٣٦
وفاة شمس الدولة وورود التشریف للسلطان ورجوعه الى مصر	١٣٧
محاربة عز الدين فرخشاه رانود صاحب الكرك	١٣٨
وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين	١٣٨
في سفر السلطان صلاح الدين الى الشام ومحاربة الصليبيين	١٣٩
محاصرة بيروت براً وبحراً ومسير السلطان الى الموصل	١٣٠
الصليبيون في البحر الاحمر او بحر القلزم وهلاكهم	١٤٠
استيلاء السلطان على حلب	١٤١
في تنازل بودوين الرابع وولاية بودوين الخامس	١٤١
مناوشات الصليبيين مع العساكر الاسلامية	١٤٢
محاصرة الكرك ودخول السلطان بلاد الصليبيين	١٤٢

	صفحة
مرض السلطان وصلحه مع عزه الدين صاحب الموصل	١٤٣
وفاة بودوين الخامس وولاية غوي دي لوزينانا	١٤٣
حساب المنتجمين بخراب الكون	١٤٤
اختلاف الصليبيين وانجيز رايموند الى السلطان صلاح الدين	١٤٥
غدر رانود صاحب الكرك بالهدنة	١٤٥
واقعة صفورية وحصار الكرك	١٤٥
فتح طبرية ومجلس مشورة الصليبيين	١٤٦
واقعة حطين وأخذ المسلمين صليب الصلبوت	١٤٧
أخذ قلعة طبرية	١٤٩
فتح عكا وغيرها من الحصون	١٤٩
فتح تبين وصيدا وجبيل وبيروت	١٥٠
فتح عسقلان وما يجاورها من البلاد والحصون	١٥١
فتح البيت المقدس شرفه الله	١٥٢
اظهار محراب المسجد الاقصى والصخرة المقدسة ومحراب داود	١٥٦
أول خطبة بالمسجد الاقصى بعد فتحه	١٥٧
حصار مدينة صور وفتح هونين	١٦١
في التحريض على طلب الحروب الصليبية الثالثة	١٦٣
صالح فرانسوا وانكلترا وتحريضهم على الحروب الصليبية	١٦٤
ضريبة العشور للحروب الصليبية الثالثة	١٦٥
موت ملك الانكليز وتولية ولده ريكاردوس وذبح اليهود	١٦٥
التحريض على الحروب الصليبية ببلاد النمسا	١٦٦
في اتحاد فرانسوا وانكلترا للمسير الى سوريا	١٦٧
حصار حصن كوكب وفتح بعض البلاد	١٦٧
فتح جبلة واللاذقية وغيرها وخبر اسطول صقلية	١٦٨
فتح حصن صهيون وغيره من الحصون	١٦٩
فتح بكاس والشغر والسمرمانية وبرزية	١٧٠
فتح حصن دربساك وحصن بغراس	١٧١

	صفحة
الهدنة ورجوع السلطان عن انطاكية وفتح الكرك وصفد وكوكب	١٧٢
في بناء استحكامات عكا وحصار شقيف ارتون	١٧٣
مناوشات بين الصليبيين وعساكر المسلمين	١٧٤
محاصرة الصليبيين عكا ومحاربتهم ومصارعة الصبيان	١٧٦
ورود المدد للصليبيين وواقعة عكا الكبرى	١٧٩
وصول العساكر انصرية والاسطول المصري وهجوم الصليبيين على اليزك	١٨٢
احراق ابراج الصليبيين وواقعة الاسطول	١٨٢
الحروب الصليبية الثالثة	١٨٤
سفر ملك النمسا والمانيا الى فلسطين وما جرى له ووفاته	١٨٤
الواقعة العادية على عكا بين الصليبيين والمسلمين	١٨٦
حصار عكا من البحر ودخول الزاد اليها قهراً	١٨٧
احراق منجنيقات الصليبيين ومراكبهم واداء الامانة بعد الموت	١٨٩
واقعات الدبابات والخطق وانكسارهم	١٩٠
في دخول البديل العسكري عكا	١٩١
سفر العساكر الصليبية الثالثة في البحر وما جرى لملك الانكليز بسيسيليا وقبرص وزواجه	١٩٢
وصول الصليبيين الى عكا ومحاصرتهم لها وقتل بعض امراءهم	١٩٣
طلب الصلح ودخول الصليبيين عكا	١٩٥
رمى علم النمسا في الخندق وسفر ملك فرنسا الى بلاده	١٩٨
سفر ريكاردوس من عكا وواقعة ارسوف وتخریب عسقلان	١٩٨
في وقوع ريكاردوس في الاسر ونجاته وعرض زواج أخته جوانا بالملك العادل	٢٠١
مراسلة ريكاردوس لصلاح الدين بالصلح وما جرى به ذلك وتعمير بيت المقدس	٢٠٢
بناء الصليبيين مدينة عسقلان وما جرى في أثناء ذلك وغضب بعضهم	٢٠٣
في عزم ريكاردوس على السفر الى بلاده وموت كوزاد صاحب صور وغيره	٢٠٤
في تقرب الصليبيين الى القدس ورجوعهم عنه بقرار مجلس مشورتهم وما فعله السلطان	٢٠٥

	صفحة
استيلاء السلطان على يافا ومحاربة ريكاردوس	٢٠٨
في مرض ريكاردوس والهدنة بينه وبين السلطان	٢٠٩
اتهاء الحروب الصليبية الثالثة	٢١٠
سفر ريكاردوس ووقوعه في الاسر ببلاد النمسا	٢١١
في التفتيش على ريكاردوس ووجوده في السجن ونقله الى سجن آخر	٢١٢
محاكمة ريكاردوس ظلما واطلاقه من الاسر	٢١٢
سفر السلطان الى دمشق بعد الهدنة وعزمه على الحج	٢١٣
مرض السلطان صلاح الدين ووفاته	٢١٤
تقسيم مملكة صلاح الدين على اولاده وما جرى في أثناء الهدنة	٢١٥
استيلاء الملك العادل على دمشق	٢١٧
ابتداء الحروب الصليبية الرابعة	٢١٧
تحرير البابا وسفر العساكر الصليبية الرابعة	٢١٧
وصول الصليبيين الى عكا واستيلاء المسلمين على يافا واخذ الصليبيين بيروت	٢١٨
مسير القسم الثالث من الجيوش الصليبية الرابعة	٢١٩
حصار حصن تينين ووقوع الصليبيين على اعقابهم	٢٢٠
وفاة الملك هنريكوس السادس وتعيين الملك اموري على فلسطين وانتهاء الحروب الصليبية الرابعة	٢٢١
وفاة العزيز صاحب مصر وتولية ابنه المنصور وما جرى للافضل	٢٢١
خلع الملك المنصور وسلطنة الملك العادل على مصر وسوريا	٢٢٣
الحروب الصليبية الخامسة	٢٢٣
تحرير البابا اينوشانسوس الثالث على الحروب الصليبية	٢٢٣
سفر العساكر الصليبية الخامسة واتحادهم مع مشيخة البندقية	٢٢٤
محاربة الصليبيين مدينة زارا والقسطنطينية وغيرها	٢٢٥
ثورة القسطنطينية وامتلاك الصليبيين لها	٢٢٧
تسوية بودوين على القسطنطينية وما جرى للصليبيين بها وانتهاء الحروب الصليبية الخامسة	٢٢٨

مناوشة الصليبيين والملك العادل	٢٢٨
موت الملك اموري صاحب عكا وتعيين خلفه والتحريض على الحروب الصليبية السادسة	٢٢٩
ابتداء الحروب الصليبية السادسة	٢٢٩
التحريض على الحروب الصليبية السادسة والصليبيون القتيان ومؤتمر رومية	٢٢٩
سفر العساكر الصليبية السادسة	٢٣٠
محاربة الصليبيين مع الملك العادل وسفرهم الى مصر وسفر ملك هونكريا وقدم صليبيين آخرين	٢٣١
محاصرة الصليبيين لمدينة دمياط	٢٣٢
وفاة الملك العادل	٢٣٣
محاربة الصليبيين بارض دمياط ودخولهم حتى اشمون طنح واخذ ثورة المسلمين	٢٣٣
قدوم نجدة للصليبيين بقيادة بيلاجيوس وهدم سور البيت المقدس	٢٣٥
تشديد الحصار على دمياط واستيلاء الصليبيين عليها	٢٣٥
في شقاق الصليبيين وبناء مدينة المنصورة	٢٣٧
ما جرى للصليبيين بعد ذلك واستيلاء المسلمين على دمياط	٢٣٧
ما جرى للملك فريديكوس الثاني باوروبا واستيلائه على القدس صلحاً	٢٣٩
ذكر خلفاء المسلمين	٢٤١
مؤتمر مدينة سبولاته	٢٤١
باقي سلطنة الكامل ووفاته وسلطنة ولده العادل	٢٤٢
في سجن الملك الصالح نجم الدين أيوب	٢٤٣
استيلاء المسلمين على القدس وما جرى للبابا وفريديكوس	٢٤٣
سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر وخلافة المستعصم	٢٤٤
محاربة الصليبيين بغزة ورجوعهم الى بلادهم	٢٤٥
محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب وسجن بيبس	٢٤٥
النتز باوروبا ومؤتمر ليون بفرانسا	٢٤٧
ابتداء الحروب الصليبية السابعة	٢٤٨
سفر العساكر الصليبية السابعة	٢٤٨

صفحة	
٢٤٩	وصول الصليبيين الى دمياط ومخبرتهم للملك الصالح أيوب
٢٥٠	في امتلاك الصليبيين دمياط
٢٥١	استيلاء الملك الصالح على الكرك ووفاته
٢٥٢	معاربات الصليبيين وواقعة المنصورة
٢٥٣	قدوم المعظم تورانشاه وسلطنته وواقعة الصليبيين وأسْر لويس التاسع وغيره
٢٥٣	قتل المعظم وسلطنة شجرة الدر واطلاق الملك لويس التاسع
٢٥٥	الملك لويس بمكا وسلطنة ايبك الجاشنكير
٢٥٥	سفر أخوات الملك لويس الى فرانسوا وسلطنة الملك الاشرف بن يوسف
٢٥٦	حروب بين المماليك والسوريين واتحادهم مع الملك لويس وتخريب دمياط
٢٥٧	طلب الملك لويس التاسع النجدة من اوروبا ووفاة الاشرف بن يوسف
٢٥٨	انتهاء الحروب الصليبية السابعة
٢٥٨	وفاة ايبك الجاشنكير وسلطنة ولده نور الدين
٢٥٩	استيلاء النثر على بغداد واقراض الدولة العباسية
٢٦٠	سلطنة المظفر سيف الدين قطوز وانتصار المصريين على التتر
٢٦١	قتل الملك المظفر وسلطنة الظاهر بيبرس البندقداري
٢٦٣	انتقال الخلافة العباسية الى الديار المصرية
٢٦٤	فتوحات الملك الظاهر بيبرس ووفاة المستنصر وخلافة الحاكم بامرالله
٢٦٥	معاربات الظاهر بيبرس مع الصليبيين بسوريا
٢٦٥	اصلاحات الملك الظاهر بيبرس
٢٦٦	فتوحات الظاهر بيبرس ببلاد الصليبيين بسوريا
٢٦٧	حجج الملك الظاهر بيبرس
٢٦٧	الحروب الصليبية الثامنة
٢٦٧	في التحريض على الحروب الصليبية الثامنة
٢٦٨	تجهيز العساكر الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا
٢٦٩	سفر العساكر الصليبية الثامنة
٢٦٩	وصول الصليبيين الى تونس ومحاصرتها
٢٧٠	معاربات الصليبيين ووفاة الملك لويس التاسع

اعلان

﴿ كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية ﴾

بعون الله قد تم طبع هذا الكتاب وهو أول كتاب أنشئ في اللغة العربية جامعاً لشتات الثمانية حروب صليبية من سنة ٤٩٠ هـ أي من دخول الصليبيين سوريا واستيلائهم على بلاد الشام لغاية سنة ٦٩٠ هـ أي لغاية انقراض الصليبيين من سوريا وتوضيح أسباب الحروب ونتائجها وتحريضات البابوات وتاريخ ملوك الاسلام وحروباتهم مع الصليبيين مثل السلطان صلاح الدين الايوبي ومحاربهه الملك الانكليزي ريكاردوس الملقب بقلب الاسد والملك العادل وابنه الكامل والصلاح نجم الدين ايوب وأسر لويس التاسع ملك فرانسوا والسلطان الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وهو كبير الحجم يحتوي على ٣٠٠ صحيفة وثمنه كما يأتي بخلاف أجرة البريد وهي قرشين صاغ

١٥ صاغ مغلف تغليفاً حسناً

٢٠ « ١٧ مجلد تجليد بيروتي جميلاً

١٩ « مجلد تجليد أفرنكي مذهب

فمن أراد الحصول عليه فليرسل قيمته لنا بمنزلة نمرة ٧ بعطفة المطبعة بقنطرة الامير حسين بمصر أو بمنزل سعادتو افندم عبد السلام باشا المويلحي أو بمخبر المعلم حسن شداد بشارع محمد علي ٠ ويباع أيضاً بالمجلات الآتية

بالمطبعة العمومية الكائنه بشارع عبد العزيز بمصر

بمكتبة الترقى « « « « «

بدار البقالة المصرية بالعباسية

بمكان عبد السلام افندي الصي البنان بالسكة الجديده

بمكان الاوسطى حساين علي الشريف الترزي بالحزاوي كاتبه

سيد علي الحريري



96

300

893.712
H225

JAN 7 1963

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU07841515